

المقالة في ليبيا

نشأتها وتطورها

خلال العهد العثماني الثاني

١٨٣٥ - ١٩١١





منشورات
جامعة قاريونس
بنغازي

إهداء

إلى امرأتين... لولاهما: وهبتني الحياة...
وعلمتني أن الصبر والمثابرة هما الطريق إلى
الغاية، لكنها لم تنتظر حتى ترى ثمرة غرسها
فرحلت...
ومنها تعلمت أن العطاء أنبل غاية.
وأخراهما: أظلت حياتي برفيف أجنحة المودة...
فطوت صفحة الآلام، أنارت أمامي دروبا
ما كنت أحسب أني مرتادها لولاها...
إليهما،
إلى والدتي، وزوجتي، أهدي هذا الجهد.

أحمد عمران

المقدمة

اتجهت معظم الدراسات الأدبية في ليبيا إلى دراسة الشّعر فحظي بالتحليل والتقييم ، وقلّ حظّ النثر من هذه الدراسات ، فرأيت أن أسهم مع من سبقني في بناء صرح الأدب في هذا الجزء من الوطن العربي الكبير ، واخترت المقالة ميداناً لدراستي هذه .

وكنت أُزمع تتبّع المقالة منذ ولادتها في ليبيا حتى نهاية الحرب الكونية الثانية ، غير أن غزارة المادّة العلميّة جعلتني أقصر البحث على الفترة العثمانية فحسب .

ومن الدوافع التي دفعتني قدماً إلى الخوض في معترك البحث والتنقيب خلوّ هذا الميدان من الدراسات التحليلية ، فقد ركن الروّاد الأوائل في هذا المجال إلى الاحتماء بظلال الوصف ، وهي مرحلة تقتضيها طبيعة الابحاث في خطواتها الأولى ، فكان ما يكتب عن الأدب في ليبيا يميل إلى العرض الأفقي الذي يلقي أضواء تهدي إلى الطريق ، لكنّها لا تكفي للرؤية الواضحة .

ولقد حرصت الحرص كلّه على أن أنطلق في جميع أحكامي من خلال ما بين يديّ من نصوص المقالة دون غيرها ، توخياً للاستقلال في البحث والاستنتاج ، وابتعاداً عن توارث آراء السّابقين ، حتى إذا محّصت الرأي فيا وافق استخلاصي استأنست به ، وما جانبه ناقشته بتجرد وموضوعيّة .

وانتهجت في هذه الدّارسة منهجاً زاوجت فيه بين أصول البحث الأدبي ، وشيء من أصول المناهج الكمية ، فاعتمدت الإحصاء منطلقاً في أحكامي ، واستهديت الخطوط البيانية ، واللوحات الإيضاحية في مساري .

وحيث إنّ المقالة لم تُعرف في ليبيا إلا بعد ظهور الصحافة ، فقد قسّمت الدّراسة إلى فترات ثلاث ، تبعاً للدائرة الصحفية :

ــ الأولى : من سنة 1866 إلى 1897م ، وفيها صدرت طرابلس الغرب وحدها .

ــ الثانية: من سنة 1897 إلى 1908، وفيها صدرت التّرقي، ومجلة الفنون إلى جانب طرابلس الغرب .

ــ الثالثة : من سنة 1908 م إلى 1911م، وفيها صدرت الترقي ، والكشاف ، والعصر الجديد ،وأبو قِشّة ، والمرصاد ، والرّقيب، إلى جانب طرابلس الغرب .

ويقع هذا البحث في مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، نعرض في الفصل الأوّل إلى فنّ المقالة ، ونستعرض من خلاله مفهوم المقالة والجذور التاريخية لها ، ثم نشأتها عند العرب قديماً ، حتى نصل إلى فنّ المقالة عند العرب في العصر الحديث .

ونعرض في الفصل الثاني للظروف المحيطة بنشأة المقالة في ليبيا ، متبعين أبرز العلامات المؤثرة في الحياة الثقافية من تعليم وثقافة وصحافة .

وفي الفصل الثالث نتبع ألوان المقالة وأهمّ موضوعاتها متخذين من الإحصاء والتحليل نبراساً نستهدي به إلى بلوغ الغاية المرجوّة .

وفي الفصل الرابع نسلّط الضوء على الأعلام الرواد في ميدان المقالة متبعين أبرز أحداث حياتهم الشخصية والفكرية والأدبية .

وفي الفصل الخامس نتتبّع المقالة في ليبيا في إهابها الفني، فنحلل النصوص بهدف إبراز القيمة الفنّيّة للمقالة من خلال ثلاث ركائز ، هي : هيكل المقالة ، ولغة المقالة ، وأسلوب المقالة .

وفي الخاتمة نوجز أبرز النتائج التي توصّل إليها البحث ، ونذيّله بثبت اشتمل على القاموس اللغوي لألفاظ الصحافة في العهد العثماني ، وجداول إحصائية ترسم التسلسل الموضوعي للمقالة طيلة هذه الفترة ، وفهرست للأعلام الذين ورد ذكرهم في هذه الرسالة .

وحيث إن المصادر الأولى لهذه الدراسة هي مجموعة الصّحف الصادرة في العهد العثماني فسأعتمد عند الإشارة إليها على النّهج التالي : ذكر اسم الصحيفة ، ثم رقم العدد وتاريخ صدوره ، ثم عنوان المقالة ، وذلك إذا كانت الإحالة إلى نصّ مقتبس ، فإذا كانت

إلى فكرة أو استشهاد أشرت إلى ذلك بعبارة (انظر) ، وإذا كانت المقالات بلا عناوين اضطررت إلى وضع عناوين لها ، تسهيلاً للبحث والإشارة ، مثل : طرابلس الغرب العدد 62 ، في 2 شعبان 1384 هـ/1847 م «مسألة إسقاط الأجنّة» .

أما في المصادر والمراجع الأخرى ، فقد اعتمدت ذكر المؤلّف ثم الكتاب ثم معلومات النشر وتبدأ بدار الطباعة ومكانها ثم تاريخها ، ورقم الطبعة ، والجزء ، والصفحة ، فإن عدم شيء من ذلك أهملته دون تنويه ، وإذا كانت الإشارة إلى مصدر أو مرجع لم أقتبس منه نصاً أحلت إليه بعبارة (انظر) ، وإذا تعلّق الأمر بمصدر أو مرجع ـ أحلت إليه (للمزيد من المعلومات حول بعض الأعلام للمعرف بهم ـ أشرت إليه) أيضاً بعبارة (انظر) مع تقديم الكتاب على الكاتب، وعند الإشارة بعبارة (المصدر السابق) فالمقصود الذي ذكر قبله مباشرة ، أما عبارة (مصدر سابق) فتعني أنّ المصدر المقصود قد سبقت الإشارة إليه قريباً .

وفيما يتعلق بالاحالة إلى الموسوعات الاجنبية فقد اقتصرت في هامش الصفحات على رمز مختصر لكل منها كما يلي :

1 — C. BIB. E.L BATESON. F.W.ED. CAMBRIDGE BIBLIOGRAPHY OF ENGLISH LITERATURE. VOL. 11.

2 — P.C.E.L. DAICHES , DAVID , ED. THE PENGUIN COMPANION TO ENGLISH LITERATURE.

3 — ENCY BRIT ENCYCLOPEDIA BRITANNICA , 1960 .

4 — L.E.L.P. LONGMAN'S ENGLISH LAROUSSE . 1968 .

5 — N.C. ENCY THE NEW COLUMBIA ENCYCLOPEDIA . 1975 .

وفي غير ما سلف أحلت إلى كل مرجع أو مصدر بذكره كاملاً في الهامش .

هذا ، وما كنت أجهل صعوبة البحث ، ومكابدة التمحيص ، لكني لم أكن أتصور أني سأطوّف في الآفاق بحثاً عن مصادر هذه الدراسة حتى وصلت منتصف الطريق فلم أجد بداً من التّرحال في سبيل جمع المادة العلمية من مظانها في تركيا ومصر وسوريا وتونس ، فضلاً عن ليبيا ، فسافرت إلى حيث استطعت ، وأنبت البريد حيث لم أستطع ، وقضيت ردحاً من الزمن أبحث عن المعمرين من أعلام الأدب والمتأدبين في ليبيا أحادثهم وأنقل عنهم الكثير ، ثم أنخل وأقارن حتى وصلت إلى ما يسكن هاجس البحث والتنقيب ، ويرضي رقيباً يؤرقه القصور ، فما يني يلقي في روعي الريبة تلو الريبة ، فأفزع إلى أوراقي أثناء الليل أعيد ما أبديت وأنقض ما نسجت ، فلا أنا قانع بما وصلت إليه ، ولا أنا بالغ ما

أريد . وقد وجدت من نصح أستاذي الدكتور محمد الغزالي ما جنبني الكثير ممّا يقع في أمثالي ، فكان المرشد ساعة الغفلة ، وبارق الأمل ، ساعة الخور ، جزاه اللّه عني خير الجزاء .

وقد مدّ يد العون لي فضلاء من أساتذة قسم اللغة العربية ، وإخوان بدار المحفوظات الوطنية أدين لهم بالعرفان ، وأسأل اللّه أن يوفيهم أجورهم .

وبعد ، فهذا جهدي ، وإنه لجهد المقلّ ، فإن وفقت فبفضل من اللّه ، وإن قصرت فحسبي أني بذلت قصارى ما بوسعي ، وما توفيقي إلا باللّه ، عليه توكلت وإليه أنيب .

الفصل الأول

فن المقالة

- مفهوم المقالة
- الجذور التاريخية للمقالة
- نشأة المقالة عند العرب
- المقالة العربية في عصر النهضة

مفهوم المقالة

لا تسعفنا المعاجم اللغوية في إماطة اللثام عن مدلول كلمة «المقالة» إلا بمعنى واحد مشتق من مادة القول ، يقول صاحب[1] أساس البلاغة : «وقوالة : كثير القول ، وسمعت مقاله ومقالته ومقالاتهم وأقاويلهم . .»[2] .

وجاء في اللسان : «يقال ما أحسن قيلك وقولك ومقالتك ومقالك وقالك خمسة أوجه . .»[3] .

وجاء في تاج العروس عن الراغب[4] : «القول يستعمل على أوجه أظهرها أن يكون للمركّب من الحروف المنطوق بها مفرداً كان أو جملة . . وقال قولاً وقيلا وقولة ومقالة ومقالا . .»[5] .

---

(1) محمود بن عمر الزمخشري ، ولد سنة 467هـ ، من علماء الحديث والتفسير واللغة والنحو ، من آثاره : الكشاف ، والمفرد والمركب ، والفائق ، ومعجم الحدود ، توفي سنة 538 هـ ، انظر : نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، لكمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ص 391 .

(2) الزمخشري ، أساس البلاغة ، تحقيق عبد الرحيم محمود ، مطبعة أولاد أورفاند ، القاهرة 1953م ط 1 ص 382 .

(3) ابن منظور : لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، طبعة مصورة عن مطبعة بولاق، القاهرة جـ14 ص 94.

(4) أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المشهور بالراغب الأصفهاني ، أديب من أئمة السنة ، من آثاره: محاضرات الأدباء، والذريعة إلى مكارم الشريعة، كتاب الأخلاق، تفسير القرآن، توفي سنة 502 أو 503 ، انظر : الأعلام للزركلي ط 5 جـ 2 ص 255 .

(5) الزبيدي ، تاج العروس ، دار صادر بيروت ، 1966م جـ 8 فصل القاف من باب اللام .

وتكاد جيع المعاجم العربية التي بين أيدينا تجمع على ما أسلفنا ، غير أننا من خلال استقراء وملاحظة استعمال الأقدمين للفظة «المقالة» نجد أنها تتعاورها عدة مفاهيم ، أبرزها القول الذي يُراد له أن ينتشر ويذيع أمره ، فقد أورد صاحب العقد[1] الفريد عن الكلبي[2] قصة محاورة بين النعمان[3] بن المنذر وكسرى[4] ملك الفرس ، خشي النعمان أن يكون كسرى قد مهّد بما قال خلالها لفكرة يود ذيوعها ، فجمع سراة العرب وخاطبهم قائلاً : « . . وقد سمعت من كسرى مقالات تخوّفت أن يكون لها غور ، أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولاً كبعض طماطمته . .»[5][6] .

وقد أنشد النابغة[7] في إحدى اعتذارياته :

أتـاني أَبَيْت اللَّعْنَ أنَّـكَ لُمْتَـني ... وَتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْها المَسَامِعُ
مقَـالَةَ انْ قَـدْ قُلْتَ سَوْفَ أَنالُهُ ... وَذَلِـكَ مِنْ تِلْقَـاءِ مِثْلِكَ رَائِـعُ[8]

وقال آخر :

تَخبِرِ بَنُو لِهْبٍ فَـلاَ تَكُ مُلْغِيـاً ... مَقَـالَةَ لِهْبِي إذَا الـطَّيْرُ مرتِ[9]

---

(1) أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي الأندلسي ، ولد سنة 246 هـ ، وتوفي سنة 328 هـ ، انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق إحسان عباس جـ 1 ص 110 .

(2) محمد بن السائب الكلبي الكوفي، اشتهر هو وولده هشام بعلم الأنساب والتفسير، انظر: الوفيات، تحقيق إحسان عباس ، حـ 4 ص 309 ، جـ 6 ص 82 .

(3) النعمان الثالث بن المنذر الرابع بن امرىء القيس اللخمي ، من أشهر ملوك الحيرة ، صاحب يومي البؤس والنعيم ، وهو ممدوح النابغة الذبياني ، نقم عليه كسرى أمراً فقتله سنة 608 ، انظر : الأعلام للزركلي ، طـ 2 جـ 9 ص 10 .

(4) كسرى الثاني (أبرويز) حفيد كسرى (أنوشروان) ، من ملوك الفرس المشهورين بحروبهم الطويلة ، وفي عهده حدثت موقعة ذي قار بين بكر بن وائل والهرمزان قائد جيوش أبرويز ، توفي سنة 628 م ، انظر : مروج الذهب للمسعودي جـ 1 ص 298، والموسوعة العربية الميسرة ص 1463 .

(5) المقصود : المعجم .

(6) ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد شرح وتحقيق أحمد أمين وآخرين ، مطبعة القاهرة ، لجنة التأليف والنشر 1956م ، طـ 2 جـ 2 ص 9 .

(7) أبو أمامة زياد بن معاوية ، من شعراء الطبقة الأولى ، عاش في النصف الأخير من القرن السابق لظهور الإسلام ، نادم الملوك المناذرة ، اشتهر باعتذارياته إلى النعمان بن المنذر ، انظر : الأغاني ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب جـ 11 ص 3 ، وكذلك: تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، ترجمة عبد الحليم النجار جـ 1 ص 88 .

(8) ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت 1960 م ص 80 .

(9) البيت لا يعرف قائله ، ويقال إنه لرجل من طيء ، من شواهد النحو ، استشهد به سيبويه ، وابن هشام ، وغيرهما من النحويين .

وقال آخر :

أخشى عليها من مقالة كاشحٍ   ذَرِبِ اللسانِ يقول ما لم أفعلِ[1]

وجاء في الأثر النبوي الشريف ، فيما رواه أبو هريرة[2] أن رجلاً أتى النبي ﷺ يتقاضاه فأغلظ ، فهمّ به أصحابه ، فقال رسول الله ﷺ : «دعوه ، فإنّ لصاحب الحقّ مقالاً . . الخ»[3] ، وعنه أنّ رسول الله ﷺ قال : «إنّه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضي مقالتي هذه ثم يجمع إليه ثوبه إلا وعي ما أقول . . »[4] .

وتورد بعض المصادر خبر وفود أمّ سنان بنت خيشمة[5] على معاوية[6] بن أبي أسفيان ، وما دار بينهما من محاورة منها قولها : «يا أمير المؤمنين ، لسان نطق وقول صدق ، ولئن تحقق فيك ما ظننا ، فحظك أوفر ، والله ما أورثك الشناءة في قلوب المسلمين إلا هؤلاء ، فادحض مقالتهم وأبعد منزلتهم»[7] .

وكتب عبد الحميد[8] الكاتب عن مروان[9] بن محمد إلى بعض من ولاه رسالة طويلة ،

---

(1) لم أعثر له على قائل ، والبيت في المخصص لابن سيده ، ج 1 ، السفر 2 ص 113 .

(2) عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، من أكبر رواة الحديث النبوي ، ينسب إليه حوالى (5374 حديثاً) ، أسلم سنة 7 هـ ، ولزم النبي ﷺ حتى وفاته ، وولي إمرة المدينة مدة ، ثم استعمله عمر على البحرين ، وعزله فانقطع للعبادة والفتيا ، من آثاره ما جمعه له تقي الدين السبكي باسم «فتاوى أبي هريرة» ، انظر : الأعلام للزركلي ط 5 ، 1980م ، جـ 3 ص 308 .

(3) البخاري ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل ، متن البخاري ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة جـ 2 ص 42 ــ 56 .

(4) المصدر السابق ص 2 .

(5) أم سنان بنت خيشمة بن خرشة المذحجية ، انظر : العقد الفريد ص 108 .

(6) صخر بن حرب بن أمية ، ولد سنة 20 ق هـ ، مؤسس الدولة الأموية ، أسلم يوم فتح مكة سنة 8 هـ ، عرف بالفصاحة والحلم ، من كتاب الوحي ، وعظماء الفاتحين ، توفي سنة 60 هـ ، انظر : الأعلام ط 5 ، 1980 م ، ص 261 .

(7) طيفور : أبو الفضل احمد بن أبي طاهر : بلاغات النساء ،دار النهضة الحديثة ، بيروت 1972م ، ص 92 ، وكذلك : العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وآخرين جـ 2 ص 108 .

(8) عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى بني عامر ، كاتب مروان بن محمد ، أول من أطال كتابة الرسائل ، وأضاف التحميدات في الثنايا ، قتل في الفيوم بمصر سنة 132 هـ ، انظر : مروج الذهب للمسعودي جـ 3 ص 248 ، والوفيات جـ 3 ص 228 .

(9) مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي ، ولد بالجزيرة سنة 72هـ ، يلقب بالجعدي ، آخر خلفاء بني أمية بالمشرق ، مات مقتولاً بالفيوم سنة 132 هـ ، انظر فوات الوفيات ، لمحمد بن شاكر الكتبي ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت 1974م ، جـ 4 ص 127 .

منها : «ثم إياك أن يفاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات والمزاح والمضاحك التي يستخف بها أهل البطالة ، ويتسرع نحوها ذوو الجهالة ويجد فيها أهل الحسد مقالاً لعيب يذيعونه . . »[1] .

ومن هنا ندرك أنّ الدّلالة لا تنصرف إلى مطلق القول بل إلى قول معينّ أريد له أن يشيع ويشتهر أمره بين الناس ، وهذا الشيوع والذيوع من العناصر الأساسية في تكوين المقالة الحديثة .

ومن دلالاتها الرأي والمذهب ، نقل الجاحظ[2] في حديثه عن النظام[3] وعدم إيمانه بالطّيرة قوله : «ونحن وإن كنا اختلفنا في بعض المقالة فإنا نرجع بعد ذلك إلى حقوق الأخلاق والحرية»[4] مرسلاً حديثه إلى أحد مجادليه ، وكما لا يخفى ، فإنّ الاختلاف ليس في مجرد القول ، بل في رأي يذهب إليه كل منهما .

ويقول الشرستاني[5] في مقدمة كتاب الملل والنّحل : «فلما وفقني الله تعالى لمطالعة مقالات أهل العالم من أرباب الديانات والملل . . فإذا وجدنا انفراداً واحداً بين أئمة الأمة بمقالة من هذه القواعد ، عددنا مقالته مذهباً ، وجماعته فرقة»[6] .

وبعد الشهرستاني بما يربو على قرن يقول ابن خلكان[7] في القرن السابع من الهجرة

---

(1) القلقشندي ، صبح الأعشى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، القاهرة 1920م ، جـ 10 ص 200 .

(2) أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني ، ولد سنة 159 هـ بالبصرة ، علم من أعلام الكتابة ، له ما يربو على 350 كتاباً ، من أشهرها : البيان والتبيين ، والحيوان والبخلاء ، توفي سنة 255 هـ ، انظر : الوفيات جـ 3 ص 470 ، والموسوعة ص 591 .

(3) إبراهيم بن سيار البلخي ، من أئمة الاعتزال في البصرة ، مناظر ذكي واسع المعرفة ، له العديد من المؤلفات ، من أشهر تلاميذه الجاحظ ، توفي سنة 221 هـ انظر : الموسوعة ص 1535 .

(4) الجاحظ : الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1969م ، ط 3 ، جـ 3 ص 452 .

(5) أبو الفتح محمد بن أبي القاسم ، ولد سنة 480 ، بشهرستان ، فارسي الأصل من الأعلام في الفقه والأديان وعلم الكلام . من أشهر آثاره : المضارعة والمناهج والبيان ، ونهاية الإقدام في علم الكلام ، توفي بشهرستان سنة 548 هـ انظر : الموسوعة الميسرة ص 1098 .

(6) الشهرستاني : الملل والنحل ، تحقيق محمد سعيد كيلاني ، مطبعة الحلبي بمصر ، 1961 م ، جـ 1 ص 11 ـ 15 .

(7) أحمد بن محمد بن إبراهيم الإربلي ، ولد بإربل سنة 608 هـ ، فقيه وعالم باللغة والأدب ، اشتهر بكتابه «وفيات الأعيان» ، توفي سنة 681 هـ ، انظر : فوات الوفيات ص 110 .

في ثنايا حديثه عن الجاحظ : «وله مقالة في أصول الدين ، وإليه تنتسب الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة»[1] .

فهذا معنى آخر من المعاني الدلالية للمقالة ، حيث تضمنت رأياً ومذهباً خاصاً ، وقرّ في المدلول الاصطلاحي للكلمة ، وتواضع عليه الكتّاب كما رأينا .

ومن دلالتها مطلق الكتابة ، فقد ورد نصّ عن ابن شهيد[2] يظاهر هذا المفهوم ، يقول : «لو شهد الجاحظ سهلاً يخادع للرشيد ملكاً ويدبّر له حرباً ، ويعاني له إطفاء جمرة فتنة ، مستضلعاً في ذلك كله بعقله وجودة علمه لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال في صفة غراميل البغال»[3] .

وقد تعني فصلاً من كتاب ، كما قسم النديم[4] كتابه « الفهرست » إلى عشر مقالات ، ومن هذا ما كتبه حين تحدّث عن إقليدس[5] فقال : «ونقل أبو عثمان الدمشقي منه مقالات رأيت منها العاشرة بالموصل[6] ، وكذلك فعل القلقشندي[7] في كتابه «صبح الأعشى» بعده بما يناهز الأربعة قرون أو يزيد ، ومما تجدر ملاحظته أنّ إطلاق كلمة «مقالة» على فصل من الكتاب يشبه إلى حدّ كبير ما يفعله الكُتّاب المعاصرون من ضم مجموعة من المقالات إلى بعضها في كتاب واحد دون أن تكون بينها صلة رابطة ، فكل واحدة منبّتة عما سواها وإن ضمها غلاف واحد .

---

(1) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، جـ 3 ص 471 .

(2) أبو عامر أحمد بن أبي مروان بن شهيد الأشجعي الأندلسي ، ولد سنة 382هـ ، من أشهر أدباء الأندلس ، من آثاره : التوابع والزوابع ، وكشف الدك ، وإيضاح الشك ، وحانوت عطار ، توفي بقرطبة سنة 426 هـ ، انظر : الوفيات ج 1 ص 116 .

(3) ابن بسام الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ـ تونس ، 1975 م ، القسم الأول المجلد الأول ص 244 .

(4) محمد بن إسحاق ، ولد ببغداد ، واشتغل بالوراقة ، اشتهر بكتابه الفهرست ، توفي سنة 439 هـ ، انظر : الموسوعة العربية ص 28 .

(5) عالم رياضة يوناني ، نشأ في الاسكندرية في عهد بطليموس الأول 323 ـ 285 ق م ترجم كتابه (الأصول) في الرياضيات إلى العربية في القرن الثامن المسيحي ، انظر : الموسوعة ص 185 .

(6) النديم : الفهرست ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ص 385 .

(7) أبو العباس شهاب الدين أحمد القلقشندي ، ولد سنة 756 هـ بقلقشندة بالقليوبية في مصر ، ويرجع نسبه إلى فزارة ، برع في الأدب والفقه ، من أشهر مؤلفاته : الغيوث الهوامع ، ونهاية الأرب وقلائد الجمان ، وصبح الأعشى ، توفي سنة 821 هـ ، انظر : مقدمة صبح الأعشى ص 19 ، والموسوعة ص 1393 .

ومما سلف نرى أن «كلمة المقالة ليست غريبة على اللغة العربية ، ولكنها من حيث دلالتها الفنية تعدّ محدثة في أدبنا العربي»[1] ، وإن لم يساورني شك في أنه قد نُظر ملياً إلى ما أسلفت قبل الاصطلاح على هذه التسمية في أدبنا المعاصر ، لأننا نلمس بوضوح في المفهوم الحديث للمقالة معنى : الشيوع والرأي والمذهب ، ومطلق الكتابة ، والفصل من الكتاب .

وليس فيما بين أيدينا من المصادر ما يرشدنا إلى معرفة منشأ هذا الاصطلاح بدلالته الحديثة ، بل اقتصر البحث في هذه التسمية على التخمين والحدس ، كأن يراها بعض الباحثين[2] ترجمة للكلمة الاجنبية (Essay) الانجليزية أو (Essais) الفرنسية ، وتتسع دائرة التخمين فيقال : «وربما رجعت الترجمة إلى أواخر القرن التاسع عشر بعد أن كثر اتصالنا الثقافي بالغرب ونشأت لدينا صحافة ومجلات كان ـ فيما كان ـ[3] المقتطف ، وقد تكون لبنان موطن الترجمة لما كان لها من شأن في تاريخ الصحافة والترجمة والاحتكاك بالفكر الغربي»[4] .

غير أن هذا القائل يتوقع أن تكون كلمة «تجربة» أو ما يشبهها هي الترجمة القريبة لما هي عليه عند الغرب ، لكنّ هذا لم يحدث ، فطفق يبحث عن تخمينات حاول أن يسد بها الفجوة المنطقية كأن يفترض أن المترجم «قد نظر إلى المصطلح الغربي في استعمالاته الأخيرة فأداره ضمن دائرة القول .. وكانت النفوس مستعدة لقبول أية كلمة لا يلبث الاستعمال أن يشحنها بالدلالة الاصطلاحية ، وكانت هذه الكلمة هي «المقالة»[5] .

أو أن يفترض افتراضاً به كثير من الشطط فيفكك الكلمة الانجليزية(Essay) إلى مقطعين (Es) ويهمله ، و (Say) ليصل إلى معنى القول في هذا المقطع ، وأيا كانت الافتراضات فإن هذا الباحث قد ترك دعواه دون دليل مكتفياً بالإصرار على أن هذا المصطلح قد دخل العربية عن طريق الغرب[6] .

---

(1) عزالدين إسماعيل : الأدب وفنونه ، دار الفكر العربي بيروت ، 1965 م ، ط 2 ص 236 .

(2) علي جواد الطاهر ، وإبراهيم إمام ، ومن شاركهما وجهة النظر .

(3) لعل المقصود : .. كان منها ـ فيما كان ـ .. .

(4) علي جواد الطاهر : مقدمة النقد الأدبي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1979 م ط 1 ص 290 .

(5) المصدر السابق ، ص 290 .

(6) المصدر السابق ، ص 290 .

ومن الباحثين[1] من يغرب في الفهم ، فيزعم أن أصول الكلمات الثلاث (Essay) الانجليزية و(Essais) الفرنسية و (المقالة) العربية متقاربة في الدلالة ، ولا يخفى ما في هذا من التجوز البعيد ، إذ أن (Essay) مشتقة من الاسم (Assay) والفعل (Essayer) ، والأصل أن يُطلق على اختبار المعادن ونحوها ، والكلمة الفرنسية تحمل نفس الدلالة في منشئها ، كما يقول الباحث نفسه ، وهذا بعيد كل البعد عن مادة القول في العربية التي اشتقت منها المقالة .

ولست على يقين من سرّ إطلاق هذا المصطلح ، ولكني أستبعد أن يكون ترجمة عن لغة أخرى ، وأغلب الظن أنه توظيف جديد للفظ قديم ، أوحت به الدلالات المتعددة التي أشرت إليها آنفاً ، ولا سيما أن المقالة في إهابها الجديد تحمل الكثير من السمات التي ألفها العرب في كتابة الرسائل والفصول .

وللمقالة في العصر الحديث تعريفات نجتزيء منها مفهوم د. جونسون (S. Jonson) [2] للمقالة حين عرّفها : «بأنها نزوة عقلية لا ينبغي أن يكون لها ضابط من نظام ، وهي قطعة لا تجري على نسق معلوم ، ولم يتم هضمها في نفس كاتبها ، وليس الإنشاء المنظم من المقالة في شيء»[2] ، وتعرّفها الموسوعة البريطانية بأنها : «نمط أدبي معتدل الطول يكتب نثراً عادة ، ويعالج موضوعاً ما بطريقة ميسرة عرضية ، وبتحديد أكثر يتعلق بموضوع يثير إحساس الكاتب» [3] ، وهي في معجم لاروس (Larousse) «كتابة مختصرة تتناول موضوعاً محدداً»[4] ، وفي قاموس ليتري (L'ittre) «تأليف يعالج فيه الكاتب موضوعاً دون أن يزعم أنه سيدلي فيه برأي قاطع»[6] .

---

(1) إبراهيم إمام في كتابه دراسات في الفنّ الصحفي ، ص 180 .

(2) صموئيل جونسون ، ولد سنة 1709م ، في ليتشفيلد ، من أعلام الحركة الأدبية والنقدية في بريطانيا ، عرف بمقالاته الشائقة ، من أشهر أعماله : وضع أول معجم في اللغة الانجليزية سنة 1755 م ، وحياة الشعراء ، توفي سنة 1784 م ، انظر : (N. C. Ency, P 1425) .

(3) زكي نجيب محمود ، جنة العبيط ، دار الشروق القاهرة وبيروت ، 1982 م ط 2 ص 10 .

(4) انظر مادة : (ESSAY Essayist Ency Brit P 716) .

(5) (L. E. L. P. 375) .

(6) نقلاً عن محمد عوض محمد ، في كتابه (محاضرات عن فن المقالة الأدبية) مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة 1959 م ، ص 61 .

ومن الكتّاب العرب ، يعرّفها العقاد[1] بأنها «مشروع كتاب صغير يشتمل على النواة التي تنبت الشجرة لمن يشاء الانتظار»[2] .

ويراها إبراهيم إمام[3] حديثاً «يوشك أن يكون عادياً يعرض الكاتب فيه على قرائه فكرة ، أو اتجاهاً ، كما يعرض الموضوع من الموضوعات التي يزجي بها وقت الفراغ مع بعض الجلساء»[4] .

ويستخلص محمد يوسف نجم[5] خلاصة كادت تكون إجمالاً لما سبق فيقول : «المقالة الأدبية قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع ، تكتب بطريقة عفوية سريعة خالية من الكلفة والرهق»[6] .

وإذا ما استثنينا تعريف العقاد ، نجد أن جميع التعريفات الأخرى تربطها وشيجة واحدة، إذ تطلق العنان للكاتب في أن يختار موضوعه دون قيد مسبق، وتكتفي بوضع علامات على الطريق كمحدودية الطول ، وعدم الإيغال في معالجة الموضوع ، واشتراط إثارة إحساس الكاتب ، وتجنّب الرهق في بناء الأسلوب .

غير أن تعريفاً مثل تعريف الدكتور جونسون لا يمكن اعتباره معياراً أو صفة تميز المثال الرفيع[7] لكتابة المقالة، وإذا سلمنا جدلاً بأن هذا يصلح منهجاً للمقالة في عصره، فليس بإمكاننا مجاراته اليوم ، ولم يعد من المقبول اعتبار المقالة نزوة عقلية ، أو وقفها على موضوعات ذاتية تؤثر في نفس الكاتب تأثيراً عابراً فيصور لنا في غير نظام ما جاس في نفسه من جراء هذا الأثر ، فقد «سارت المقالة في طريقها شوطاً طويلاً واتسع أفقها حتى شملت كل ألوان الحياة»[8] .

بل أصبحنا نتحدث اليوم عن مقالات اجتماعية وسياسية واقتصادية وعلمية ، لكل

---

(1) عباس محمود العقاد ، ولد بأسوان سنة 1889م ، أديب وكاتب معاصر ، صنّف 83 كتاباً في فروع المعرفة المختلفة ، توفي بالقاهرة سنة 1964 م ، انظر : الأعلام طـ 5 جـ 3 ص 266 .

(2) العقاد : يسألونك ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1968 م ، ص 6-7 .

(3) باحث أكاديمي مصري معاصر ، صاحب كتاب (دراسات في الفن الصحفي) .

(4) إبراهيم إمام ، دراسات في الفن الصحفي ، مطبعة الأنجلو المصرية ، ص 180 .

(5) باحث أكاديمي معاصر ، له العديد من المؤلفات منها : فن المقالة ، والمسرحية في الأدب العربي الحديث ، والشعر العربي في المهجر بالاشتراك مع إحسان عباس ، وله : سليم النقاش ، مسرحياته .

(6) محمد يوسف نجم : فن المقالة ، دار الثقافة ، بيروت ، طـ 4 ص 95 .

(7) انظر : مادة Essay Essayist Ency Brit Vol 8 P 716 .

(8) عمر الدسوقي ، في الأدب الحديث ، دار الفكر العربي ، 1964 م ، طـ 6 ص 409 .

أسلوبها ونسقها ونظامها وقوانينها التي تجري على نسق معلوم وإن لم يكن محصوراً بقواعد صارمة تثقل على النفس أحياناً ، فلا غضاضة في أن يتطرق المقالي في ما يكتب إلى موضوعات لا تثير انفعالاته شأن الجليس الذي يجاذب جلساءه أطراف الحديث ، ولعل في هذا إيماء إلى سرّ تسمية هذا النوع من الحديث المكتوب بالمقالة .

وللعقاد رأي ينأى بعيداً عما يراه الدكتور جونسون من أن المقالة نزوة عقلية ليس لها ضابط من نظام ، وليس الإنشاء المنظم من المقالة في شيء ، فهو يرى أن «كل فكرة في المقالة حاضرة قبل أن تكتب كلمتها الأولى»[1] ، ويوضح ذلك منهجه في كتابة المقالة الذي قال عنه : «أما طريقتي في الكتابة فإني أبدأ المقال وفي ذهني جميع أصوله « نقطة » مرتبة على الجملة حسب التسلسل المنطقي ، ولكني إذا مضيت في الكتابة عرضت لي حاشية من هنا ، أو لمحة من هناك تطرأ في عرض الكلام ولا تغيّر شيئاً من جوهر المقال إلا أن تزيده جلاء في بعض الأحيان أو تضيف إليه عنصر الفكاهة والتبسيط»[2] .

فكتابة المقالة عند العقاد لا تخرج عن قواعد تأليف الكتب[3] وما تستلزمه من إعداد النقط ، وتقسيم الأفكار ، وتنظيم الأبواب والفصول ، كما يقول عنها : «وليس لكتابة المقالات منهج يخالف هذا المنهج في تأليف الكتب سوى الخلاف الضروري بين الإطالة والإيجاز ، وبين التشعب ووحدة الموضوع»[4] .

والمقالة عند العقاد كتاب لا تستطيع قراءته في عجالة وإن قصر «وكم من كتب اختصرت في هذه المقالة ، وكم من نظريات أدبية أو سياسية أو اجتماعية جمعت وركزت في عدد من السطور»[5] .

وإذا كان العقاد يبدأ كتابة المقالة وفي ذهنه جميع الأصول والنقط مرتبة على الجملة حسب التسلسل المنطقي فإن هناك من يقول : «كلا ، ليس للمقالة الأدبية ـ ولا ينبغي أن يكون لها ـ نقط ولا تبويب ولا تنظيم ، فإن كانت كذلك فلا عجب أن ينفر منها القارئون»[6] .

---

(1) عباس العقاد : أنا ، دار الفكر العربي ، بيروت 1969 م ، ط 1 ص 116 .

(2) المصدر السابق ، ص 110 .

(3) ذكر العقاد في كتابه (أنا) عند حديثه عن تأليف الكتب : أن منهجه يتلخص في كلمتين هما : التقسيم والتنظيم ، انظر : أنا ص 112 .

(4) العقاد : أنا ص 116 .

(5) شوقي ضيف ، في النقد الأدبي ، دار المعارف بمصر 1962 م ص 203 .

(6) زكي نجيب محمود ، جنة العبيط ص 11 .

ومن هنا نجد أن العقاد قد غالى في حشر المقالة داخل ثوب الكتاب على بعد ما بينهما من اختلاف في المبنى .

والذي أركن إليه أن المقالة تعبير أدبي يبث الكاتب من خلاله ما يجد في قصد واعتدال دون التقيد بنمط ثابت ، مادتها الأساسية ظاهرة أو حادثة أو نوع من المعارف مما يمر به مر الكرام ، يمسها الكاتب بقلمه فتمسي من معالم الحياة التي لا تخطئها الأبصار ، سبيله في ذلك همس لا يقرع الأسماع ، ونجوى لا تملّها نفس القارىء .

الجذور التاريخية للمقالة

يرى بعض الباحثين أن جذور المقالة ضاربة في القدم منذ اهتمام البشرية بالأمثال وجوامع الكلم ، ومن ذلك بعض أسفار العهد القديم ، مثل سفر الأمثال ، وسفر الجامعة ، وسفر يشوع[1] بن سيراخ ، ومثل مأثورات كونفوشيوس[2] وكتابات تلاميذه ، أو مثل كتابات فيثاغورس (Pythagore)[3] وهيريدوتس(Hérédote)[4] ، وأبيقور[5](Epicure) ، وأضرابهم ، وشيشيرون(Cicéron)[6] ، وسنكا (Senéque)[7] ومأثورات الحكم والأمثال في

---

(1) كتب سفر الأمثال بشكله النهائي سنة480 ق.م ،ويتكوّن من مجموعة من أقوال سليمان وحكماء آخرين في بلاطه ، وسفر يشوع بن سيراخ كتب في القرن الثالث قبل الميلاد ، ويهتم بالأحداث التاريخية كتدمير مدينتي (جيريكو وأي) وسفر الجامعة كتب في القرن الثاني قبل الميلاد ويتحدث عن السعادة الدنيوية والحكمة انظر : موريس بوكاي ، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص 25 و 33 و 36 .

(2) حكيم صيني ولد سنة 551 ق. م ، صاحب مبدأ أخلاقي يدعو إلى الترابط وانتهاج الوسط ، من آثاره تحقيق الكثير من المؤلفات الكلاسيكية توفي 479 ق. م ، انظر : الموسوعة ص 1485 .

(3) فيلسوف يوناني ولد 582 ق.م. بساموس، صاحب نظرية فيثاغورس في المتلمسة ، توفي 507 ق.م، انظر : الموسوعة ص 1342 .

(4) مؤرخ أغريقي ولد 484 ق.م في اليكارناسوس بآسيا الصغرى، يلقب بأبي التاريخ ، توفي 425 ق.م، انظر : الموسوعة ص 1926 .

(5) فيلسوف يوناني ولد سنة 343 ق.م، صاحب مذهب تقديس الشعور واللذة التي ليس بعدها ألم ، توفي 270 ق.م، أنظر : دائرة المعارف للبستاني مادة (أبق) .

(6) ماركوس توليوس شيشيرون ، ولد 107 ق.م، تعلّم في روما ، نبغ في الشعر والفلسفة والخطابة وبرع في المحاماة ، تولى العديد من المناصب السياسية ، خاض صراعاً مريراً ضد كاتلينا ، انتهى بمصرعه سنة 43 ق.م، انظر : دائرة المعارف للبستاني مادة (شيشيرون) .

(7) لوشيوس أنيوس سنكا ، فيلسوف روماني ، ولد بقرطبة قبل المسيح ببضع سنوات ، درس في روما=

العصر الجاهلي عند العرب[1].

فالكاتب آرثر بنسون (Arthur Benson)[2] يرى أن مونتيني (Michel De [3] Montaigne) ـ وهو من تنسب إليه المقالة الحديثة ـ يدين لشيشيرون الذي كان يعالج موضوعات سهلة بأسلوب سهل ، وخيال هادئ ، وشيشيرون نفسه كان مديناً لأفلاطون (Platon)[4] الذي اشتملت محاوراته على الجرثومة التي ولدت منها المقالة والرواية ، ولولا اللون المسرحي لهذه المحاورات لكانت مقالات مكتملة[5] .

وينفي محمد مندور[6] أن يكون فنّ المقالة قد عرف بمعرفة الطباعة والصحف والمجلات ، فيقول : «ليس بصحيح أن ظهور المقالة كفن أدبي مرتبط بظهور الصحف والمجلات ، فقبل أن تعرف الصحف وقبل أن يخترع فن الطباعة الآلية بقرون طويلة عرف فن المقالة»[7].

ويؤكد أن مونتيني قد كتب مقالاته بإيحاء من التراث الإغريقي والروماني ، وهو دائم التضمين في مقالاته لكثير من الشواهد القديمة الإغريقية والرومانية ، ويضرب مثالاً لذلك

= واليونان ومصر ، زينوني المذهب ، كان وصياً على الأمبراطور نيرون الذي اتهمه بالتآمر وأمره بالانتحار سنة 65 م ، انظر : دائرة المعارف ، مادة (سنكا) .

(1) محمد يوسف نجم : فن المقالة ص 8 وما بعدها ، وكذلك علي شلق : النثر العربي ص 318 .

(2) آرثر كرستوفر بنسون ، كاتب إنجليزي ولد سنة 1862 م ، الابن الأكبر لرئيس الأساقفة عمل مديراً لمدرسة «أيتن» من سنة 1885 م إلى 1903 م ، و «ميدلن كولج» بكمبريدج ، من سنة 1915 م حتى وفاته ، أسهم في كتابة القصة والشعر والرواية والمقالة كمجموعته الشهيرة (من نافذة الكلية) وله دراسات نقدية مختلفة ، توفي سنة 1925 م ، انظر : (N, C, Ency P 237) .

(3) فيلسوف وأديب فرنسي ولد ببوردو سنة 1533 م ، ودرس في مدرسة «غيان» في بوردو ، ثم في معهد الحقوق تقلب في العديد من المناصب القضائية ، ثم تفرغ للتأليف وكتب مجموعته التي أسماها محاولات (Essay) وبها اعتبر رائد فن المقالة ، توفي سنة 1592م ، انظر : الموسوعة ص 1791 .

(4) فيلسوف يوناني ، ولد حوالي سنة 427 ق م ، تلميذ سقراط من آثاره المحاورات السقراطية ، وفيدروس في البلاغة ، وثيتاتوس في معنى المعرفة ، والجمهورية في الدولة المثلى ، توفي حوالى 47 ق م ، انظر : الموسوعة ص 181 .

(5) قال بهذا في كتابه قراءات مختارة (Selected Reading) نقلاً عن محمد عوض محمد ، محاضرات في فن المقالة ص 63 .

(6) أديب وناقد ، حقوقي وصحفي ، ولد سنة 1907 م ، تولى التدريس بجامعة القاهرة ، ورأس تحرير بعض الصحف ، من أهم آثاره : منهج البحث في الأدب واللغة (مترجم) والنقد الأدبي (مترجم) وفي الميزان الجديد وغيرها ، توفي 1965 م ، انظر : الأعلام ط 5 جـ 7 ص 111 .

(7) مندور : الأدب وفنونه ، ط 2 ص 193 .

مقالته عن الصداقة التي يجلل فيها سمات الصداقة الحقة عند صديقه الراحل لابوسيه (Labousset)[1]، لا فهو يستشهد فيها بما رواه هوميروس (Homére)[2] عن الصداقة المتينة بين بطل الإغريق الأكبر (أخيل) في حرب طروادة وصديقه (بتركل)[3] .

وقديماً اعتبر بيكون (Francis Bacon)[4] الرسائل الإنجيلية ، ورسائل سنكا في عداد المقالات[5] .

وعن إسهام التراث العربي في طفولة المقالة يذهب بعض الباحثين إلى أن هناك نوعاً من الكتابة في التراث العربي القديم يحوي العديد من المقالات المبعثرة في ثنايا الكتب كما في كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي[6]، وهي «موضوعات مكتوبة قد صيغت صياغة أدبية تجعل من كل موضوع مقالة أدبية استوفت شروط الصفة الفنية للمقالة ، كما قدرها الناقدون في هذا العصر الحديث»[7] .

وأيا تكن صحة هذه الآراء فليس من اليسير أن نقر هؤلاء على ما ذهبوا إليه ، بل ننظر إليه بكثير من الحذر،وشيء من الريبة أحياناً ، فإذا كان القاسم المشترك بين ما كتب أولئك وبين المقالة هو الاتجاه الذاتي فإن هناك فرقاً بين أن يحدِّث الكاتب قارئه ، وبين أن يلقي الواعظ موعظته متجملاً بجوامع الكلم ، وإذا تحدث أولئك عن أنفسهم فحديثهم خلو من الألفة وعفوية الخاطر «فالفرق بين هذه المؤلفات وفنّ المقال أن شخصية الكاتب في

---

(1) إتيان دي لابوسيه ، أديب فرنسي ولد سنة 1500 م ، صديق مونتيني الحميم ، من أهم أعماله : مهمة كزينفون ، وقواعد الزواج عند بلوتارك ، وأشعار لابوسيه ، توفي سنة 1563 م ، انظر : أندريه كريسون ، مونتاني ، ترجمة تيبه صقر ص 10 وما بعدها .

(2) يرجح أن يكون قد عاش خلال القرن الثامن قبل الميلاد ، وإليه تنسب الإلياذة والأوديسا ، وهو شاعر اليونان الأشهر ، وأكثر الشعراء أثراً في الأدب الغربي ، شغلت المشكلة الهوميروسية أدباء الغرب طيلة القرن التاسع عشر ، انظر : الموسوعة ص 1921 .

(3) محمد مندور : الأدب وفنونه ص 182 .

(4) عالم وأديب انجليزي ، ولد بلندن سنة 1651 م ، يعتبر رائد المقالة الانجليزية من أشهر مؤلفاته : تقدم المعرفة، والقانون الجديد، وطوبى الجديدة، وهو صاحب المنهج التجريبي، توفي 1626 م، انظر: الموسوعة ص 469 .

(5) (Ency Brit P 716) .

(6) علي بن محمد بن العباس التوحيدي ، فيلسوف معتزلي ، وأديب له العديد من المؤلفات ، أحرق جلها ، من آثاره الباقية : الصداقة والصديق ، والمقابسات ، والإمتاع والمؤانسة ، توفي سنة 400 هـ ، انظر : الأعلام ط 5 ، 1980 م ، جـ 4 ص 326 .

(7) محمد عوض محمد : محاضرات عن فن المقالة الأدبية ص 20 .

الأولى تكاد تكون مفروضة فرضاً على القارىء ، في حين أن شخصية كاتب فن المقالة تصبح موضوعاً طريفاً محبوباً جذاباً»[1].

وإذا كان موضوع المقالة سانحة أو ملاحظة أو فكرة عابرة فأولئك حلياتهم اللاهوت والأسفار المقدسة وجوامع الكلم يجللهم سمت الحكماء ، ويراتس الوعاظ فإن اقتربوا من حمى المقالة فمضمارهم الكتابة التشخيصية كما في الصور النمطية[2] عند الجاحظ في تراثنا العربي ، وعند موليير (Molière)[3] ولابروير (Labruyère)[4] في التراث الأوروبي .

وإذا استأنسنا بما ذهب إليه الناقد الفرنسي برونتيير (Brunetiére)[5] من أن الجنس الأدبي كائن حي يولد ويتطور وقد يموت وقد يُبعث حياً فيما لو تهيأت له سبل الحياة من جديد[6] ، فإنه وإن لم يكن بوسعنا أن نعدّ ما أسلفنا من باب المقالة فلن ننكر أنها حوت الجينات التي أدت إلى خلق هذا اللون عبر حقب التاريخ الأدبي المتعاقبة حتى أذن له أن يعرف سنة 1580 [7] ، على يد الفيلسوف الفرنسي ميشيل دي مونتيني الذي تعده المصادر الأدبية في الغرب أباً للمقالة الحديثة، ومالأهم كتاب العربية على زعمهم هذا دون التثبت من صدق دعواهم .

وبعد ، فليس من اليسير قبول قول صاحبي «قصة الأدب في العالم» بأن «المقالة هي القالب الوحيد الذي نستطيع أن نتعقبه إلى منشئه وإلى يوم مولده»[8] ، ومما يوهن هذا الرأي

---

(1) إبراهيم إمام : دراسات في الفن الصحفي ص 182 .

(2) الصورة هنا غير الصورة الشعرية ، وتناظرها في الانجليزية (Portrait) ، وقوامها : أن يعمد الكاتب إلى نماذج من العادات والسلوك فيصورها تصويراً ساخراً يبرز المثالب في الغالب كما فعل الجاحظ في «رسالة التربيع والتدوير» انظر : محمد غنيمي هلال : في النقد التطبيقي والمقارن ص 49 ـ 60 .

(3) جان باتيست بوكلين موليير ، ولد بباريس 1622 م ، أحد كتّاب الملهاة المعروفين ، من أشهر أعماله المسرحية : ترتوف ، وعدو الانسانية ، والبخيل ، وطبيب رغم أنفه ، ومريض الوهم ، توفي 1673 م ، انظر : الموسوعة ص 1787 ـ 1788 .

(4) جان دي لا بروير ، كاتب فرنسي ولد سنة 1645 م ، اشتهر بترجمته لكتاب «صور أخلاقية» لثيوفراست اليوناني ، له كتاب في الصور الأخلاقية ، يعده البعض من زعماء الاصلاح ، توفي سنة 1696 م ، انظر : الموسوعة ص 1535 .

(5) ناقد أدبي فرنسي ، ولد سنة 1849 م ، صاحب نظرية تطور الأجناس الأدبية ، من أبرز مؤلفاته : تاريخ الأدب الفرنسي ، توفي سنة 1906 م ، انظر : الموسوعة ص 362 .

(6) قال بهذا في كتابه (تطور الاجناس في تاريخ الأدب) ، انظر : معجم مصطلحات الأدب ، مجدي وهبة ص 153 ، و 154 ، و 189 .

(7) تاريخ أوّل طباعة لكتابه محاولات (Essay) .

(8) أحمد أمين وزكي نجيب محمود: قصة الأدب في العالم، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1945 م ، القسم الأول ، جـ 2 ص 61 .

جزمها بأن مونتيني هو أعظم كتّاب[1] المقالة، ولا يستقيم هذا بالنظر إلى طبيعة النشوء والارتقاء، ونواميس التكوين، إذ البداية لا بد أن تكون متعثرة شأن الطفولة من كل شيء، ولن يبلغ أمر مداه إلا من خلال قناة النشأة التي تقتضي مروره بعدة أطوار قبل أن يبلغ أشده.

بل إن مونتيني نفسه لم يكن على وعي بأنه ابتدع شيئاً مذكوراً يعُد فيه عن أسلافه، بل كان يعد ما كتبه تفاهات في بعض الأحيان[2].

ولم نبعد كثيراً؟ فإن تسمية هذا اللون من الكتابة تحمل في ثناياها ما كان يتصوره مونتيني فقد أسماه (Essay)[3]، وأراد به المحاولات أو التجارب، ولم تأخذ هذه التسمية معناها الدلالي السائد إلا بعد أن انتقلت من الفرنسية إلى الانجليزية، ومرت بعدة أطوار لعل أغربها: إطلاقها على الكتابات الشعرية، كما فعل الشاعر الانجليزي ألكستدر بوب (Alexander Pope)[4] في منظومته ومقال عن الانسان (Essay on Man)، غير أن منهجه هذا لم يجد قبولاً عند أحد، فعفى عليه الزمن[5].

وهكذا تدرجت المقالة في مدارجها الطبيعية تحت جنح ميشيل دي مونتيني وفرنسيس بيكون، حتى قدر لها أن تصبح دوحة وارفة الظلال تشمخ بأعلامها الأفذاذ مثل إبراهيم كاولي (A. Cowley)[6] وجوزيف أديسون (Joseph Addison)[7]، وصموئيل جونسون، وتشارلز لام(Charles Lamb)[8].

---

(1) المصدر السابق ص 62.

(2) (Ency Brit P 716).

(3) Ency Brit. Vol 8, P 716.

(4) شاعر إنجليزي، ولد سنة 1688م، له آثار أدبية شهيرة منها: ترجمة الإلياذة والأوديسا، وقصيدة رثاء في ذكرى سيدة سيئة الحظ، وقصيدة مقالة في النقد توفي سنة 1744م، انظر: الموسوعة ص 421 و للمزيد انظر: (C. Bib. E. L. Vol. II. P 294).

(5) انظر: كمال عيد: فلسفة الأدب والفن ص 291، وكذلك: محمد عوض محمد: محاضرات عن فن المقالة ص 58.

(6) مقالي وشاعر انجليزي، ولد سنة 1618 م، يعدّ رائد المقالة الانجليزية، له العديد من دواوين الشعر، توفي سنة 1667 م، انظر: الموسوعة ص 1438.

(7) مقالي وشاعر وسياسي انجليزي، ولد سنة 1672 م، عرف بمقالاته الاجتماعية وأسلوبه الساخر، من أشهر أعماله: فردوس ملتون المفقود، وملذات الخيال، توفي سنة 1719 م، انظر: الموسوعة ص 106 وللمزيد انظر: (C. Bib. E. L. Vol II. P 60 I).

(8) كاتب انجليزي، ولد سنة 1775 م، من أشهر أعماله: مقالات إيليا، ونماذج شعراء الدراما الإنجليز، توفي سنة 1834م، انظر: الموسوعة ص 1542.

نشأة المقالة عند العرب

خطا النثر العربي خطواته الأولى مع بزوغ شمس الاسلام[1] حتى اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وتعددت المذاهب السياسية فاحتاج كل حزب إلى دعم ما يرى بخطبة بليغة أو رسالة مؤثرة تجوب الأمصار، فتأسر الأفئدة، وترجح الكفة، وكان لا بد من وضع أسس ومعايير للكتابة، وطرائقها، ومن ثم أصبحت صناعة تمتهن، لها أصول وقواعد وأعلام، وتشعبت إلى شعبتين، أولاهما: الكتابة الديوانية التي تعنى بأمور الدولة وتصريف المعاملات، وأخراها: الكتابة الإخوانية التي جنحت إلى الموضوعات الذاتية، وأرخت العنان لمخيلة الكاتب وقريحته في أن يختار ما يشاء، وبالكيفية التي يريد، فكانت الرسائل، ومن الرسائل انبثق الإرهاص بمولد المقالة العربية.

غير أن من الباحثين العرب من يرى أن الخطبة هي الصورة الأولى للمقالة، إذ أن الخطبة لا يقتصر أثرها على السامعين فحسب، بل سرعان ما تتناقلها الألسن ثم تدون وتنتشر في الآفاق «وأن المقالة الأدبية قد تولدت منها، وأن هذا التولد جاء نتيجة التطور الطبيعي للنثر الأدبي، إذ لا شك أن كتابة المقالة ـ بدلاً من إلقائها في صورة خطبة ـ قد أكسبها صفات فنية جديدة، ودخلتها صناعة جديدة، غير أن الجوهر متشابه في كلا الحالين»[2].

---

(1) يرى زكي مبارك، في كتابه «النثر الفني في القرن الرابع»: أن القرآن تتويج لما وصل إليه العرب الجاهليون من فصاحة وبلاغة في النثر، إذ لا يعقل أن يتنزل القرآن بهذه الكيفية على قوم زادهم من البيان قليل، وهو على هذه الصورة من الكمال الفني، وفي الموضوع مساجلات بينه وبين طه حسين ووليم مرسيه وغيره من المستشرقين تستقصى في مواضعها.

(2) محمد عوض محمد: محاضرات عن فن المقالة ص 10.

ومنهم من يرى أن للمقالة في الأدب العربي القديم صوراً كثيرة ، وإن تكن مختلفة عما يحاوله كتاب المقالة الآن ، ويعد المقامات من قبيل المقالة الأدبية ، فهي «تنطوي على ما تريد للأدب أن يطويه في ثناياه ، وغاية ما هنالك أن الأشكال مختلفة»[1] .

ونحن نستبعد أن تكون الخطبة من بدايات المقالة ، لما في هذا الرأي من جنف وتجوز ، فالصلة معدومة بين هذين الجنسين من الأدب ، إذ لا يخفى أن الخطابة عمادها الإثارة ، وإيقاظ الحماس في نفوس السامعين ، والاستيلاء على عواطفهم ببلاغة الكلام وروعته حيناً ، وبمؤثرات أخرى مصاحبة حيناً آخر «فالخطابة تلذنا عندما نسمع صوت الخطيب والتشكيلات المختلفة التي يشكل بها هذا الصوت ، ونرى هذه الحركات المتباينة التي يتحركها الخطيب مرة بيده ، ومرة بجسمه ، كل هذه تصحب الكلام ، فتقوي لذته الفنية ، بحيث لا تكون اللذة واحدة إذا سمعنا الخطيب أو قرأناه»[2].

بيد أن المقالة شيء مختلف يبعد كثيراً عن الإثارة ومسبباتها ، ويمكننا الاستئناس برأي الناقدة الانجليزية فرجينيا وولف (Virginia Woolf)[3] في حديثها عن المقالة ، وضرورة خلوها من الإثارة حين تقول : «يجب أن تبدأ ــ المقالة ــ بداية تملك مشاعر القارىء وتوقظه من سباته ، حتى يشارك الكاتب خبراته الشائقة المدهشة الغريبة ، بل إن الكاتب قد يصطحب صديقه القارىء محلقين في عالم الخيال ، أو أنهما قد يغوصان سوياً باحثين عن درر الحكمة ، ولكن على أية حال لا يجوز إثارة القارىء إثارة ما . .»[4] .

ولا يجوز اقحام الخطبة في مضمار المقالة لبعد ما بينهما منذ النشأة الأولى ، فالخطبة تنشد التأثير العاجل عن طريق تحفيز وعاء الإثارة[5] ، والمقالة تنشد التأثير العميق الذي يتسلل في هدوء وسكينة كطيف نسجته الأحلام ، سرعان ما يغيب إن لاحت في الأفق سحب الإثارة والانفعال .

---

(1) زكي نجيب محمود : مجلة العربي العدد 316 ، مارس 1985 م (لقاء معه) .

(2) طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1973 م ط 1 ص 593 .

(3) ناقدة وروائية إنجليزية ، ولدت سنة 1882 م ، بلندن ، ونشأت في بيئة أدبية ، تمردت على قيم العصر الفكتوري ، وآمنت بأهمية العلاقات الشخصية ، نشرت مع زوجها أهم الأعمال الأدبية في القرن العشرين ، ونشرت العديد من الروايات، اعترتها اضطرابات نفسية فانتحرت غرقاً سنة 1941 م ، انظر : (P 560) .

(4) نقلاً عن إبراهيم إمام : دراسات في الفن الصحفي ص 185 .

(5) فينسنت (M. L'abbéci Vincent) نظرية الأنواع الأدبية ، ترجمة حسن عون ، منشأة المعارف ، الإسكندرية 1978 م ، ط 3 ص 350 وما بعدها .

أما المقامة فهي إلى القصة أقرب رحماً وألصق وشيجة لاشتمالها على عنصر الحوار ، والمضمون التصويري لظواهر المجتمع ، والإطار المحدود الذي يتحرك ضمنه أشخاص المقامة ، ثم إنه لا أثر البتة لشخصية الكاتب الذي يتوارى خلف أستار الراوي .

ويعض النقاد[1] يرى أن في مقامات بديع الزمان نماذج من القصة القصيرة ، ففيها العقدة وتحليل الشخصيات ، ويبدو هذا واضحاً في المقامة المضرية والبغدادية .

ومما ينأى بها عن مضمار المقالة أن موضوعها السائد هو الكدية[2] والتسول وحيل المتسولين وطرائقهم في الغالب الأعم ، وهذا يتنافى كلية مع اتجاه المقالة حتى قبل أن تتحدد معالمه في العصر الحديث ، وقد عنّ لبعض الباحثين أن يستثني المقامات ذات الموضوع الوعظي مثل مقامات الزمخشري ، فقال : «ولذلك نحن في حل أن نضعها مع المقالات الأدبية في صعيد واحد ، ولا يطعن في هذا الاتجاه أنها تشتمل على نصائح ومواعظ وحكم ، لأن كثيراً من المقالات في الأدب العربي والافرنجي قد اتجه هذه الوجهة في الزمن القديم والحديث»[3] .

ومما لا شبهة فيه أن استبعادنا للمقامة عموماً ليس مبعثه اشتمالها على الحكم أو المواعظ ، ولكن مغايرتها للمقالة من حيث البنية والمحتوى والهدف دعتنا إلى عدم احتسابها منها ، وإن تشابهتا أحياناً .

وإذا كانت المقامة كذلك ، فإن الأمر يختلف مع الرسائل بعض الاختلاف ، إذ يطالعنا لأول وهلة أن الرسالة أرحب أرضاً ، وأبعد مرمى ، فهي تدور في مخيلة الكاتب دون قيد ، يسبغ عليها من استطراداته وطرق تناوله ما يشاء بعيداً عن كوابح الأوزان وعناصر الإثارة ونسق القصص .

وابتدأت الرسائل ــ على يدي عبد الحميد بن يحيى وابن المقفع ــ تتصدر طرائق التعبير ، وتضع لبنات المقالة الأولى التي تجلت أحسن صورها في هذه الرسائل خاصة الإخوانية والعلمية منها ، فإذا استثنينا الرسائل الديوانية لما هي عليه من الجمود ، والانحصار في قوالب معينة تفقدها حرارة الوجدان وحرية الخوض في أسباب الحياة

---

(1) زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع ، دار الجيل بيروت 1975 م ، جـ 1 ص 252 .

(2) الكدية : لها عدة دلالات ، من أشهرها : القطع بعد العطاء ، والأرض الغليظة ، وكل مرتفع ، ومنها الإلحاح في المسألة ، والفعل منها : كدّى ، والمكدي في المقامات شخص يمتهن التسول متنكراً ، وليس مطلق السائل ، انظر : تاج العروس جـ 10 مادة (كدّى) .

(3) محمد عوض محمد : محاضرات عن فن المقالة ص 18 .

ومدارجها ، والتفتنا إلى الإخوانيات لألفينا عناصر المقالة تتداعى على أقلام رواد الكتابة الأول كما عُرفت عند رائديها في فرنسا وانجلترا[1] .

وما أن يصل الأمر إلى الجاحظ حتى نراه يمثل صحفي عصره في رسائله ، أو مقالاته ــ بالتسمية المعاصرة ــ أكمل تمثيل ، فهو «رجل شديد الانغماس في المجتمع ، وهو في الوقت نفسه غزير النتاج إلى درجة تلفت النظر ، ونتاجه هذا شديد الصلة بالأفكار الشائعة في عصره ، بل هو صورة دقيقة لما يحيط به في تلك البيئة العباسية من دين وسياسة وثقافة وأدب وعادات ، وتقاليد اجتماعية ، راقية»[2] ، يجسدها في أسلوب خال من الالتواء وضروب الصنعة «يعرض لما يشاء من الموضوعات اليسيرة ، فلا يجد مشقة ولا جهداً»[3] ، وهذا شأن كاتب المقالة الحقة في مختلف العصور وإن نأت ، ولنا من رسالة «التربيع والتدوير» وبعض صفحات «البخلاء» خير شاهد على قدرته الفائقة في التصوير ورسم مظاهر الحياة ــ وإن دقت ــ في نمط ساخر قد تأتي دونه سخرية أديسون وستيل (Richard Steele) في مقالاتها المشهورة، ولا ضير من الاستشهاد برأي قديم سيق في الغض من قدر الجاحظ ، غير أننا نراه شاهداً له لا عليه ، ذلك ما قاله بديع الزمان الهمذاني[5] في إحدى مقاماته : «هلموا إلى كلامه فهو بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات قريب العبارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من بديعه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة . .»[6] ، فعريان الكلام خير لباس للمعنى العابر في نفس الكاتب ، ومن شأن كاتب المقالة الابتعاد عن معتاص الكلام ، ويعد الإشارة من سمات المقالة التي لم يتح لها الوقت الكافي للاختمار في نفس الكاتب ، فكأني به يلقيها على عجل فيستغني بالإشارة ، ويكتفي بقريب العبارة عن تتبع شارد الاستعارات وجامح ضروب الصنعة .

ولو سارت كتابة الرسائل في هذا المضمار لهذب الزمن شوائبها ولبلغتنا مقالات كاملة

---

(1) محمد يوسف نجم : فن المقالة ص 17 بتصرف .

(2) عبد اللطيف حمزة : مستقبل الصحافة ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1961 م ط 1 ص 15 .

(3) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ص 614 .

(4) ريتشارد ستيل ، ولد سنة 1672م ، كاتب إنجليزي ، اشترك مع قرينه أديسون في تحرير «تاتلر» و«اسبكتيتور» الشهيرتين ، وله أعمال مسرحية ، لكن شهرته في المقالة قد لفتت إليه الأنظار أكثر من غيرها ، توفي 1729م ، انظر : الموسوعة ص 969 وللمزيد انظر : C. Bib. E. L. Vol 11 P 608 .

(5) أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بديع الزمان الهمذاني ، ولد بهمذان سنة 359هـ ، صاحب المقامات المشهورة ، توفي بهرات سنة 399 ، انظر : الموسوعة ص 333 .

(6) انظر : هامش رسائل بديع الزمان الهمذاني، المقامة الجاحظية، مطبعة أمين هندية، الموسكي، مصر 1928 م ، ص 72 .

الخلق والبنيان قبل أن يولد مونتيني بعشرات السنين ، لكن الجاحظ وما سن قد خلف من بعده خلفٌ تنكبوا الطريق السوي ، وأغرقوا في الصناعة اللفظية وغلّت أقلامهم بأغلال السجع وهيمن البديع على قرائحهم فغامت الخواطر وتلاشى الترسل الذي كان حرياً بإرساء قواعد هذا الجنس الأدبي ، وقد تشبث بعض الأدباء بالأسلوب الجاحظي كأبي حيان التوحيدي في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» و«المقابسات» ، غير أن مدّ الزخرف والتوشية قد احتوى هذا النسق في ما تلاه من عصور الأدب.

ومهما تكن درجة التوفيق في مثل هذه البدايات فإنها تظل حلقة غير موصولة بغيرها إذ جنح الكتاب إلى الألغاز والاحاجي ردحاً من الزمن ، وعصفت هجمات التتر المتوالية على الشرق العربي بما بقي من بذور ، فذبلت الحياة العلمية والأدبية في الوطن العربي ، وقضى المسيحيون على حضارة العرب في الأندلس ، وسادت فترة مظلمة لم يتخللها إلا بعض ومضات في العهدين الفاطمي والأيوبي في مصر ، ثم في عهد المماليك ، حيث اتجه أرباب الفكر إلى جمع التراث ووضعه من جديد «في كتب كبرى تشبه دوائر المعارف على نحو ما نعرف في صبح الأعشى للقلقشندي ، ونهاية الأرب للنويري ، ولسان العرب لإبن منظور»[1] ، وقد نبه ابن خلدون معاصريه إلى انحطاط الأساليب والانسياق وراء المحسنات اللفظية وترك الترسل ومزج لغة الشعر بالنثر فقال : «وصار هذا المنثور ــ إذا تأملته ــ من باب الشعر وفنه ، ولم يفترقا إلا في الوزن ، واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية ، وقصروا الاستعمال في هذا المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه ، وخلطوا الأساليب فيه ، وهجروا المرسل وتناسوه . .»[2] ، غير أنها صرخة في واد ، فلم يأبه أحد لما قال وسدر الكتاب في أسجاعهم من بعده طيلة خمسة قرون .

وقد أنهك الحركة الفكرية بصفة عامة والأدبية بصفة خاصة ما غشي الدولة من تفرق وتقسيم واستقلال كل وال بولايته وتعددت الدول وسادت العجمة وكسد سوق الأدب فقضى نحبه وسط توابيت التزلف والثناء ، أو قبع في زوايا التبتل والتغني بالمدائح النبوية والمواعظ الدينية ، وأخذت الذيول والحواشي ما بقي من جذوة الأدب فسقط في مستنقع الركاكة والضعف[3] .

(1) شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر في مصر ، دار المعارف مصر 1971 م ط 4 ص 19 .
(2) ابن خلدون : كتاب العبر ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ، بيروت 1961 م ط 2 المجلد الأول ص 1094 .
(3) أحمد أمين وزكي نجيب محمود : قصة الأدب في العالم جـ 3 القسم الأول ص 278 .

وكانت ثالثة الأثافي ما قام به العثمانيون من تحويل الكتابة في الدواوين إلى التركية ، فأصبحت العربية لغة ثانوية كباقي لغات شعوب الدولة العثمانية ، تحصر في إطار من المحلية يضيق ويتسع حسب مقتضيات الأحوال ، وفي هذا يقول روم لاندو[1] : «إن احتلال العثمانيين للعالم العربي في مطلع القرن السادس عشر لم يكن معناه القضاء على استقلال العرب فحسب ، ولكنه كان كسوفاً للثقافة العربية المستقلة»[2] .

وعلى الشاطىء الآخر كان الغرب يبني حضارة جديدة ، ويضع أساس نهضة في مختلفة العلوم من سياسة واقتصاد واجتماع وفنون وآداب ، بيد أن الشرق ظل يدور حول الساقية ، فيعود إلى النقطة التي ابتدأ منها ، حتى أوقفته سنابك خيل نابليون[3] ، وهي تدك معاقل مصر سنة 1798م ، فكان ذلك إيذاناً بالصحوة الكبرى .

ومن مصر امتدت خيوط الفجر بطيئة في البداية ، لكنها كانت مشرقة براقة في عصر النهضة .

---

(1) أستاذ الدراسات الإسلامية والشمال الافريقية في الأكاديمية الأمريكية للدراسات الأسيوية ، سان فرانسيسكو ، وكلية الباسفك في كاليفورنيا ، له العديد من المؤلفات في الفلسفة والدين وكتابة السيّر .

(2) روم لاندو : تاريخ المغرب في القرن العشرين ، ترجمة نقولا زيادة ، دار الثقافة ، بيروت 1963 م ، ص 51 .

(3) نابليون كارلو بونابرت ، ولد سنة 1769 بجزيرة كورسيكا ، خاض حروباً عديدة في أوروبا جعلته سيّدها فترة من الزمن ، غزا مصر سنة 1798 م ، توج امبراطوراً لفرنسا سنة 1804م ، أفل نجمه بعد هزيمته في حرب شبه الجزيرة سنة 1808م ، وانتهى به الأمر إلى التنازل عن العرش ، ومات منفياً سنة 1821 م ، انظر : الموسوعة ص 1812 .

المقالة العربية في عصر النهضة

يُرجع البحاث والنقاد حركة النهضة في العصر الحديث إلى حملة نابليون على مصر وما تلاها من بعوث إلى أوروبا ، غير أنّا نرى أن عوامل النهضة العربية الحديثة لها جذور أبعد من هذه الحملة .

ففي مطلع القرن السابع عشر المسيحي بدأت بذور النهضة في لبنان بعودة الأفواج الأولى التي تخرجت في المدرسة المارونية بروما ، واتسعت دائرة الاشماع لتشمل بلاد الشام كلها ، وترتكز في حلب لتصبح مع بداية لقرن الثامن عشر قاعدة للمبشرين ومركزاً للطباعة[1] .

ويزعم بعض الباحثين أنه بينما كان الأسلوب النثري في مصر يمر بمراحل التغيير والتحول كان أدباء الشام «يعدون أسلوب المقامة مجتلى فخارهم بمعرفة ذخائر اللغة وغريبها ، وقدرتهم الفائقة على محاكاة الحريري والقاضي الفاضل ، والسيوطي في أسجاعهم»[2] ، وأن النهضة في مصر قد لفتت أنظار أهل الشام فقرروا الإفادة منها بتحسين اللغة والأساليب في بلادهم ثم كانت الإرساليات، وانتشار اللغات الأوروبية من أهم روافد التجديد وعوامل النهضة ، في حين أن معظم مصادر الأدب تشير إلى أن أهل الشام قد اتصلوا بأوروبا قبل المصريين ، وأن النهضة الحديثة في مصر بدأت بداية علمية ، فقد ظل

(1) أسامة عانوتي ، الحركة الأدبية في بلاد الشام ، مطبعة الجامعة ، بيروت 1971 م ، من المقدمة بقلم فؤاد البستاني .

(2) George Makdisi. ED Arabic and Islamic studies in honor of hamilton A. R Gibb. (Leiden: E.J. Brill, 1965) . P 194.

اتصال المصريين بالغرب وقاصراً في أول الأمر على النواحي العلمية والفنية التطبيقية ، أما النواحي الأدبية فظل فيها الاتصال معدوماً أو كالمعدوم »[1] .

فلم يكن محمد علي[2] يهدف إلى نهضة فكرية بادىء الأمر ، بل كان يسعى لتأسيس جيش قوي يماثل الجيوش الأوروبية ، فاتخذت بعوثه منهجاً علمياً أثمر نهضة علمية تطبيقية طيلة النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ولم يبرز الأثر الأدبي إلا في النصف الأخير منه[3] ، ولعل مرد ذلك إلى احتياج التأثر والتأثير إلى فترة اختبار طويلة حتى يتشرب المتأثر الرافد الجديد ويتمثله تمثلاً جيداً .

ومن الباحثين من يرجع النواة الأولى للنهضة العربية الحديثة إلى فترة بعيدة نسبياً تعود إلى ابن تيمية[4]، الذي ظلت مبادئه وأفكاره «تنتقل في أصلاب الزمن من طور إلى طور حتى وجدت من يأخذ بها ويتخذها مصدراً لليقظة والنهضة»[5] .

وبعضهم يرجعها إلى دعوة محمد بن عبد الوهاب[6] ، التي استوت على سوقها في منتصف القرن الثامن عشر[7] ، وكان لها أصداء واسعة في الوطن العربي تمثلت في العديد من الدعوات الدينية كالحركة السلفية في المغرب ، والمهدية في السودان ، وغيرهما .

---

(1) شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر في مصر ، دار المعارف بمصر 1971 م ط 4 ص 170 .

(2) ولد بقوله في اليونان سنة 1769 م ، جاء إلى مصر في الحملة التي جردت لإجلاء نابليون وتدرج تدرجاً سريعاً بفضل ذكائه وحنكته في مدارج السياسة ، حتى طالب به المصريون والياً عليهم سنة 1805 م ، خاض حروباً عديدة أكسبته مكانة دولية مرموقة ، ونهض بمصر فأعادها إلى مصاف العالم الحي ومنها انطلقت شرارة النهضة العربية الحديثة ، توفي بالاسكندرية سنة 1849 م ، انظر : الموسوعة ص 1661 .

(3) طه حسين : حافظ وشوقي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1974م ط 1 ص414 .

(4) تقي الدين أحمد بن تيمية ، ولد سنة 662 هـ ، فقيه ومحدث ومتكلم ، ذكي الفؤاد ، صاحب مذهب في محاربة الصوفية ، من آثاره الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، والردّ على المنطقيين ، والرسائل والمسائل ، توفي مسجوناً بدمشق سنة 729هـ ، انظر : الموسوعة ص 12 .

(5) محمد بديع شريف وآخران : دراسات تاريخية في النهضة العربية ، دار اقرأ ، بيروت 1984 م ط 2 ص 20 .

(6) ولد في بلدة تسمى (عيينة)، في نجد، سنة 1703م ، تعلم على يد فقهاء الحنابلة رحل إلى المدينة والبصرة وبغداد وكردستان وهمذان وأصفهان ، وعاد إلى بلاده ليعتزل الناس ثم أذاع دعوته الجديدة في العودة إلى الأصول الأولى ونبذ ما سواها ، حورب وعُذب ثم تحالف مع ابن سعود أمير الدرعية سنة 1757م ، وذاع المذهب الوهابي نتيجة هذا التحالف ، من آثاره : كتاب التوحيد ، وتفسير الفاتحة ، وتفسير شهادة (أن لا إله إلا الله)، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكتاب الكبائر، توفي سنة 1792 انظر : الأعلام ط 5 جـ 6 ص 257 .

(7) طه حسين : ألوان ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1973م ، ص 425 .

ولسنا بصدد تحقيق أي هذه الروافد أقوى أثراً في بعث الحركة الفكرية ، في الوطن العربي ، فالمحقق أن النهضة نتاج ليقظة عقلية أحداثها الرجوع إلى التراث العربي القديم بتأثير من مناهج التفكير الغربي ، فكما عاد الغربيون إلى التراث اليوناني والروماني إبان نهضتهم عاد العرب إلى التراث العربي الإسلامي في عصور ازدهاره، ومن كليهما كان الانطلاق .

وما أن تهيأت أسباب النهضة ودفعت الطباعة بعجلتها حتى ظهرت المقالة العربية الحديثة مقترنة بظهور الصحف في الوطن العربي .

ولكي نلم إلماماً يسيراً يرشدنا إلى مسار المقالة في الوطن العربي نتتبعها في محاور ثلاثة ، في مصر وبلاد الشام ، وفي العراق وشبه الجزيرة ، ثم المغرب العربي .

ففي مصر أول ما ظهرت المقالة بدت من حيث الأسلوب امتداداً لعصر البديع والصناعة اللفظية ، يعنى كاتبها بتنميق ألفاظه دون كثير التفات إلى المعنى ، تعنّيه المقدمات الطويلة وتكرار الجمل المملة في المعنى الواحد ، وتصيد الجناس والمقابلة ، ورنين الأسجاع ، إلى آخر ضروب الصنعة الفجة ، واستغرقت هذه البداية وقتاً أطول مما يجب، فقد ظل كتّاب لهم لريادة في حركة البعث والاحياء ينهجون نفسه النّهج كما فعل رفاعة الطهطاوي[1] ، فلم يفد من اطلاعه على الأدب الفرنسي شيئاً من الناحية الأسلوبية ، فظل يرسف في أغلاله العتيقة حتى وهو ينقل عن لغة سلسة ، ويتحدث عن مواضيع غاية في الجدة، وتبعه تلاميذه وأرباب القلم في ما يكتبون على صفحات «الوقائع»، و«وادي النيل» و«الوطن» وغيرها من الصحف الأولى .

غير أن طبيعة الموضوعات ، وانتشار الوعي السياسي ، واهتمام الكتاب بقضايا عصرهم ، وتطلع الناس إلى من يكتب لهم بلغة غير مصنوعة تخاطب العامة مثل الخاصة قد حدّ من ذيوع أساليب الصنعة إلى جانب أنه قد شقّ على الكتّاب أن يسلخوا وقتاً طويلاً في التنميق والتدبيج ، فلم يعد يلائم الصحيفة ، والكاتب والقارىء ، من تلك الأساليب

---

(1) رفاعة رافع الطهطاوي ،ولد في طهطا سنة 1801م ، شيخ المترجمين المصريين في النهضة الحديثة ، عمل مديراً لمدرسة الألسن ، وقام بدور هام في إصدار (الوقائع المصرية) ، من آثاره : تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، ومباهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية ، توفي سنة 1873م ، انظر : الموسوعة ص 873 ، وكذلك : الأعلام ط 2 جـ 3 ص 55 .

شـيء إلا سؤر بقي حتى عهد قريب فيما يكتب المويلحي[1] والمنفلوطي[2] ، ومن شايعهما من الكتاب .

وبازدهار الطباعة ونشاط حركة الاحياء تنبه الكتاب إلى أن التراث أسلوباً مرسلاً أجدى مما هم فيه ، فعادوا إليه عودة الظامىء ويظهر هذا جلياً في مثل اقتفائهم أسلوب ابن خلدون[3] في ترسله بما احتوى ، حتى في بعض تعابيره غير الفصيحة مثل « لا بد وأن . . » و «ولا يترك شيئاً إلا وأحصاه» . . إلى آخره ، ما أثر عنه في جل مؤلفاته[4] .

ويرى بعض الباحثين أن نشأة المقالة في مصر ونشأتها في أوروبا متماثلتان حيث نمتا في ظل رغبة الشعوب في التحرر ، ففي أوروبا ظهرت القوميات المنسلخة عن العالم المسيحي الموحد ، وفي مصر ارتبط ظهور المقالة بحركة الانفصال القومية عن العالم الاسلامي متمثلاً في الخلافة [5] العثمانية .

وهذا رأي لا نطمئن إليه ، إذ لم يكن المناخ في مصر مهيأ لظهور المقالة عندما حاول محمد علي الانفصال بمصر ، ولم يتكون الرأي العام كي تخاطبه المقالة ولم يصح عزم السواد الأعظم على الإنفصال عن الخلافة إلا في فترة متأخرة ، حينها كانت المقالة قد تبوأت ذروة مجدها في مصر .

ومما خطا بالمقالة في مصر خطوات واسعة تأجج الشعور الوطني بتأثير من جمال الدين الأفغاني[6] ، ونشأة الحزب الوطني ، وسيادة الموضـوعات السيـاسية ، التي لا تلقي بـالاً

---

(1) إبراهيم المويلحي ، ولد سنة 1846م ، كاتب وشاعر مصري ، صاحب مجلة «مصباح الشرق» ، له مجموعة مقالات (ما هنالك) ناوأ فيها السلطة العثمانية ، توفي سنة 1906م ، انظر : الموسوعة ص 1794 .

(2) مصطفى لطفي المنفلوطي ، ولد في منفلوط بصعيد مصر سنة 1876 م ، اتصل بمحمد عبده ، وعاون علي يوسف في تحرير «المؤيد» ، من آثاره : النظرات ، والعبرات ، والشـاعر ، وفي سبيل التاج ، والفضيلة ، ومجدولين ، توفي سنة 1924 م ، انظر : الموسوعة ص 1762 .

(3) ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ، فيلسوف مؤرخ للحضارة العربية واضع علم الاجتماع ، ولد بتونس سنة 732 هـ ، من أشهر آثاره : كتاب العبر ، والمقدمة أشهر أجزائه السبعة ، توفي بمصر سنة 808 هـ ، انظر : مصادر الدراسة الأدبية ، يوسف داغر ، جـ 2 ص 285 ، وكذلك : الأعلام طـ 2 جـ 4 ص 106 .

(4) ابن خلدون : المقدمة ، تقديم : علي عبد الواحد وافي ، لجنة البيان العربي ، القاهرة 1965 م طـ 2 ص 160 .

(5) إبراهيم إمام : دراسات في الفن الصحفي ص 174 .

(6) محمد جمال الدين الأفغاني ، ولد سنة 1838 م ، فيلسوف ومصلح اجتماعي ، دعا إلى قيام الجامعة =

للزخرف اللفظي ، والغليان الذي مهد لثورة عرابي ، ثم ظهور الأحزاب السياسية زمن الاحتلال الانجليزي مما أفسح المجال للمقالة السياسية الملتهبة التي تجنح كثيراً إلى الخطبة في صميم خصائصها ، واتسعت لتضم سائر شجون الحياة الاجتماعية والفكرية ، واتخذ بعض كتاب المقالة نهجاً اتسم بالطابع التعليمي والتركيز الثقافي مما نأى بالمقالة عن مفهومها الحديث ، واقترب بها كثيراً من أدب الرسالة عند السالفين «فقد كانت كثرة الكتاب من أمثال هيكل والمازني والعقاد وطه حسين يعدون أنفسهم معلمين كما يعدون أنفسهم ناقلين للتراث الغربي»[1] .

وخلاصة القول أن المقالة في مصر نشأت من تيارين لا ثالث لهما ، أولهما تيار ينطلق من منطلق تراثي تدرّج من المزاوجة بين الأسلوب القديم والحديث ثم خلص إلى السلاسة والانطلاق وخلّف وراءه الصناعة وجرائرها ويمثله محمد عبده[2] وتلاميذه ، وآخرهما تيار انطلق من الثقافة الغربية ساعد على تأصله قدوم المهاجرين من الشام فراراًمن اضطهاد التّرك وهم ممن اتصل بالآداب الغربية اتصالاً وثيقاً، فأنتج أسلوباً به الكثير من خصائص الأدب الغربي ، ومن أبرز أعلامه أديب إسحاق[3] ، وسليم النقاش[4] ، وغيرهما .

ومن هذين التيارين برزت المقالة الحديثة بسمات أوضح وخصائص أبرز ، فتوارى

= الإسلامية في الشرق ، وعاش حياة يغشيها الصراع السياسي ، من أشهر آثاره : إبطال مذهب الدهريين ، وتتمة البيان في تاريخ الأفغان ، والعروة الوثقى بالاشتراك مع تلميذه محمد عبده ، توفي في الأستانة في ظروف غامضة سنة 1897 انظر : مصادر الدراسة الأدبية ليوسف داغر، جـ 2 ص 126 ، وكذلك : أعلام الأدب والفن لأدهم آل جندي جـ 2 ص 432 .

(1) شوقي ضيف : في النقد الأدبي ص 204 .

(2) محمد عبده بن حسن خير الله ، ولد في إحدى قرى مديرية الغربية بمصر سنة 1849م مصلح ديني واجتماعي ، ساهم في النهضة المصرية بجهد بالغ ، وهو أديب كاتب وخطيب من أشهر آثاره : شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني ، وشرح نهج البلاغة ، والإسلام والنصرانية وتفسير القرآن الكريم ، توفي سنة 1905 م ، انظر: الأعلام ط ـ 5 جـ 6 ص 252 .

(3) أديب إسحاق الدمشقي ، ولد بدمشق سنة 1856 م ، أديب صحفي من أعلام الكتابة في العصر الحديث ، أنشأ عدة صحف في مصر وبيروت وباريس ، من أشهر آثاره : نزهة الأحداق في مصارع العشاق ، وتراجم مصر في هذا العصر ، وروايات ترجمها عن الفرنسية منها أندروماك ، وشارلمان ، والباريسية الحسناء ، توفي بلبنان سنة 1885م ، انظر: الأعلام ط ـ 2 جـ 1 ص 274 .

(4) سليم بن خليل النقاش ، مؤرخ وكاتب لبناني ، شهدت مقالاته انتشاراً واسعاً في الصحف المصرية ، من آثاره : كتاب مصر للمصريين ، وله العديد من المسرحيات ، توفي بالاسكندرية سنة 1884م ، انظر: الأعلام ط ـ 1 جـ 3 ص117 .

النثر الفني شيئاً فشيئاً إلا من خطرات بعض الكتّاب ومحاوراتهم الخاصة التي لم تعد تعني عامة القراء.

وفي بلاد الشام ظلت حركة البعوث وانتشار المدارس الأجنبية المؤثر الفاعل في توجيه الحياة الفكرية ، ومن بيروت صدرت أول صحيفة أهلية في البلاد العربية[1] ، وبعد حوادث لبنان سنة 1860م ، آزرت الدول الاجنبية لبنان ليستقل استقلالاً ذاتياً ، فانتهج نظام المتصرفين الذي ترعرعت في ظله نهضة علمية وأدبية كانت المقالة إحدى ركائزها فيما كتب على صفحات «نفير سوريا 1860م» و (الزهرة 1870م) و(النحلة 1870 م) ، وغيرها ، تخطها أقلام رائدة «بأسلوب متين وعبارة طليّة بالرغم من الموضوعات العلمية التي كانت تعالج للمرة الأولى في اللغة العربية ، وبالرغم مما كان يشوب الألسنة والأقلام من عجمة تركية»[2] .

ومع انتشار المدارس التبشيرية والأجنبية في لبنان وسورية نشأ جيل أنكر العربية وتراثها ، وأصبح لا يرى إلا بعين الغرب ، وهو جيل لم يتمثل حضارة الغرب وثقافته ، بل تقمصها وتلبس بها ، ومن أمثلة هؤلاء فرنسيس مراش[3] ، الذي أخفق هو ومن سار على نهجه في التأثير على الثقافة العربية ومساراتها حيث وقف قبالته جيل آخر حافظ على تراثها وخطا به خطوة إلى الأمام فجاز به أساليب العصور الركيكة ، دون أن يسقط في مستنقع مسخ الآداب الأوروبي ، ومن هذا الجيل بطرس كرامة[4] ، والشيخ ناصيف اليازجي[5]

---

(1) حديقة الأخبار لخليل الخوري سنة 1858م ، انظر : الصحافة العربية لأديب مروة ص 151 .

(2) شفيق جحا وآخران : المصوّر في تاريخ لبنان ، دار للعلم للملايين ، بيروت 1960م ، ط 5 ص 217 ـ 218 .

(3) فرنسيس بن فتح الله بن نصر مراش ، ولد بحلب سنة 1836م ، كاتب وشاعر ، ضعيف اللغة من آثاره : رحلة إلى باريس ، وشهادة الطبيعة في وجود الله والشريعة ، وغابة الحق ، ومشهد الأحوال ، وديوان مرآة الحسناء ، توفي بحلب سنة 1873م ، انظر : الأعلام ط 2 جـ 5 ص 344 ، وكذلك: أعلام الأدب والفن لأدهم آل جندي جـ 2 ص 425 .

(4) بطرس إبراهيم كرامة الحمصي ، ولد بحمص سنة 1774م ، عمل في بلاط الأمير بشير الشهابي بلبنان ، وعمل ترجماناً في الباب العالي باستامبول ، شاعر له ثلاثة دواوين ، والعديد من المؤلفات لم يطبعها ، توفي بالأستانة سنة 1851 م ، انظر : أعلام الأدب والفن جـ 1 ص 36 .

(5) ناصيف بن عبد الله بن ناصيف اليازجي ، ولد بكفرشيما بلبنان سنة 1800 م ، درج في بيت من بيوتات الأدب العريقة ، فنشأ أديباً شاعراً ، عمل في بلاط الأمير الشهابي كاتباً ، ثم انقطع للتأليف والتدريس بمدارس بيروت المتعددة ، من أشهر مؤلفاته : مجمع البحرين ، ونار القرى في شرح جوف الفرا ، وفصل الخطاب في أصول لغة الأعراب ، والجوهر الفرد وطوق الحمامة ، توفي ببيروت سنة 1871م ، انظر : الأعلام ط 2 جـ 8 ص 314 ، وأعلام الأدب والفن جـ 2 ص 279 .

وابنه إبراهيم[1] ، وآل البستاني[2] الذين مزجوا التراث العربي بالفكر الغربي الحديث فكانت خطاهـم ثابتة على الطريق ، ومنارة في سماء النهضة العربية الحديثة حتى بددها الكبت العثماني ، بما جنى من خنق للحريات ، وإلجام للأقلام ، فهادنه من هادن ونزح الشرفاء إلى مصر والمهاجر الأخرى[3] .

ولم تصدر في دمشق حتى غروب القرن التاسع عشر إلا ثلاث صحف[4] ومجلتان ، وهي في مجموعها أصداء للسياسة العثمانية ، وتكاد تقتصر على تغطية النشاط الرسمي للدولة ، وكثيراً ما كانت تتعرض للمصادرة ودفع الغرامات المرهقة[5] .

وفي حلب كان الكواكبي[6] أصدر صحيفة الاعتدال سنة 1879م ، ومن خلالها بثّ مبادئه الإصلاحيه ، وكثيراً ما حوربت سراً وعلانية ، ومن قبل أخفق في إصدار «الشهباء» سنة 1877م ، فتوقفت بعد صدور العدد الثاني[7] ، وبعد العودة للعمل بالدستور العثماني سنة 1908م انهمر سيل من الصحف والمجلات في سوريا بلغ حداً لافتاً للنظر[8] .

---

(1) إبراهيم بن ناصيف بن عبد اللّه اليازجي ، ولد ببيروت سنة 1847 م ، أديب عالم أنشأ في مصر مجلة «البيان» و مجلة «الضياء» ، حسّن حروف الطباعة العربية ، وأسهم بجهد قيم في التعريب ، من أشهر آثاره : الفرائد الحسان من قلائد اللسان ، ونجعة الرائد في المترادف والمتوارد ، وديوان شعر ، توفي بالقاهرة سنة 1906 م ، انظر : الأعلام طـ2جـ 2ص72 ، وكذلك : أعلام الأدب والفن جـ 1ص 45 .

(2) بطرس 1819 ــ 1883 م ، وسليم 1848 ــ 1884 م ، من علماء اللغة والأدب أصدر العديد من الصحف ويعد بطرس من أعلام النهضة في بلاد الشام ، من أهم آثاره : محيط المحيط ، ودائرة المعارف ، وقد عمل ابنه سليم معه في تحرير الصحف وإعداد الموسوعة ، انظر : الموسوعة ص370 ــ 371 .

(1) جودت الركابي : الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ، دار الفكر ، دمشق 1974 م ، طـ 1 ص 316 .

(4) الصحف هي : سورية ، ودمشق ، والشام ، والمجلتان هما : مرآة الأخلاق والشمس .

(5) أسكندر لوقا : الحركة الأدبية في دمشق ، مطابع ألف باء الأديب ، دمشق 1976 م ، ص 158 ــ 159 .

(6) عبد الرحمن بن أحمد بهائي بن محمد مسعود الكواكبي ، ولد بحلب سنة 1849 م تقلب في العديد من الوظائف الإدارية والقضاء الشرعي ثم سجن واضطهد ، فطوف في الآفاق ، حتى قرّ في مصر ، وله مساهمة صحفية فاعلة ، من أبرز آثاره : طبائع الاستبداد ، وأم القرى ، توفي بالقاهرة سنة 1903 م ، انظر : أعلام الأدب والفن جـ2 ص12 .

(7) كان أصدرها بالاشتراك مع هاشم عطار وميخائيل صقال .

(8) بلغ عدد الصحف الصادرة في دمشق 41 صحيفة و7 مجلات ، وبلغ مئة صحيفة ومجلة في سوريا كلها ، انظر : ملحقاً بأسماء الصحف في كتاب «الحركة الأدبية في دمشق» لاسكندر لوقا ، وكذلك : «تاريخ الصحافة العربية» للطرازي .

وهي وإن كانت قد «أسهمت في نشأة المقالة كفن أدبي متميز»[1] فإنها ظلت محصورة في نطاق المقالة السياسية في معظمها ، حتى أن الأدباء المشهورين مثل محمد كرد علي[2] ، وشكري العسلي[3] ، وماري عجمي[4] ، قد استغرقتهم الدوامة السياسية ، فانقسم كتّاب المقالة إلى فئتين ، فئة تناصر الدولة العثمانية وتراها وتد الوحدة الاسلامية ، وفئة تدعو للعروبة ، وتناوىء التتريك الذي يحمل مشعله حزب الاتحاد .

غير أن السمة الظاهرة في جميع الأقطار التي ظلت تابعة للخلافة العثمانية ــ ومن بينها بلاد الشام ــ هي الخمول الفكري ، فأنى للمقالة أن تزدهر في موطن كبلته العجمة ، وخدرته مقامع العسف العثماني .

أما فلسطين فلم تكن عبر تاريخها العربي الطويل وحدة مستقلة ، فهي إمّا جزء من بلاد العرب أو تتبعها بعض البلاد المجاورة ، ولم تحظ يوماً بمركز من مراكز الحكم ، وقد جانبها الرخاء الاقتصادي في معظم تاريخها ، لكل هذه العوامل لم ينفق سوق الأدب فيها ، وبالرغم من ذلك فقد أمدت تاريخ الأدب بأعلام لا ينكر أثرهم في إثراء الحركة الفكرية عبر العصور[5] .

وإذا كانت النهضة الفكرية في الأقطار المجاورة قد خطت خطوات واسعة فإن مبلغ العلم بفلسطين كان ارتياد الكتاتيب وبعض المدارس الإعدادية ، وسقف المعرفة كان

---

(1) مجلة الأديب ، عدد مايو 1945 م ، مقالة عنوانها «الحياة الأدبية في فلسطين» بقلم إسحاق موسى الحسيني .

(2) محمد بن عبد الرزاق بن محمد كرد علي ، من أسرة كردية أيوبية ، ولد بدمشق سنة 1876 م ، عمل في تحرير العديد من الصحف ، وأسس المجمع العلمي بدمشق ، ودرّس الأدب العربي في معهد الحقوق ، وأصبح وزيراً للمعارف سنة 1928 م ، من أشهر آثاره : خطط الشام ، وغرائب الغرب ، وغابر الأندلس وحاضرها ، وتاريخ الحضارة القديم والحديث ، توفي سنة 1953 م ، انظر : أعلام الأدب والفن جـ 1 ص 236 .

(3) شكري بن علي بن محمد العسلي ، ولد في دمشق سنة 1868 م ، تقلب في العديد من المناصب الحكومية ، وأصدر جريدة «القبس» ، واشتغل بالمحاماة ، ناوأ الدولة العثمانية مطالباً بعدم المركزية ، من آثاره : القضاة والنواب ، والخراج في الاسلام ، والمأمون العباسي ، حكم عليه العثمانيون بالإعدام سنة 1916 م انظر : الأعلام ط 5 ج 3 ص 172 .

(4) ماري بنت عبدوين نقولا عجمي ، ولدت بدمشق سنة 1888 م ، تعلمت في المدرسة الروسية الارلندية ، ومارست التعليم لفترة قصيرة ، ثم انخرطت في سلك الصحافة ، وأصبحت من أعلامها في الاسكندرية ، وبيروت ، ودمشق ، وهي صاحبة مجلة «العروس» المشهورة ، انظر : الأعلام ط 5 جـ 5 ص 254 ، وكذلك : أعلام الأدب والفن جـ 2 ص 331 .

(5) مجلة الأديب عدد مايو 1945 م «الحياة الأدبية في فلسطين» إسحاق موسى الحسيني .

المكتب السلطاني في القدس[1] ، حتى إذا هاجر بعض المتعلمين إلى أوروبا أو تركيا ثم عادوا حاصرهم ضيق النطاق التعليمي وشغلتهم مكابدة العيش ، فلم تظهر الصحف إلا بعد صدور الدستور العثماني سنة 1908م ، حيث صدرت «النفير» في القدس [2] ، و «الكرمل» في حيفا ، و «الأخبار» في يافا ، وغيرها ، وكانت المقالة قد ولدت على صفحات هذه الصحف مكتملة البنية ، واضحة القسمات ، وما ذلك إلا «لأنها بدأت في مرحلة كانت فيها الصحافة قد نضجت في البلاد المجاورة»[3] ، فأعفى هذا الكتّاب من التعثر في طريق قد عبّده سواهم منذ القرن الماضي، فقد تلقف هؤلاء دعوات التجديد، ولم يقف في صف السلفية إلا قلة آزرت زعيم هذا المنزع محمد إسعاف النشاشيبي [4] في معاركه الأدبية مع فريق المجددين من أمثال خليل السكاكيني[5] وخليل بيدس[6] ومن سار على نهجهما من الذين[7] جنحوا إلى النأي عن المقالة الفنية وسلكوا سبلاً أشبه بالكتابة اليومية الرخصة ، ويرجع بع الباحثين هذا الاتجاه في كتابة المقالة إلى عنصرين أولهما : الانبهار بمعطيات الحضارة المادية الأوروبية وما يتبعه من سيادة الأسلوب المستحدث الخالي من صيغ

---

(1) ناصر الأسد : الاتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن ، مطبعة البيان العربي ، القاهرة 1957 م ص 27 .

(2) صدرت صحيفة النفير العثماني في الاسكندرية لصاحبها إبراهيم زكا سنة 1904 م ، ثم انتقلت إلى القدس سنة 1908 م ، وقام بأمرها إيليا زكا وسماها «النفير» ، انظر : الصحافة العربية ، لأديب مروة ، ص 217 .

(3) عبد الرحمن ياغي : حياة الأدب الفلسطيني الحديث ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت 1968 م ص 80 .

(4) محمد إسعاف بن عثمان بن سليمان النشاشيبي ، ولد بالقدس سنة 1885 م ، أو 1882 م ، رأس تحرير مجلة الأصمعي ، والنفائس ، وكتب في المنهل وغيرها من الصحف الأخرى ، عضو في المجمع العلمي العربي بدمشق ، من آثاره : أمثال أبي تمام ، ونقل الأديب ، وأمالي النشاشيبي ، والإسلام الصحيح ، توفي بالقاهرة سنة 1948 م ، انظر : الأعلام ط 5 جـ 6 ص 30 .

(5) خليل السكاكيني ، ولد بالقدس ونشأ بها ، أديب وشاعر ، اشتغل بالتدريس في فلسطين ومصر ، وكان عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق ، من آثاره : مطالعات في اللغة والأدب ، ما تيسر ، لذكراك ، فلسطين بعد الانتداب ، أغاني تموز (شعر) ، توفي سنة 1953 م ، انظر : مصادر الدراسة الأدبية ، داغر ، جـ 2 ص 458 .

(6) خليل بيدس ، ولد بالناصرة سنة 1875 م ، أديب عمل في الصحافة لأمد طويل ، فأنشأ مجلة «النفائس العصرية» في حيفا والقدس ، وعمل بالتدريس في العديد من مدن فلسطين ، من آثاره : مسارح الأذهان ، والعقد النظيم في أصل الروسيين واعتناقهم الايمان القويم ، توفي سنة 1949 م ، انظر : مصادر الدراسة الأدبية ، داغر ، جـ 2 ص 213 .

(7) أمثال : بولس شحادة ، وعيسى العيسى ، وحنا العيسى .

البناء الفني ، ومن جنوح إلى تقرير الحقائق العقلية ، والاقتصاد في التعبير ، وآخرهما : خشية الكتاب من الاتهام بعدم المعاصرة والتمسك بالأساليب القديمة البالية[1] .

ونحن لا ننكر أثر الحضارة الأوروبية في أسباب تطور الأسلوب المقالي غير أنا لا نراه على هذه الصورة بل نرى أن هذا الصراع هو امتداد طبيعي لحركة النهضة العربية في البلاد المجاورة .

ويمكن أن نخلص إلى أن المقالة في فلسطين قد سارت في اتجاهات ثلاثة ، الأول : اتجاه يعنى بالأساليب القديمة ويمتح منها قدر حاجته دون تقليد جامد واحتذاء ركيك ويمثله النشاشيبي ، والثاني : اتجاه ينزع إلى التجديد ويحفز تنميق الأساليب وولوج مجاهل اللغة ويمثله السكاكيني ، والثالث : اتجاه جمح إلى المادية مخلفاً وراءه مدارج الخيال إلا إذا قامت على أسس طبيعية ، ويمثله العديد من الكتاب من أبرزهم عبد الله[2] مخلص[3] .

أما العراق فقد شغل بصراعاته القبلية بعيداً عن مؤثرات النهضة في بلاد الشام ومصر ، فالصحف العربية لا تتداول إلا بين القلة النادرة ، ثم منع هذا التداول بقرار من الحكومة التركية[4] ، ولم يشهد العراق في فترة النهضة الحديثة إلا بارقة أمل سرعان من خبت ، تلك هي فترة حكم داود باشا[5] (1815 ـ 1830) الذي يبدو أنّه كان يحاول الاستقلال بالعراق ، وبناء دولة مستقلة كما فعل محمد علي في مصر ، غير أنَّ الأقدار لم تساعده على تحقيق غايته كاملة ، ولكنه وضع اللبنة الأولى حينما جمع حوله العلماء والأدباء والشعراء، وسعى لبناء دولة علمية قوامها العلم والنهضة الفكرية[6]، ومن بعده أنشئت

---

(1) ناصر الأسد : الاتجاهات الأدبية الحديثة ، ص 91 .

(2) عبد الله بن محمد بن عبد الله مخلص ، ولد في عينتاب من أعمال حلب سنة 1878 م ، أديب وكاتب له اهتمامات بالتأريخ ، مارس الكتابة في الصحف السياسية والأدبية ، من آثاره : المسلمون والنصارى ، وتاريخ الخليل ، وسيرة السلطان محمد الفاتح (ترجمة) توفي سنة 1947 م ، انظر : الأعلام ط 5 ص 134 .

(3) عبد الرحمن ياغي ، حياة الأدب الفلسطيني الحديث ص 400 .

(4) عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة1968 م ، ص 458 .

(5) من أبرز رجال الدولة العثمانية في العصر الحديث ، ولد في القسطنطينية سنة 1774 م ، عرف بميله للإصلاح ، تقلب في العديد من المناصب ، حاول الاستقلال بالعراق لكن الطاعون والفيضان جعلاه يستسلم لمندوب الخليفة ، توفي سنة 1851 م ، انظر : داود باشا ونهاية المماليك في العراق ليوسف عز الدين ، ص 23 وما بعدها .

(6) يوسف عز الدين : داود باشا ، منشورات دار البصري ، بغداد 1967 م ، ص 36 وما بعدها .

جريدة «الزوراء» سنة 1869 م ، وحاولت هذه الصحيفة أن تثير الهمم وتوقظ الأفكار من سباتها بتوجيه النقد والمطالبة بالعمل البناء ، فأخذت بعزل منشئها وعادت لسان حمد للدولة العلية ، وصفحة إعلانات لقرارات التعيين والعزل وباقي أمور الولاية[1] .

وانقضى القرن التاسع عشر وقرابة عقد من القرن العشرين وليس في العراق إلا ثلاث صحف هي (الزوراء) و(الموصل) و(البصرة) ، يقوم بأمرها أعاجم أو هم كالأعاجم ، فكان أسلوب المقالة مفككاً ، ركيكاً ، تتنازعه عوامل الضعف والعجمة بعيداً عن الذّوق العربي الأصيل[2] .

ولم يخط أسلوب المقالة في العراق خطواته الثابتة إلا بعد أن حررها أدباء عرب من أمثال فهمي المدرّس[3] ، وطه الشّواف ، وعبد الحميد الشاوي[4] .

وبعد صدور الدستور سنة 1908 م انهمر سيل من الصحف في العراق لا يتناسب مع المستوى الثقافي اليافع ، الأمر الذي أدى إلى احتجاب أكثرها وهي في طور المهد ، وشابت الحياة الفكرية فترة ركود حتى هزتها صدمة فشل ثورة العراق سنة 1920 م ، فبصرّت العيون بمدى قوة الغرب وتقدمه ، فاتجه روّاد الفكر وزعماء الوطنية وجهة التحديث ونشر التعليم ومناقشة نظريات الغرب وأفكاره ، يرفدهم في هذا ما يصلهم من الصحف المصرية والمذهب التجديدي الذي صدع به جماعة الديوان ، وبرزت مجلة (الإصابة) للزهاوي[5] في الدعوة إلى تجديد غلالة اللغة ، وتطوير الأساليب ، وجهرت جريدة (الصحيفة) بالدعوة إلى التحرر من كل قديم ، وكانت عاصفة في هدمها متعجلة في نقض ما أبرمه الأقدمون ،

---

(1) يوسف عز الدين : القصة في العراق ، مطبعة القاهرة ، القاهرة 1974 م ص 11 .

(2) يوسف عز الدين : تطور الفكر الحديث في العراق ، مطبعة أسعد ، بغداد 1976 م ص 24 .

(3) فهمي بن عبد الرحمن بن سليم الخزرجي الموصلي ، ولد سنة 1873م ، كاتب عراقي شارك في النهضتين الفكرية والسياسية في العراق ، تقلب في العديد من الوظائف في العهد العثماني وبعده ، عمل بالتدريس والصحافة ،من آثاره : مقالات سياسية تاريخية اجتماعية ، وحكمة التشريع الاسلامي ، توفي 1944 ، انظر : الأعلام ط 5 جـ5 ص 158 .

(4) لم أعثر لها على ترجمة .

(5) جميل صدقي بن محمد فيضي الزهاوي ، ولد ببغداد سنة 1863م ، شاعر وأديب قضى حياته مستوفزاً حانقاً ، تقلب في العديد من الوظائف في الدولة ، والتدريس ومارس الكتابة الصحفية في أشهر الصحف العربية ، من آثاره : مجموعة دواوين شعرية ، والشذرات ، ونزغات الشيطان ، وعيون الشعر ، وكتاب الكائنات ، والفجر الصادق ، توفي سنة 1936 م ، انظر : أعلام الأدب والفن جـ2ص 196 .

وتبعتها في هذا (مرآة الأخلاق) و(الوميض) اللتان كانتا مدرسة تخرج فيها أبرز كتّاب المقالة في العراق الحديث[1] .

وكان الاتجاه واضحاً فالنهضة في مصر قد آتت أكلها فتلقف العراق ثمارها وقد استوت على سوقها ، فهجر الكتّاب في مقالاتهم أسلوب السجع والانتقاء إلى أسلوب الترسل والصفاء ، فخلصت المقالة من قيود التفكير المحدود ، وانطلقت نحو آفاق رحبة فطوت المسافات بينها وبين باقي البلاد العربية التي سبقتها في مضمار النهضة ، وتشرب المقاليون كما تشرّب غيرهم أفكار الأفغاني والشيخين محمد عبده ورشيد رضا[2] ، واحتذوا حذو شكيب أرسلان[3] وأديب إسحاق وغيرهم من أعلام النهضة وجلة المفكرين ، وقد بقي للأسلوب القديم أثارة من الكتاب الذين اشتد عودهم قبل صدور الدستور وذيوع أسلوب الترسل فعزّ عليهم أن يفارقوا ما ألفوا فمضوا في رصفهم القديم ومبالغاتهم ومترادفاتهم حتى غمرهم طوفان الحداثة فآلت أقلامهم إلى البوار .

ولم تكن الجزيرة أفضل حالاً من العراق ، فقد كان الحجاز نهباً «للعبث السياسي والتدهور الاقتصادي ، حيث تقاسم سياسة البلاد رجل البادية بأعرافه وعاداته في بوادي الحجاز ، وشريف مكة الجائر في تشريعاته في حواضرها والوالي التركي البصير بأهدافه ومخططاته الاستفزازية ، وتفرق الشعب إلى طبقات مستذلة»[4] ، وفي هذه الأجواء الخانقة يعسر ميلاد نهضة فكرية أو بعث حركة أدبية كانت هذه البلاد مسرحاً لها في تاريخها الغابر ، فلم تولد أولى الصحف إلا سنة 1908[5] ، حيث صدرت في مكة صحيفة (حجاز) وكباقي

---

(1) من أشهرهم : معروف الرصافي ، ولطفي بكر صدقي ، وعبد الوهاب الأمين ، وإبراهيم صالح شكر ، ومصطفى علي .

(2) محمد رشيد بن علي رضا القلموني ، ولد في القلمون بلبنان سنة 1865 م ، من رجال الإصلاح الديني والاجتماعي ، تتلمذ على الشيخ محمد عبده، من آثاره: مجلة المنار، وتفسير القرآن الكريم، وتاريخ محمد عبده ، والوحي المحمدي والخلافة ، توفي سنة 1935 م ، انظر : الأعلام ط 2 جـ 7ص 361 .

(3) شكيب أرسلان ، ولد في الشويفات بلبنان سنة 1870 م ، أحد أعلام اليقظة العربية المعاصرة ، يعد في قائمة المصلحين الاجتماعيين والدينيين ، وهو عضو في المجمع اللغوي العربي بدمشق ، كتب مقالات تعد من النماذج الرائدة ، من آثاره : تاريخ غزو العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، والحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، ولماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم والباكورة (شعر) وديوان شكيب أرسلان ، توفي سنة 1946 م ، انظر : الأعلام ط 2 جـ 6ص 96 وأعلام الأدب والفن جـ 2 ص 364 .

(4) إبراهيم الفوزان ، إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة ، مطابع الفرزدق التجارية الملز 1981 م ، ص 53 .

(5) ثمة تضارب في تاريخ صدور هذه الصحيفة ، حيث ذكرت عدة مصادر بأن تاريخ صدورها هو سنة =

الصحف الرسمية كانت تهتم بالأوامر السلطانية بالدرجة الأولى ، غير أن المقالة الأدبية قد حظيت بنصيب موفور فيها، وشدّ من عضد هذه المقالة ما كتبه الأدباء من الأقطار العربية الأخرى.

وما أن أهلّ عام 1909م ، حتى كانت النهضة الفكرية قد أعلنت عن نفسها من خلال تدفق سيل عرم من الصحف كان بعضها يناوىء السلطة مثل «شمس الحقيقة» التي تطورت المقالة السياسية في الحجاز على صفحاتها ، واتخذها شباب الاتحاد والترقي لساناً يذيع مقالاتهم الأدبية والاجتماعية والاقتصادية ، يميزهم أسلوب هزلي ساخر كان فيما بعد أنموذجاً يحتذى في العديد من الصحف الحجازية .

وقد أفاد كتّاب المقالة في الحجاز كثيراً من النهضة العربية في مصر والشام فسرعان ما خلفوا وراءهم أساليب الصناعة البديعية ـ «التي فرض وجودها الثقافة المحدودة باللغة العربية ، وانتشار اللهجات العامية وبعض الألفاظ التركية والفارسية وغير ذلك الكثير من لغات ولهجات الحجاج»[1] ـ دون صراع ، وغمرت بمدّ اليسر والسلاسة ، وهذا مرده إلى تأخر ظهور المقالة عندهم حتى جاءتهم وقد جازت طور النشأة منذ أمد طويل .

غير أن ما يميز المقالة في الحجاز هو علو النغم الشعري فيها ، وصبغ الأساليب النثرية بلون شعري ، ولعلّ هذا يرجع إلى أنّ معظم كتاب المقالة في الحجاز من الشعراء مثل محمد سعيد العامودي[2] وعبد الله عريف ومحمد سرور والنقشبندي[3].

وهناك نمط آخر من كتاب المقالة اتخذ من الواقعية مسلكاً فجاءت مقالاتهم خطاباً للعقل وفق تسلسل منطقي وفكرة واضحة[4] ، وبهذا «خلّص كتاب المقالة في صحف البعث ــ التي صدرت قبل الثورة ــ (ثورة الشريف حسين) النثر من السجع ومن سائر القيود التي كان يرسف فيها ، واعتبروا المعنى هدفاً في سائر ما يكتبون ، بدل أن كان

= 1883 م ، ومن هذه المصادر : التيارت الأدبية لعبد الله عبد الجبار ، ومن تاريخنا لمحمد سعيد العامودي ، انظر : هامش الأدب الحجازي الحديث ، للفوزان جـ 1ص 243 .

(1) إبراهيم الفوزان : الأدب الحجازي الحديث بين التقليد والتجديد ، مكتبة الخانجي القاهرة 1981 م ، ط 1 ص 214 .

(2) ولد بمكة سنة 1906 م ، تعلم بمدرسة الفلاح بمكة ، وتقلب في الوظائف الحكومية من بداية العهد السعودي ، كتب في الصحف السعودية والعربية الأخرى ، ورأس تحرير مجلة الحج ، من أشهر آثاره : من تاريخنا ، وأعلام المكيين ، انظر : أعلام الأدب والفن جـ 2 ص 505 .

(3) لم أعثر لهم على ترجمة .

(4) من هؤلاء : عبد السلام عمر ، وأحمد العربي ، وأمين عقل ، وأحمد جمال ، ومن حذا حذوهم .

الأسلوب هو الذي يحتل المقام الأول»[1] ، وما أن قام الشريف حسين[2] بثورته سنة 1916 م حتى كانت صحيفة (القبلة) منبر القوميين العرب حيث «وصلت المقالة الأدبية والسياسية والاجتماعية أعلى مستوياتها»[3] واحتضنت العديد من الكتاب العرب الفارين من اضطهاد الأتراك في البلاد العربية المجاورة[4]، وميزّ هذه الفترة وجود كتّاب شبه متخصصين في المقالة السياسية وكتاب للمقالة الأدبية ، وكتاب للمقالة الاجتماعية ، ميزهم جميعاً صدورهم عن معين الثقافة العربية دون سواها .

وعلى ضفاف الخليج العربي أفاق مارد الأدب من سباته على صوت دعاة التجديد والمصلحين الذين وفدوا على المنطقة مثل الشنقيطي[5] والثعالبي[6] وأمين الريحاني[7] ، وشاركوا في العملية التعليمية، وإرساء أسس النهضة، ومن ثم أرسلت البعوث إلى المعاهد الإسلامية كالأزهر والنجف وغيرهما ، وقفزت المقالة قفزات سريعة على يد طليعة من الكتاب يعتبرهم تاريخ الأدب من رواد النهضة الحديثة في الخليج مثل عبد العزيز الرشيد[8]

---

(1) الفوزان : الأدب الحجازي الحديث ص 244 .

(2) الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين الحسني الهاشمي ، ولد بالأستانة سنة 1854 م ، شغل منصب عضو في مجلس الشوري العثماني ، أول من استقل عن الترك من العرب حين ثار عليهم سنة 1916 م ، خاض صراعاً ضد ابن سعود انتهى بعزله وتولية ابنه عبد الله ، قضى أيامه الأخيرة في منفاه بقبرص ، وتوفي بعمان ودفن بالقدس سنة 1931 م ، انظر : الأعلام ط 5 جـ 2ص 249 .

(3) الفوزان : الأدب الحجازي الحديث ص 248 .

(4) من هؤلاء : محي الدين الخطيب من حلب ، وفؤاد الخطيب من لبنان ، وأحمد الكردي من فلسطين ، وعبد الله حمود من السودان ، وغيرهم كثير .

(5) محمد محمود بن أحمد التركزي الشنقيطي، ولد بشنقيط، ورحل إلى العديد من الأقطار العربية، من آثاره : الحماسة السنية في الرحلة العلمية ، وإحقاق الحق ، وعذب المنهل ، توفي بالقاهرة سنة 1904 م ، انظر : الأعلام ط 5 جـ7 ص 89 .

(6) عبد العزيز الثعالبي ، ولد بتونس سنة 1874 م ، وهو مصلح وكاتب صحفي ، أصدر عدة صحف في تونس ، وكتب في صحف عربية متعددة ، من آثاره : حياة سيدنا محمد ، روح القرآن توفي سنة 1944 م ، انظر : مصادر الدراسة الأدبية ، ليوسف داغر ، ص 243 .

(7) ولد بقرية الفريكة بلبنان سنة 1876 م ، هاجر إلى أمريكا وعاد منها ليبدأ سلسلة من الرحلات سجّل بعضها في مؤلفاته ، كتب في العديد من الصحف العربية والأمريكية من آثاره : موجز تاريخ الثورة الفرنسية ، والريحانيات ، والنكبات ، وأنتم الشعراء ، توفي سنة 1940 م ، انظر : الأعلام ط 5جـ2ص 18 ، و : أعلام الأدب والفن جـ2ص 384 .

(8) عبد العزيز بن أحمد الرشيد البداح ، ولد سنة 1883 م ، أديب كاتب ومؤرخ ، أصدر مجلة الكويت ، من آثاره : تاريخ الكويت ، والدلائل البينات في حكم تعلم اللغات ، توفي بجاوة سنة 1938 م ، انظر : الأعلام ط 5 جـ4 ص 15 .

الذي أنشأ مجلة «الكويت» ، فكانت لسان حال رواد النهضة[1] في منطقة الخليج[2] .

وتراوح أسلوب المقالة في الخليج بين مترسل خال من الكدر والتكلف ومتمسك بأساليب الصنعة ويبهرجها الزخرفي غير آبه بتيارات الوعي من حوله ، فسدر يطارد السجعة تلو السجعة ، وينعطف خلف الشاهد وإن كلفه شططاً[3] .

وفي طرف قصي من الجزيرة العربية عاش اليمن في عزلة قاحلة كانت امتداداً طبيعياً لتحول القيم الفعالة في الحياة إلى دمشق وبغداد وشمال أفريقيا في العصور الاسلامية الأولى ، وهو وإن عاش فترة زاهية أدبياً وعلمياً ـ في حين ذبل الشرق والغرب العربيان ـ طيلة القرنين السابع والثامن عشر ، إلا أنه ظل أسير عزلته لا يبرح حدودها حتى فترة قريبة ، وعانى تمزقاً سياسياً لم يتح الفرصة لظهور الحركة الفكرية إلا بعد عودة البعثات من الوطن العربي[4] ، فكانت نهضة اليمن في النصف الأخير من القرن العشرين ، يتصدرها الشعر على أيدي شعرائه[5] الذين ربطوا قضية الوطن بالصحوة واليقظة اليمانية[6] .

أما المقالة فقد أدّت دوراً ثانوياً حتى أن الإمام عزف عن صياغة قراراته نثراً ، فكان يكتبها شعرا ، وينشرها في صحيفة (الإيمان) ، ومن قبل كانت صحيفة (صنعاء) منذ سنة 1879 م ، لسان الحاكم التركي ، ويشرف عليها المتصرف العثماني ، فلم ينشأ فن المقالة ولم يؤت أكله إلا مع إطلالة النصف الأخير من هذا القرن .

وفي تونس حين تولى المشير أحمد باشا[7] الحكم سنة 1837 م ، التفت ناحية المشرق العربي وقرر الاستفادة من اتجاهات النهضة المصرية فابتدأ خطوات الاصلاح التي ابتدأ بها

---

(1) عبد الله آل مبارك : أدب النثر المعاصر في شرقي الجزيرة العربية ، مطبعة القاهرة ، القاهرة 1970 م ص 54 وما بعدها .

(2) من هؤلاء الرواد : إبراهيم بن محمد آل خليفة من البحرين ، وعبد الله الزايد صاحب جريدة البحرين ، وأحمد البشير الرومي .

(3) محمد حسن عبد الله : الحركة الأدبية والفكرية في الكويت ، مطبعة رابطة الأدباء في الكويت ، الكويت 1973 م ، جـ1 ص 373 ـ 376 .

(4) عبد الله البردوني : محاضرة عن الحياة الثقافية في اليمن ، ألقاها بقاعة الوحدة العربية ببنغازي في شهر أبريل سنة 1987 م .

(5) من هؤلاء الشعراء : محمد محمود الزبيري ، ومحمد عبده غانم ، وعلي محمد لقمان .

(6) عبد العزيز المقالح : الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن دار العودة ، بيروت 1974 م .

(7) أحمد بن مصطفى بن محمود بن محمد الرشيد باي تونس ، ولد بتونس سنة 1806 م ، من رجال الإصلاح المعروفين ، توفي سنة 1855 م ، انظر : الأعلام طـ2 جـ1 ص 242 .

محمد علي ، فأنشأ مكتب العلوم الحربية ، واستقدم الضباط الأجانب ، والأساتذة الأوروبيين ، وكما حدث في مصر كانت البداية علمية تطبيقية ثم تدرجت إلى النهضة الأدبية وانتقلت «انتقالاً نبع به التيار الفكري الجديد الذي دفع بالحياة الفكرية والأدبية إلى الأطوار التي اقترنت بعهد الاحتلال الفرنسي وتسلسلت بعده»[1] .

وكان الوزير خير الدين[2] مخطط هذه النهضة ورائد فكرة الإصلاح معتمداً على قلم الشيخ محمود قبادو [3] الذي ترجم ولخص العديد من مؤلفات المفكرين الأجانب ، وتابعه تلاميذه على هذا مطبوعين بالاتجاه التحرري فنشأت قاعدة صلبة شيدت عليها دعائم الإصلاح الاجتماعي والسياسي ، ومدت الجسور الثقافية إلى المشرق بدرجة تكفي لذيوع فن المقالة ، غير أن هذا الأمر لم يحدث إلا بعد أربع عشرة سنة من صدور صحيفة (الرائد التونسي)[4] ، حيث نقلت مقالة عن (الجوائب) انثالت بعدها المقالات التعليمية والسياسية والاجتماعية بتحريض من الوزير خير الدين باشا وربما بقلمه[5] أحياناً ، ولم تخلُ هذه المقالات من ضروب الصنعة ، وإن لم تفارق أسلوب الترسل ، وقد ساهم في هذه الطفرة محمد بيرم[6] الخامس ، الذي آزر الوزير خير الدين في صراعه السياسي ضد مناوئيه في تونس وأيّده في اتجاهه التقدمي بمقالاته التي تعتبر «أول مقالات ظهرت في النثر السياسي في البلاد ، ذلك أن الاتجاه السياسي لم تعرفه صحافة تونس قبل هذا التاريخ ، إذ معظم ما

---

(1) محمد الفاضل بن عاشور : الحركة الأدبية والفكرية في تونس ، الدار التونسية للنشر تونس 1972 م ص 29 .

(2) خير الدين التونسي ، وزير المشير أحمد باشا ومن تلاه من حكام تونس ، ولد سنة 1810 م ، من أصل شركسي ، بيع طفلاً فاشتراه أحمد وكلاء أحمد باشا باي تونس ، مصلح ديني واجتماعي جاهد من أجل رقي تونس ، تقلّد منصب وزير في الدولة العثمانية ثم رئيساً للوزراء ، اعتزل السياسة ليتفرغ للتأليف ، فأنجز مؤلفه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» توفي سنة 1879 م ، انظر : مصادر الدراسة الأدبية جـ 2 ص 226 .

(3) محمود بن محمد قبّادو ، ولد بتونس سنة 1814 م ، شاعر وفقيه متصوف ، أحبّ الرحلة ثم استقر في تونس ، وتقلد منصب الفتوى ، ثم التدريس بجامع الزيتونة جمع ديوانه بعد وفاته ، توفي سنة 1871 م ، انظر : الأعلام ط 5 جـ 7 ص 185 .

(4) صدرت سنة 1860 م .

(5) محمد الفاضل بن عاشور : الحركة الأدبية والفكرية في تونس ص 27 .

(6) محمد بن مصطفى بن محمد من بني بيرم ، ولد بتونس سنة 1840 م ، عالم رحالة ومؤرخ من علماء تونس ، تولى العديد من المناصب في الدولة ثم اختار الترحل والهجرة ، أنشأ في مصر صحيفة (الأعلام) من آثاره : صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار ، وتحفة الخواص في صيد بندق الرصاص ، والروضة السنية في الفتاوى البيرمية ، توفي سنة 1889 م ، انظر : الأعلام ط 2 جـ 7 ص 322 .

كان ينشر فيها يتناول النواحي الاخلاقية والاجتماعية والادبية»[1] .

وما كادت المقالة في تونس تخطو خطواتها الوئيدة حتى نكبت البلاد بكارثة الاحتلال سنة 1881م ، فضمرت المقالة تحت مقامع الرقابة والمصادرة والغرامات ، وفصل الشيخ محمد السنوسي[2] من رئاسة تحرير (الرائد التونسي) وتحولت إلى نشرة رسمية بعد شهرين من توقيع معاهدة الحماية .

وتولت جمعية العروة الوثقى مجاهدة الاستعمار الفرنسي فأسست جريدة (الحاضرة) سنة 1888 م ، ولمع من كتاب المقالة فيها محمد السنوسي وسالم أبو حاجب[3] ، مع جملة من الكتاب الذين كان لهم دور الريادة في كتابة المقالة في تونس[4] .

ثم تلتها جريدة (الزهرة) التي أنشئت سنة 1889 م[5] ، فكانت صحيفة نقدية بالدرجة الأولى ، وإليها يرجع فضل تطور المقالة في تونس ، وعنها يقول الفاضل بن عاشور[6] : «ازدهر فيها فن التحرير الصحفي الحقيقي الذي مبناه للانتقاد والمطالبة والاحتجاج ، وشبّ فيها المقال النقدي فكان له من قلم صاحب الجريدة المشذب بمخالطة الأقلام القوية في الشرق خير ما سما بذلك الفن وهذبه وأبدعه»[7]، وعلى صفحات هذه الجريدة عرفت تونس المقالة السياسية بمعناها الواسع .

---

(1) رشيد الذوادي : رواد الإصلاح ، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ، تونس 1983 م ، ط 2ص 59 .

(2) محمد بن عثمان بن محمد السنوسي ، ولد بتونس سنة 1850 م ، أديب له اهتمام بالتاريخ ، تقلب في العديد من المناصب القضائية ، واشتغل بالتدريس بالجامع الباشي من آثاره : مجمع الدواوين التونسية ، ومسامرة الظريف بحسن التعريف ، والرحلة الحجازية توفي سنة 1900 م ، انظر : الأعلام ط 5 جـ6ص 263 ، وكذلك : أضواء على تاريخ تونس الحديث ، البشير بن الحاج عثمان الشريف ، ص 48 .

(3) سالم بن أبو حاجب النبيلي ، ولد سنة 1827 م ، فقيه وشاعر ، مارس التعليم بجامع الزيتونة ، والافتاء بتونس ، من آثاره : شرح على ألفية ابن عاصم ، ورسائل وتقريرات على البخاري ، ومشاركة في تحرير أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، توفي سنة 1924 م ، انظر : الأعلام ط 5 جـ3ص 71 .

(4) من هؤلاء : البشير صفر ، وعلي بوشوشة ، وعبد الرحمن الصنادلي ، ومحمد المجاتي .

(5) أنشأها عبد الرحمن الصنادلي .

(6) محمد الفاضل بن محمد الطاهر بن عاشور ، ولد بتونس سنة 1909 م ، أديب من رواد النهضة في تونس ، مارس التعليم في العديد من جامعات العالم ، من آثاره : الحركة الأدبية والفكرية في تونس ، وأركان الحياة العلمية بتونس ، وأركان النهضة الأدبية بتونس ، والتفسير ورجاله ، توفي بتونس سنة 1970 م ، انظر : الأعلام ط 5 جـ6 ص 32 .

(7) محمد الفاضل بن عاشور : الحركة الأدبية والفكرية في تونس، ص1.

وقبل نهاية القرن الماضي ببضع سنين أصدر الشيخ عبد العزيز الثعالبي جريدته (سبيل الرشاد) ، وكان للمقالة الاصلاحية الداعية للتجديد مساحة كبيرة على صفحاتها ، وأحس الفرنسيون بخطره فحوكم وسجن ثم نفي فقصد مصر وبلاد المشرق .

ومع بداية القرن العشرين كانت المقالة في تونس قد اجتازت طور النشأة وتصدرت التأثير في جميع قضايا تونس وأوسعها مساحة قضية الحرية والاصلاح الاجتماعي .

ثم جاءت صحيفة (الصواب) سنة 1905 م ، فأطرت المقالة السياسية بإطارها الخاص بها ، واكتملت الناحية الفنية لهذا النوع من المقالة بما أبدعه قلم رئيس تحريرها[1] ومن سار على منواله من كتاب كان لهم القدح المعلّى في كتابة مقالة حديثة تناسب متطلبات النهضة في عصرها الحديث .

وفي الجزائر ، تعتبر صحيفة (المبشّر) الثالثة في العالم العربي من حيث تاريخ الصدور 1847 م ، غير أنها لم تقدم للمقالة شيئاً ، إذ كان أسلوبها ركيكاً نخر الضعف نخاعه ، ويقوم بتحريرها كتاب زادهم من المعرفة قليل[2] ، وتصدرها السلطة الفرنسية فتكتب بأقلام يضع فيها الفرنسيون المداد ، فما كان لكتاب هذا شأنهم «أن يعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم سواء فيما يتصل بالمجتمع وقضاياه أو فيما يخص الطبيعة والحياة بوجه عام وإنما تمّ ذلك حين نشأت الصحافة الوطنية في بداية هذا القرن ، وأنشأ الجزائريون صحفاً تعبر عن أفكارهم ومواقفهم وتعبر بالتالي عن ذواتهم وآرائهم فيما يتعلق بالشعب الجزائري ومطالبه»[3] ومن خلال هذه الصحف برزت المقالة في الجزائر معتمدة على رافدين لهما أبلغ الأثر في تطورها بل ونشأتها، أولهما : هو الحركة السياسية الإصلاحية التي غمرت البلاد ، فطبعت المقالة بهذا الطابع الذي ينطلق من منطلق ديني ، وسمها بميسم التقريرية المباشرة ، وصبغها بالصبغة الوعظية ، وجللها بالنهج الخطابي[4] والرافد الثاني : هو ثبات قدم النهضة في المشرق ، حيث كان ولتلك النهضة اشعاعات وتأثيرات على المغرب العربي ساعدت على ظهور النهضة الأدبية في الجزائر[5] ، وقبل ذلك كانت اللغة العربية في الجزائر مقطوعة

---

(1) محمد الصجاتي .

(2) أديب مروة : الصحافة العربية ، دار مكتبة الحياة ، بيروت 1961 م ، ص 150 .

(3) عبد اللّه ركيبي : تطور النثر الجزائري الحديث ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ـ تونس ، 1978 م ، طـ2 ص 134 .

(4) المصدر السابق ، ص 135 وما بعدها .

(5) سعاد محمد خضر : الأدب الجزائري المعاصر ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت 1967 م ، ص 50 .

الصلة بماضيها ، ومعزولة عن عربية البلاد المجاورة ، وموسومة بأنها لغة الجهلة والمتخلفين ، وكنوع من الرفض انكفأت الثقافة المحلية على نفسها ، وابتعدت عن كل المؤثرات العالمية ، وعن الاتصال الفكري بالثقافات الأخرى[1] ، حتى مدت الجسور مع المشرق العربي وبلغت دعوة محمد عبده الاصلاحية مسامع الجزائريين فاتخذ المصلحون المقالة وسيلة لتبليغ دعوتهم .

وعلى شواطىء الأطلسي كان للمغرب الأقصى وضع خاص به ، فهو لم يدر في فلك العثمانية[2] ، ولم تضرسه أنياب أتاواتهم ، ولا حجرت عجمتهم على لسانه العربي المبين ، بل ظل محتفظاً بسيادته حتى بداية القرن العشرين ، غير أنّه مارس نوعاً من الانطواء والانغلاق على نفسه ، خاصة بعد أن اعتدى على جارتيه ، فضرب على نفسه ستاراً حديدياً مستفيداً من وضعه الجغرافي المنيع فانقطع عن كل اتصال فكري وأدبي ، وخسر بذلك وصول تيارات الوعي والثقافة الحديثة إليه ، وهو أقرب نقطة في الوطن العربي إلى أوروبا شمالاً ، ولكنه ظل «طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر بعيداً عن التطورات الفكرية والعلمية والاجتماعية ، تلك التطورات التي كانت تثير العالم الغربي وتبدله»[3] وما أفاد الأدب المغربي من هذه العزلة شيئاً إلا نقاء الأسلوب وخلوه من مزالق الصنعة ، حتى بعد أن غمرت الصنعة المشرق وما جاوره من الشمال الأفريقي ردحاً من الزمن غير قليل[4] .

وفي النصف الأخير من القرن التاسع عشر نظر المغرب إلى الدول الأوروبية وقد أخذت تنتقصه من أطرافه ، حيث اعتدت فرنسا على شرقه ، وأسبانيا على شماله[5] ، فلم ير بداً من الاتجاه إلى الأخذ بوسائل المعرفة الحديثة ، ولا سيما أن التجربة المصرية تملأ أسماع العرب فبادر بإرسال بعوث إلى أوروبا ، وأخرى إلى مصر ، فكان هذا إيذاناً بدخول العلوم العصرية ، وظهور بوادر النهضة الفكرية ، غير أن الاستعمار الفرنسي لم يتح الفرصة لمثل هذه النهضة كي تشب عن الطوق ، فبسط انتدابه على المغرب بكامله ، وهنا فزع الأدب إلى نهج السلفية يحتمي به ، وعاد إلى الأصول الأولى يمتح منها ، وما كان لمثل هذه العودة أن وتخلق جواً أدبياً يختلف عما عهده الناس ، ولا لتحدث تحولاً فكرياً يصب في غير المجرى

---

(1) المصدر السابق .

(2) عبد المحسن عاطف سلام: حيوات العرب، دار الكتاب العربي، الاسكندرية، 1968 م ط 1 ص 603 .

(3) روم لاند : تاريخ المغرب في القرن العشرين ص 18 .

(4) عبد الله كنون : أحاديث عن الأدب المغربي الحديث دار الرائد للطباعة ، القاهرة 1964 م ، ص 21 .

(5) معركة إيسلي سنة 1844 م ، واحتلال تطوان سنة 1860 م .

المألوف ، ومن ثم فإن الحياة الفكرية والأدبية بقيت على حالها من تمثل الماضي واحتذاء حذوه ، سواء في المادة أو القالب»[1] .

ومع ظهور الصحف في أخريات القرن الماضي ــ حين أصدر مهاجران لبنانيان أول صحيفة في المغرب [2] ــ ولدت المقالة المغربية دون عناء ، حيث لا عوائق تقف في طريقها ، إذ الأسلوب اللغوي لم تكدره الشوائب الزخرفية إلا بعض ما درج عليه الكتاب من تزيين وتحلية ، لا تصل إلى حد الاسفاف ، وإذا كان بعض الباحثين يرى أن أسلوب الكتابة في المغرب ، «كان يحبو حيناً ويتوجع حيناً ، ويركد حيناً آخر ، ويعتريه جمود كامل في بعض الفترات»[3] ، فإن هذا من شأن مراحل الانتقال والتحول ، ولا سيما إذا كان وئيداً كالذي شهده المغرب ، ومهما يكن شأن هذا الأسلوب فإنه لم يأسن كما أسنت الأساليب في المشرق فترة عصور الركود وسيادة الأعاجم ، ولم تكد تبلغ أصوات دعاة الإصلاح في المشرق أسماع الكتاب المغاربة حتى وجدت آذاناً صاغية وقلوباً واعيـة، فتلقفوا أسلوب محمد عبده ومحمد كرد علي وأديب إسحاق ، وأمثالهم ، وسرعان ما تخلوا عن السمة البارزة في أساليبهم الأولى ونبذوها وراءهم ظهرياً ، فقد تركوا النثر الفني إلى ترسل يتزل المعنى منه المنزل الأسمى ، ولغةٍ لا التواء فيها ولا تحلية ، وأعرضت المقالة المغربية عن المواضيع التقليدية لتبدأ نهجاً جديداً يواكب النهضة الحديثة .

---

(1) كنون : أحاديث عن الأدب المغربي الحديث ص 17 .

(2) صحيفة المغرب أصدرها عيسى فرح وسليم كسباني سنة 1889 م .

(3) أحمد زياد : لمحات من تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب ، دار الكتاب ، الدار البيضاء 1973 م ص 14 .

الفصل الثاني

ظروف نشأة المقالة في ليبيا

الحياة الثقافية في ليبيا
ودور الصحافة فيها

1 ـ الأخبار

أ ـ شكل الخبر

ب ـ أخبار الصدارة

جـ ـ أخبار الوفيات

د ـ أخبار عامة

هـ ـ مصادر الأخبار

2 ـ الحوادث
3 ـ التعليقات
4 ـ الإعلانات
5 ـ المقالة

الحياة الثقافية في ليبيا ودور الصحافة فيها

رزحت ليبيا تحت حكم الأتراك مدة تربو على ثلاثة قرون ونصف القرن (1551 ــ 1911 م) ، كانت خلالها موئلاً للعسف والبطش ، وتقلب الولاة بين فكي رحى الإمارة والعزل ، فلم يتمكن صلحاؤهم من تنفيذ مخططاتهم الرامية إلى إحياء الولايـة ، وبعث جذوة الثقافة والمعرفة فيها .

وقد استفحل هذا الأمر حتى إنه «في فترة العصر العثماني الثاني (1835 ــ 1911 م) ، أي في مدى سبعة وسبعين[1] عاماً ولي على طرابلس ثلاثة وثلاثون والياً ، بلغت مدة ولاية بعضهم عاماً واحداً[2] ، فلم يكن يتسنى للوالي أن يبقى فترة تمكنه من العمل على النهوض بالبلاد»[3] .

ولئن قيض لأحدهم أن يمكث فترة تمكنه من القيام ببعض الإصلاحات في الولاية فإن رجال البلاط في الأستانة يرشقونه بنبال الوشاية وأحابيل الدسائس ، حيث «كانوا دائماً يسعون لخلع كل وال يسعى للإصلاح والقيام ببعض المشروعات لتحسين أحوال الولاية بصفة عامة»[4] .

---

(1) المدى الصحيح لهذه الفترة هو ستّة وسبعون عاماً .

(2) بلغ حكم بعض الولاة أقل من عام مثل نجيب باشا ومحمد رائف باشا ، اللذين اشتركا في عام 1835 م . انظر : علقاً بأسماء الولاة في الحوليات الليبية لشارل فيرو ، على ما به من نقص حيث عدّ منهم تسعة وعشرين والياً فقط ، وانظر : ولاة طرابلس للزاوي .

(3) محمود الشنيطي : قضية ليبيا ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1951م ، ص 024 .

(4) رأفت غنيمي الشيخ : تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة ، مطابع الحقيقة ، بنغازي 1972م ، ط 1ص 48 .

ولبعد الولاية عن مركز الدولة العثمانية وعزلتها عن المشاركة في صناعة الأحداث ، بل في متابعتها[1] ، سرى في أوصالها خدر الانحدار ، وكثر النزاع بين الولاة ورؤساء الجند، وتعددت مراكز القوة، وتتالت الثورات الداخلية كثورة غومة المحمودي[2]، وعبد الجليل سيف النصر[3] ، وغيرها من الثورات التي شغل الولاة بإخمادها فمنعت الاستقرار في الولاية[4] .

ومما نأى بالولاة عن الاهتمام بالحياة الفكرية كونهم غرباء عن لغة البلاد وأهلها ، فكان أكبر همهم جمع ما يمكن جمعه من الأموال قبل أن يفتهم فرمان العزل ، علاوة على أن سياسة الدولة العثمانية كانت مبنية على الاقتصاد في الانفاق على الولايات الفقيرة مثل طرابلس الغرب ، متخذة لذلك شتى السبل والذرائع بدءاً بجمع التبرعات من الأهالي لإنشاء المدارس والاكتفاء بإعانة تمنّ بها نظارة المعارف في استامبول[5] ، ومروراً بحث الناس على التبرع لبناء سور لمقبرة في طرابلس[6] ، وانتهاءً بالمماطلة في إرسال مخصصات الولاية ، حتى ما كان منها على سبيل الاقراض[7] .

وأنى لدولة تترك الأهلين يتضورون جوعاً[8] أن تهتم بأمر المعارف وشجون الحياة الفكرية والثقافية .

---

(1) طرابلس الغرب ، العدد 61 في 25 رجب 1284 هـ (1867م) ، الحوادث المحلية ، حيث ورد بها أن البريد لا يصل إلى الولاية إلا بعد شهر أو شهر ونصف .

(2) غومة بن خليفة بن عون المحمودي ، ولد سنة 1795 م ، ثائر عربي صارع الأتراك فترة طويلة ، تعرض للسجن والنفي عدة مرات ، كان سبباً في عزل الكثير من الولاة لفشلهم في قمع ثورته ، تولى منصب عضو في مجلس إدارة الولاية ، قتل في وادي «وان» بالجنوب سنة 1856 م ، انظر : غومة فارس الصحراء لعلي مصطفى المصراتي .

(3) عبد الجليل بن غيث بن سيف النصر ، كان موالياً ليوسف باشا القره مانللي وساعده في إخماد بعض الثورات الداخلية ، ثم ثار على العثمانيين في أول عهدهم الثاني لغدرهم بالشيخ غومة المحمودي ، وظل في صراع معهم حتى قتل بسرت سنة 1841 م انظر : طرابلس الغرب ، لمحمد ناجي ومحمد نوري ، ص 187 و 193 .

(4) الطاهر أحمد الزاوي : ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي ، دار الفتح للطباعة والنشر ، بيروت 1970 م ، ط 1 ، ص151 ، 240 ، 244 .

(5) رأفت الشيخ : تطور التعليم في ليبيا ، ص 56 .

(6) مقبرة سيدي منيذر ، انظر : طرابلس الغرب ، العدد 1148 ، في 11 صفر 1324 هـ (1906 م) .

(7) الترقي ، العدد 199 في 9 شعبان 1329 هـ (1911 م) ، وكذلك جهاد الأبطال للزاوي ص 61 ــ 67 ، حيث ذكر أن عضوي مجلس النواب عن طرابلس قد تقدما بطلب للمجلس فيه أن عدد 514 شخصاً قد ماتوا من الجوع وعدد 200 ألف قد هاجروا بسبب المجاعة .

(8) جاء في طرابلس الغرب العدد 1337 في 6 شوال 1328 هـ (1910م) ما يلي : «هجمت على الولاية ولا»

وعقب الانقلاب العثماني 1908 م ، حدت الشعوب آمال سرعان ما تكشفت عن أنها خلّب حين أطلت الدعوة الطورانية[1] برأسها ، وفرضت سياسة التتريك فأصبحت اللغة التركية لغة الدواوين والإدارة ، لقتل الشعور القومي عند شعوب الدولة العثمانية ، وإفناء شخصية المحكوم ودمجها في شخصية الحاكم[2] .

وقد ضج أعضاء المجلس العمومي والموظفون في ولاية طرابلس الغرب بالشكوى ، ورفعت الظلامات إلى الباب العالي ، فكان الرفض والتعنت رداً على مقترحات أعضاء المجلس[3] .

وبتقلص ظل العربية المنهكة أتيحت الفرصة للغة اهتبل أهلها كل سبيل لترسيخها تمهيداً لأمرٍ أقلق كل الناس إلا أولي الأمر في الأستانة ، تلك هي اللغة الايطالية التي ما برح أهلها يفتلون في الذروة والغارب حتى انتشرت بين أبناء الجاليات[4] بوصفها لغة الحضارة والمعاملات الاقتصادية ، وطما مدها فأصبحت لغة يجيدها أبناء البلاد من العرب[5] في ولاية طرابلس ، بل أصبحت اللغة الثانية في بنغازي[6] بعد العربية ، فكان لمعظم العامة «مخالطة مع الجنس الطلياني ، وغالبهم يتكلمون معه باللغة الطليانية»[7] .

= زالت تتقاطر المحتاجون بالآلاف من الملحقات يسائق الفقر الناشيء عن القحط المستمر منذ أربع سنوات ومن قلة الذخائر» .

(1) دعوة عنصرية هدفها تتريك الدولة العثمانية ، وسيادة العنصر التتري ، بمجد دعاتها جنكيز خان ، وهولاكو ، وتيمور لنك ، ويقللون من شأن الإسلام والعنصر العربي ، شعارهم المقدس هو : الذئب الأبيض .

(2) أحمد النائب : المنهل العذب ، إشراف الطاهر الزاوي ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة 1961 م ط 1 جـ 2 ص 28 .

(3) عبد السلام أدهم : وثائق تاريخ ليبيا ، دار صادر بيروت 1974م ص 228 .

(4) جاء في خطاب للنائب محمود ناجي في مجلس المبعوثين ما يلي : « . . فالملة الموسوية البالغ عددها نحو 30 ألفاً جميع أولادها يتعلمون بالمدارس الايطالية» انظر الترقي العدد 174 في 3 صفر 1329 هـ (1911 م) .

(5) في نفس الخطاب المذكور آنفاً قال محمود ناجي : «قد صار نحو 20 ألف من النفوس يتكلمون باللسان الإيطالي وأخذوا يتركون اللسان المحلي ومقابل ذلك لا يوجد حتى 200 نفس من مليون ونصف يتكلمون اللسان العثماني» انظر : الترقي العدد 174 في 3 صفر 1329 هـ (1911 م) .

(6) فرانشيسكو كورو : ليبيا في العهد العثماني الثاني ، ترجمة خليفة التليسي ، دار الفرجاني طرابلس 1971 م ص 135 .

(7) محمد بن عثمان الحشائشي : رحلة الحشائشي إلى ليبيا تحقيق علي مصطفى المصراتي ، دار لبنان للطباعة ، بيروت 1965 م ط 1 ص 68 .

ولا نعجب من هذا بل العجب أن تظل العربية لغة الثقافة والفكر في هذه الحقبة المجدبة، ويبلغ العجب غايته إذا استعرضنا طرائق التعليم ووسائله في ولاية استأسد فيها الجهل، وتفشت فيها الأمية، كما يقول أحد كتاب المقالة في الفترة العثمانية: «أريد أن أقرر حقيقة لا ينازعني فيها أحد من العارفين بأهل هذه الولاية، وهي أنه لا يوجد بلد من بلاد الدولة ـ العثمانية ـ يقل العارفون بالقراءة والكتابة من أهله مثل هذه الولاية»[1]، أو كما يقول الحشائشي:[2] «واعلم أن أغلب سكان القطر لا يعرفون القراءة والكتابة إلا بعض من أهل المدن والقرى»[3]

وتزداد هذه الصورة قتامة إذا طاف طائف البادية برسالة فلا يجد من يقرؤها له، حتى يتكلف الذهاب إلى أقرب مدينة إليه[4]، وإذا كان هذا شأن القراءة والكتابة فلا نعجب من قول الحشائشي في موضع آخر: «أما العلوم والمعارف العصرية فلا توجد عندهم بل لا يشتمون لها رائحة».[5]

غير أن ما أبقى قبس المعرفة متوقد الجذوة هو استمرار نظام التعليم السلفي الذي يقوم على تعليم المبادىء الأولية للكتابة وتحفيظ القرآن الكريم، أو جزء منه وهو ما يعرف بالكتاب تظاهره المساجد التي لم تكن مصلى فقط، وإنما كانت مدارس تعقد فيها الحلقات لتدريس علوم الفقه والحديث واللغة والأدب وغيرها من المعارف النقلية.[6]

ومن وسائل التعليم السلفي نظام المعاهد والزوايا الدينية[7]، ومثل معهد أحمد باشا القره مانلي بطرابلس، والمعهد الأسمري في زليتن، ومعهد الزورق في مصراته، وزاوية الايشات في الزاوية الغربية، وبعض الزوايا في الجبل الغربي، ومعهد الجغبوب[8]، حيث

---

(1) الترقي، العدد 77 في 23 شعبان 1326 هـ (1908 م)، (المعارف).

(2) محمد بن عثمان الحشائشي، ولد بتونس سنة 1855 م، قيم خزائن الكتب بالزيتونة، له العديد من المصنفات، منها جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، توفي سنة 1912 م انظر الأعلام للزركلي، ط 7 جـ 6، ص 263.

(3) محمد بن عثمان الحشائشي، رحلة الحشائشي إلى ليبيا، ص 210.

(4) محمد الطيب الأشهب، برقة العربية أمس واليوم، مطبعة الهواري، مصر 1947 م، ص 546.

(5) محمد بن عثمان الحشائشي، رحلة الحشائشي إلى ليبيا، ص 67.

رأفت الشيخ، تطور التعليم في ليبيا، ص 26.

(6) الطاهر الزاوي، معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، طرابلس 1968 م ط 1 ص 156 وما بعدها.

(7) محمد الصادق عفيفي: الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث، دار الكشاف، بيروت ومكتبة الفرجاني، طرابلس ط 1 ص 115. وكذلك: أحمد صدقي الدجاني: ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، 1971 م ط 1 ص 273 وما بعدها.

يدرس الطلاب تصانيف الفقه ، والحديث ، وعلم الكلام ، وعلوم اللغة ، وما تصل إليه أيديهم من الشروح والحواشي والذيول والأمالي ، حتى إذا انقضت هذه المرحلة كان على الموسرين إرسال «أبنائهم إلى رحاب الأزهر أو ظلال الزيتونة بتونس ليعودوا إلى بلادهم بعد قطع مراحل في مجالات التعليم والتثقيف»[1] ، وذلك لخلو البلاد من جامعة للدراسات ما فوق الثانوية[2].

ومن روافد التعليم خزائن الكتب ، وهي صنفان ، صنف خاص حيث «كانت بعض الأسر الليبية تحتفظ في دورها بمكتبات خاصة تشتمل ـ بينما تشتمل عليه ـ على بعض كتب الأدب»[3] ، وصنف عام جل كتبه مخطوطات غير مفهرسة ولا مصنفة تزخر بها خزائن المعاهد الدينية ، وتطوي في حناياها شتى الكتب من مخطوطة ومطبوعة حتى إن بعض هذه الخزائن قد «نيفت على الثمانية آلاف مجلد من تفاسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه وغير ذلك من كتب العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية وغير ذلك»[4] .

أما التعليم الحكومي فما عرفته ولاية طرابلس الغرب حتى أوشكت شمس الدولة العلية أن تأفل ، إذ لم «يكن في جميع أنحاء ليبيا قبل سنة 1879 م [5] ، أي تعليم رسمي من الدولة المستولة بدعوى أن أغلب سكانها من البوادي الرحل ، ومن ثم لا يمكن أن تقام لهم مدارس ، ولأنهم كانوا كثيراً ما يشقون عصا الطاعة على الحكومة» . [6]

---

(1) علي مصطفى المصراتي : صحافة ليبيا في نصف قرن ، مطابع دار الكشاف ، بيروت 1960 م ، ط 1 ، ص 18 .

(2) تنبئنا بعض المصادر أن ثمة محاولة لإنشاء جامعة في طرابلس ، أجهضتها الأهواء الشخصية والتنازع على رئاستها . انظر : العصر الجديد ، العدد 19 في 28 جمادي الآخرة 1327 هـ (1909 م) «يا عمد الجامعة العثمانية» .

(3) محمد طه الحاجري : دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي دار النهضة العربية ، بيروت ، 1983 م ، ط 1 ، ص 325 .

(4) محمد عثمان الحشائشي : رحلة الحشائشي إلى ليبيا ص 151 .

(5) ثمة تضارب في تحقيق تاريخ بداية التعليم الحديث في ليبيا ، فهو بين سنة 1857 م و 1858 م ، ومن المصادر ما يفيد أن الوالي حضر حفل تخرج دفعة من طلاب المدرسة الرشدية بطرابلس سنة 1868 م ، والذي أرجحه أن التواريخ الآنفة هي بداية التعليم العصري بصبغته العسكرية ، أما التعليم المدني فيرجع تاريخه إلى 1877 م ، انظر : تطور التعليم لرأفت الشيخ ص 141 ـ 145 ، وكذلك : إسماعيل القروي : الغزو الثقافي الإيطالي لليبيا ، رسالة ماجستير 1984 م ص 108 . وكذلك : طرابلس الغرب العدد 112 في 27 رجب 1285 هـ (1868 م) . وطرابلس الغرب لمحمد ناجي ومحمد نوري ، ترجمة أكمل الدين محمد إحسان ص 293 .

(6) محمد الصادق عفيفي : الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث ، ص 118 .

ويمكن أن نلمس قلة اكتراث الدولة العثمانية بمثل هذه النواحي إذا علمنا أنه لم يكن في المدن الرئيسية ـ طرابلس وبنغازي والخمس ودرنة ومرزق ـ إلا مدرسة رشدية (إعدادية) واحدة في كل منها[1] ، أما المدن الأصغر والقرى ، فقد جاء في مقررات مجلس الولاية العمومي أنه «ليس بها مؤسسات علمية باسم مدرسة ولا زال جميع أهل الملحقات تابعين محافظين للنمط المخصوص بهذه الولاية في تحصيل العلوم الدينية والأدبية ، بمعنى أن شبان الوطن المشتاقين لنيل العلوم والمعارف يراجعون فضلاء المشائخ من أرباب الاختصاص ويتعلمون منهم العقائد الدينية ، والقواعد اللسانية ، والدقائق والمعلومات اللازمة بصورة منتظمة نوعاً وذلك في محالهم وجوامعهم ومساجدهم»[2] .

وفي عاصمة الولاية عدد من المدارس الابتدائية لا يتناسب مع عدد السكان واحتياجاتهم ، ومكتب إعدادي حربي ، ومدرسة ثانوية واحدة ، ومدرسة للفنون والصنائع[3] ، وجل مواد التعليم فيها باللغة التركية فلم يفد العرب منها فائدة كبيرة[4] «والمتخرجون منها لا يتجاوزون عدد أصابع اليد في كل سنة»[5] ، وكثيراً ما كان التعليم في هذه المدارس يتعثر ويعاني من تقتير الدولة في الانفاق ، فأنى لتعليم كهذا أن يكون له أثر في الحياة الفكرية .

ومما أبقى على الحياة الثقافية وجود صلة فكرية مع الأقطار[6] المجاورة التي سبقت إلى الأخذ بأسباب النهضة الحديثة ، فأخذت نوعاً من التأثير قل أو كثر بالرغم من مقص الرقيب ، وإغارة الشرطة بحثاً عن الصحف الممنوعة .

وكان للأحرار الذين نفتهم سلطات العهد الحميدي إلى طرابلس ـ وجلهم من

---

(1) رأفت الشيخ : تطور التعليم في ليبيا ص 145 .

(2) طرابلس الغرب العدد 1361 في 18 ربيع الآخر 1329 هـ (1911 م) .

(3) محمد الصادق عفيفي : الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث ص 118 .

(4) رأفت الشيخ : تطور التعليم في ليبيا ص 143 .

(5) الترقي العدد 115 في 7 ذو القعدة 1327 هـ (1909 م) .

(6) من الباحثين من ينفي وجود هذه الصلة ، وقد دللت عليها في عدة مواطن من هذا الكتاب ، ومنها مبحث المقالة الدينية ص 135 ، انظر : سالم المرادني : فن المقالة في الصحافة الليبية ، رسالة ماجستير 1983 م ص 196 .

جماعة تركيا الفتاة ـ دور بارز في توجيه الحياة الثقافية وجهة الحداثة والإصلاح خاصة في فترة حكم رجب باشا[1] (1906 ـ 1908 م)[2] .

وكان للطباعة إسهام لا ينكر في تأسيس الحياة الفكرية في ولاية طرابلس الغرب فقد ابتدأت بالطباعة الحجرية سنة1859 م ، واقتصرت على طباعة الأوراق الرسمية لحكومة الولاية ، ولم تسهم في النشاط الصحفي إلا بعد سبع سنوات من إنشائها[3] ، حين طبعت «طرابلس الغرب» سنة 1866 م .

ثم استجلبت أول مطبعة عصرية إلى طرابلس سنة1869 م ، فطبعت بها سالنامة (تقويم) الولاية ، إلى جانب صحيفة طرابلس الغرب في السنة نفسها[4] ، ثم طورت هذه المطبعة أول مرة سنة 1892 م بجلب حروف حجرية من دار السعادة (استامبول) وآلة مكملة للطبع بالحجر من أوروبا[5] ، تلاه تطوير آخر سنة 1897 م حين تم استيراد مطبعة حديثة من أوروبا بجميع معداتها وحروفها[6] .

وتعتبر مطبعة الترقي أول مطبعة أهلية[7] في الولاية أنشئت سنة 1908 م ، بجهود شركة محلية جلها من المثقفين فأسهمت في النهضة الصحافية إسهاماً محموداً[8] .

ومن أشهر المطابع في آخر العهد العثماني المطبعة الشرقية التي أنشأها مستوطن يهودي

---

(1) من أبرز رجال الدولة العثمانية في فترتها الأخيرة ، كان والياً على العراق فقام بإصلاحات جليلة ، ثم عين والياً على طرابلس الغرب ، فحاول القيام بإصلاحيات يستعين فيها بأفراد جمعية تركيا الفتاة المنفيين في طرابلس ، لم تطل فترة ولايته إذ سرعان ما عُين وزيراً للحربية بعد استيلاء جماعة الاتحاد والترقي على السلطة ، انظر : الحوليات الليبية لشارل فيرو ، ص 741 وما بعدها .

(2) شارل فيرو : الحوليات الليبية ، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي ، المنشأة العامة للنشر ، طرابلس ، 1983 م ، ط 2 ، ص 741 .

(3) المصراتي : صحافة ليبيا في نصف قرن ص 256 .

(4) عبد العزيز الصويعي : المطابع والمطبوعات الليبية قبل الاحتلال الإيطالي ، المنشأة العامة للنشر ، طرابلس ، 1985 م ط 1 ، ص 49 ـ 53 .

(5) أحمد النائب الانصاري : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة 1961 م ، ط 1 ص 30 .

(6) الترقي العدد 21 في 18 جمادى الآخرة 1315 هـ (1897 م) .

(7) طبعت بعض أعداد الترقي في مطبعة حجرية تدعى «المطبعة العسكرية» سنة 1908 م ، ولم يرد ذكر لهذه المطبعة في جميع المصادر المهتمة بالمطابع في ليبيا مما وصل إليّ ، انظر : الترقي العدد 74 في 3 شعبان 1326 هـ (1908 م) .

(8) عبد العزيز الصويعي : المطابع والمطبوعات الليبية ، ص 72 وما بعدها .

يدعى «أفرايم أتشويه بن شالوم»[1] ، وعن طريقها أدخل الحرف العبراني إلى ليبيا ، فأصبحت المطبوعات تطبع بالعربية والعبرية إلى جانب ما طبع بالأحرف الاتينية.

أما باقي مدن الولاية فلم تعرف المطابع ولا إصدار الصحف طيلة فترة الحكم العثماني[2] ، وما ذهب إليه بعض الباحثين[3] من أن بنك «دي روما» قد أنشأ مطبعة في بنغازي فهو خطأ مرده إلى عدم الدقة في الترجمة[4] .

ومما يلفت النظر أن المطابع لم تسهم في طباعة الكتب ونشرها ، وقد حاول بعض الباحثين إرجاع هذا الأمر إلى عدة أسباب ، لكن معظمها لا يبدو مقنعاً مثل سيطرة اليهود والإيطاليين على أغلب المطابع ، وارتفاع أسعار الورق ، وانصراف المطابع إلى طباعة الأوراق التجارية .. الخ ـ وفي رأيي ـ أن الصراعات السياسية[5] ، وفقدان الاستقرار النفسي ، وضعف الملكات ، وخواء القاعدة الثقافية من التوق إلى المعرفة كانت أسباباً صارفة للكتاب عن قضية التأليف وهي الدافع الرئيسي الذي جعل المؤلفين يلتمسون طباعة كتبهم خارج الولاية ، بحثاً عن الانتشار والذيوع .

وباستعراض عاجل لما طبع من مؤلفات أنس فيها أصحابها صلاحيتها للنشر في تلك الفترة يمكن أن نقف على مستوى التأليف آنذاك ، فقد ألّف محمد كامل بن مصطفى[6]

---

(1) لم أعثر له على ترجمة .

(2) فرانشيسكو كورو : ليبيا في العهد العثماني ، ترجمة خليفة التليسي ، دار الفرجاني ، طرابلس 1971 م ص 157 .

(3) اسماعيل ميلود القروي: الغزو الثقافي الإيطالي ، رسالة ماجستير 1984 م ص 341 .

(4) نقل الباحث قصة المطبعة المذكورة عن (فرانشيسكو ماجيري) في كتابه (الحرب الليبية) وبالرجوع إلى تعريب الكتاب المذكور الذي قام به وهبي البوري تبين أن الغموض في الأسلوب هو ما أوقع الباحث في سوء الفهم . وقد عثرت خلال استقصائي لهذه النقطة على إعلان في طرابلس الغرب العدد 1169 في 14 رمضان 1324 هـ (1906م) مفاده أن الدولة العثمانية عازمة على تأسيس مطبعة في بنغازي بغرض إصدار صحيفة تغطي أخبار لواء بنغازي ، غير أن هذا الأمر لم يتم ، انظر : الحرب الليبية لفرانشيسكو ماجيري ، ترجمة وهبي البوري ص 23 .

(5) انظر ملف قضية إبراهيم سراج الدين ، دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ، وهي قضية تدور حول اتهام ثلة من أرباب الفكر في طرابلس بتكوين جمعية سرية ضد الدولة العثمانية ، منهم أحمد النائب ومحمد البوصيري وعبد الرحمن البوصيري وحسن بن عويدان وغيرهم .

(6) ولد في الزاوية الغربية سنة 1828 م درس في طرابلس ثم في الأزهر وعاد ليتولى التدريس بمدارسها كمدرسة عثمان باشا ، ومعهد أحمد باشا وغيرهما ، ولي الإفتاء سنة 1893 م حتى توفي سنة 1897 م ، انظر : الأعلام من طرابلس للمصراتي ، دار مكتبة الفكر ، طرابلس ، 1972 م. ط 2 ، ص 24 .

كتاباً في الفقه عنوانه (الفتاوى الكاملية في الحوادث الطرابلسية) طبعه بالقاهرة سنة 1895 م[1] ، وفيه يردّ على أسئلة عامة من أهل طرابلس ومن غير أهلها .

ومن أشهر ما طُبع في تلك الفترة كتاب (المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب) للأديب أحمد النائب الأنصاري[2]، الذي طبع في الآستانة سنة 1899 م، وبالرغم من قيمة الكتاب التاريخية فإن في أسلوبه إسفافاً وهلهلة يعكسان ثقافة عصره ، والكتاب بصورته التي بين أيدينا قد مرّ بأطوار من التنقيح والتهذيب ، قام بها فالح الظاهري[3] ، حين قدم له في طبعته الأولى ، وفي هذا يقول علي مصطفى المصراتي[4] : «ويظهر أن الشيخ «فالح الظاهري» وجد في كتاب تلميذه اختلالاً في التركيب ، واعتلالاً في اللغة . . وتموجاً في الأسلوب ، واضطراباً في التعبير ، حتى ليكاد أن ينزل إلى مستوى العامية . . »[5] .

وألف محمد البشير المدني[6] رسالة في تحذير المسلمين من الأحاديث الموضوعة طبعت بالقاهرة سنة 1904 م[7] ، وكتاباً في التراجم والسير عنوانه (طبقات المالكية) ، طبع منه الجزء الأول فقط سنة 1906 م[8] ، وهو امتداد لكتب تراجم رجال المذهب المالكي وطبقاتهم[9] .

---

(1) المصراتي : أعلام من طرابلس ، ص 221 .

(2) أحمد بن الحسين بن محمد بن عبد الكريم النائب الأوسي الأنصاري ، ولد بطرابلس سنة 1846 م ، أديب ومؤرخ يجيد التركية والفارسية ، تولى العديد من الوظائف في الدولة العثمانية حتى وصل إلى شيخ البلد (عميد بلدية طرابلس) ، نفي إلى الآستانة ، وشغل منصب عضو في المجلس البلدي بها ، من آثاره (نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان) ، توفي بالآستانة سنة 1914 م ، انظر : الحوليات الليبية لشارل فيرو ص 738 .

(3) محمد فالح بن محمد المهنوي الظاهري ، ولد سنة 1852 م ، عالم بالحديث واللغة من آثاره : صحائف العامل بالشرع الكامل وشيم البارق في ديم المهارق ، وحسن الوفا لإخوان الصفا ، توفي بالمدينة سنة 1910 م ، انظر : الأعلام ط 7 جـ 6 ص 326 .

(4) علي مصطفى المصراتي ، ولد بمصراته سنة 1926 م ، نشأ بالقاهرة والاسكندرية ، وتخرج في الأزهر ، تقلب في العديد من المناصب الإدارية ، من مؤلفاته : أعلام من طرابلس ، لمحات أدبية عن ليبيا ، صحافة ليبيا في نصف قرن ، كفاح صحفي ، انظر : دليل المؤلفين العرب الليبيين ص 282 .

(5) المصراتي : أعلام من طرابلس ص 177 .

(6) محمد البشير ظافر المدني ، من مصراته ، جده صاحب الطريقة المدنية ، من آثاره : اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة ، توفي سنة 1959 م ، انظر : مؤرخون من ليبيا للمصراتي ، ص 201 .

(7) المصراتي مؤرخون من ليبيا ، المطبعة السريعة ، طرابلس ص 1977 م ط 1 ص 201 .

(8) المصراتي : مؤرخون من ليبيا ، ص 197 .

(9) مثل ترتيب المدارك للقاضي عياض ، والديباج المذهب لابن فرحون ، ونيل الابتهاج لأحمد بابا التمبكتي .

ولعبد الله الباروني[1] كتاب في التعريف بالمذهب الإباضي ، طبع بمصر سنة 1906 م ، عنوانه (سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين) ، قال عنه المصراتي بأنه : «خليط من تصورات فيها خصوبة علمية من ناحية ، وتصور مبالغ فيه زحف حيز الكرامات والغيبيات بشكل هو في حاجة إلى دراسات نفسية وتحليلات»[2]، أردفه نجله سليمان الباروني[3] بكتاب في الموضوع نفسه عنوانه (الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضة) ، طبعه بمطبعة الأزهار البارونية بالقاهرة سنة 1907 م ، وقد ضاع جزءاه الأول والثالث ، وبقي الثاني مبتوراً .

أما في الأدب فلم يطبع سوى ثلاثة دواوين من الشعر ، هي ديوان مصطفى ابن زكرى سنة 1892 م ، وديوان سليمان الباروني سنة 1908 م ، وقبله ديوان لوالده عبد الله الباروني ، الذي ذكرت بعض المصادر أنه طبع بالقاهرة سنة 1897 م ، لكنه لم يصل[4] إلينا[5] .

ومن هنا نعلم ضعف مستوى التأليف ، ونقدر الدوافع الحقيقية لاختفاء طباعة الكتب في طرابلس الغرب طيلة هذه الفترة مما يعد مؤشراً إلى خمول الحياة الفكرية ، إلا أنه يبقى مؤشراً جزئياً ، فلا يدل على خواء كامل بل ربما عد عاملاً إيجابياً إذا قيس هذا القطر بغيره من الأقطار العربية على سعة منابعها وقلة روافده .

والجدير ملاحظته أن جُلّ البحاث قد درجوا على وصف هذه الفترة بالركود وسيادة الجهل ، وقد أوردت طرفاً من آرائهم في مطلع هذا المبحث ، والذي يبدو لي من خلال تمحيص المادة الصحفية لفترة الدراسة (1866 ـ 1911 م) ، أن هذه الأحكام لئن صدقت على ملحقات الولاية فلا تصدق على مركزها ، فقد ظلت مدينة طرابلس على نوع من

---

(1) فقيه وشاعر من جبل نفوسه ، درج في الجامع الأزهر ، اهتم بالتأريخ للمذهب الإباضي ، توفي سنة 1912 م ، انظر : مؤرخون من ليبيا ص 237 .

(2) المصراتي : مؤرخون من ليبيا ص 241 .

(3) مجاهد وسياسي وشاعر وصحفي أديب ، ولد في الجبل الغربي ، درس في مصر والجزائر ، وطوف في الآفاق زمناً طويلاً ، أنشأ مطبعة في مصر وأصدر صحيفة «الأسد الإسلامي» بالقاهرة ، كان يميل إلى فكرة الجامعة الإسلامية ويدافع عنها ، توفي في بومباي بالهند سنة 1940 م ، انظر : الحوليات الليبية ، شارل فيرو ص 742 .

(4) طاهر عمران عبد الله : النزعة القومية في الشعر الليبي ، رسالة ماجستير 1974 م ص 12 .

(5) طبع كتاب آخر في بولاق سنة 1900 م عنوانه «تقريب المرام في شرح تهذيب الكلام» لأبي مسعود أفندي ، عضو محكمة الإستئناف بطرابلس ، انظر : المرصاد ، العدد 22 في 14 ربيع الأول 1329 هـ (1911 م) .

الارتباط بالحياة الفكرية في العالم الاسلامي عموماً والوطن العربي خصوصاً ، وتناول الكتاب قضايا الساعة بالتحليل والتعليق؛ ، وكانوا على اتصال واع بكل مجريات الحياة داخل الولاية وخارجها ، وصوروا ذلك تصويراً مدهشاً من خلال ما كتبوا من مادة صحفية متنوعة .

وشهدت المدينة شيئاً من إيقاظ الحياة الفكرية عن طريق ما قامت به جمعية الاتحاد والترقي من عقد ندوات ومحاضرات فكرية وتاريخية وأدبية[1] تلقفتها الصحافة ونشرتها كاملة أو مختصرة إسهاماً منها في نشر الوعي ، وإثراء للحياة الثقافية ، وكان لهذا الإثراء أصداء خارج المدينة ، فدارت مناقشات ومراسلات بلغت أصداؤها خارج الولاية ، فشارك فيها كتاب من تونس ومراكش ومصر[2] ، فضلاً عن المناقشات التي كانت تدور في بيوتات الأدب ، وتناول ما ينشر أو يلقى في المحافل الأدبية بالنقد والتحليل[3] .

وبالطبع فإن هذا لا يخلو من فائدة ترفع من مستوى القاعدة الثقافية ، وتدفع عجلة النهضة الفكرية في البلاد ، وما صدور سبع صحف بعد الدستور إلا دليل على نشاط الحياة الفكرية في الولاية ووجود قراء من طبقة مثقفة يبرر صدور مثل هذا العدد في ثلاث سنوات فقط .

ولا يخامرني شك في أن النهضة الحديثة في ليبيا قد وضعت أقداماً ثابتة على الطريق ، ولو لم تنكب البلاد بالغزو الايطالي لكان لها شأن آخر ولبرز أعلام في الأدب والفن والعلم وشتى ضروب المعارف ، إذ أن منهم من شغله الجهاد ، ومنهم من أقصته الهجرة ، ومنهم من ألجم قلمه بمقامع القهر والاستعمار .

ولكي نقف بشيء من التفصيل على دور الصحافة في الحياة الثقافية نستعرض طرفاً من المادة الصحفية بأنواعها المختلفة .

---

(1) الترقي العدد 86 في 11 ذي القعدة 1326 هـ (1908 م) .

(2) العصر الجديد ، العدد 3 في 6 ربيع الأول 1327 هـ (1909 م) «تونس» . ــ وكذلك الترقي العدد 191 في 11 جمادي الآخرة 1329 هـ (1911) «ضياع مملكة أمية» . ــ وكذلك الترقي العدد 197 في 24 رجب ــ 1329 هـ (1911 م) «الدجالون بالوزارة المغربية» وكذلك الرقيب ، العدد 12 في 10 جمادى الآخرة 1329 هـ (1911 م) «في كل واد أثر من ثعلبة» .

(3) محمد مسعود جبران : مصطفى بن زكري ، ص 53 .

المادة الصحفية

ابتدأت الصحافة في ليبيا بداية رسمية ، فصحيفة طرابلس الغرب كانت صحيفة تتبع الدولة في جميع أمورها ، فكان الخبر أبرز عناصر المادة الصحفية فيها ، وهو خبر محدود الاتجاه يعنى بتتبع أحداث الولاية بالدرجة الأولى ، ثم بأحداث الدولة العثمانية بصفة عامة ، ثم زحفت المقالة على المساحة الكبرى من الصحيفة وأصبحت لها الصدارة بعد فترة وجيزة ، وشاركتها التعليقات ، وتفصيل الحوادث ، وشيء من الإعلانات التي كان الحيزّ الأكبر منها للدولة ، أما الاعلانات التجارية فقد شغلت مساحة غير ذات بال لاعتبارات اقتصادية واجتماعية لا يتسع هذا البحث لتتبعها وتعليلها .

ويمكننا أن نستعرض بإيجاز بعض مرتكزات المادة الصحفية في ليبيا إبان الفترة العثمانية ، ومن أبرز هذه المادة (الأخبار) ، وللخبر في الصحافة العثمانية عدة أشكال متباينة ، ففي الفترة الأولى قد تكتفي الصحيفة بخبر واحد في كل عدد ، وقد تتداخل الأخبار في نهر واحد دون فواصل ودون أي ملمح من ملامح التنظيم الصحفي ، ومن الملاحظ على شكل الخبر عدم وجود حد له ، فقد يستغرق صفحة كاملة ، وقد يعلن عن الخبر في عدد وتذاع تفصيلاته في عدد آخر مثل خبر نشر في (طرابلس الغرب) يتحدث عن هبوب رياح القبلي على جنود مستبدلين من قضاء (ورقلة) فمزقتهم كل ممزق حتى خف لنجدتهم شيخان من إحدى القبائل المجاورة وأنقذ العساكر فأنعم السلطان على الشيخين بالنياشين ، فاستغرق هذا السرد صفحة كاملة ملئت بالدعاء للسلطان والثناء على الجيش العثماني وكثير من التعريجات والتفاصيل الدقيقة[1]، بعد أن أعلن عنه في العدد السابق،

---

(1) انظر : طرابلس الغرب العدد 532 .

وهذا علاوة على عدم وجود عناوين للأخبار في بداية الفترة الأولى ، غير أنه أصبح من المعتاد بعد ذلك أن تتخذ عناوين دالة عليه مثل (عزيمة) وذلك إذا غادر أحد المسؤولين البلاد ، و (مواصلة) إذا وصل من سفره وإذا كان الخبر عن قافلة مثلاً يتخذ لها عنوان مناسب مثل (قافلة برنو والسودان . .) وقد تصنف صحيفة طرابلس الغرب أخبارها تحت بندين الأول (الحوادث المحلية) ويتعلق بما يختص بالولاية من أخبار ، والثاني (الحوادث العمومية) ويتعلق بأخبار الدولة عموماً .

ويكتب الخبر بطريقة السرد العادي كما يدور في مجالس السمر ، ولذا فإن كاتب الخبر يسهب إسهاباً طويلاً معرجاً على التفصيلات الدقيقة ، وفي غياب العناوين يبدأ الكاتب خبره بـ «إن» غالباً مثل «إن امرأة ذات ثروة من أهالي باريس . . » أو «إن شخصاً بمدينة واشنطون . . »[1] .

ويولي كتاب الأخبار موسم الحج أهمية خاصة ، فتطول الأخبار عند سفرهم لتغطي كل تنقلاتهم ، وعند عودتهم تغطي الأخبار حالتهم الصحية وخط سيرهم ، وسائر أحوالهم، وكل هذا يتقدمه ويتخلله ويختمه الدعاء للسلطان، والثناء عليه ثناء يغشي النفوس ، ومن هذه الأخبار خبر بتعيين قضاة يقول كاتبه : «إن من ثمرة صاحب الفضل والبرهان المستظل بظلال الشريعة الغرّاء والعرفان سيدنا الحائز لمقام المشيخة الجليلة الإسلامية اللائحة شموس معارفه على كافة البرية المشهودة ديانته وفطانته وصلابته الدينية ما ابتهجت بسماعه الآذان وهي المقدمة العظمى لإصلاح المحاكم المنيفة الشرعية الحاصل الفضل بها مع الاعتناء وتمام الأمنية والمخصوصية وذلك بتعيين أربع ذوات من المدرسين الكرام الثقات الأتقياء الأعلام في كل من المحاكم الشرعية التي بدار السعادة»[2].

ولغة الأخبار بقيت حتى نهاية الفترة الثالثة لغة ركيكة لا تمت إلى لغة المقالة بصلة ، بل إن من الصحف من تسف فيها لغة الأخبار إسفافاً مزرياً حتى تختلط بلغة العوام[3] ، وربما قصدوا إلى ذلك قصداً لإيصال الخبر إلى طبقة العامة من الناس ، وقد حاولت الترقي تمييز الخبر فدأبت على كتابته بحرف (بنط) أصغر من الحرف الذي تكتب به المقالات في محاولة لتطبيق نوع من الإخراج المقبول .

وثمة تمايز بين نوعية الأخبار ، فمنها أخبار لها الصدارة تنشر في الصفحات الأولى ،

---

(1) طرابلس الغرب العدد 61 .

(2) طرابلس الغرب العدد 167 .

(3) انظر : العصر الجديد العدد 15 ، وكذلك : طرابلس الغرب العدد 689 .

وأول هذه الأخبار ما يتعلق بالسلطان، وإمعاناً في التمييز تكتب بلغة مصنوعة تعبق بالسجع وفنون البديع [1] ، غير أن (الترقي) أخف مدحاً وأقل تزلفاً من (طرابلس الغرب) التي كانت تفرد نصف نهر من الصفحة الأولى لتنشر خبر سفر الوالي[2] .

ولم تحظ الأعياد الدينية بأهمية الأخبار إلا في الفترة الثانية ، حيث عدت من أخبار الصدارة ، بعد أن ارتبطت بتتبع أخبار الوالي وزياراته ومعايداته واحتفالاته مدة أيام العيد[3] .

وتلي أخبار الصدارة ، أخبار الوفيات ، وهي في بداية أمرها بلا عنوان ، غير أن الأهمية تستتبع شخصية المتوفي فإن كان من رجال الدولة ، أو العسكر ، جاء الخبر مفصلاً ، وإن كان من العلماء أو من ذوي المكانة المعنوية أشير إلى وفاته في اقتضاب ، ثم اتخذت لأخبار الوفيات عناوين تكتب في وسط النهر مثل (وفاة) أو (ارتحال) أو (وفاة بالقضاء)[4] ، والأخير عندما تنشأ الوفاة عن حادث مثل الوفاة بسبب الحريق ، أو سقوط في بئر مثلاً ، ومن الطريف أن بعض أخبار الوفيات تصدر أولاً بالدعاء للسلطان بطول العمر ثم تفصل حادثة الوفاة .

ومع صدور الترقي اتخذت العناوين شكلاً آخر أكثر لياقة مثل «كل من عليها فان» ، ثم يفصل خبر الوفاة[5] ، وقد يتأنق بعض المحررين في صوغ أخبار الوفيات فيقول : قصفت يد المنية غصن شباب الآنسة فلانة ، أو أن يستهل الخبر بقصيدة شعرية يتلوها نعي مدبج ، ووصف لمراسم الدفن، ونبذة عن حياة الفقيد[6]، وأولت الترقي الأخبار السارة مثل الزفاف ــ نوعاً من الاهتمام عكس طرابلس الغرب التي أهملتها إهمالاً شبه تام[7] ، كما دأبت على عنونة بعض الأخبار بعناوين ساخرة ، أو حكمة هادفة ، أو مثل سائر[8] .

وليست هذه كل الأخبار الصحفية في الفترة العثمانية ، لكنها أبرزها وأدومها ، وهناك أخبار مختلفة ليس من اليسير الإحاطة بها في هذه الإشارة الموجزة ، ومنها ــ على سبيل

(1) انظر : طرابلس الغرب العدد 640 و 1102 .
(2) طرابلس الغرب العدد 69 .
(3) انظر : طرابلس الغرب العدد 1043 .
(4) انظر : طرابلس الغرب العدد 1102 .
(5) انظر : الترقي العدد 3 .
(6) انظر : الترقي العدد 191 .
(7) انظر : الترقي العدد 15 .
(8) انظر : الترقي العدد 164 .

المثال ـ ما تصنفه الترقي تحت بند برقيات، وهو في أغلبه أخبار تحرك السلاسة وتزاورهم وتصريحاتهم ، وبعض أخبار القلاقل في العالم . . الخ ، إلى جانب الأخبار العادية مثل ما يوضع عادة تحت عنوان (توجيه) ، وفيه تعلن الوظائف التي أسندت إلى أصحابها ، أو أخبار تنقلات الموظفين ، أو استقالة بعضهم . . الخ ، وقد تتسع الأخبار لتشمل اسقاط الأجنة[1] .

وقد مرت الأخبار في مجملها بعدة قنا من قنوات سوق الأخبار ، وتأخرت طرابلس الغرب في متابعة الأخبار العالمية تأخراً نسبياً ، فأول خبر يتعلق بالسياسة الدولية ـ فيما وصلني ـ كان في الفترة الثانية[2] ، أما ما قبل ذلك فقد كانت أخباراً تعتمد على النقول من صحف أخرى ، ويقدم للخبر بما يفيد هذا النقل مثل «ومن المنقول المحرر» أو «على ما استفيد من الصحائف» أو «مما وجد محرراً بغازتية باريس» . . ويمكن أن نحدد اعتماد الصحافة في ليبيا من حيث استقاء الأخبار على صحف الآستانة في القرن الماضي ، وعلى صحف أوروبا في بداية القرن الحالي ، ومن أهم هذه الصحف (ترجمان حقيقت) و(إقدام) التركيتان ، وأصبحت الترقي تعتمد على الأنباء البرقية من استانبول ، فتنشر أهم أخبار العالم في أسبوع مرقمة كل يوم برقمه[3] ، وتوسعت طرابلس في النقل عن الصحف الأخرى ، فنقلت أخبار العلم والمكتشفات الطبية وغيرها[4] ، ثم اتسعت دائرة الاتصالات ، وأصبحت الأخبار تصل إلى الصحف دون تأخير ، واتخذت بعض الصحف مراسلين يوافونها بالأخبار بصفة دورية ، ومن هذه الصحف (المرصاد) التي اتخذت لها مراسلاً[5] في إيطاليا يوافيها بأخبار الصحف وتحركات السياسة الايطالية ، ومن مصر كان أحمد القساطوي يبعث لصحيفة العصر الجديد بأخبار مصر بين الفينة والأخرى ، وقد تُفرد له صفحة يسوق فيها الأخبار مفصلة[6] .

ومن المادة الصحفية الحوادث ، فقد أولت الصحافة في ليبيا إبان الفترة العثمانية حوادث الولاية عناية خاصة ، حيث أفردت طرابلس الغرب باباً تسوق تحته حوادث الولاية ، وتسرد كل حادثة سرداً ضافياً ، ومن أمثلة هذه الحوادث سقوط جدار على قافلة

(1) انظر : طرابلس الغرب العدد 1160 .

(2) انظر : طرابلس الغرب العدد 1122 في 2 جمادي الأخرة 1323 هـ /1905 م ، خبر حول حرب روسيا واليابان .

(3) انظر : الترقي العدد4 .

(4) انظر : طرابلس الغرب العدد 1102 .

(5) مراد دياربكرلي .

(6) انظر : العصر الجديد العدد 16 .

لجأت إليه لتحتمي من البرد ، فتنشر الصحيفة هذه الحادثة بقصد «توصية وإخطار بعض الخلق لئلا يلقوا أنفسهم في التهلكة والمخاطرة»[1] .

وقلما يخلو عدد من أعداد طرابلس الغرب من حادثة قتل ، أو جريمة سرقة ، أو تفصيل حوادث السلب والنهب وقطع الطريق والاعتداء على رجال الشرطة[2] ، خاصة في الفترة الأولى والثانية ، مما ينبيء عن انعدام الأمن ، وشيوع الفوضى ، وسوء الحالة الاقتصادية ، ومن طريف ما نشر من الحوادث تحت عنوان (حادثة وعبرة) أن امرأة خطفت في وضح النهار ، ورأى الحادثة رجلان غير أنهما أنكرا الشهادة وأقسما على ذلك ، فكان أن أصيب أحدهما بالصمم ، والآخر انفجرت عينه[3] .

ونستشف من هذه الحادثة ـ إلى جانب انعدام الأمن ـ سطوة المجرمين التي دفعت الرجلين إلى الإنكار بالرغم من أن الجريمة تنال من الأعراض ومبادىء النخوة العربية ، والحمية الدينية لا تدع أمام الشاهد فرصة للإنكار بعد أن تقاعس عن إنقاذ الضحية ، وثمة أمر آخر وهو الاعتماد كثيراً على الغيبيات ، وانتظار انتقام القدر الذي يلجأ إليه المستضعفون من الناس ، ومثل هذه الاحاديث تكثر بين السذج والبسطاء .

ومن الحوادث التي تكرر كثيراً ما نشرته طرابلس الغرب عن تمرد بعض دافعي الضرائب ورفضه دفع الضريبة القاسية ، فسيق إلى السجن فاعترض أقاربه رجال الشرطة وخلصوه من أيديهم بعد أن قتل أحد رجال الشرطة[4] ، ومثل هذه الحوادث يُفسح لها حيّز في الصحيفة قد يصل إلى عمود ونصف العمود .

ومن الحوادث التي أقلقت الولاية ما يجترحه اليهود من ابتزاز أموال الناس عن طريق المعاملة الربوية التي تؤدي في النهاية إلى مصادرة أموال المسلمين ببيعها في المزاد العلني ، وأغلب هؤلاء اليهود رعايا لدول أجنبية كإيطاليا وبريطانيا[5] ، ومثل هذه الحوادث تصب في قناة واحدة هي إثارة القلاقل كالحادثة التي عرفت بحادثة الكوليرا[6][7] ، واليهود قد أدوا

---

(1) طرابلس الغرب العدد 579 .

(2) انظر : طرابلس الغرب العدد 69 .

(3) انظر : طرابلس الغرب العدد 1111 .

(4) انظر : طرابلس الغرب العدد 579 .

(5) انظر: طرابلس الغرب العدد 689 ومن هؤلاء: إسحاق حسان من رعايا إيطاليا، وحوتي طيارة من رعايا بريطانيا ، وكلاهما من كبار التجار المرابين .

(6) انظر : فصل ألوان المقالة وموضوعاتها ، مبحث المقالة السياسية ص 85 .

(7) انظر : الترقي العدد 163 .

دوراً تدميرياً لاقتصاد البلاد ، عندما استولوا على ما يمكنهم الاستيلاء عليه من الأطيان والمباني ، ومن ثم باعوها إلى بنك دي روما أثناء التغلغل السلمي في الولاية .

ومن الحوادث التي تطرقت لها (الترقي) حادثة مانع فيها رئيس بلدية بنغازي من تقديم عروض مسرحية بحجة : «أن المرسح (المسرح) مفسد لأخلاق الشعب ، ويهوي بهم إلى الحضيض»[1] ، لكنه سمح بالعرض على مضض ثم أغلق (التياترو) بعد ذلك لأن مأمور الضبط لم يتمكن من المحافظة على النظام ، ومثل هذه الحادثة لا تحتاج إلى تفسير لبيان أن الفن المسرحي لا يزال في بدايته المتعثرة .

ومن أبرز المواد الصحفية التعليقات ، وقد اتخذت هذه التعليقات عدة أشكال معظمها التعليق عقب إيراد الخبر ، ومنها التعليق السياسي المحلل ، واللغوي الناقد ، والتعليق الساخر .. الخ ، ومن هذه التعليقات ما يدل على وعي سياسي ، ومقدرة على التحليل وسوقه في إشارة عابرة مثل تعليق نشر في (الترقي) على تجربات السياسة الإنجليزية في مصر عندما عُيِّن اللورد (كتشنر)[2] معتمداً بريطانيا في مصر، فقالت الترقي : «ويستنتج من صنع حكومة انجلترا أنها تريد أن تستبدل سياسة الوفاق والمسالمة بسياسة الشدة والعنف»[3] لما عرف عن كتشنر من القسوة والعنف ، وفي هذا المضمار تعلق الترقي على استبدال السفير الإيطالي لدى الأستانة بأن الحكومة الإيطالية عازمة على سياسة الشدة بدل المداهنة السابقة استجابة لدعوات حزب الاستعمار المتكررة[4]، ومثل هذه التعليقات يحوي تحليلاً صائباً دون شك ، وقد يحمل التعليق موقفاً مسبقاً لا يعتمد على التحليل والاستنتاج وإنما ينطلق استجابة لمؤثرات عقائدية أو سياسية كتعليق نشرته الترقي حول مشكلة الهند وبريطانيا ينضح بالسخرية من الحكومة البريطانية ، وعجزها عن كبت حركات التحرر في الهند[5] ، وقد تطال التعليقات ساسة الأستانة أنفسهم ، كانتقاد الصحف لتصريح السفيرالعثماني لدى إيطاليا عندما صرح بأن الدولة العثمانية لا تمانع في

---

(1) الترقي العدد 182 .

(2) هوراشيو هيربرت كتشنر ، ولد سنة 1850 م ، قائد وسياسي بريطاني ، عُيِّن حاكماً للسودان وحارب المهديين وردهم عن مصر ، وترأس هيئة أركان الجيش الانجليزي في أفريقيا ، وعمل قائداً عاماً في الهند ، وعين قنصلاً عاماً في مصر ، فوزيراً للحربية البريطانية ، مات غرقاً وهو في طريقه إلى روسيا سنة 1916 م انظر : الموسوعة العربية ص 1443 .

(3) الترقي 198 .

(4) المصدر السابق .

(5) انظر : الترقي 38 .

استملاك الإيطاليين وانتشارهم في طرابلس[1] ، ومن التعليقات ما يتناول بعض الحوادث العالمية التي تعتبر من الطرائف فتنشرها الصحف في صياغة شائقة وترشد إلى المصدر الأصلي للحادثة في أغلب الأحيان .[2] .

ومن التعليقات ما يوظف فيه التراث الديني والأدبي قصداً للإيجاز مثل التعليق على إصدار محكمة لأحكام تناقض القانون بمثل سائر (فانخلي يا أمّ عامر) أو (يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً) تعليقاً على تناقض مجلس إدارة الولاية في قراراته .[3]

ومن التعليقات ما يثير قضايا اللغة ، وينبه إلى ضرورة التعريب ، فقد طالبت (المرصاد) مجلة المدرسة التونسية بتجنب تسجيل التاريخ الأجنبي مثل (جانفي) ، ولفتت الأنظار إلى اسم الأرقام في الفرنسية (شيفر) وأرجعته إلى كلمة (جفر) في العربية[2] ، وكذلك تناولت هذه التعليقات الموظفين الأتراك الذين لا يحسنون العربية وطالبت بتعيين موظفين يعرفون لغة البلاد[5] .

وتناولت التعليقات كل شيء حتى سير الناس وتزاحمهم في الشوارع ، فقد أبدت طرابلس الغرب تذمراً من الدراجات وما تسببه من مضايقات للمارة وإزعاج يرنين أجراسها[6] ، ومن التعليقات الطريفة ما نشرته الكشاف حول تقدم صناعة البالونات وتقترح تبعاً لهذا أن يستفيد الأهالي من هذا الاختراع في أيام الشتاء ليتجنبوا مشاكل الوحل الناتج عن إهمال البلدية لتبليط الشوارع ، والأزقة .[7]

وقد تفننت بعض الصحف في التعليقات فجازت بها حدود النثر إلى متون القوافي ، حيث كتب أحدهم أبياتاً يسخر فيها من إيطاليا ويعرّض بهزائمها في الحبشة منها قوله : ـــ

وثار زنوج الصدغ لما لثمته	وهاج مجون النار في الوجنة الحمرا
وخال من (الطليان) قلبي خاله	(النجاشي) فأراده صريعاً مع الأسرى[8]

ولم تهمل التعليقات حتى الظواهر الطبيعية ، فقد تصادف وقوع الهلال أمام الزهرة ، فأوحى هذا إلى مدير مرصد باريس يعلو الراية العثمانية في السماء ، فاتخذت منه المرصاد

---

(1) انظر الترقي 94 .

(2) انظر : طرابلس الغرب العدد 1173 .

(3) انظر الترقي العدد 164 و166 .

(4) انظر : المرصاد العدد 74 .

(5) انظر : الترقي العدد 198 .

(6) انظر طرابلس الغرب العدد 1142 .

(7) انظر : الكشاف العدد 2 .

(8) المرصاد العدد 31 .

مادة للتعليق ، وطلبت إلى الأدباء أن يقيدوا هذه الحادثة بشعرهم[1] .

ومن التعليقات ما يهدف إلى تنبيه الحكومة إلى وجود بعض الأخطاء التي يجب إصلاحها ، فتتخذ من حادثة معيّنة والتعليق عليها مدخلاً إلى ما تريد ومن هذا خبر نشر في المرصاد مفاده أنّ أحد السكارى دخل بيتاً يظنه من بيوت المومسات ، وبعد ذلك طالب الكاتب في تعليقه على الخبر بإغلاق الزقاق بين السكان والمومسات ، وعرّض بعدم رغبة الحكومة في إتمام هذا الأمر لأن أحد أعضاء البلدية يملك بيتين يخشى انخفاض أجرتها[2] .

وهكذا تمضي التعليقات الصحفية في تسجيل حافل لأحداث الولاية كبيرها وصغيرها ، مما يمكن أن يعطي تصوراً للحياة الفكرية والاجتماعية من خلال منظار المادة الصحفية .

ومن المادة الصحفية الإعلانات ، وقد عرف الإعلان مبكراً في الصحافة الليبية في فترتها العثمانية ، واتسم بطابع الإسهاب والتفصيل ، وركاكة اللغة الممزوجة بالعامية والمسميات العثمانية ، ومن أمثلة هذه الإعلانات إعلان نشر في طرابلس الغرب عن بيع بيت بالمزاد العلني ، توفرت فيه عناصر نجاح الإعلان من حيث تفصيل عدد الغرف والموقع وما تحت البيت من محلات . . الخ[3] ، ولم يقتصر أمر الإعلان عن مثل البيع بالمزاد العلني بل تناول الإعلان عن صدور كتاب ، أو عن دواء يفتح الشهية[4] ، واتسمت كل هذه الإعلانات بسمة الأطناب والتوسعة في الدعاية التي نشر الإعلان من أجلها .

ومن الإعلانات التي لم تشغل حيزاً كبيراً فهي تساق على هيئة الخبر إلا أنها تحمل روح الإعلان ، كما في طرابلس الغرب عندما أعلنت عن وصول موسيقي من الإسكندرية ليعلم الموسيقى الإفرنجية والتركية والعربية بأجرة زهيدة[5] .

ومن الإعلانات ما لم يقصد منه الدعاية التجارية ، وإنما كان من باب الأوامر الحكومية ، كإعلان طرابلس الغرب عن عزمها لتصبح صحيفة زراعية صناعية صحية ، لكنها تطلب إلى جميع المتصرفين والمأمورين سرعة تحصيل وإرسال بدل إشتراك لتحقق الصحيفة طموحاتها[6] .

---

(1) انظر : المرصاد العدد 31 .

(2) انظر : المرصاد العدد 8 .

(3) انظر : طرابلس الغرب العدد 579 .

(4) انظر : طرابلس الغرب العدد 640 .

(5) انظر : طرابلس الغرب العدد 1127 .

(6) انظر : طرابلس الغرب العدد1177 .

كما وظّف الإعلان توظيفاً آخر يقصد منه إجبار الوجهاء على التبرع لمشروع ما ، وذلك بإعلان اسم المتبرع والقيمة التي تبرع بها ، فيتسابق أهل المناصب ، وأهل المطامع ، إلى التبرع بأموال قد لا تكون في مقدورهم ومن هذا الإعلان عن التبرع بالجياد الأصيلة لقوة الخيالة العثمانية فتسابقت الألوية والمناطق التابعة للولاية إلى التبرع بأجود ما عندها من الخيول ، عدا لواء الخمس الذي يبدو أن متصرفه قد حاول التقاعس فأخذت صحيفة الترقي تنشر له النداء تلو النداء ، فلم يجد بداً من جمع مبالغ مالية دفعها للولاية ثمناً للجياد لأنه تحجج آنفاً بعدم أصالة الخيول التي في متصرفيته[1] ، غير أن الفترة الأخيرة قد شهدت تفنناً في صحيفة الإعلانات فاتخذ الإعلان أشكالاً جذابة مثل الحوار ، والقالب القصصي ، ورسم بعض الصور ذات العلاقة بالإعلان ، وغيرها ، ومن هذه الإعلانات ما نشر في صحيفة أبي قشة تحت هذا العنوان (متى قدم وأين ؟) يقول الإعلان : «أراك أيها الصديق متحلياً بحلية جميلة زادها حسن الحلاقة الذي ما رأيتك قط حلقت مثله منذ معرفتي إياك .

الرفيق ــ أما جمال الحلية ففي حسن نظرك ومحبتك ، وأما لطافة الحلاقة فحقيقة إني أشعر بها وسأخبرك بقصتها ، ولو لم تخاطبني في الموضوع ، وذلك نه قدم منه أربعة أشهر حلاق تونسي من البارعين في الصناعة تامة ، واسمه السيد «محمد درغوث» ، ولكن لم أتمكن من الحلاقة عنده بالرغم من سماعي بمهارته حتى حصل في هذا الأسبوع أن حلقت عنده ، وحقيقة هكذا وإلا فلا .

الرفيق ــ أين محله ؟

محله بسوق الصياغة الجامع لسوق الترك بسوق التجارة فاذهب إليه واحلق رأسك وخفف لحيتك وغداً تخبرني بما رأيت»[2] .

فكل هذا الحوار الطويل دعاية لحلاق ، وهذه السمة ــ أعني التطويل ــ صاحبت معظم المادة الصحفية حتى آخر الفترة العثمانية .

ومن المادة الصحفية المقالة ، وهي أسبق أنواع المادة الصحفية ، وعليها بنيت الصحافة في ليبيا إبان الفترة العثمانية ، غير أنه بالرغم من استقرار مفهوم المقالة في الأدب العربي فإن الكتاب في ليبيا ظلوا يسمونها مرة فصلاً ومرة رسالة ، وثالثة مقامة ، ورابعة مكتوباً . فقد جاء في صحيفة الترقي : «تحت هذا العنوان نشرت مجلة (لا فريق فرانسيز)

---

(1) انظر : الترقي العدد 48 .

(2) أبو قشة العدد 49 ، السنة الثانية ، نقلاً عن المصراتي : كفاح صحفي ص 183 .

في عدد . . فصلاً بإمضاء . . فآثرنا ترجمة أهم ما جاء فيها ــ المجلة ــ تمهيداً لعدة فصول سنكتبها في هذا الموضوع» إلى أن يقول : «يتضح جلياً من هذه الرسالة أن إيطاليا . . »[1][2] .

وجاء في صحيفة العصر الجديد ما يفيد أنها مقامة : «وقد اطلعنا اليوم في صحيفة الأستانة على مقام مهم فيها يخاطب أحد أصحاب الجرائد المسيحيين فآثرنا تلخيصه»[3] .

وقبل ذلك جاء في طرابلس الغرب ما يفيد تسميتها بالمكتوب[4] .

وأيا كانت بواعث هذا الاضطراب فقد طغت عليها تسمية المقالة وتلاشت التسميات الأخرى نهائياً ، وقد اعتمدت المقالة في بدايتها على الترجمة والنقل من الصحف الأخرى ، ثم استوت على سوقها فدبجها كتّاب لهم باع في الكتابة طويل ، وقامت بدور بناء في تثقيف الشعب ، ونشر الوعي الاجتماعي والسياسي والديني ، فخاضت خضم السياسة ، فكانت المقالة السياسية التي مالأت السلطان عبد الحميد[5]، ولم تفلت من هذا الاتجاه إلا بعض مقالات تسترت خلف إيماءات تقرأ بين السطور ، ثم اندفعت كالسيل الهادر عقب إعادة العمل بالدستور سنة 1908 م ، تقوض بناء الاستبداد وتبني صرحاً من الفكر الحرّ لم تكد جدرانه تعلو حتى عصفت بها رياح الغزو الايطالي البغيض .

واهتمت المقالة بالجانب الاجتماعي منذ بواكيرها الأولى ، فانتقدت العادات السيئة وناصرت التعليم ، وأسهمت في التعبئة الاجتماعية ، وأكدت على الهوية الدينية وقامت بدور فاعل في تجذير الانتماء التاريخي ، وكان للمقالة العلمية القدح المعلّى ، حيث اشرأبت الاعناق لإبصار النهضة العلمية التي زخر بها العالم في أعقاب القرن التاسع عشر ، فجرد أعلام المقالة العلمية أقلامهم وبسطوا سبيل المعرفة للقراء ، فوجد المتخصص ضالته ، واستنار القارىء بنور العلم من أيسر طريق ، وسجلت لنا المقالة ــ فيما سجلت ــ أحداثاً

---

(1) الترقي العدد 192 في 18 جمادي الثانية 1329 هـ / 1911 م «طرابلس وإيطاليا» .

(2) انظر : كذلك المرصاد العدد 15 في 19 المحرم 1329 هـ / 1911 م «المعارف في أيام مديرها الحالي» حيث جاء بها ما يلي «وقد حملنا على كتابة هذا الفصل تشبثات مدير المعارف . . » .

(3) العصر الجديد العدد 11 في 3 جمادي الأولى 1327 هـ / 1909 م «الشريعة الاسلامية والدستور» .

(4) انظر : طرابلس الغرب العدد 112 في 27 رجب 1285 هـ / 1868 م .

(5) عبد الحميد الثاني ولد سنة 1842 م ، اعتلى عرش السلطنة بعد عزل مراد الخامس ، وفي عهده صدر أول دستور للدولة ، الذي اقترن بمدحت باشا ، ولكنه عطله وحكم البلاد حكماً فردياً مطلقاً ، وخاض حروباً ضد روسيا واليونان ، ثار عليه حزب تركيا الفتاة ، وعزل سنة 1909 م ، توفي سنة 1918 م ، انظر : الموسوعة ص 1180 .

ومناسبات وصـفت أكمل وصف ، فغطت جانباً مهماً مما تضطلع به المقالة الوصفية ، كما أسهمت المقالة أيضاً في ميدان الدراسات الاقتصادية ، والنقدية ، والثقافية ، بجهد بالغ سدّت به ثغرات في البناء الثقافي والفكري في ولاية طرابلس الغرب .

وقد شارك في كتابة هذه المقالات كتاب من البلاد الإسلامية والعربية إلى جانب الكتّـاب الليبيين ، فمنهم من تـوصلنا إلى معـرفته ، ومنهم من تـوارى خلف ستار من التواضع ، أو احتجب خلف توقيع رامز ، ففوّت علينا فرصة دراسته دراسة كاملة .

ومن أبرز كتاب المقالة في ليبيا مجموعة من الأعلام كانت لهم اليد الطولى على نشأة المقالة في ليبيا وتطورها ، نعرض لتراجم بعضهم في مبحث تال ، بعد أن نحلل ألوان المقالة وموضوعاتها في الفترة العثمانية في ليبيا .

الفصل الثالث

ألوان المقالة في ليبيا وموضوعاتها

- المقالة السياسية
- المقالة الدينية
- المقالة التاريخية
- المقالة الاجتماعية
- المقالة الاقتصادية
- المقالة الثقافية والنقدية
- المقالة العلمية
- مقالة المناسبة

المقالة السياسية

1 ــ الفترة الأولى : تعثر المقالة السياسية

2 ــ الفترة الثانية :

السياسة في الدولة العثمانية

ــ سياسة الأحلاف

ــ السياسة الدولية

3 ــ الفترة الثالثة :

ــ الدستور وأثره في الحياة السياسة

ــ التثقيف السياسي :

أ ــ الشورى

ب ــ علاقة المواطن بالدولة

جـ ــ الرأي العام

ــ السياسة الداخلية للدولة والولايه :

أ ــ سياسة الدولة

ب ــ سياسة الولاية

ــ القوميات

ــ السياسة الخارجية

ــ الاستعمار ووسائله :

أ ــ دوافع الاستعمار

ب ــ الاستعمار الانجليزي

جـ ــ الاستعمار الفرنسي

ــ إيطاليا ومطامعها :

أ ــ النوايا الايطالية

ب ــ دور اليهودي في الولاية

جـ ــ مقارعة الصحف الايطالية

المقالة السياسية

شغلت المقالة السياسية الحيّز الأكبر في الصحافة العثمانية في ليبيا ، فقد ولدت مبكراً مع صدور «طرابلس الغرب» في مناخ خانق ، تطوقه مقامع الجهل وخواء القاعدة الثقافية ، ونظام حكم لا يسمح بالحديث عن السياسة إلا في اتجاه واحد ، لحمته رضا السلطان وسداه التفنن في صياغة الألقاب وتدبيج الأدعية بما يطيل عمر الخليفة ويمدّ في سطوته ، ودرجت في مهد تغله القوانين الصارمة مثل قانون المطبوعات لعام 1865 م ، والإعلان السلطاني لسنة 1867 م ، والإعلان السلطاني الثاني 1877 م .

ومثل قانون المطبوعات لسنة 1888 م ، ثم قانون الصحافة لسنة 1894 م[1] ، «فأدت الحال إلى قصر حرية المطبوعات وتبعها حرمان الأمة من مبادلة الأفكار السياسية»[2] .

وأخذت المقالة السياسية تتعثر كثيراً خاصة في فترتها الأولى ، ولا سيما إذا عرفنا أن وعاءها الوحيد هو صحيفة طرابلس الغرب ، التي ما كانت تصدر حيناً إلا لتحتجب أحياناً أخرى ، إمّا بسبب قصور الطبع الحجري ، وإما بسبب معوقات أخرى كثيرة ليس هنا مكان استقصائها[3]، وفي حالة صدورها كانت توزع على المأمورين فقط[4]، حتى إذا ما

---

(1) انظر قائمة بالممنوعات في الصحافة العثمانية في كتاب «تاريخ الصحافة السورية» لشمس الدين الرفاعي .

(2) الترقي العدد 74 في 3 شعبان 1326 هـ «حياتنا السياسية» .

(3) انظر : طرابلس الغرب العدد 112 في 27 رجب 1285 هـ 1868 م

(4) جاء في طرابلس الغرب رقم 61 الصادر في 25 رجب 1284 هـ : أنه لا يوزع منها سوى 150 نسخة بعدد المأمورين في الولاية .

اقتربنا من الفترة الثانية وجدنا المقالة السياسية تبرز في المقدمة بحظوة تتصدى لمختلف القضايا السياسية خارج إطار الدائرة المحلية الضيقة .

ومما تجدر ملاحظته أنّ المفهوم السياسي ارتبط بالدين ارتباطاً وثيقاً طيلة الفترة العثمانية في ليبيا ـ كما في معظم الولايات الأخرى ـ فكل رأي في السياسة يخالف رأي السلطة فهو رأي مخالف للدين «وبما أن العثمانية هي الاسلام في مفهوم غالبية معاصري الفترة من متنوري الأقطار العربية ، فكل اعتداء على الدولة العثمانية أو مقام السلطنة ـ وإن كان في سبيل الحركة القومية أو الفكرية ـ هو تطاول في اعتقادهم على الدين»[1] ، ومن هنا اتخذت المقالة السياسية في ليبيا مدخلين لا ثالث لهما في الغالب ، أولهما ديني وآخرهما تاريخي ، فقد درج الكتّاب على التوطئة لصميم المقالة بمقدمة دينية أو تاريخية مدخلاً لما يراد من المقالة .

وإذا ما انطلقنا من منطلق إحصائي بحت ألفينا الفترة الأولى خاوية أو كالخاوية من المقالة السياسية لما أسلفنا ، ولضياع معظم صحف طرابلس الغرب فلم نجد كمّاً يمكننا من الحكم الواثق على مراحل نموها الأولى ، حتى إذا ما تجاوزناها إلى الفترة الثانية فإذا هي واضحة المعالم تُسهم في بناء الحياة الفكرية وتتبنى وجهة نظر توافق في الغالب وجهة نظر الدولة ، وتقوم بالتحليل السياسي الواعي ، الصادق حيناً والمرائي في بعض الأحيان ، ومن هذا ما جاء في مقالة عنوانها «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» حول حرب الدولة العليّة مع اليونان « . . وتعلم أمته ـ الملك جورجي ملك اليونان ـ الأيادي البيضاء الموسومة بأيدي العثمانيين على صفحات دهرهم ، وهم يعهدون وما بالعهد من قدم كيفما كانوا يتقلبون في أكناف نعمائها لكن قضى غيّهم وضلالهم أن سوّلت لهم أنفسهم أن يدوسوا حقوق سيدهم ومولاهم التي هي أمنع عليهم من جبهة الأسد ويروموا انتهاب ما لا يصلون إليه ما دام رمق في واحد من رعاياه الذين يضحّون النفس والنفيس في صالح متبوعهم السلطان الأعظم»[2] ، وقد تسقط في مستنقع الملق السافر ، والمديح الممجوج للخليفة أو الوالي ، أو بعض أولي الأمر وتهتم المقالة السياسية في فترتها الثانية بالصراع الدولي بين دولة الخلافة والدول الأوروبية في الدائرة الأولى ، فتنبري للدفاع عن موقف الدولة العثمانية من مسلمي الهند ، وردّ مزاعم بريطانيا بأن العثمانيين لهم يد في ثورة الهند على حكامهم الانجليز فتقول : «والحال أنهم أدرى من غيرهم بأن أعظم الأسباب في الحركة الهندية هي السياسة الخرقاء ، والكلمة الشنعاء ، التي كانت تنادي بها زعماؤهم على روس[3] منابرهم وترددها

---

(1) اسكندر لوقا : الحركة الأدبية في دمشق ص 92 .

(2) الترقي العدد 3 في 10 صفر 1315 هـ (1897 م) «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» .

(3) كذا والصحيح : رؤوس .

بملاء[1] الأفواه أثناء المذاكرة الصلحية وهي قولهم : (لا يجوز أن يبقى تحت العلم العثماني شبر واحد من أرض كانت مسيحية) فكان لصدى هذه الكلمة تأثير عظيم عند المتدينين وهي التي بعثت إليهم روح النشاط وأيقظتهم للذبّ عن حقوقهم ، حيث لم يروا عذراً لمئات الملايين من النفوس يجبرهم على الخضوع والبقاء تحت سلطة فيئة[2] منافية لديانتهم وعوائدهم[3] خصوصاً عندما أحسوا ما أحسوا من قولهم . . »[4] .

وتفرد المقالة السياسية في هذه الفترة حيزاً غير يسير لسياسة الأحلاف والمحاور التي سادت العالم منذ أمد طويل ، وبلغت غايتها في أعقاب القرن الماضي ، فتعرض بالتحليل والتفسير للتحالف بين روسيا وفرنسا وتشير إلى التناقض بين نظامي الحكم في البلدين حيث إن روسيا بها امبراطور مطلق التصرف وفرنسا بها رئيس للجمهورية ولا يلتفت من اليمين إلى الشمال إلا باجتماع النواب والاقتراع[5] ، ومع ذلك فقد تحالفتا وترجع المقالة هذا التحالف إلى إيجاد توازن سياسي في العالم ، أو هو بمثابة ردّ على التحالف الثلاثي بين ألمانيا وإيطاليا والنمسا .

وتهتم المقالة السياسية بعناصر تحليل السياسة الدولية لألمانيا فتذكر تحالفها مع تركيا في نفس الوقت الذي تعقد فيه اتفاقيات مع فرنسا وروسيا ، وتستخلص من هذه الأحلاف أن الدول العظمى تسعى للوقوف في وجه بريطانيا لسلخ مناطق النفوذ من يدها والحد من توسعها الاستعماري .

وتحتل فكرة الجامعة الاسلامية والدعوة لها حيّزاً من مساحة المقالة السياسية تتبنى فيها وجهة نظر الدولة في بناء الجامعة الاسلامية التي يحضّ عليها السلطان عبد الحميد رداً على المحاور والأحلاف الأجنبية ، وتراها من صميم الدين بل هي «الكعبة التي يجب على كل مسلم أن يتمسك بها ويعتصم بحبل ولائها لما أنها الحافظة لسياج الجامعة الاسلامية من أن تتطرق إليها أيدي السوء والعدوان ، فقد وجب علينا أن نؤدي ما هو واجب من الحقوق نحو الدولة حتى لا ندخل في عداد المارقين من جامعتي الدين والوطن . . »[6] .

---

(1) كذا والصحيح : بملء .

(2) كذا والصحيح : فئة .

(3) المقصود : عاداتهم .

(4) الترقي العدد 13 في 21 ربيع الآخر 1315 هـ (1897 م) «النفوذ السلطاني» .

(5) الترقي العدد 19 في 4 جمادي الآخرة 1315 هـ (1897 م) «مقام الخلافة العظمى وسياسة الدول» .

(6) الترقي العدد 20 في 11 جمادي الآخرة 1315 هـ / 1897 م «الدولة العليّة في عالم الدول» .

وتعنى المقالة السياسية بقضايا الاستعمار والصراع على المستعمرات ، وبروز أمريكا شريكاً جديداً للدول الأوروبية ، وتنتقد موقف بعض الدول المتحالفة التي يفترض أن تهب لنجدة أسبانيا[1] عسكرياً بدل الاكتفاء بالتوسط السلمي وإرسال المذكرات ، وتحلل أيضاً قدرة كلا الدولتين على الحرب من وجهة نظر استراتيجية ثم يتنبأ أحد الكتاب بأن «تسلط أمريكا على أسبانيا يعتبر فتحاً لباب التعدي على جميع الحقوق الأوروبية»[2] وهذا ما أثبتت الأيام صحته .

وتمشياً مع نمط الفكر السياسي السائد في العالم تدلي المقالة السياسية في ليبيا بدلوها في الحديث عن السلم العالمي ، وكثيراً ما تعلن عن رأيها بأن «كلمة السلام عند أوروبا ليست إلا ستاراً يتخذها القابضون على ناصية السياسة سلاحاً لتسكين الخواطر وتطمين النفوس المترقبة للحرب المنزعجة من هول ذكرها»[3] وتبرز دور السلطان كأحد أعمدة السلم في العالم ، الذي لن يهدأ حتى تشارك الدولة العلية في بناء أسسه كما تقول إحدى مقالات الترقي «ولذلك يسوغ لنا أن نقول إن السلم ليس من مرغوبات أوروبا ولا هي المحافظة عليه بل هو في قبضة جلالة السلطان المعظّم وليس الفضل في تمكين عراه إلا له ، حيث أبدى من الحكمة في تسوية المشاكل المختلطة ما أدهش رجال السياسة وحيّر عقولهم»[4] وفي هذا ما فيه من التضليل للرأي العام الإسلامي من إظهار للدولة العلية بأنها صاحبة اليد الطولى في رسم السياسة الدولية في حين أنها كانت تترنح تحت مقامع العجز الاقتصادي وانفصال الولايات عنها ، وعبث الدولة الأوروبية بأطرافها ، والتدخل السافر في شؤونها الداخلية وتهيؤ الغرب لإقتسام تركة الرجل المريض .

حتى إذا أعيد العمل بالدستور العثماني سنة 1908 م[5] هبت عاصفة من النقد السياسي لفترة حكم السلطان عبد الحميد المطلقة ، وأرسلت الأقلام من وجائها حتى لا تكاد تخلو صحيفة من الحديث عن الدستور وشرحه ومزاياه ، وأسس الحياة الديموقراطية والأمل الواعد في النهضة والرقي ، وتلك هي الفترة الأخيرة من هذه الدراسة ، وهي أخصب الفترات الثلاث ، فكما في باقي الولايات رفعت القيود عن إصدار الصحف ، فصدرت في

---

(2) الحديث عن الصراع الأمريكي الأسباني حول كوبا .

(2) الترقي العدد 41 في 23 ذي الحجة 1315 هـ / 1897 م «أسبانيا وأمريكا» .

(3) الترقي العدد 26 في 24 رجب 1315 هـ (1897 م) «جلالة السلطان المعظم والسلم العام» .

(4) الترقي العدد 26 في 24 رجب 1315 هـ (1897م) السابق .

(5) صدر الدستور العثماني لأول مرة في 1876/12/23 م ، ثم عطّله السلطان عبد الحميد حتى سنة 1908م ، ثم أعيد العمل به .

طرابلس الغرب العديد من الصحف الوطنية التي احتضنت أقلاماً طالما تاقت إلى البوح بمكنوناتها ، وفي هذه الفترة شمخت المقالة السياسية لتبلغ شأواً قصرت عنه مثيلاتها في بعض البلاد العربية ممن كانت أسبق في معرفة الصحافة والصحف .

ولقد أفاضت المقالة السياسية في الفترة الأخيرة ، وهي فترة النمو المكتمل والعطاء الفاعل في طرح ومناقشة أهم المواضيع المتعلقة بالحياة الفكرية والسياسية ، ويمكن أن نجمل هذه الموضوعات فيما يلي :

أ ــ الدستور وأثره في الحياة السياسية .

ب ــ التثقيف والوعي السياسي .

جـ ــ السياسة الداخلية للدولة والولاية .

د ــ القوميات .

هـ ــ السياسة الخارجية .

و ــ الاستعمار ووسائله .

ز ــ إيطاليا ومطامعها .

* * * * * *

ــ (أ) ــ الدستور وأثره في الحياة السياسية :

كان الدستور[1] محور الحياة الفكرية والثقافية بله السياسية ، ومن هنا اهتم كتاب المقالة السياسية بالدستور وأفاضوا فيه شرحاً وتفسيراً ، وكتبت المقالات المسهبة في نقد نظام الحكم الفردي ومهاجمة العهد الحميدي قبل الانقلاب ، وشخص عبد الحميد بعد الانقلاب ، وإن كان من الكتاب من التمس البعض المعاذير لعبد الحميد باديء الأمر كقول بعضهم: «ولاحت لذوي الغايات بارقة أمل في الانتصار على العثمانيين الأحرار فرأى جلالة السلطان المعظم أن الأمة لم تستعد بعد للعمل بالقانون ولم تحصل على المزايا الذي[2] تؤهلها للإشتراك في تدبير الأمور ، فأصدر إرادته السنية بتعطيل المبعوثان إلى حين»[3] ، أو قول

---

(1) عرف الدستور في الدولة العثمانية بالمشروطية ، بمعنى أن سلطة السلطان مقيدة بشروط يحددها الدستور .

(2) كذا ، والصواب : التي .

(3) الترقي العدد 74 في 3 شعبان 1326 هـ (1908 م) «حياتنا السياسية» .

الأخر : «ضلّت[1] هذه الأمة في ديجور حالك فلعبت بها أيدي المستبدين والنفوس الشريرة فحالت بينها وبين مليكها المحبوب فجهزوا من خلال ذلك الدور المظلم الجيوش الجرارة من الخونة المعبر عنهم بالجواسيس . . فقد ساعدهم من سوء الحظ لدى تعطيل القانون الأساسي لأول مرة أن السواد الأعظم من الأمة حينذاك لم تكن قلوبهم مستعدة للحكم النيابي»[2] ، ومثل هذه الآراء هي أصداء [3] لرأي السلطان عبد الحميد في الدستور والشعب، وقد أفصح عن هذا في مذكراته عقب عزله بقوله: «لا أود التحدث عن مدى جدارة أمة بالحكم المشروطي ــ الدستوري ــ يصمت عوامها ويقدم خواصها الشكر عند إبعاد ولي نعمتها[4] الذي أعطاها الحرية ولم يجف بعد مداد صنيعه»[5] .

ومن هنا ندرك أن كتّاب المقالة السياسية في ليبيا كانوا على دراية تامة بتطورات السياسة في الدولة ، ويجيدون استنتاج المواقف السياسية رغم ضبابيتها في أروقة الباب العالي ، وانعكاس الموقف العسكري على جبهات البلقان ، ولعلهم كانوا يدركون أن الدستور كان تطويراً لنظام الحكم وأساليبه ، وليس انعطافاً راديكالياً يمسخ سلطة السلطان وصلاحياته ، فلم يزل السلطان صاحب الحق وحده «في تعيين وإقالة الوزراء الذين أصبحوا مسؤولين أمامه لا أمام البرلمان ، كما أنه هو الذي يعقد المعاهدات ويعلن الحرب[6]» وبيده كل المقاليد والقنوات التي تدار الدولة من خلالها، ويمكننا أن نستدل من خلال سماع أصوات مثل هؤلاء الكتاب على أن ثمة اتجاهات بالفعل ترغب في رفض النظم الأوروبية والعودة إلى المنهج الإسلامي المحافظ من خلال تأكيد دور الخليفة باعتباره صمام الأمان للدولة المسلمة ، ومن ثم يمكننا الركون إلى رأي السلطان عبد الحميد والتصديق بأن

---

(1) كذا ، والصواب : ظلت .

(2) الترقي العدد 83 في 20 شوال 1326 هـ (1908)«الدستور» .

(3) السبب الحقيقي لرفض السلطان عبد الحميد فكرة الدستور وعدم قبوله النظام الديموقراطي هو نظرته إلى الشعوب المختلفة التابعة لدولته بأنها أمم شتّى ، وأن السيادة عليها يجب أن تبقى للأتراك ويسميهم العنصر الأصلي ، وفي اشتراك غيرهم معهم موت لهم ، ويضرب مثلاً بخلو البرلمان الإنجليزي من نائب هندي ، والفرنسي من نائب جزائري واحد ، انظر : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة محمد حرب عبد الحميد ص 58 .

(4) المقصود مدحت باشا الذي اشتهر في الدولة العثمانية بأنه أبو الدستور ، وقد عزله السلطان عبد الحميد ونفاه إلى أوروبا .

(5) مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة محمد حرب عبد الحميد ، دار الأنصار القاهرة 1978 م ص 31 .

(6) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت ـ القاهرة، 1982 م ط 1 ص 234 .

الحياة الدستورية تعوزها القاعدة الشعبية ، ولم تعُدُ أن تكون أملاً من آمال أبي الدستور وبعض المثقفين ثقافة غربية[1] .

غير أن ما تجمع عليه المقالات السياسية هو ثلب العهد الحميدي ووصمه بالاستبداد وذيوع الحرمان ، وتفشي القهر ، بل يتطرف بعض الكتّاب فيصف حكّام العهد الحميدي بأنهم «أناس ألفوا الخيانة لأوطانهم وملأهم[2] وأبنائهم بحيث كادت تنفطر السماء ،وتهتز الجبال من ظلمهم ومكرهم وسيىء خلقهم إن سلمت عليهم لا يسلمون عليك وإذا نظرت إليهم ألقى القبض عليك ، وما لك من الظلم خلاص ولات حين مناص»[3].

حتى إذا عُزل السلطان عبد الحميد تبارت الصحف في هجائه وسلقته الأقلام بألسنتها الموتورة تتهمه بالتسلط والاستبداد وقمع الحريات ، وأن إعلانه الدستور باديء الأمر من باب استئلاف القلوب حتى إذا «آنس من نفسه قوة ومن الأمة جهلاً بالمشروطية وغلب على نفسه حبّ التفرد بالأمر والنهي حسبما اقتضته فطرته ، وسرعان[4] وجد من يظاهره على غرضه من أركان الدولة فأسرع لتعطيل المجلس ، وأخذ يتصرف في هذه الأمة كما يريد وتريد أعوانه»[5] .

وتوسع المقالة السياسية من هجومها على السلطان عبد الحميد فتنتقد سياسته الدولية وتصف معاهدة برلين بأنها بلاء على الأمة العثمانية وأن السلطان أراد أن يتخلص بها من المشاكل الخارجية ، وأنه يتستر بالدين لتحقيق مآربه في القضاء على الدستور من جديد ، ومثل هذه المقالات هي جزء من حملة عالمية شُنّت على السلطان عبد الحميد تنسج خيوطها الماسونية والصهيونية ، وكثير من دول الغرب التي كان السلطان يقف في طريقها حجر عثرة ، ولا أظن أن كتّاب ولاية طرابلس الغرب كانوا على وعي بمسار هذا التيار الموتور إذا ما استثنينا مثل «محمد البوصيري» الذي كان رئيساً لفرع حزب الاتحاد والترقي في الولاية[6] ، وعلى دراية بمبادىء حزبه وأهدافه ، ووسعت دائرة الكتابة إلى مضامين الحرية ، وقواعد نظم الحكم ، ومزايا الأسلوب الديموقراطي وشرح العلاقة بين المواطن والدولة ، وأمعنت المقالة السياسية في إذاعة أسباب الوعي فكتبت المقالات الهادفة في بيان حقوق

---

(1) المصدر السابق ص 233 وما بعدها .

(2) كذا ، والصواب : ملئهم .

(3) الترقي العدد 188 في 19 جمادي الأولى 1329 هـ (1911 م) «الحرية ومحاسنها» .

(4) في العبارة التواء ، ولعل الأوضح : سرعان ما وجد . .

(5) الترقي العدد 106 في 17 ربيع الآخر 1327 هـ (1909 م) «ما مضى فات فلنهتم بما هو آت» .

(6) نظر : ملحق الترقي للعدد 74 في 3 شعبان 1326 هـ (1908 م) .

وواجبات المواطن ، والأسس السليمة لمفهوم المواطنة ، وتميز كتاب الترقي بحمل راية التوعية السياسية في الولاية ، فأفاضوا في نشر الوعي وتحريض الشعب على ممارسة حقوقه السياسية دون الانسياق وراء «طول اللحا[1] وكبر العمائم وعظم الرتب وتعدد النياشين وكثرة الأموال وغير ذلك من المظاهر التي لا تفيد»[2] في اختيار ممثلي الشعب الاختيار الأمثل لتمثيلهم في مجلس المبعوثان .[3]

ولم تكتف المقالة السياسية بهذا بل ظلت تتابع المبعوثين «النواب» وتوجه لهم النصح والارشاد ، وتذكرهم بأن «كل واحد منكم قد صار أمة بعد أن كان فرداً فانظروا لذلك لتعلموا قدر الأمانة التي حملتموها وخطر الموقع الذي تشغلونه[4]» ، وتسترسل معهم في مناقشة احتياج الدولة والموازنة بين متطلبات الولاية ومتطلبات الدولة ، مما ينبيء بوعي سياسي تعدى طور النشأة إلى طور تكوين الرأي العام الواعي الذي يكوّن القاعدة الصلبة للنظام الديموقراطي .

ويلحّ كتّاب المقالة السياسية على تحطيم قاعدة الحكم الفردي في أذهان الشعب ، ودفعهم دفعاً إلى محاسبة المسئولين مهما كانت وظائفهم ، ويتساءل أحدهم : «هل سعادة الأمة العثمانية منوطة بإصابة النواب في مقرراتهم ، وشقاؤها منوط بخطئهم فيها ؟»[5] ، وللإجابة على هذا السؤال يسهب في ذكر أسباب التقدم والرقي ، من نشر التعليم والقضاء على الأمية والاهتمام بالموارد الاقتصادية، وضمان الأمن العام وغير ذلك من أسباب التقدم ، ويحذر من خدر التغني بألفاظ الحرية ، وترديد كلمة الشورى دون الالتزام من الحكام بمعناها ، ومن المحكومين بالإصرار عليها ، ليستخلص أنّ «ليست مقررات مجلس النواب وحدها هي الضامن القوي لسعادة الأمة إن كانت صواباً ، ولا السبب الوحيد لشقائها إن كانت خطأ» .[6]

وتحتل فكرة التحليل السياسي حيزاً عريضاً فنجد أحد الكتّاب يحلل الاستبداد ويرجعه إلى نمو بعض الغرائز الطبيعية في البشر من حب الأثرة والتملك، «ولأن الاستبداد وحس التحكم وحب الانفراد طبيعي في البشر ، فكل أحد لا يريد أن يشاركه أحد في حكمه ،

(1) كذا ، والصواب : اللّحى .

(2) الترقي العدد 80 في 15 رمضان 1326 هـ (1908 م) «مجلس المبعوثان» .

(3) المبعوثان جمع بالفارسية لمفرد المبعوث بالعربية . انظر : في أصول التاريخ العثماني ، أحمد مصطفى ص 234 .

(4) الترقي العدد 83 في 20 شوال 1326 هـ (1908 م) «المبعوثان» .

(5) الترقي العدد 91 في 24 ذي الحجة 1326 هـ (1809 م) «بعد افتتاح مجلس المبعوثان» .

(6) المصدر السابق .

ولا يسئله[1] عما يفعل ولربما تمنى أن يرى الأرض بأسرها تحت قبضته والسماء تحت إرادته ويتصرف في الكون كيف يشاء»[2] ، ويبين أن في التاريخ أمثلة لمن ادعى الألوهية ، ومن ادعى أحوالاً لا يطيقها بشر ، ويرجع ذلك إلى غلبة البهيمية على الانسان ، وميل النفوس الى غرائز الشر ، ولا يكبحها إلا صفاء الطبع ، وحسن الخلق ، ومن ثم فإن الحكام المستبدين هم خلو من محاسن الأخلاق .[3]

وقد يفضل البعض أن تعم الطفرة فيصبح الناس بين عشية وضحاها يؤيدون حزب الاتحاد والترقي ، والنظام الديموقراطي ، فإذا ما لاحظوا أن هناك إشارة من محبي الحكم الفردي انبرى بعض الكتاب التحليليين إلى بيان سبب هذه الظاهرة ، فيكتب أحدهم مقالة[4] في المقارنة بين الدستور في الدولة العثمانية وباقي الدولة الأوروبية فيعزو عدم قبول البعض للديموقراطية إلى أن الشعب العثماني أسير مبدأ العبودية التي رزح تحتها أمداً غير قليل وأنه مجبول على الرجعية والتفرق والتمييز والاتكالية وحب الأثرة التي تلجىء إلى التذلل والتزلف ، وأن الشعب العثماني لم يكابد في سبيل الدستور ما كابدته الشعوب الأخرى ، فلم يعرفوا قدره وميزته ، وينبه إلى أن من أخطر الأسباب ذيوع النقد الهادم وانشغال الشعب به عن البناء الفعلي على عكس الشعوب الأوروبية التي أحرزت تقدماً كبيراً في سيادة النظم الديموقراطية والتوجه نحو التقدم البنّاء ، وتفضيل أساليب العمل الجماعي بما يصاحبه من ذيوع المعرفة ، وترك الأثرة وحبّ الهدم من أجل الهدم .

ومن كتّاب المقالة السياسية من يقف موقفاً متزناً لا يميل إلى نقل الدساتير الأوروبية برمتها ، ولا يرفضها كاملة ، بل يرى أصحاب الاتجاه الأول «سكارى من خمرة القوانين الأوروبية مطلقاً لا عن علم يقيني ولا عن تجربة ولا عن مطالعة وتطبيقات صحيحة ، بل لمجرد التقليد .. وهذا هو الخطأ المبين[5]» على أنه لا يريد القدح في قوانين أوروبا أو الإعراض مطلقاً عن نظمها ، وإنما يفضّل الأخذ بما يناسب البلاد العثمانية ، ويدع ما لا يناسبها[6] .

---

(1) كذا ، والصحيح : يسأله .

(2) الترقي العدد 118 في 28 ذي القعدة 1327 هـ (1909 م) «الحكم الدستوري» .

(3) المصدر السابق .

(4) الترقي العدد 186 في 5 جمادي الأولى 1329 هـ (1911 م) «الفرق بين الشعبين والمشروطيتين» .

(5) الترقي العدد 94 في 15 المحرم 1327 هـ (1909 م) «الشورى» بقلم محمد الأسير الحسيني .

(6) المصدر السابق .

ـ (ب) ـ التثقيف السياسي : ـ

عني كتّاب المقالة السياسية بعد صدور الدستور بالرجوع إلى مصادر الشريعة الإسلامية ، وتلقفوا آيات الشورى لإيجاد سند ديني يقوي موقف الدستور والدستوريين ، وأسهبوا في شرح معنى الشورى متخذين من المدخل الديني باباً عريضاً لولوج المناقشات السياسية ليصلوا في النهاية إلى أن هذا هو الأساس الذي تبنى عليه قواعد الحكم «والأمة أقامت بناءها على هذه القاعدة المتينة القوية ، فجاء بناؤها متيناً مشيداً سامقاً شائقاً مؤيداً»[1] .

وتستهوي الشورى أحد الكتاب فيفرد مقالة طويلة جداً تنشر في خمسة أعداد من الترقي يتكىء فيها على منبر الشورى لينتقد أوضاع الدولة والولاية والولاة والمأمورين ونظم التعليم والقضاء ، ويطرق أبواب الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، ويؤكد أن حكم الفرد المطلق يسرع بانهيار الدول وزوالها، فيقول: «وتدبير الممالك برأي واحد أمر صعب ، مشئوم[2] الغرّة والرأس والعجب والكعب ، وهبنا سلّمنا بأنه كان من الملوك العظام في غابر الأزمان ، بل وفي هذه الأيام من يقوى على القيام بأعباء الملك حق القيام ، وتتناول يده القديرة أسباب العمران عن كثب أليس من المحقق بأن الدولة والملك يعتلان بعلته ويموتان بموته والاحتمالات في هذا الباب كثيرة والعلل وفيرة»[3] .

والكاتب هنا كأني به يرمي إلى مغزى أبعد من معنى الشورى بمعناها المفهوم آنذاك من مشاورة الحاكم لأهل الحل والعقد ، ثم له أن يأخذ بمشورتهم أو لا يأخذ ، بل لعله يشير إلى النظام الجمهوري السائد في أوروبا حيث يمضي الرئيس فترة الرئاسة ثم يمضي فلا تتأثر الدولة بذهابه، وبما أن هذا يتعارض مع نظام الخلافة العثمانية فلا سبيل إلى الإيماء إليه بشكل أوضح من هذا التلميح الخفي .

ويجزم بعض الكتّاب بأن الشورى «هي الكافلة لإعادة مجد الدولة العثمانية القديم ، وهي التي أمر الله تعالى بها وأثنى عليها ثناءً جيلاً وعظّمها وفخّمها وبيّن علو مكانها ولزومها ، حيث قال آمراً (وشاورهم في الأمر)[4]»[5] ، ومن هنا يثبت أن الحكومة الشورية

---

(1) الترقي العدد 93 في 8 المحرم1327 هـ (1909 م) «الشورى» بقلم محمد الأمير الحسيني .

(2) كذا ، والصواب : مشؤوم .

(3) الترقي العدد 93 ، «الشورى» بقلم الحسيني ، مصدر سابق .

(4) سورة آل عمران ، الآية 159

(5) الترقي العدد 74 في 3 شعبان 1326 هـ (1908 م) «الدور الجديد» .

هي عين الشريعة الاسلامية الغراء ، حتى إذا ما اطمأن إلى إثبات أن الحكومة المشروطية ـ الدستورية ـ هي حكومة شورية انطلق يسوق أدلة ـ شرعية ومنطقية معقولة ومنقولة ـ على أن مراد الله تعالى للدولة الإسلامية أن تكون شورية مثل قوله تعالى : ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾[1] ، ومثل الأمر الإلهي للنبي المعصوم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالمشاورة في الأمر «فكل من له مسكة من العقل يعلم أن هذا الأمر الإلهي هو لأجل التعليم والإرشاد ويتحقق أن الأمر بالشورى أهم مادة في القانون الأساسي الإلهي الذي يدور عليه عمران الملك وخرابه»[2] .

ومن أهم المواضيع التي شغلت كتّاب المقالة السياسية تحديد العلاقة بين الدولة والأفراد ، وبيان حقوق كلٍّ وواجباته بموضوعية آناً ، وبشيء من العاطفة والاندفاع أونة أخرى .

وقد اهتم بعض الكتّاب بإبراز أن العلاقة بين الدولة والمواطن علاقة تلازم فقال : «لا بد لكل دولة من تبعة ولكل تبعة من دولة ، يعني أنه يلزم أن يكون التابع والمتبوع معلوماً ومعيناً إذ بدون ذلك لا تعيش الجمعية البشرية برفاه وانتظام»[3].

ثم يحدد واجبات الدولة تحديداً ساذجاً ينحصر في رعاية مال وعرض المواطن من المهلكات ، وواجب الأفراد بأنه الطاعة والانقياد لنظم الدولة .

ثم إن منظور الدولة للمواطن هو منظور نفعي عليها أن تعتني به بقدر ما يفيدها ، فإن انعدمت الفائدة فلينظر إلى جانب الضرر الذي يصدر عنه لأنه «كالدمّل في جسم الدولة فإذا بقي يكبر وتزداد سرايته إلى سائر المواقع ويفسد جسم الدولة كله»[4] ، ومن هذا المنطلق بنت الدولة العثمانية علاقتها مع مواطنيها خاصة في الولايات النائية كطرابلس الغرب .

ويغالي كاتب آخر في حقوق الوطن على المواطن ، فيتهم كل مقصر في أداء ما عليه بأنه جان على وطنه وخائن له[5] .

ويضع الكتّاب جلّ المسؤولية على العلماء باعتبارهم قادة الفكر والمعرفة ويطالبونهم بالعمل على نشر الوعي وبيان حقوق الوطن والمواطن من منطلقات ديموقراطية تخدم الوطن والوطنية .

---

(1) سورة الشورى ، الآية 38.

(2) الترقي ، العدد 74 ، مصدر سابق .

(3) الكشاف العدد 2 في 14 ذي الحجة 1326 هـ (1908 م) «الدولة والتبعة» .

(4) المصدر السابق .

(5) العصر الجديد العدد 11 في 3 جمادى الأولى 1327 هـ (1909 م) «نظرة وطنية» .

ويعلّل بعض الكتّاب سبب فتور الحسّ الوطني في هذه الولاية بأنه من نتائج الاضطهاد في العهد الحميدي الذي «قلع جذور كل فضيلة ووطنية صادقة وكان يهدد كل من تظاهر بها أو لاحت منه بوارق الإخلاص»[1] فكمنت في النفوس ، وظلت تترقب فرصة الظهور حتى لاحت بارقة الأمل في الدستور فأفلتت من عقالها .

وقد أسهمت المقالة السياسية كذلك في بيان أهمية الرأي العام ، وعملت على توعية الجمهور لمقدار تأثيره في سير الحياة السياسية فكتبت مقالات في هذا الصدد تحلل مزية علو صوت الرأي العام ، ومثالب خفوته ، فحيثما وجد «رجال الأمة العارفون بكليات وجزئيات الأمور وكان لهم من الشجاعة الأدبية ما يمكنهم من إيصال أصواتهم المعربة عن أفكارهم إلى آذان هيئة الحكومة كان صوت تلك الأمة أو الرأي العام قوياً يرن صداه في أصماخ الرجال المدبرين لأمورهم فلا يجد صوت الاستبداد منفذاً إلى ضمائرهم حتى يجيبوه ويعملوا بمقتضى تأثيره ، لأن قوة صدى رأي الأمة لا يترك محلاً لغيره ، فلا يسمع غير صداه ولا يجاب إلا نداء» .[2]

وهكذا يقرن الكتاب أسباب الحياة الديموقراطية ، ونظام الشورى بيقظة الرأي العام ، ويسهبون في تحليل أسباب اضمحلاله في الشرق من تفشي الجهل ، واستفحال الأثرة ، والنزوع إلى الفردية والاستبداد وعرقلة جهود دعاة الإصلاح[3] ، ومصانعة الحكام حتى في إخفاء الرأي مخافة أن يكون مخالفاً لرأي الحاكم .

ويحرض بعض الكتاب الجمهور على المجاهرة بالحق ولو أغضب الحكام منبهين على «أن كل فرد له قيمة في هذا المجتمع ولرأيه نفع أو ضر بالنسبة إلى حياة الأمة»[4] ، وأن على الحكّام أن يكونوا قدوة لغيرهم لما لأخلاقهم من تأثير في أخلاق العامة ، ويحث أحد الكتّاب الحكّام على الصدق في القول والعمل والانصياع إلى الحق وإيثار النفع العام على المصلحة الخاصة فيقول : «على الحاكم أو الآمر أن يبحث جيداً ويدقق النظر فيما هو الرأي العام ليعمل بمقتضاه متى كان في الإمكان ، ويسعى في تعديله وصرف العامة عنه بقوة البيان ومتانة البرهان متى كان مخالفاً لمصلحة الأمة والدولة[5] ، ويحذّر هذا الكاتب من تضليل الرأي العام ، والتطاول على الحكام ، ويعدهما من العراقيل التي تعيق النظم الدستورية .

---

(1) الترقي العدد 150 في غرة شعبان 1328 هـ (1910 م) «الوطنية الصادقة» بقلم صديق أحمد .

(2) الترقي العدد 153 في 22 شعبان 1328 هـ (1910 م) «الحكومة والرأي العام» .

(3) المصدر السابق .

(4) الترقي العدد 201 في 22 شعبان 1329 هـ(1911 م) «المجاهرة بالحق» .

(5) المصدر السابق .

وقد وضع معظم كتاب المقالة السياسية تجربة النظم الغربية نصب أعينهم وأكثروا من سوق الشواهد على نجاح هذه النظم ، وكثيراً ما كانوا يلحون في احتذاء مثل هذه النماذج ، وقد يسرد بعضهم حوادث برلمانية كرفض مجلس اللوردات الانجليزي المصادقة على قانون مالي صادق عليه مجلس النواب فاقتضى ذلك حل مجلس النواب ، ولن تعصف العواصف الهدامة بالهيكل السياسي في بريطانيا ، بل شرع في إعادة الانتخابات من جديد[1] ، ويقارن هذا بما يعتري الشرقيين الذين «يضطربون غالباً لأقل حادث أو أدنى تغير يطره[2] على شكل الحكومة ، وما ذلك إلا لحدث عهدهم بالدستور واعتياد الطبقة العالية التي منها الوزراء والحكّام على إدارة الأمور وفق إرادتهم وطبقاً لآرائهم»[3] .

ومن خلال هذا المنظور يحدد أحد الكتّاب أن الدول تبنى على دعائم ثلاث : القوة الإدارية ، والقوة العسكرية ، والقوة المالية ، ويسهب في شرح دور كل من هذه الدعائم ، ويستشهد أيضاً بالمسلك الإنجليزي في سبيل بناء دولة قوية مهابة الأركان[4] .

وما أن أحكمت جمعية الاتحاد والترقي قبضتها على السلطة ، وبادرت إلى التخلص من السلطان عبد الحميد حتى شنت الصحف في الدولة العثمانية حملة من المقالات التي تهاجم عهده وشخصه ، وترسل شواظ عدائها عليه ، وقد أسهمت المقالة السياسية في ليبيا بسهم وافر في هذه الحملة فسطرت المقالة في تحليل سياسة عبد الحميد ، ووصفه بالمستبد تارة ، وبالعميل تارة أخرى ، ونسبت إليه تهم الإسراف والتبذير بشكل مبالغ فيه إلى درجة لا تصدق ، ونُسبت إليه أوصاف وأفعال تلحق الحكّام عند سقوطهم دائماً[5] ، وقد تمّ هذا في إطار ترسيخ حكم حزب الاتحاد والترقي .

ـ (جـ) ـ السياسة الداخلية للدولة والولاية :

عنيت المقالة السياسية بمناقشة قضايا الدولة الداخلية في دائرتين : الكبرى دائرة الدولة عامة ، والصغرى دائرة الولاية .

وأبرز هاجس شغل الكتاب في تلك الفترة كان هاجس الشعور بالتخلّف وتلمس أسباب اللحاق بالدول المتقدمة ، فاهتم الكتاب بحث الدولة والشعب على المثابرة في سبيل

---

(1) الترقي العدد 121 في 26 ذي الحجة 1327 هـ (1909 م) «إجمال سياسي» .

(2) كذا ، والصواب : يطرأ .

(3) الترقي ، المصدر السابق .

(4) الرقيب العدد 15 في 2 رجب 1329 هـ (1911 م) «الحكومة والأمة» .

(5) العصر الجديد العدد 8 في 12 ربيع الثاني 1327 هـ (1909 م) «تركيا أمس واليوم» .

الأخذ بأسباب التقدم والرقي ، وأن على الدولة أن تعد كوادر من أبنائها لينهضوا بها إلى مدارج التقدم ، فإن وأمم الغرب لم تبلغ ما بلغته من الحضارة والمدنية والتقدم والارتقاء والصيت الطائر الذي بلغ عنان السماء إلا بفضل أولئك الرجال العظام الذين واصلوا ليلهم بنهارهم على خيرها ورفاهيتها» .[1]

ويشيد أحد كتّاب الترقي بالتجربة اليابانية ، ويتمنى أن يحذو العثمانيون ــ بل الطرابلسيون ــ حذوهم ، في إطار صحيح من الحرية الدستورية .

ويمكن أن نوجز اتجاه كتّاب المقالة السياسية في ثلاثة محاور : محور يرى أن السبيل إلى النهوض بالدولة العثمانية يكمن في الدستور ، ومن ثم فهو يحض على فهم الدستور فهماً صحيحاً، وتطبيقه تطبيقاً فعلياً، ويحذر من الذوبان في الإطار الشكلي للمبادىء والنظريات فيقول أحد كتّابه : «إن بلادنا التعيسة الحظ من يوم إعلان الدستور إلى الآن لم تستفد منه شيئاً سوى حفظ ألفاظ الحرية والمساواة والعدالة والأخوة فتجدها تدور على لسان كل أحد صغيراً كان أو كبيراً ، عالماً أو جاهلاً ، فهم معناها أو لم يفهمه» .[2]

ومحور ثان يرى الالتفاف حول جماعة الاتحاد والترقي هو السبيل الأمثل للنهوض بالبلاد فيقول قائلهم : «لم يبق إلا أن نقوم بواجب تبيضّ معه وجوهنا أمام أولئك الأبطال ونعينهم على خدمتهم وننشطهم على تفانيهم في الحرص على سعادتنا بمد أيدينا إلى بعضها واتحادنا قلباً وقالباً بإخلاص طوية ونزاهة ضمير» .[3]

والمحور الثالث يرى أن الدولة تحتاج إلى إدارة أشد حزماً وأمضى عزماً من الإدارات التي ساست البلاد ، كيما يمكنها التغلب على المشاكل الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية التي قد تكون خطراً على الدولة برمتها .

وقد يبدي كتّاب هذا المحور تذمراً من العثمانيين مغلفاً بغلاف شفاف ينم عما تحته دون جهد ، كأن ينتقد عجز الدولة العثمانية في عهدها الاستبدادي ويثني بعهدها الدستوري ، مما ينبىء عدم الرضا بتبعيتها في سائر أطوارها فيقول : « إن حكومتنا نفسها في العهد الغابر أعجز من أن تقوم بعمل فضلاً عن كونها تحسن صنعه على أن لها أعمال[4] ولنا أعمال ، وأنت ترى حكومتنا اليوم هنا منشغلة عفا الله عنها بما هو أهم لديها من وظائفها

(1) الترقي العدد 103 في 26 ربيع الآخر 1327 هـ (1909 م) «أقول الحق ولا أبالي» .

(2) المصدر السابق .

(3) العصر الجديد العدد 9 في 19 ربيع الثاني 1327 هـ/1909 م «الاتحاد الاتحاد» .

(4) كذا ، والصواب : أن لها أعمالاً ، خبر لـ «أن» مؤخر .

الأساسية فكيف ترجو منها ما ينفعك قبل أن تقوم بواجبات نفعها» . [1]

أما هموم الولاية فقد كانت معضلة حتى أن بعض الكتاب قد بلغ به اليأس مبلغاً ألجأه إلى القول : «فعسى أن ينزل الإله عليها ملائكة من عنده ليقضوا حقوقها فإنها قد سئمت النصر من أبنائها الذين عرفوا بالتخاذل والإنزواء»[2]

لكن ثمة مقالات اتسمت بالموضوعية والنقد الهادف، وتلمست موضع الداء ، واقترحت له الدواء ، ومن هذه مقالة صُدِّرت بها صفحات «المرصاد» تتحدث عن الغرض من الوجود الأمثل لهيئة البلدية ، ودور عضو المجلس البلدي ، وكيفية ترشيحه ، وتنتقد الأساليب المتبعة في هذا الشأن ، وتنتقد القسم الهندسي وتقصيره في رصف الشوارع مما نشأ عنه زيادة البرك والمستنقعات ، وأدّى إلى تفشي الأوبئة الفتاكة .

ومن المقالات التي مارست النقد السياسي في الولاية، واتبعت أسلوباً غير مألوف ، سلسلة من المقالات اتخذ لها كاتبها عنواناً كأنه لم يرض عنه ، أو لم يشف غليله فأخذ يقلبه ، فهو مرة (تنوع الحكّام في ظلم الأنام) ومرة (تفنن الحكام في ظلم الأنام) ، وثالثة (تفكّه الحكّام) ، وأخرى (صيحة المضام) ، عرّض فيها بأسلوب ساخر مر بسلوك الحكّام في الولاية من لدن أصغر مأمور حتى الوالي ، فهم جبابرة على الرعية «إما لخبث طوية أصالة . . أو لكون الحاكم مدفوعاً ممن فوقه إلى أكبر حاكم»[3] ، ويقسم الظلم إلى أربعة أنواع : الأول يقع على آحاد الناس ، وهم عامة الشعب ممن لا حول له ولا طول ، وهذا تردّ ظلامته من الوالي إلى ظالمه «الذي قرّ ذلك المسكين من ظلمه ، أو يعطيها له بذاتها ليسلمها له فتكون صحيفة المتلمس»[4][5] ، ومن ثم يبطش به غريمه أشد البطش .

والثاني ظلم يقع على من هو أرفع من الآحاد قدراً فتلخّص دعواه ، وتبعث إلى الظالم فيرد بتكذيبها ، ويشارك سابقه في المصير .

والثالث ظلم يقع على جماعة ، عشيرة كانت أو قبيلة ، فتأنس من عددها ناصراً يشدّ أزرها عند الشكوى ، فيتجمع هؤلاء المظلومون «أمام قصر الحكومة ويصيحون متشفعين برسول الله ﷺ من الظلم مراراً فيخرج لهم رجال الحرس ، ويردونهم على أعقابهم

---

(1) العصر الجديد العدد 13 في 17 جمادى الأولى 1327 هـ / 1909 م «لن تؤلف الشركات بتكرار الأمنيات»

(2) الترقي العدد 150 في غرة شعبان 1328 هـ 1910 م «الوطنية الصادقة» .

(3) الترقي العدد 91 في 24 ذي الحجة 1326 هـ (1908 م) «تنوع الحكّام في ظلم الأنام» .

(4) عبد المسيح بن جرير ، حامل الصحيفة المشهورة التي كتب فيها الملك عمرو بن المنذر إلى عامله على هجر بقتله مع الشاعر طرفة بن العبد ، انظر : مجمع الأمثال الميداني جـ 1 ص 554 .

(5) الترقي العدد 91 ، المصدر السابق .

ويطردونهم ويسكتونهم ويلطمونهم على أفواههم ، وهذه ملتزمة ــ إن كان بحضرة الوالي قنصل أو أجنبي ــ فيغادرون دائرة الحكومة ذلك اليوم ويرجعون في الغد»[1] ، وهكذا حتى يؤذن لهم بالدخول ، ويصور الكاتب ــ بنفس السخرية ــ ما يدور بالداخل من أنواع العسف والجور ، حتى يرى أن الوسيلة الوحيدة لإثبات الدعوى هي أخذ سند من الظالم على ظلمه ، فإن لم يمكن ذلك فالوسيلة الوحيدة للنجاة من عقاب ظالمهم هو الفرار ، وبهذا يعلل الكاتب هجرة الليبيين ، وخاصة إلى تونس بمئات الألوف فراراً من الظلم، وإرهاق الضرائب التي تحمل على من بقي بالديار حتى يبادر إلى الفرار .

وينتقد الكاتب أساليب المأمورين الذين تبعث بهم الولاية للتحقيق في مثل هذه الشكاوى ، كنزولهم ضيوفاً عند المدعى عليه ، ويفضح أساليب الحكّام في الحيلولة دون المحقق وما يريد إن فشلت معه الطرق الأولى .

وربما لجأ الحاكم وأعوانه من الضابطة[2] وضابط المفرزة والمشائخ إلى الكذب وإخفاء أمر المحقق حتى يعود إلى الولاية دون أن يراه أحد من المستضعفين .

ويصوّر كاتب المقالة وضع الأجانب ، وعبثهم بالولاية في حديثه عن النوع الرابع من ظلم الحكام في أسلوب غاية في السخرية المرة ، إذ تقوم الدنيا ولا تقعد إذا حدث أعتداء على أجنبي «فبمجرد ظهور الخبر ولربما قبل شكواه إلى الحكومة ترى الجنود والشرطة وغيرهم من حواشي الحكومة تعدو وتهرع في الأسواق والجادات أو القبائل ، فلا تصادف ماراً إلا أمسكته ــ إلا أن يكون أجنبياً ــ»[3] .

ويدعو كاتب هذه المقالة أرباب الأقلام إلى فضح أساليب الحكومة ووسائلها حتى تعود إلى الطريق السوي ، وهذه دعوة تحريضية يتعجل بها كتّاب المقالة التغير والتطوير والخروج من دائرة النظام الاستبدادي لإحساسهم أن ثمة تمييعاً للحرية ومبادئها على أيدي هؤلاء الحكّام ، ومن ثم فقد وقفت المقالة السياسية بالمرصاد للدولة من خلال نقد ومهاجمة أساليب الحكّام ، أو من خلال معارضة القوانين والقرارات التي تصدر عنها كمعارضتها لقانون يحظر على المأمورين حضور الاجتماعات العامة والخطب في المنتديات ، ومكاتبة الصحف . . وأفاضت في شجب هذا القانون ووصفه بأنه مناف للدستور ومعاد للحرية «التي سلبت منه يوم نشر البرنامج المعلوم الذي حال بين المأمور وبين ملاقاته ببني لحمته

---

(1) الترقي العدد 91 المصدر السابق .

(2) رجال الشرطة .

(3) الترقي العدد 94 في 15 المحرم 1327 هـ (1909 م) «تفكه الحكام بظلم الأنام» .

وحجر عليه الحضور في المجامع وإلقاء الخطب والمسامرات النافعة» . [1]

وتتصدى كذلك إلى المنافحة والدفاع عن حزب الاتحاد والترقي داخل الولاية ، حتى ضد الدولة نفسها وتتهمها بأنها معرقلة لمبادىء الحرية والنهوض ، ولا سيما على صفحات الصحف التي يرعاها الحزب[2] ، وكثيراً ما كانت تعلن «أن الحكومة التي يلزمها المساعدة في مثل هذه المبادىء كانت معاكسة في الباطن كما اتضح»[3] ، وتدلل على ذلك بإغلاقها مطبعة الترقي لتعرقل صدور ما يطبع بها من صحف ، وبالرغم من أن قانون المطبوعات أمسى في زوايا النسيان . [4]

وتهتم المقالة السياسية بمناقشة الدستور والتعديلات اللاحقة له ، وتهتم بقانون عقوبة الإعدام ، وإعادة العمل به في ضوء مقارنة ساخرة بين القانون الفرنسي والقانون العثماني ، حيث القانون في فرنسا هو «الكافل لأرواح الفرنساويين في بلادهم وأرضهم التي لا يوجد فيها ميل واحد خال من البوليس والجندرمة والتلغراف بقسميه والتليفون والدراجات والعجلات والقطارات ، ولأرواحنا في بادية غات وفزان وغدامس وسرت وبنغازي التي يضل فيها الخريت[5] ويخاف فيها العفريت» . [6]

ويوجز أحد الكتّاب سخطه على القانون في الولاية فيصفه بأنه «كالعجينة في يد أرباب النفوذ والمشائخ» . [7]

وكما راقبت المقالة السياسية الدولة ومأموريها راقبت النواب عن الشعب ، وانتقدت إحجامهم عن عرض برامج لإصلاح الولاية والانشغال بتأمين مصالحهم الشخصية والسعي من وراء الستر لعزل فلان وتولية غيره . . وتلفت انتباههم إلى المجاعة في الولاية وتخلّف التعليم ، وبدائية الوسائل الزراعية وخلو الولاية من عصب المواصلات . . وغيرها من الأمور التي كان الانشغال بها أولى وأجدى .

---

(1) المقصود بالمسامرات هو : المحاضرات .

(2) من هذه الصحف الترقي والعصر الجديد ، وتعميم حريت وهي باللغة التركية ، انظر : العصر الجديد العدد 14 ، ص 1 .

(3) العصر الجديد العدد 14 في 24 جمادي الأولى 1327 هـ (1909 م) «متى يبلغ البنيان يوماً تمامه . إذا كنت ما تبنيه غيرك يهدمه» .

(4) العصر الجديد العدد 14 ، المصدر السابق .

(5) الخرّيت : الدليل الماهر ، وكل من أتقن شيئاً فهو خرّيت فيه .

(6) الترقي العدد 102 في 19 ربيع الأنور 1327 هـ (1909 م) «ما أشبه الليلة بالبارحة» .

(7) المصدر السابق .

ـ (د) ـ القوميات : ـ

تألفت الدولة العثمانية من أجناس عدة وأديان مختلفة ، وأبرز العناصر القومية في هذه الدولة هما العنصر التركي والعنصر العربي ، وما أن شارفت شمسها على المغيب حتى أطلت النزعات القومية تنقص الامبراطورية من أطرافها خاصة بعد أن وقر في أوروبا بناء الدول على أساس قومي ، فاستقلت عن الدولة العثمانية بعض ولاياتها الأوروبية ، فتململ العرب على استحياء يأسرهم ولاء ديني ظلوا في ربقته حتى فصم الأتراك أنفسهم عراه .

وقد وقف بعض الكتّاب في الوطن العربي من الأتراك موقفاً عدائياً فأكثروا من «تعداد الأمور التي تجعل التركي في نظر العربي مبغضاً منفوراً ، فتارة ينسبون له عملاً يبرهنون[1] به كراهة التركي للعربي ، وتارة ينسبون له التعدي وإضمار السوء إلى مقام الخلافة»[2] ، ومنهم من أشرع أسنة الاتهام لعدم وجود عربي واحد في الوزارة ، وفرض اللغة التركية لغة رسمية دون سواها ، وإقصاء بعض النواب[3] العرب عن مجلس المبعوثان ، وغير ذلك من الأسباب التي تثير حفيظة العرب .

وكان للمقالة السياسية في ولاية طرابلس الغرب دور متأرجح تتجاذبه عوامل النزوع إلى القومية العربية ، ثم تردعه الحمية الدينية وحبّ الخلافة ، فيسخّر الكتّاب أقلامهم للدفاع عن سياسة الدولة ، والحضّ على التزام الوحدة الدينية ونبذ ما يوقظ الشعور القومي فيقول قائلهم : «إن ألدّ الأعداء إلينا هي الجرائد التي تحوم حول القومية والجنسية والمذهبية لتثير أحقاداً مدفونة أو تثبت حقوقاً موهومة ، وإن دولتنا العثمانية لا يرسخ قدمها إلا باتحاد عناصرها» .[4]

وقد يلتمس بعضهم المعاذير بتعليق التمييز بين عناصر الدولة على مشجب عهد الاستبداد السابق للدستور ، أو اتهام العرب «بالتحفز للوثوب إلى الاستقلال ، وأن لكل عنصر جولان[5] في أودية الأحلام وتحولات في شعب الأوهام ، لا يسلكها غافل إلا وقع في براثن السباع ومخالب العقبان» .[6]

---

(1) لعل المقصود : يبرهنون به (على) كراهة . . ويجوز أن يتعدى بنفسه .

(2) الترقي العدد 92 في سلخ ذي الحجة 1326 هـ (1908 م) «سياسة التفريق» .

(3) منهم يوسف شتوان مبعوث بنغازي ، وشفيق المؤيد مبعوث سوريا .

(4) الترقي العدد 110 في 17 جمادي الأولى 1327 هـ (1909 م) «الوحدة السياسية» .

(5) كذا ، والصواب : جولاناً ، اسم أن المؤخر .

(6) الترقي العدد 110 ، مصدر سابق .

ويسوق المنافحون أدلة تثبت ولاء العرب ، كرفض أن يكون فرار الجند السوريين من الحرب في اليمن مبعثه التعاطف العنصري ، ويعللونه تعليلاً واهياً في معظمه لا يستند إلى حجج مقنعة .

ولكن بعض كتّاب المقالة السياسية يشعر بوطأة الأتراك ثقيلة على قومه فيصرخ متندداً بالجنس التركي ، ويصف ولاتهم بأنهم «دائباً يعملون لقتل عواطف الشعوب المحكومة ويسعون لإعطاء جنسهم صفة ممتازة . . ويروق لديهم أن تسند أمور الولاية لمن يحصر فكره ويقصر عمله على سحق الوطنيين وإخراجهم من دوائر الحكومة ، وإحلال غيرهم من بني جنسهم» .[1]

ويكثر الهمس في الولاية حول نية بعضهم تأسيس حزب سياسي ، ثم يعلو هـذا الهمس حتى يصبح حديث المنتديات ، ويعبق ذكر العروبة فينبري صاحب المرصاد ليدفع ما غام في سماء الولاء العثماني ويقول : «إنما الذي يجب علينا دفعه بأجمعنا ما تحاول فئة الفساد أن تصم به هذه الأمة الطرابلسية البريئة استخراجاً من هذه الحادثة[2] مع قناعة[3] أصدقاء الدولة بتفاني الأمة الطرابلسية في التمسك بعرش الخلافة الأسمى»[4]

لكن طغيان المد الطوراني قد أثار كوامن الشعور القومي عند بعض الفئات دون شك، ويبدو أن الهوة بدأت تتسع بين العرب والترك في الولاية بالرغم من كل الرقع التي يرفو بها الحكّام العثمانيون ما تخرّق من ثوب الأمة الواحدة ، فكثرت المقالات التي تغمز من قناة الأتراك ، كأن يعرّض أحدهم بإصرار الترك على إبقاء العرب في دائرة الجهل ، بأن الإدارة السالفة سدت طرق الرقي والمعارف «خوفاً من تيقظ الأهالي»[5] ، أو أن يصر كاتب على إيراد كلمات شتم جرت مجرى الأمثال على ألسنة الترك[6] تحقر العرب وتزدريهم عند حديثه عن معلمة في مدرسة للبنات بالولاية فيقول : «وأما في أيام دولة هذه المعلمة فإن البنت التي ذهبت إليها . . لم تتعلم منها إلا كلمة (پيس عرب)[7] ولا يخفى ما تحمله كلمة (دولة هذه

---

(1) الترقي العدد 173 في 26 المحرم 1329 هـ (1911 م) «عشاق التفريق» .

(2) حادثة نفي للمحامي عبد الله بيك طاهر المصري لأسباب غامضة .

(3) كذا والصواب اقتناع .

(4) المرصاد العدد 27 في 23 ربيع الثاني 1329 هـ (1911 م) ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ . .﴾ الآية .

(5) الترقي العدد 89 في 3 ذي الحجة 1326 هـ (1908 م) «فوضى أم حرية» .

(6) من هذه الكلمات : ديلنجي عرب ، العرب الشحاذون ، وعرب عقلي ، عقل عربي ، ويوق يارسه م عرب أوله يم ، إن فعلت هذا أكون عربياً ، انظر : أم القرى للكواكبي ص 324 وما بعدها .

(7) الترقي العدد 89 مصدر سابق .

المعلمة) من معنى مشحون بالسخط على الأتراك وتأليب العرب ضدهم عن طريق تذييل المقطع بعبارة (پیس عرب) التي تعني : عربي قذر ، وإن الكاتب ليذكي شعوراً بالقومية العربية أثاره الأتراك بنزوعهم إلى الطورانية وتفضيل قوميتهم على ما سواها بل إنه ليذهب أبعد من ذلك فيتجاهل تسمية الولاية الرسمية ويذكر اسماً ما أظنه كان متداولاً وقتئذ ، عندما قال : «نعم هذه حرية أيضاً لكنها حرية الوحوش التي تتنازع البقاء في صحراء ليبيا»[1] ، فما الذي يدعوه إلى استعمال هذه التسمية التي طواها الزمن ونسيها أربابها ؟ إن لم يكن البحث عن مرتكز للفرار من العثمانيين ولو إلى أحقاف التاريخ[2] .

ويستنكر الكاتب طغيان العسكر الأتراك وعبثهم بالولاية مطالباً الدولة بالإصلاح والضرب على أيديهم ويتهمها إن لم تفعل بأن «وراء الأكمة ما وراءها»[3] ، وهذا اتهام صريح للدولة بتسليط الجند لإفساد سبل الرقي في الولاية ، ولا سيما أن إجراءات أخرى أسخطت العرب كفرض اللغة التركية ، وفصل من لا يجيدها من المعلمين في حين أنه «لا عيب فيه إلا كون لسانه عربي[4] فصيح»[5] .

بل إن أحد الكتّاب يفضل العنصر العربي صراحة عند حديثه عن الشرقيين ونقد سلوكهم الأخلاقي، ويتهم غير العرب ـ اتهاماً مبطناً ـ بإفساد القيم العربية ، منذ أن وصل أمر الخلافة إلى أيدي الأعاجم فيقول ـ بعد أن يذكر مثالب الرجل الشرقي المسلم ـ : «مع أن هذه الأوصاف لم تكن فيه في صدر الإسلام بل كان سباقاً للخير دفاعاً للضير فزاعاً للخوف صراعاً لإغاثة الملهوف يؤثر على نفسه ولو كانت به خصاصة لا سيما العنصر العربي ، والتاريخ في ذلك أرفع شاهد لأكبر معاند ، فما الذي ذهب بتلك الخلال الفاضلة والنخوة العربية والمكارم الحاتمية وغرس فينا ضدها»[6] .

ومثل هذه المقالات وإن كانت ملحوظة إلا أنها لم تصل إلى الحد الذي نعتبرها معه تمثل اتجاهاً ، أو تبلور نزوعاً قومياً واضحاً ، بل إنه من خلال الإحصاء الاستقصائي لمقالات

---

(1) المصدر السابق .

(2) استعمل اسم ليبيا في العصر الحديث أول مرة بصفة رسمية سنة 1912 م في منشور كارلوكانيفا (C. Caneva) قائد الحملة الإيطالية على ليبيا ، والجدير بالملاحظة أن هذه المقالة كتبت سنة 1908 م . انظر ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية : بازامه ص 13 .

(3) الترقي العدد 89 مصدر سابق .

(4) كذا ، والصواب : عربياً فصيحاً ، خبر كان .

(5) العصر الجديد العدد 5 في 20 ربيع الأول 1327 هـ (1909 م) . «حالة التعليم» .

(6) الترقي العدد 167 في 6 ذي الحجة 1328 هـ (1910 م) ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلوا﴾ .

تلك الفترة نجد أن فكرة القوميات كانت مرفوضة من أساسها في بساط المقالة السياسية ، وأن جذوة القومية العربية كانت تذوب ذوباناً شبه كامل في الشعور الديني وفكرة الجامعة الاسلامية في هذه الولاية وإن اشتعل أوارها في ولايات عربية أخرى بلغت فيها حد الثورة[1] .

ـ (هـ) ـ السياسة الخارجية :

لم يغب عن أذهان كتّاب المقالة السياسية أن الصراع في العالم محوره الشرق ، فهو حينا أحد طرفي هذا الصراع ، وحينا سبب له ، ومن هنا أفردت المقالات الضافية لتحليل العلاقة بين الشرق والغرب والمقارنة بينهما لتبين الفروق من شتى النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وعنى الكتّاب بتحليل العوامل النفسية في الشرق التي أدت إلى اضمحلال قوته وسقوطه في مهاوي التخلف .

ومن هذه العوامل ميل الشرقي إلى الرئاسة والنزوع إلى الإمارة مما يسهل الطريق إلى الخلاف ، ونمو بذور الأحقاد .

ومنها سرعة انسياقه وراء عاطفته حتى أنه يقول ما لا يفعل ، وكثيراً ما يعوقه «من طبائعه الغريزية عدم الاعتماد على النفس والنزوع دائماً للالتجاء إلى غيره والتعويل عليه في خيره وضيره»[2] .

ويضرب بعض الكتّاب أمثلة على هذه السجايا تجتزىء منها ما ساقه صاحب مقالة «الغرب يستنزف والشرق يستعطف» دليلاً على عدم اكتراث الغرب نداءات ضعفاء الشرق فيقول عن مصطفى كامل[3] : «طالما استصرخ أوروبا عموماً وأحرار الإنكليز خصوصاً ، وطيّر البرقيات والتحارير إليهم وحضر بذاته في مجلس نوابهم واستلفت أنظار (إنصافهم) إلى مصر طالباً جلاء الانجليز عنها»[4] .

---

(1) للإطلاع على خط سير المد القومي في الوطن العربي انظر : جورج أنطونيوس يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس ص 149 ، وكذلك : «ز . ل . ليفين» ، الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر ، ترجمة بشير السباعي ص 145 .

(2) الترقي العدد 169 في 28 ذي الحجة 1328 هـ (1910 م) «الغرب يستنزف والشرق يستعطف» .

(3) ولد بالقاهرة سنة 1874 م، أحد مؤسسي نهضة مصر الحديثة، خطيب مفلق، ناضل عن بلاده بخطبه ومقالاته وكتبه، أصدر «اللواء» في مصر وفرنسا وبريطانيا، أسس الحزب الوطني في مصر، من آثاره: حياة الأمم والرق عند الرومان ، وفتح الأندلس ، ودفاع مصري عن بلاده ، ومصر والاحتلال الانجليزي ، توفي شاباً سنة 1908 م ، انظر : الأعلام ، ط 7 ، جـ7 ، ص 238 .

(4) الترقي العدد 169 مصدر سابق .

وقد اعتمد كتّاب المقالة ــ كما أسلفنا ــ على الركيزة الدينية والتاريخية في محاولة لبناء قاعدة صلبة تعتمد عليها محاولات النهضة الحديثة واللحاق بأوروبا في طورها المتقدم ، وقد يولي كتّاب المقالة هذا التمهيد والارتكاز الديني أو التاريخي أهمية قصوى فيغطي في بعض الأحيان عدداً من الصحيفة أو أكثر ليصل الكاتب بعد ذلك إلى مبتغاه من المقالة السياسية معتمداً على ركن ركين من الدّين أو التاريخ .

ويعرض بعض الكُتّاب إلى تحليل العلاقة بين الشرق والغرب ودوافع الاستعمار بقوله : «أما الوقوعات السياسية الأخيرة فصرحت بأن الغرب سيحتاج إلى الشرق في مستقبل قريب ، لأن تأسيس هذا القدر العظيم من المؤسسات العلمية والتجارية والعسكرية براً وبحراً يتوقف على مبالغ جسيمة بل على ثروة لا نهاية لها . . وهذا الاحتياج[1] الذي أوجب طمع الدول الغربية فينا ، وأدى إلى إحداث المسئلة[2] الشرقية[3] ، وبعبارة أخرى مسألة تقسيم الميراث المعهودة»[4] .

ومن ثم يبينّ الكاتب أساليب الغربيين في الوصول إلى أهدافهم كاستغلال تركيبة الدولة العثمانية من قوميات مختلفة في بث أسباب الفرقة بينها ، والتدخل في الشؤون الداخلية للدولة تحت سُتر مختلفة ، يظاهرها فساد ولاة الأمور في الداخل وطبقة من الجواسيس بيدها مقاليد الأمور أوصلت الدولة إلى ما وصل إليه الرجل المريض[5] .

وللمقالة السياسية في هذه الفترة اتجاهان متوازيان في تحليل العلاقة الدولية وأثرها على مستقبل الدولة العثمانية ، أولهما يرى أن الأحلاف الدولية في مجملها تستهدف القضاء على الدولة العثمانية منطلقاً من اتجاهات دينية واقتصادية ، وآخرهما يرى أن الدافع إلى الأحلاف الدولية هو دافع اقتصادي بحت تمليه القوة العسكرية ، ولكلا الاتجاهين في التحليل مستند ، ويمكن أن نلحظ ذلك من خلال استعراض إحدى مقالات الترقي ، حيث يفرغ الكاتب ما يجده في عبارة موجزة حين يقول : «إنّ الذي يمعن النظر في مجاري السياسة

---

(1) المقصود : وهذا الاحتياج هو الذي . .

(2) كذا ، والصواب : المسألة .

(3) أدرك الأوروبيون أن الدولة العثمانية زائلة لا محالة ، فرأوا تقسيمها فيما بينهم ، فإن لم يمكن ذلك فلا أقل من تفتيتها إلى دويلات صغيرة ، وهذا ما عرف بالمسألة الشرقية ، انظر : الطريق إلى لوزان ، عبد الكريم الوافي ص 26 .

(4) الترقي العدد 98 في 14 صفر 1327 هـ (1909 م) «الشرق والغرب ملاحظة تاريخية سياسية» بقلم عبد اللطيف الشريف .

(5) أول من أطلق هذه التسمية قيصر روسيا ، انظر : الترقي العدد 98 مصدر سابق .

الغربية يجدها دائماً ترمي إلى نقطة واحدة هي تكوين اتفاق غربي متين ضد الشرق»[1] ، وينبه إلى أن التوافق الأوروبي ثمنه دائماً موضع قدم في بلاد الشرق ، ويستشهد باتفاق روسيا مع بريطانيا سنة 1907 م حول بلاد فارس ثمناً لاتفاق ألمانيا مع فرنسا .

ويعرض للأحلاف بين بريطانيا وفرنسا ، وما يربط بريطانيا باليابان ، وفرنسا بروسيا ، ومحصلاتها النهائية هي اقتسام ما يمكن اقتسامه من بلاد الشرق الاسلامية .

على حين أن الاتجاه الآخر ـ وإن وافق سالفه في نية الغرب نحو الشرق ـ يرى أن الدافع اقتصادي صرف ويستشهد بوثوب دول أوروبية على أخرى أوروبية أيضاً ، فلم يشفع لها انتماؤها ، وبالرغم من استغاثتها «بملوك أوروبا واحداً فواحداً باسم المدنية والانسانية ، وأخرى بالبابا باسم الأخوة والمسيحية»[2] ، فلم يغثها أحد وطويت ضحية للتوسع الاستعماري الاقتصادي .

ويدفع أحد كتّاب هذا الاتجاه الرأي القائل بأن الصراع بين الدول الأوروبية يدور في محيط مسيحي ، يدفعه بحرب روسيا واليابان ووقوف الدول الأوروبية موقف المتفرج ، بل الوجل خوفاً من أن تمتد يد الحرب إلى مستعمراتها ، تاركة الروس لرحى «الجابونيين الذين لم يسمعوا بالمسيح تطحن رؤوسهم»[3].

ومن هنا يثبت الكاتب أن اتهام المسيحيين بالتعصب مردود ، وأن مكمن المشكلة في ضعف الدولة العلية ، وسيادة الاستبداد ، وتفشي الجهل ، وأن دولة هذا شأنها لا يمكن أن تردع غيرها لأن منطق القوة هو المنطق الذي لا يرد ، ويتخذ من بلغاريا دليلاً على دعواه حيث أصبحت مهابة منيعة بعد انفصالها عن الدولة العثمانية فاعترف لها العالم بحقوقها كاملة غير منقوصة .

ولا يخفى على أحد أن الدول الأوروبية كانت وراء انفصال كل الولايات العثمانية[4] ، وقد ساق كتّاب المقالة السياسية الأدلة على تورط روسيا وإيطاليا في استقلال بلغاريا مستغلة فرصة الاضطرابات الداخلية ومراحل التحول ، وهي المطية ذاتها التي وصلت على ظهرها النمسا إلى ضم إقليمي (البوسنة) و(الهرسك)[5] ، وإن ألبست القضية ثوب الاتفاق .

---

(1) الترقي العدد 175 في 19 المحرم 1329 هـ (1911 م) «اتحاد الغرب وتشتت الشرق» .

(2) الترقي العدد 83 في 20 شوال 1326 هـ (1908 م) «الاتحاد» .

(3) المصدر السابق .

(4) انظر : الطريق إلى لوزان ص 24 وما بعدها .

(5) مقاطعتان يوغسلافيتان : بوزني وهيرزيجوفين .

ورصدت المقالة السياسية مطامع صربيا في بعض تركة البلقان وتعذر حصولها عليها لأطماع دول أكبر منها في المنطقة ، ولليونان ثارات قديمة رأت أن الوقت قد حان لتصفيتها فألحّت على السيادة على جزيرة (أكريت) ، وشغل كتّاب المقالة السياسية بتوضيح أبعاد الموقف ، فأجمعوا على أن «الذي دعاها لذلك ما رئته[1] من اشتغال الحكومة العثمانية العلية بأمورها الداخلية فعدت اليونانية ذلك فرصة فجعلت تنتهز ما فيه أطماعها الفاسدة وأمانيها المستحيلة»[2] وعنوا بالتعبئة العامة ، فشرحوا وأفاضوا في تاريخ فتح الجزيرة وما تكبده المسلمون إبان الفتح ، وبعده ، خلال الثورات المتعددة ، وعمد الكتّاب إلى إلهاب الشعور الديني وإثارة نوازع النخوة ، كتذكرهم للمجازر التي ارتكبها اليونانيون «حيث لم يكفهم قتل ألوف من الرجال وهدم بيوتهم وإحراق المساجد والمواقع العظيمة» بل نكلوا بالعذارى وأحرقوا الأطفال وبقروا بطون الحوامل[3] .

وفي إطار التعبئة العامة يذكِّر الكتّاب بحرب اليونان السابقة مع الدولة العلية ، وما أحرزه العثمانيون من انتصارات أوشكت معها أثينا أن تسقط في قبضتهم لولا ضغط الدول الكبرى[4] .

وقد يغالي بعضهم فيزعم أن الأوان قد آن لتعود اليونان عثمانية كما كانت متجاهلاً ما آل إليه أمر الدولة العثمانية في فترتها الأخيرة .

غير أن هناك مقالات اتسمت بالموضوعية المطلقة فنظرت إلى الصراع العثماني اليوناني على أنه حلقة في سلسلة لا يمكن فصلها عنه .

وأسهمت مقالات أخرى في بيان أهمية جزيرة (اكريت) من الناحية الجغرافية والعسكرية ، من أنها موضع قدم في البحر الأبيض المتوسط ، وباب يمكن عن طريقه اقتلاع جذور الدولة العثمانية وهي «نقطة مراكز العساكر العثمانية ، ولأجل ذلك تنظرها الدولة العلية بل وجميع أفراد الملة العثمانية بعين الأهمية»[5] .

وناقش آخرون الموقف الدولي من هذه المشكلة وأنكروا على اليونان مطالبتها بالجزيرة

---

(1) كذا ، والصواب : ما رأته .

(2) العصر الجديد العدد 19 في 28 جمادي الآخرة 1327 هـ (1909 م) «جزيرة كريد» .

(3) المصدر السابق .

(4) استعادت الدولة العثمانية في هذه الحرب جزيرة (تيساليا) (Thessalia) الواقعة على بحر إيجه وذلك سنة 1897 م ، وفي السنة التالية منحت الدول الأوروبية جزيرة كريت استقلالاً ذاتياً تحت حاكم يوناني ، رداً على الانتصار العثماني ، انظر: الطريق إلى لوزان للواقي ص 28 وما بعدها ، وللمزيد انظر : في أصول التاريخ العثماني ، لأحمد عبد الرحيم مصطفى ص 259 .

(5) العصر الجديد ، العدد 19 ، مصدر سابق .

وهي تخضع للدولة العثمانية منذ ثلاث مئة سنة ، وعابوا على الدول الكبرى نصحها للعثمانيين بالتنازل عن الجزيرة لليونان وسكوتها عن حقوق العثمانية في مواطن أخرى كبلغاريا ، وبالرغم من وجود اتفاقيات دولية تعترف بحق الدولة العثمانية قد داستها بلغاريا بالأقدام[1] .

ومما سبق نرى أن كتّاب المقالة السياسية عنوا بمتابعة سياسة الدولة الخارجية ، وكان معظمهم يراها من خلال منظار الدولة ، ويدرك ما آل إليه أمرها ، ولكن أحداً منهم لم تحدثه نفسه بدق إسفين في تابوتها حتى وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة .

ـ (و) ـ الاستعمار ووسائله :

اهتمت المقالة السياسية في ولاية طرابلس بمتابعة أحداث الاستعمار في العالم اهتماماً بيِّنا زاد من أهميته إدراك المثقفين أن الولاية هدف من أهداف الاستعمار الأوروبي ، وأن احتلالها قضية على بساط البحث ، ولا يؤخره شيء إلا المساومات والتوازن الدولي ، ومع ذلك فقد شغلوا بفلسفة دوافع الاستعمار واستقصاء بواعثه ، فمن قائل : «هي الأعراض الشخصية والاميال[2] الخصوصية فقد أثبتت روحها في الكون حتى لم تسلم منها أمة ، ولم ينجح من الوقوع في شراكها إنسان ، فهي المحرك العام للأفكار والباعث الأكبر على اقتحام المخاطر وارتكاب المحذورات»[3] ، إلى قائل بأن حركة الاستعمار هي امتداد للحروب الصليبية ، وما الخلاف بين الدول المستعمرة إلا خلاف ظاهري سرعان ما تتم تسويته على حساب الشعوب المستضعفة ، وغالباً ما تكون من الدول الاسلامية .

وتعرّض أغلب كتّاب المقالة السياسية إلى بيان الأساليب التي يصل بها المستعمرون إلى أهدافهم ، وأوسع باب في هذه الأساليب هو باب التجارة وتأسيس الشركات ، وضربوا أمثلة لذلك باحتلال بريطانيا للهند فإنها «دخلت الهند بصفة تجارية وتوسعت فيه بدرجة تمكنت منها بتلك الوسيلة ، وهي إنشاء (الشركات) وتأسيس مشروعات»[4] ، محصلتها النهائية وقوع البلد المستعمر في براثن الاحتلال .

وكذلك دخول أسبانيا للمغرب جاء عن طريق استخراج المعادن ، وفرنسا شأنها في

---

(1) المصدر السابق .

(2) الأميال : جمع ميل وهو ما تقاس به المسافات ، انظر : اللسان مادة ميل .

(3) الكشّاف العدد 16 في 23 ربيع الأنور 1327 هـ (1909 م) «النقطة السوداء في عالم الوجود» . بقلم : أحمد النائب .

(4) المرصاد العدد 30 في 12 جمادى الأولى 1329 هـ (1911 م) «الاتجار وسيلة الاستعمار» .

مستعمراتها نفس الشأن ، ثم يتذرع المستعمرون بذرائع توصلهم إلى أهدافهم ، فتصدى كتّاب المقالة السياسية إلى دحضها وردها رداً جدلياً منطقياً ، وقد كان من السائد في فترات الاستعمار أن المستعمر يتحجج بتمدين الشرقيين ، أو بالمحافظة على رعاياه حيناً ، وعلى المسيحيين وحمايتهم حيناً آخر ، أو برعاية تجارته وطرقها ، أو حماية القسس[1] والمبشرين . . إلى آخر ما هو معروف من إيجاد المبررات والذرائع التي يصل بها إلى امتلاك ثروات الشعوب المستضعفة .

ويجادل أحد كتّاب الترقي دعاة الفكر الاستعماري أو ما يدعوه بالجرائد القسيسية ، وفي مقدمتها «لاديبش تونزيان La Dépêche Tunisianne» فيقول : كانت دول أوروبا تسوق الجيوش على سواحل أفريقيا بعلة تحرير الأرقاء ومنع النخاسة براً بالانسانية وأملاً في إدخال التمدن الغربي بين الأقوام المتوحشة، لكن مملكة واداي[2] هي مملكة اسلامية ليس بين ممالك أفريقيا أرقى منها في المدنية فما الداعي لحرب أهلها وهم مطمئنون ، أليس ذلك عار[3] على المدنية ؟»[4] ، ويمضي الكاتب في جدالهم فيورد تقريراً عن مجلس النواب الفرنسي يذكر فيه ممارسة الفرنسيين للسخرة المهنية ، وإجبار الأفارقة على حمل البضائع على رؤوسهم حتى إن طرق واداى عرفت بخطوط الدم ، ثم يتساءل ما الذي يضير في أن يجلب المسلمون الزنوج «ثم يلقنونهم الدين الإسلامي ويبثون في نفوسهم الشجاعة وحبّ الموت في الدفاع عن الإسلام ، فهل يعد في شرعة الانصاف ذلك ذنباً»[5] .

ومن خلال هذا النموذج ندرك مستوى الجدل الفكري الذي يدافع فيه كتّاب المقالة السياسية عن معتقدهم ويعتذرون عن بعض ما يعدّ في العرف الحضاري عيباً، كامتلاك الرقيق ، ويرونه أخف وطأة من السخرة القاتلة ولا سيما أن الزنوج حينما يعتنقون الإسلام يعتبرهم المسلمون كأولادهم[6] ، وهذا أقرب للسلوك الحضاري والمدنية من سلوك المستعمر وفظائعه التي يرتكبها باسم المدنية .

ويتجلى الوعي السياسي في تحليل مرامي سياسة الدولة الاستعمارية ، والتنبه إلى نوع التعاون والتبادل النفعي فيما ذكره بعضهم من أن فرنسا طلبت من بريطانيا أن تضغط على

---

(1) المرصاد العدد 8 في 15 ذي القعدة 1328 هـ (1910 م) «فرنسا والإسلام أو الصليب والهلال» .

(2) جزء من الجمهورية التشادية حالياً .

(3) كذا ، والصواب : عاراً ، خبر ليس .

(4) الترقي العدد 173 في 26 المحرم 1329 هـ (1911 م) «صدى الهزيمة» .

(5) المصدر السابق .

(6) المصدر السابق .

سلطان دارفور[1] يمتنع عن دعم أهل واداي الذين أوقعوا خسائر فادحة في صفوف الجيش الفرنسي في تشاد ، ويحلل الكتاب نتائج هذا التعاون من زرع الفتنة بين سلطان دارفور والواداويين في حالة رضوخ السلطان لضغط الانجليز .

ويتناول الكتّاب بالتحليل تحكم بريطانيا في مصر وضمان سكوت فرنسا عنها ، وسعيها الحثيث إلى إلهاء ألمانيا بإطلاق يدها في زنجبار وبومبي ، وعدم معارضتها في الحصول على مشروع سكة حديد بغداد ، ويتوقعون أن تغضي روسيا وإيطاليا إذا وعدتا بنيل نصيبهما فيما تطمحان إليه ، أولاهما في الدردنيل وأخراهما في طرابلس الغرب[2] .

ويبيّن أحد الكتّاب خطل رأي من يرى بأن مصر لا يمكن أن تتفق عليها الدول الغربية لأهميتها الجغرافية ، ولوجود قناة السويس بها ، الأمر الذي يجعل من يتحكم بها يتحكم في تجارة الشرق كله ، ويسوق مثلاً على إمكانية مثل هذا الاتفاق ما تمّ في المغرب من اتفاق ألمانيا مع فرنسا بعدما كانت الصحف تعجّ بتصريحات امبراطور ألمانيا التي يصر فيها على بقاء مراكش بلداً مستقلاً[3] .

ومن أجرأ الآراء في قضية مصر رأي يتهم فيه الكاتب الدول العثمانية بالتواطؤ مع بريطانيا «لقمع الشوكة العرابية وتوطيد الأريكة الخديوية»[4] ويصف سقوط مصر في يد الانجليز بأنه مسرحية ابتدأت فصولها الأولى من لدن إخراج نابليون من مصر ، واختتمت بإنذار الخارجية البريطانية للسفير العثماني بإرسال الأسطول الانجليزي إلى شواطىء الاسكندرية إذا تأخّر العثمانيون في تدارك الموقف ، ولم يتدارك العثمانيون الموقف فعلم «أن الأمر دبّر ليلاً وأن مصر أصبحت انجليزية»[5] .

ولم يغفل كتّاب المقالة السياسية عن ممارسات الانجليز في مصر بل فضحوها ، ونددوا بها ، وكشفوا أهدافها البعيدة ، كالتخطيط لهدم التعليم في مصر ، وهو أمر ضجت الصحف المصرية بالشكوى منه ومن رائده المستشار الانجليزي للمعارف في مصر[6] .

وتناولت المقالة السياسية الاستعمار الفرنسي في أفريقيا ، وكشفت نواياه التوسعية ،

---

(1) اقليم بالسودان على الحدود مع تشاد .

(2) انظر : الترقي العدد 164 مصدر سابق .

(3) المصدر السابق .

(4) الترقي العدد 102 في 19 ربيع الأول 1327 هـ (1909 م) «ما أشبه الليلة بالبارحة» .

(5) الترقي العدد 102 مصدر سابق .

(6) العصر الجديد العدد 18 في 21 جمادى الآخر 1327 هـ (1909 م) «مصر» بقلم : أحمد الفساطوي .

لقطع الطريق على مصالح بريطانيا ، والدولة العثمانية «وسدّ طرق التجارة هنالك عن غير الفرنساويين» . [1]

وحظى المغرب الأقصى باهتمام كبير من كتّاب المقالة السياسية ، فجرموا أعمال فرنسا وكشفوا ألاعيبها واتهموها بأنها وراء الثورة على السلطان عبد الحفيظ[2] ملك المغرب ليتسنى لها التدخل تحت حماية الحقوق الفرنسية، ونجدة الملك الذي حاصره الضباط الفرنسيون بإيهامه أن قبائل المغرب كلها ثائرة عليه ، وقد «نجح الضباط الفرنسيون في مهمتهم حيث تمكنوا من حصر السلطان ووزرائه في قصورهم بالإيهام والتخويف ، ولربما نالوا تحريراً بالمساعدة على دخول عساكر فرنسا إلى فاس لتمهيد الراحة وتأديب الثائرين»[3] .

ولقد كشفت المقالة السياسية أن تصفية الجيش المغربي من الضباط العثمانيين وإحلال الفرنسيين محلهم إنما كان خطوة على الطريق بلص وخداع فرنسي ، ليخلو لهم الجو فيعبثون بالملك وشعبه وتسقط المغرب في أيديهم لقمة سائغة .

أما عن الاستعمار الفرنسي في الجزائر فقد أذاعت المقالة السياسية ما يلاقيه الجزائريون من صنوف القهر من الاستعمار الفرنسي ومحاربة شعائرهم الدينية ومنعهم من الحج إلى بيت الله الحرام ، وتحريم «تعليم القرآن العظيم في المكاتب ، فصار من يريد أن يعلم ابنه شيئاً من كتاب الله يستتر ويكتم الأمر»[4] ، حتى لا يتعرض لطائلة العقاب .

وتتبعت المقالة السياسية فرنسا في كل قطر وخاصة خطوط التماس مع الدولة العثمانية ، فدافعت عن حدود الولاية الجنوبية مع تشاد ، وشجبت عدوان فرنسا على واداي التي تعتبر من أملاك الدولة العثمانية ، وفي هذا يقول أحد كتاب الترقي : «بقي علينا أن نقول كلمة في حقوقنا الثابتة لنا من القديم على تلك البلاد ، فإن فرانسة تعتمد في عملها على معاهدة 1897 م ، ومعلوم أن الدولة قد احتجت عليها ، فهي لا تنهض حجة علينا ، فإذاً لا بد لنا من محافظة[5] حقوقنا القديمة الثابتة لنا على تلك البلاد ، كما هي ثابتة لنا على كانم وتبستي وما يليها لأن حياة هذه الولاية متوقفة على دوام ارتباطها بمواطن تجارتها وعلى

---

(1) الكشاف العدد 16 في 23 ربيع الأول 1327 هـ (1909 م) «النقطة السوداء في عالم الوجود» بقلم : أحمد النائب .

(2) حكم المغرب من 1908 م إلى 1912 م من مؤلفاته : الجواهر اللوامع في نظم جمع الجوامع ، انظر : المنجد مادة «عبد الحفيظ» .

(3) الترقي العدد 187 في 12 جمادى الأولى 1329 هـ (1911 م) «المغرب الأقصى» .

(4) المرصاد العدد 14 في 12 المحرم 1329 هـ /1911 م «الاسلام وفرنسا» محمد نديم بن موسى .

(5) كذا ، والصواب : أن «محافظة» لا يتعدى بنفسه .

فرانسا أن تعلم تلك الحقوق قبل أن تطلب منا تعيين حدود مستعمراتها الأفريقية مما يلي طرابلس» .[1]

هذا عن الاستعمار الأوروبي عامة ، أما عن إيطاليا ونواياها الاستعمارية وموقف المقالة السياسية منها فلها حديث ذو شجون .

ـ (ز) ـ إيطاليا ومطامعها :

حامت الأطماع الإيطالية كثيراً حول ضم جزء من أوروبا إليها ، فلما لم يمكنها ذلك اتجهت إلى أفريقيا ، وأرادت أن يكون لها موضع قدم منذ أواخر القرن الماضي ، وكباقي الدول الأوروبية اعتمدت في معلوماتها الأولية على الرائد الأول وهو الجمعيات الاستكشافية[2] بما في جعبتها من رحالة وتقارير ودوريات مختلفة يدفعها إلى ذلك ضيق أراضيها ، وفقر شعبها الذي التجأ إلى الهجرة فجاب المهاجر القريبة كتونس ومصر والمغرب وليبيا والبعيدة كأميركا اللاتينية والشمالية ، الأمر الذي أقلق الحكومات المتتالية ، وأعطى جبهات المعارضة سلاحاً تدعوها به إلى اتخاذ مستعمرات لها أسوة بباقي دول أوروبا ، والعالم المتمدن ، ولا سيما أن موقفها في البحر الأبيض المتوسط قد أصبح محاصراً بين بريطانيا وفرنسا .

ومدّت إيطاليا عينيها أمداً غير قصير إلى تونس غير أن فرنسا اختطفتها من يدها ، فاكتفت بوعود تضمن عدم معارضة الأطماع الإيطالية في ولاية طرابلس الغرب ، ومن هنا فإن «جيوليتي[3] رأى أن أحداث المغرب الأقصى وتزايد قوة فرنسا وتواجدها في البحر المتوسط ، وتحرّج ألمانيا من احتلال ليبيا قد هيأت له فرصة مواتية لا يمكن أن تتكرر» .[4]

وقبل ذلك قامت إيطاليا بتمهيد مادي ومعنوي ، أو ما عرف آنذاك بالتغلغل السلمي[5] نترك بيانه لكتّاب المقالة في ليبيا ، حيث أدركوا نوايا إيطاليا إدراكاً تاماً ، ربما كان

---

(1) الترقي العدد 173 في 26 المحرم 1329 هـ (1911 م) «صدى الهزيمة» .

(2) انظر : أتيليو موري : الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا ، تعريب خليفة التليسي ، المنشأة العامة للنشر ، طرابلس ، 1984 م ط 2 ص 13 وما بعدها .

(3) جيوفاني جيوليتي (G. Giolitti) ولد سنة 1842 م ، تقلب في العديد من الوظائف حتى وصل الوزارة ، ورأس مجلس الوزراء عدة مرات ، وكان رئيس وزراء إيطاليا فترة الغزو الإيطالي لليبيا ، توفي سنة 1928 م ، انظر مقدمة مذكراته تعريب التليسي ص 20 .

(4) الواقي : الطريق إلى لوزان ص 57 .

(5) انظر : مذكرات جيوليتي ، تعريب التليسي ص 11 .

دونه إدراك الساسة في الباب العالي بالآستانة ، فقد دلت الأحداث على مفاجأتهم بإقدام إيطاليا على احتلال طرابلس ، في حين كانوا يظنون أن تهديداتها كانت من قبيل السعي في الحصول على مزيد من الامتيازات في الولاية .

وزخرت الصحف الليبية بمقالات تكشف دوافع إيطاليا من حيث «توسيع أراضيها الضيقة في أوروبا من جهة ، وليهاجر إليها (ليبيا) فقراؤها بدلاً من أمريكا حتى تجدهم في وقت الحاجة قريبين منها من جهة أخرى» .[1]

ويحلل أحد كتّاب المقالة السياسية في الولاية بعض مناورات الساسة ، فيعلل إقدام فرنسا على احتلال تونس بالرغم من مطامع إيطاليا فيها ، وسعيها الذي لا يخفى على أحد بأنه من دهاء (بسمارك Bismarck)[2] فهو الذي دعا فرنسا إلى ذلك لإحداث نفرة بينها وبين إيطاليا ، ومن ثم تجبر إيطاليا على الدخول في التحالف الثلاثي[3] ، وتُعزل فرنسا ساعتئذ عن جار يعاضدها[4] ، وسواء صحّ هذا التحليل أم لم يصح فإنه يدل على مستوى الوعي في متابعة الأحداث ، وقدرة على الاستخلاص والتحليل .

ويسخر كاتب آخر من تذبذب السياسة الإيطالية بين أهواء الدول الأوروبية فيصفها بأنها كرمانة القنطار[5] تتداولها يد الانجليز تارة والفرنسيين تارة أخرى ليثقل بها كلٌ ميزانه ، فإذا تركت منفردة فلا وزن لها ، ويعرض إلى هزائمها السياسية في أوروبا والعسكرية في أفريقيا ، ويصفها بأنها ألعوبة في يد الإنجليز ، وأن الصحف الفرنسية والانجليزية تعبث بالشعب الإيطالي بما تلقي إليه من أكاذيب ووعود خلّب كإشاعة احتلال فرنسا لغدامس ، وحصول شركة أمريكية على حق التنقيب عن المعادن في ليبيا .[6]

ولم يجهل الليبيون الغرض الحقيقي الذي من أجله أنشأ مصرف روما (Bankodi Roma) فروعاً له في ليبيا ، فمن خلال تتبع نشاطه يدرك العامة قبل الخاصة أنه لا يسير وفق معطيات حساب الأرباح والخسائر إذ «لو كان كذلك لغلقت أبوابه من أول سنة للخسائر

---

(1) الترقي العدد 173 في 26 المحرم 1329 هـ (1911 م) «حوادث مزعجة» .

(2) آتو فون بسمارك ، ولد سنة 1815 م ، تقلب في العديد من المناصب السياسية ، حتى وصل إلى رئاسة الوزراء ، خاض العديد من الحروب خرج منها قوياً وظل لفترة طويلة رجل السياسة الأوروبية القوي ، توفي سنة 1898 م ، انظر : الموسوعة ص 372 .

(3) بين ألمانيا والنمسا وإيطاليا ، سنة 1882 م ، انظر : الموسوعة ص 1214 .

(4) الترقي العدد 173 ، مصدر سابق .

(5) نوع من الموازين ، توزن به الأثقال والبضائع .

(6) المرصاد ، العدد ٣٢ في 22 ربيع الأول 1329 هـ (1911 م) «إيطاليا والتوازن الأوروبي» .

التي اتتابه ، ولما احتيج للاتيان برجال السياسة الايطاليين الموجودين بجهات مصوع وغيرها لإدارة دولابه» .[1] [2]

ومن ثم فقد وقفت المقالة السياسية بالمرصاد لأعمال هذا المصرف التوسعية ، وشنت عليه حرباً شعواء تصدرها كتّاب صحيفة «المرصاد» ، وآزرهم كتّاب «الترقي» و«الكشّاف» وحتى «أبو قشة» ، بالرغم من الاتهامات التي كيلت لها بأنها ميالة إلى مهادنة الاستعمار ، فقد أسهمت في تحليل نوايا إيطاليا الاستغلالية ، خاصة في قضية الفوسفات ، والبحث عن المعادن .[3]

ولم يفت هؤلاء الكتّاب أن يكشفوا عن مصادر تمويل هذا المصرف الذي ينفق بسخاء بالرغم من فقر الحكومة الإيطالية ليصلوا إلى أن صندوق البابوية[4] هو الممول والمخطط لمشاريعه التمهيدية[5] التي لا بد أن تتبعها خطوة توازي أو تزيد عن حجم الانفاق في هذه الولاية التي تزعم إيطاليا أنها تسعى إلى ترقيتها وتمدينها أسوة بجارتيها مصر وتونس .

وقد نما هذا الاستيلاء الإقتصادي في بداية القرن الحالي بسرعة جعلت أحد الكتّاب يتساءل عن الولاية أهي بلدة عثمانية أم مستعمرة طليانية ؟ ، ويعدد بعد ذلك وجوه الاستلاب الاقتصادي المتمثل في المصرف الايطالي ، ومطحن الحبوب الذي إذا دخله الوطني لا يسمع «إلا دوياً يطحن رزقه ، ويستنزف دمه ، وينذره بسوء العاقبة وخامة المنقلب»[6] ، فلو أقفل هذا المصنع أبوابه في وجه الشعب لمات الناس جوعاً ، وبهذا قبض الايطاليون على شريان الحياة الأبهر ، ناهيك عن استيلائهم على النقل البحري داخل

---

(1) المرصاد العدد 30 في 12 جمادى الأولى 1329 هـ/1911 م «الانجار وسيلة الاستعمار» .

(2) لعل المقصود هو : أنريكو براشياني مؤسس فرع المصرف في طرابلس وتونس بعد رجوعه من الصومال ، وهو بارع في شراء الذمم عن طريق المال والوعود الخلابة، انظر مصطفى بن زكري، لمحمد مسعود جبران ص 76 .

(3) اهتم صاحب «أبو قشة» بتحليل السياسة الاقتصادية للبلاد فأفاض في تعداد مصادر الدخل في البلاد من زراعية وتجارية ، ثم أولى اكتشاف معدن الفوسفات أهمية بالغة ، فكتب سلسلة من المقالات أنصعها مقالة نشرت في «المرصاد» و«أبو قشة» حذّر فيها من المد الاستعماري ، وأبدى تخوفاً من الشركات الإيطالية التي ربما غزت البلاد عن طريق جيش مدرب يدخل الولاية تحت مظلة العمل والمهالة ، انظر : المرصاد العدد 28 ، وأبو قشة العدد الصادر في 1 جمادى الأولى 1329 هـ .

(4) المرصاد العدد 30 ، مصدر سابق .

(5) المخطط الأول هو السفير الإيطالي في الآستانة الذي وضع خطة التغلغل السلمي ، انظر : الطريق إلى لوزان ص 46 .

(6) الترقي العدد 191 في 11 جمادى الآخرة 1329 هـ (1911 م) «بلدة عثمانية أم مستعمرة طليانية» .

وخارج الولاية فيصوره الكاتب في صورة بالغة الأثر فيقول : «ولا يمضي يوم لا يشاهد فيه العلم المثلث[1] يرفرف على ربوعها ، وإن كان يُرجف بتلك النسبة أفئدة الوطنيين ولا يشاهد العلم العثماني إلا يوم الجمعة» . [2]

ويسلك كتّاب الترقي مسلكاً مختلفاً عن كتّاب المرصاد الذين نذروا أنفسهم لمهاجمة إيطاليا وصحفها، وردّ ادعاءاتها، أمّا هؤلاء فقد انتهجوا خطاً أكثر اعتدالاً، حيث يعرضون لمشاريع ايطاليا في الولاية وينحون باللائمة على الحكومة العثمانية ويطالبونها بالإصلاح ، ويدقون ناقوس الخطر لايقاظها ، فيقترح أحدهم إنشاء أسطول بحري للنقل لقطع الطريق على أسطول إيطاليا ، ولو أدى الأمر إلى الزام الشعب بالمشاركة المالية إلزاماً بدل «تركها ولايتها وأهاليها يتضورون جوعاً ، والطليان يؤسس المشاريع لإحيائها ليلتقم هذه الولاية لقمة سائغة» [3] .

وتدعو الترقي غيرها من الصحف التي تنشد الإصلاح إلى ترك الجرائد الإيطالية وشنشنتها والتفرغ لتبصر مواطن الصدع والأرشاد لطرق إصلاحه .

وقد أبدى كتّاب المقالة اهتماماً زائداً بمراقبة التغلغل الثقافي وهاجموا وسائل إيطاليا في ذلك ، كتكثير عدد المدارس والعمل على رقيها حتى أنها فاقت المدارس الوطنية تنظيماً وتعليماً ، واستطاعت أن تجعل للغتها مكانة بلغت من الأثر مبلغاً قصرت عنه اللغة التركية ، وأصبحت المفردات الإيطالية تختلط في الألسنة اختلاطاً لم تستطع التركية أن تجاريه ، رغم وجود الأتراك في هذه الولاية منذ أمد غير قصير ، وواقع الأمر أن إيطاليا «تطبق خطة ثقافية قصدت بها إحداث تغلغل استعماري ثقافي في البلاد ، فتم فتح المدارس الإيطالية في عدد من المدن الليبية ، وكانت الكنيسة هي صاحبة الدعم الأساسي لتلك المدارس ، وكان المعلمون والمعلمات فيها من الرهبان والراهبات»[4] ، ومع كل هذا فإن إيطاليا لا تدع فرصة إلا وتعلن فيها بأن مصالحها في الولاية مضطهدة ، سواء جاء هذا الإعلان عن طريق رجال الدولة[5] ، أم عن طريق صحفها التي تتهم في الأوساط الثقافية بأنها مأجورة يدفع الفاتيكان ثمن ما تكتب ، وقد اتخذت هذه الصحف من الاختلاف

---

(1) علم إيطاليا ذو الألوان الثلاثة .

(2) الترقي العدد 191 مصدر سابق .

(3) المصدر السابق .

(4) الواقي : الطريق إلى لوزان ص 47 .

(5) من ذلك ما جاء في الإنذار الايطالي للباب العالي قبيل الاحتلال سنة 1911 م ، انظر : الطريق إلى لوزان ص 59 .

العرقي ، واتساع الهوة بين الحاكم والمحكوم مدخلاً للتجريح وبذر الشقاق ، وإعمال معاول الهدم في هذا البناء المتصدع ، غير أن حمية كتّاب المقالة السياسية تأبى عليهم الإنصات فيعلنون للملأ قائلين : أن هذا من باب الاختلاق ، وأنه محاولة لبذر «الفتنة والشقاق بيننا وبين متبوعتنا دولتنا المحبوبة العلية وخلافتنا المرغوبة العثمانية» .[1]

وتتبع الكتاب سياسة إيطاليا المعادية للدولة العلية حتى خارج الولاية فنددوا بدعم إيطاليا لثوار اليمن ومدهم بالأسلحة المهربة عن طريق البحرية الإيطالية في البحر الأحمر ، وبدعمهم لثوار الماليسور ، ومساندتهم للمشاغبين في كريت ومدهم بالأموال والرجال ، لكن جل اهتمامهم بقي محصوراً بعلاقة إيطاليا بالولاية ومقاومة أطماعها وعرقلة خططها الاستعمارية .

ولم تغفل إيطاليا عن مدخل جد مؤثر في تحقيق أهدافها الاستعمارية في الولاية فأتزرت باليهود العثمانيين ، واستمالتهم بشتى السبل فأصبحوا طابوراً خامساً تسبب في الكثير من المتاعب للحكومة العثمانية في الولاية وخارجها ، ولا غرو فقد لعب اليهود دوراً فاعلاً ومؤثراً في الانقلاب على السلطان عبد الحميد الذي يعتبر في نظرهم عقبة كأداء في سبيل تحقيق أطماعهم في فلسطين من لدن رفضه منحهم جزءاً من فلسطين[2] ، فعملوا على الإطاحة به من خلال جمعية الحرية العثمانية في «سالونيك» التي يرتكز فيها السافارديون (الدونمة)[3] وأقاموا صلات مع الجمعيات الثورية الأخرى مثل شباب الأتراك في باريس ، ومنظمة مسملي ألبانيا، ثم انصهر الجميع في حزب الاتحاد والترقي[4]، فكان اليهود من أبرز أعضائه ، وبمجرد أن نجح الحزب «في الإطاحة بحكم عبد الحميد ومن ثم في الاستيلاء على السلطة تقدم الصهاينة إلى الاتحاديين برغبتهم في أن تعترف الجمعية بفلسطين وطناً قومياً لليهود» .[5]

---

(1) الترقي العدد 190 في 4 جمادى الآخرة 1329 هـ (1911) «بلدة عثمانية أم مستعمرة طليانية» .

(2) عرض هرتزل رئيس الجمعية الصهيونية على السلطان عبد الحميد سراً أن يقرض الدولة مليوني ليرة عثمانية ، ومبالغ طائلة للسلطان في مقابل منح اليهود جزءاً من فلسطين يكون وطناً لليهود في العالم ، فرفض السلطان ذلك العرض من أساسه ، فقرر اليهود التخلص منه ، انظر : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة محمد حرب عبد الحميد ص 10 وما بعدها .

(3) طائفة يهودية ـ رئيسها الحاخام «شبتاي سبي» الذي ادعى أنه المسيح المنتظر 1675 م ـ اعتنقت* الاسلام زيفاً منذ القرن السابع عشر المسيحي ، وانقسمت إلى ثلاث فرق متنازعة ، مركزهم الرئيسي في سالونيك باليونان وما حولها ، انظر : الرجل الصنم ، ترجمة عبد الله عبد الرحمن ص 421 .

(4) في أصول التاريخ العثماني ص 263 وما بعدها .

(5) نيازي بركس : المعاصرة في تركيا ، نقلاً عن مقالة بقلم محمد حرب نشرت في مجلة العربي ، العدد 282 مايو 1982 م . عنوانها «موثيز كوهين يهودي عثماني من قادة الطورانية» .

ولسنا بصدد تتبع دور اليهود في القضاء على الدولة العثمانية ، فلن نخوض فيه إلا بالقدر الذي يتصل بقضية الاحتلال الإيطالي لولاية طرابلس الغرب ، فقد كان أغلب اليهود يتمتعون بالرعاية الإيطالية[1] ، ومما وفر لهم حماية مكنتهم من تحقيق قدر كبير من أهدافهم ، حتى إن أحد أعضاء وفد المجلس الوطني الذي أبلغ السلطان عبد الحميد قرار العزل كان يهودياً[2] قام بدور بارز في التمهيد الإيطالي لغزو ليبيا كما تذكر بعض المصادر الحديثة[3].

وقد تنبه كتّاب المقالة السياسية في الولاية إلى نوع المظلة التي يستظل اليهود بظلها ، فانطلقت أقلامهم تكشف هذه العلاقة الآثمة ، وتعرّي الدور الخياني الجانح إلى ممالأة إيطاليا «التي امتزج حبها بلحومهم ودمائهم فلا يترقب منهم جنف عنها وميل لغيرها»[4] .

ويلتصق اليهود بالايطاليين حتى إن لغتهم العربية أصبحت ممزوجة بالألفاظ الإيطالية في أغلبها ، ويعتبر أحد الكتّاب أن هذا مؤشر إلى فقدان الشخصية أو كما عبّر عنه بأن «إضاعة اللغة تسليم للذات»[5] .

ويحاول كاتب آخر أن ينبّه الدولة إلى خطورة وضع اليهود وأدوارهم المرسومة في إثارة القلاقل وزعزعة نظام الحكم في الولاية ، فيكشف النقاب عن تواطؤ جماعة من اليهود من ذوي الحماية الإيطالية ومن غيرهم[6] ، ليثبت أن اليهود تدفعهم دوافع واحدة بغض النظر عن الجنسية التي ينضوون تحت رايتها ، وقد وجدوا ضالتهم في الإيطاليين وأطماعهم الاستعمارية ، كما وجد الايطاليون فيهم سنداً عجيء لهم ما يقوي دعواهم في إيجاد ذرائع تقنع العالم المتمدن في حالة إقدامهم على احتلال ليبيا ، وقد دأبت إيطاليا على الشكوى من اضطهاد العثمانيين لرعاياها ، ومن محاربة مصالحها الاقتصادية وكثيراً ما اتهمت الدولة العثمانية بأنها مقصرة في ترقية وتمدين أهل ولاية طرابلس الغرب ، وأن الأمن والنظام فيها مختل، إلى غير ذلك من الذرائع التي تقدمها الدول الأوروبية بين يدي احتلالها قطراً من الأقطار المستضعفة ، حتى إذا كان مستوى الاضطراب في الولاية غير مرض بادرت رؤوس

---

(1) في أصول التاريخ العثماني ص 264 و265 .

(2) ايمانويل قراصو أو كراسو، وهو محام من أصل أسباني، قام بدور بارز في التعبئة والتنظيم في جمعية الاتحاد والترقي ، توفي سنة 1934 م ، انظر : مجلة العربي العدد329 في أبريل 1986 م مقالة عنوانها «الأيام الأخيرة للسلطان عبد الحميد» بقلم محمد عيسى صالحية .

(3) نيازي بيركس: المعاصرة في تركيا ، مصدر سابق .

(4) الترقي العدد 191 ، «بلدة عثمانية» مصدر سابق .

(5) الترقي العدد 190 ، «بلدة عثمانية» مصدر سابق .

(6) المرصاد العدد 8 في 15 ذي القعدة 1328 هـ (1910 م) «مشاكل المتطليين» .

الحراب الإيطالية لإثارة الشغب كما في حادثة الكوليرا[1] ، حينها هاجم صاحب جريدة (إيكو دي تريبولي) ــ وهو متمتع بحماية إيطاليا ــ طبيب البلدية أثناء عمله واعتدى عليه بالضرب وحجته كما قال : «أنا صحافي وجئت لأطلع على رذائل العثمانيين لأنشرها . . »[2]، ليصبح الأمر بعد ذلك مشكلة سياسية تتبادل فيها المذكرات والاحتجاجات العاصفة ، أو عندما أعلنت «القرعة» العسكرية ــ قانون التجنيد ــ ولم يستثن منه اليهود بل شمل جميع رعايا الدولة فبادرت صحيفة (إيكو دي تريبولي) إلى تحريض الأمهات اليهوديات على منع أولادهن من الانخراط في الجندية ومطالبة الوالي بالتدخل لاستثنائهم ، ولا يخفى أن الاصطياد في الماء العكر يخدم مصالح إيطاليا بالدرجة الأولى ، ويكسب اليهود تميزاً هم أحرص الناس عليه في كل الأزمنة والأمكنة .

وقد تصدى كتّاب المقالة السياسية لكل هذه القضايا ، مناقشة وتحليلاً ، ودفاعاً بإسهاب بالغ ، غير أن منهم من سلك طريقاً آخر في معالجة مشاكل اليهود في الولاية ، فقصد إلى استمالتهم وإبقائهم في دائرة الولاء للدولة العثمانية ، ومحاولة فصلهم عن محيط إيطاليا ، وذلك بنسبة إثارة القلاقل إلى إيطاليا وحدها واتهامها بالتدخل في الشؤون الداخلية للولاية ومحاولة التفريق بين العرب واليهود ، فيؤكدون صدق وطنية اليهود الذين «لا زالوا حافظين لعهد الدولة العلية العثمانية عاضين عليه بالنواجذ»[3] ، وتذكير المستعمر الإيطالي بأن اليهود «وطنيون ينقلبون عليه متى عرفوا أن سياسته تضرّ بوطنيتهم وأن النفر القليل المتمسك بالحماية الإيطالية أصبح آخذاً في الملاشات»[4][5] .

وبعضهم يدرك جيداً مدى حب اليهود للمال فيعمد إلى هذه النقطة للإيقاع بينهم وبين الإيطاليين ، ووسيلتهم الاقتصادية الأولى في الولاية هي مصرف روما ، فيذكرهم بمهاجمة الصحف الإيطالية لهم أولاً ، وبمحاولة استمالتهم لهم ثانياً ، ليتسنى لهم الانفراد دونهم بأزمة المقاليد الاقتصادية في الولاية ، فيقول : « . . وتعدّت حتى لليهود عموماً

---

(1) تفصيل الحادثة أن الطبيب أحمد أفندي طبيب البلدية قابل يهودية مصابة بالكوليرا فحاول اتخاذ الإجراء الصحي المطلوب فمنعه قسطانو (صاحب جريدة إيكو دي تريبولي) فلما اقتادته الشرطة إلى المخفر تنامى الخبر إلى القنصلية الإيطالية فجاء الترجمان ــ وهو يهودي ــ ووراءه جمع من اليهود في حالة عارمة من الهيجان ، واعتدى القنصل الإيطالي على أحد رجال الشرطة بالضرب ، وتحوّلت المشكلة إلى مشكلة سياسية ، انظر : المرصاد العدد 8 مصدر سابق .

(2) المرصاد العدد 8 ، مصدر سابق .

(3) الترقي العدد 191 ، مصدر سابق .

(4) كذا ، والصواب : التلاشي .

(5) المرصاد العدد 26 في 16 ربيع الثاني 1329 هـ ــ(1911 م) «غراب السوء ينعق على الأطلال» .

وخصوصاً المتطليين التي كانت تمني نفسها للوصول بواسطتهم لأغراضها ، وهم لجهلهم اندفعوا في هذا التيار بدون ترو ، وقد نبهناهم مراراً لما ذكر فكانوا يظنون أننا مبالغون أو متحاملون حتى كشف لهم الغطاء عما هنالك فرجعوا إلى قولنا بعد أن كاد البنك يقضي عليهم اقتصادياً ويمتص ما بيدهم»[1] .

ولكي يمسك اليهود العصا من منتصفها أظهرت بعض عائلات منهم ولاءها الشديد للعثمانيين كعائلة (الربيب) وأشهرهم اليهودي (باباني)[2] وأولاده ويبادر بعضهم إلى الردّ على صحيفة (سيشيليا) يكذّب ما كتبته عن تذمر اليهود واضطهادهم في الولاية[3] ، بينما بعضهم الآخر يمد حبال الوصل مع إيطاليا جاهداً في تذليل الصعاب أمامها سراً وعلانية .

ومما سبق ندرك مستوى إحساس كتاب المقالة السياسية بخطر دور اليهودي في الولاية دون أن يصل هذا الاحساس إلى روح العداء كما شاهدنا بعد أزمة فلسطين .

وندرك أيضاً اتجاهاتهم في تبيان هذا الخطر ، ومناهجهم في التصدي له ، والحدّ من فاعليته مما يشهد لهم بثاقب النظر والمعرفة الحقة ببواعث وغايات الأحداث السياسية في البلاد .

وفي أواخر الفترة العثمانية اشتد هجوم الصحف الإيطالية على الولاية فأوسعت الوالي والموظفين والجند سباً وشتماً ، واتخذت لذلك عدة مداخل من أبرزها الإدعاء بأن الإيطاليين في الولاية مضطهدون ، وأن على حكومتهم التدخل لإنقاذهم[4] ، حيث «إن الحكومة العثمانية تعامل الإيطاليين في هذه الولاية معاملة مبهمة بخلاف سائر الأمم الأوروبية حال كون الإيطاليين أحق بحسن المعاملة لوجود حقوق لهم ممتازة فيها»[5] .

ولم يحظ الوالي إبراهيم باشا[6] برضا الإيطاليين لأنه دأب على الحد من نفوذهم في الولاية ، فهاجمته الصحف الإيطالية ، ومن أشدها عليه (لاديبش تونزيان) التي تقول في

---

(1) المرصاد العدد 31 في 19 جمادى الأولى 1329 هـ (1911 م) «خطط الجرائد الإيطالية» .
(2) لم أعثر له على ترجمة .
(3) الترقي العدد 188 في 19 جمادي الأولى 1329 هـ (1911 م) «نحن وجرائد إيطاليا» .
(4) المرصاد العدد 23 في 22 ربيع الأول 1329 هـ (1911 م) «المرصاد وجريدة الاسطامبا الإيطالية» .
(5) الترقي العدد 170 في 5 ربيع الأول 1329 هـ (1911 م) «مستقبل الولاية» .
(6) تولى الولاية في أغسطس 1910 م ، عرف بعدو إيطاليا الأكبر ، تذكر بعض المصادر أنه عزل في سبتمبر 1911 م غير أن المعول عليه هو أنه قد غادر الولاية للتباحث مع المسؤولين في الباب العالي ، ويعتبر آخر الولاة الأتراك على طرابلس الغرب ، انظر : ولاة طرابلس للزاوي ، ص 284 ، وكذلك : ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي ، لأحمد صدقي الدجاني ص 185 .

إحدى مقالاتها : «إن الوالي يستهزىء بالإيطاليين ويقول إن توركيا الآن لها أصدقاء يمكن أن تعتمد عليهم ولا تهاب إيطاليا»[1] ، وبالرغم من أن الوالي لم يصرح بهذا رسمياً ، وأن الصحف المحلية لم تنقل عنه مثل هذا القول إلا أنه من الممكن أن يكون صحيحاً من الأحاديث التي تدور في أروقة السرايا[2] ، وأمكن الإيطاليين ـ عن طريق جواسيسهم الذين يحصون على الوالي أنفاسه ـ استراق السمع لما قال خاصة وأن تقارباً تركياً ألمانياً أزعج أوروبا في تلك الآونة ، ومن ثم فقد بذلت إيطاليا قصارى جهدها في الضغط على الباب العالي لتنحية هذا الوالي المشاكس ، ومهدت الصحف الإيطالية لذلك بالإعلان عن عزم الحكومة العثمانية على استدعاء الوالي إلى الأستانة ، وهذا يعني في العرف السياسي التركي : الشروع في البحث عن وال جديد مناسب للمرحلة القادمة .

وتستمر الملاحاة بين المرصاد والجرائد الإيطالية فتتهم (الاسطامبا) الإيطالية صحيفة المرصاد بأنها صوت الوالي الذي يكره الإيطاليين ، فيرد أحد كتّاب المقالة السياسية قائلاً : «وجريدتنا لم تكتب ما كتبته بإيعاز من رجال الحكومة مطلقاً ، ولم تتنزل يوماً ما لملء صحيفها بألفاظ السباب والشتم كافتراء الجرائد الإيطالية ، وإنما هي تدافع عن حقوق الوطن مدافعة أدبية معقولة»[3] .

ولم يكن بوسع (إيكو دي تريبولي) التي تشبه شوكة الخاصرة إلا مناهضة كتّاب المرصاد ، فشنت حملة تهدف من ورائها إلى إثارة اليهود ، واتهام السلطان بتدبير حادثة حرق (الحوراء)[4] بالجبل الغربي ، فكذبت المرصاد مسعاها ، وتبودلت المقالات اللاهبة ، وأبان أحد الكتّاب هدف صحيفة المرصاد فقال : «فليعلم قسطافو[5] بأن المرصاد ما وجد إلا لخدمة الوطن ، والدفاع عنه ، والدعوى[6] إلى الاتحاد ، وشعاره العثمانية ، ولا هم له إلا ردّ مفتريات جرائد حزب الاستعمار وأمثاله والوقوف له بالمرصاد»[7] .

وعلى صعيد التصدي لمزاعم الصحف الإيطالية ، وبيان البواعث التي تنطلق منها

---

(1) الترقي العدد 178 في 1 ربيع الأول 1329 هـ (1911 م) «في طرابلس الغرب أضرار بدون سبب» .

(2) مقر الحكومة في الولاية .

(3) المرصاد العدد 23 والمرصاد وجريدة الاسطامبا الإيطالية» مصدر سابق .

(4) بيعة من بيع اليهود في الجبل .

(5) صاحب جريدة (إيكو دي تريبولي) .

(6) كذا ، والمقصود : الدعوة .

(7) المرصاد العدد 28 في 30ربيع الثاني 1329 هـ (1911 م) «جريدة إيكو دي تريبولي إيطاليا المأجورة وقلب الحقائق» .

كتب أحد كتّاب المقالة السياسية في الترقي تفنيداً لمزاعم صحيفة (لادبيش تونزيان) التي تقول بأن المظاهرات في طرابلس توجهها الحكومة العثمانية ضد إيطاليا كتب يقول : «إنما هي منبعثة من احتساسات[1] وطنية ليس غير ، ولم يقتصروا فيها أمام قنصلاتو إيطاليا»[2] دون غيرها من القنصليات الأجنبية .

وكان كتّاب الترقي قد أمسكوا عن مجادلة صحف إيطالية ترفعاً عن السفاسف ، وتصديقاً لتصريحات الساسة الإيطاليين من أن إيطاليا ليست لها أية نوايا عدوانية تجاه ولاية طرابلس ، حتى كتبت صحيفة (التريبونا) شبه الرسمية مقالات تهاجم فيها الدولة العثمانية والمواطنين في ولاية طرابلس الغرب ، فتصدى أحد الكتّاب يرد مزاعمها ويثبت صدق ولاء يهود الولاية للعثمانيين ، وينفي تذمر الضباط من الخدمة في الولاية ، ولئن ودّ أحدهم أن يفارق هذه الولاية فما ذلك إلا «ليحل إحدى مدائن إيطاليا التي كانت تحت راية الإسلام فيجدد بذلك عصر الفتوحات الأولى»[3] .

وهكذا كانت تمضي المساجلة بين الصحف الإيطالية والليبية تارة بقدر معقول ، وتارة تغشيها المماحكة والسب الرخيص ، حتى إذا بلغ الأمر مداه أصبحت الصحف في إيطاليا تطالب علانية بضرورة احتلال ليبيا عسكرياً وإجلاء العثمانيين عن طرابلس وبنغازي[4] قبل أن تقوى شوكتهم ، وخاصة أن قانون التجنيد في الولاية قد أثار تخوفاً عند الإيطاليين[5] ، فالساسة والقادة العسكريون يعولون كثيراً على عدم تمكن تركيا من إرسال إمدادات للولاية في حالة تعرضها للهجوم ، ومن ثم فإن الصحف الناطقة باسم حزب الاستعمار أصبحت تستحث أولي الأمر على الإسراع في غزو ليبيا فتقترح صحيفة (الإستامبا)[6] اقتراحاً مفاده أن أفضل وسيلة لحل مشكلة طرابلس الغرب هو تهجير أهالي سيشيليا إليها ، وتقترح صحيفة (العصر التاسع عشر)[7] إعادة الأسرة القره مانلية للحكم في طرابلس تحت حماية إيطاليا احتذاء للتجربة الفرنسية في تونس[8] ، وإزاء هذه المقالات المثيرة نرى أحد كتّاب المقالة السياسية يرد بهدوء و تروٍ مذكراً الإيطاليين بأن مثل هذه الكتابات من شأنه «أن يثير

(1) كذا ، والمقصود : إحساسات .

(2) الترقي العدد 178 مصدر سابق .

(3) الترقي العدد 188 مصدر سابق .

(4) الترقي العدد 203 في 7رمضان 1329 هـ (1911 م) «إيطاليا في طرابلس» .

(5) الترقي العدد 178 مصدر سابق .

(6) صحيفة إيطالية تصدر في تورينو .

(7) صحيفة إيطالية تصدر بجينوا .

(8) الترقي العدد 203 مصدر سابق .

الشحناء ويوغر الصدور ويجعل مصالح الإيطاليين دائماً معرضة للتأخر أو الانحطاط»[1] ، ولكنه لا يخفي شعوره بأن الدولة العثمانية قد تتخلى عن ليبيا إذا هاجمتها إيطاليا فيبادر إلى ذكر مصاعب الطبيعة وقسوة المناخ قائلاً : ولو فرضنا أن دولتنا لا تستطيع أن تحافظنا[2] كما يتوهمون فإننا قادرين[3] على الدفاع عن أنفسنا ، ولا قبل لصبيان صقلية على تحمل هجير سواحلنا ، والصبر على قلة الماء أياماً . . وقد علم الناس أجمعين أن ليس منا من يشق عليه أن يقتحم الموت ، ويجود بنفسه في سبيل الذب عن وطنه»[4] ، ولا أظن أن الإيطاليين في غفلة عن هذا ، وإنما هي الحمية قد دفعته إلى التمسك بأوهى الخيوط ، ولو كان من أشعة الشمس على مسداة الرمال .

وكثيراً ما أعلنت الصحف الإيطالية أن لها أعواناً وأنصاراً يودون مؤازرتها وما حديث آل القره مانلي الآنف ذكره إلا دليلاً على شبهة تدعو للتأمل في دعواها ، وتورد بعض المصادر التاريخية أن نفور العرب من جماعة الاتحاد والترقي ذات الصبغة التركية قد ساهم في «تضليل الملاحظين الإيطاليين لواقع حال الأمور . . وجعلهم يصدقون أنهم سيحتضنون عرب المدينة»[5] حتى إذا حصحص الحق ألفت إيطاليا أن صنائعها يقبعون في زوايا الإهمال بعيداً عن محاور التأثير ، فأذهلتها سيطرة العرب الاقحاح عليها .

ولم تخف الصحف الإيطالية مطامع بلادها في ولاية طرابلس الغرب فتحتج بشدة إذا أشيع أن البحث عن معدن الكبريت قد أسند إلى شركة أمريكية[6] ، وتستنكر إذا سمحت الحكومة لضباط نمساويين بالسياحة في جبال تيبستي[7] باعتبارهم أعضاء في جمعية جغرافية . . وإزاء مثل هذه الاحتجاجات يكتب المقاليون في الولاية مقالات ضافية يبينون فيها كيف «تأصلت في نفوس هؤلاء عقيدة أرجحية مصالحهم وثبات صفة امتيازية لهم في هذه الولاية»[8] ويؤكدون بأن الولاية عثمانية وأن للحكومة الحق في أن تصرح لمن تشاء وتمنع من تشاء .

---

(1) المصدر السابق .

(2) دأب كتّاب المقالة على تعدية الفعل «حافظ» بنفسه .

(3) كذا ، والصواب : فإننا قادرون ، خبر إن مرفوع .

(4) الترقي العدد 203 مصدر سابق .

(5) إ . إ . إيفانز بريتشارد : السنوسيون في برقة ، ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، ص 171 .

(6) الترقي العدد 178 «في طرابلس الغرب أضرار بدون سبب» مصدر سابق .

(7) الترقي العدد 170 «مستقبل الولاية» مصدر سابق .

(8) المصدر السابق .

وحتى تضمن الصحف الإيطالية قطع الطريق على فرنسا من جهة الصحراء تشن حملة تفيد أن فرنسا تنوي احتلال غدامس وغات ، فيهيج الرأي العام الإيطالي ، ويصر على الإسراع باحتلال ولاية طرابلس الغرب ، ويدفع كتاب المقالة هذه المزاعم وحين تعوزهم القوة في إثبات حقهم يلوذون بالتاريخ يستمدون منه سنداً فيقول قائلهم : «أما خبر احتلال فرنسا لغدامس وغات فما لا يساوي تكذيبه ، ورغماً عن قرب خط الحدود منها فإنها ستبقى تحت الراية العثمانية إلى ما شاء الله ، وسيأتي الوقت الذي نعرف فيه أين يكون خط حدودنا فقد حفظ لنا التاريخ أين وضعه طارق بن زياد»[1] .

وآخر مرحلة من مراحل الصراع مع الصحف الإيطالية خرجت فيه المقالة من دائرة المدافع إلى خط المهاجم ، فأرسلت شواظاً من الكلم ، وهاجمت حزب الاستعمار ، وشجبت دوره في تضليل الرأي العام الايطالي ، واتهمت الصحف الإيطالية بأنها مأجورة تموّلها أموال الكنيسة في روما وفي الولاية يشتري (بنك دي روما) ذمم المراسلين فيكتبون ما يريد[2] .

ويعرض كتّاب المقالة في المرصاد إلى تفصيل الحياة السياسية في إيطاليا وبيان مشارب كل الصحف ، وتصنيفها إلى كنسية إكليريكية تناوىء الحكومة والماسونية ، وإلى اشتراكية ملحدة تلعن البابا ولا تحترم الأديان «والجرائد المذكورة ديدنها اختلاق الأخبار وتحريف الأحاديث كل واحدة حسب مشربها»[3] .

والجدير بالذكر أن المرصاد أشد الصحف الليبية في مقارعة صحف إيطاليا ، حتى أنها اتخذت لها مراسلاً مقيماً في إيطاليا يوافيها بخبايا الأمور ، ولقد تناول كتّاب المقالة السياسية بنية الدولة في إيطاليا منذ بداية توحدها مذكرين بأنها حديثة التكوين لم تنس سيطرة الأغراب عليها بعد ، مروراً بما تعانيه من فقر مدقع ألجأ الآلاف إلى الهجرة سداً للرمق ، وهروباً من اللصوص وقطاع الطرق ، وانتهاء بإرجاع مظاهرة الحضارة في إيطاليا إلى عناصر من شعوب غير إيطالية كالبوربون الفرنسيين ، وبقايا النمساويين في ميلانو[4] .

وما أن يتطرق حديث الصحف الإيطالية إلى طرابلس حتى يرد المقاليون في ليبيا بأن

---

(1) الترقي العدد 178 مصدر سابق .

(2) المرصاد العدد 31 في 19 جمادي الأولى 1329 هـ (1911 م) «خلط الجرائد الإيطالية» .

(3) المرصاد العدد 33 في 4 جمادي الثاني 1329 هـ (1911 م) «إيطاليا وطرابلس الغرب» بقلم : مراد ديار بكرلي .

(4) المصدر السابق .

الأجدر بهم «لو استبدلوا طرابلس الغرب (بتريسته) فتكون دعواهم أحسن ولهجتهم أخف ولكنهم لا يحاربون النمسا إلا في حواضرهم بالهجوم على قونصلاتها هنا ـ في إيطاليا ـ وفي بلادنا المحروسة والصياح تحت النوافذ بقولهم (فلتسقط النمسا)»[1].

وإذا ما ذكرت الصحف الإيطالية حقوق إيطاليا في ليبيا واستشهدت بما للرومان من آثار فيها قابلها الكتّاب بذكر الآثار الإسلامية في إيطاليا خاصة في جزيرة سيشيليا التي لم تزل بعض مدنها تحمل اسمها العربي القديم[2] .

ومن ضمن الحملة التمهيدية للاحتلال هاجمت صحيفة (التريبونا) الجيش العثماني واتهمته بالعجز عن إمداد الولاية حين الحاجة فرد أحد كتّاب المقالة السياسية بأن الشعب كفيل بالدفاع عن نفسه بعد انخراطه في الجندية وهاجم الجيش الإيطالي وسلوكه المشين ، وذيوع الرذيلة والانحلال الاخلاقي بين صفوفه[3] .

ولم يقصر كتّاب المقالة السياسية هجومهم على فئة دون أخرى ، فلم يسلم القسس ورجال الدين والشرطة من الإعلان عن ممارساتهم المنافية للآداب والاخلاق العامة . وفضح الشرطة ببيان دورهم في مساعدة المجرمين بدل الضرب على أديهم[4] .

ويمكننا أن نقدر الدور الذي قامت به المقالة السياسية في مناوأة الاستعمار قبل وقوعه ، إذا علمنا أن السلطات الايطالية أصدرت أمراً بابعاد مراسل صحيفة المرصاد[5] ، وأعلن حزب الاستعمار عن جائزة مالية لمن يساعد في القبض عليه .

وبعد ، فإن مقالات الكتّاب وتحذيراتهم التي استغرقت زمناً يكفي لإيقاظ أهل الكهف لم تجد فتيلاً عند الدولة العثمانية التي شُغلت عن الولاية بالتحولات الطورانية التي جاءت في ركاب جمعية الاتحاد والترقي .

---

(1) المصدر السابق .

(2) المصدر السابق .

(3) المرصاد العدد 38 في 17 رجب 1329 هـ (1911 م) «مراسل التريبونا» .

(4) المرصاد العدد 42 في 15 شعبان 1329 هـ (1911 م) «الأمة الطليانية ومكاتبنا» .

(5) مراد دبار بكرلي .

المقالة الدينية

1 ـ الفترة الأولى : ـ خالية من المقالة الدينية

2 ـ الفترة الثانية :

أ ـ الجامعة الاسلامية
ب ـ قواعد التشريع
جـ ـ الاصلاح الديني

3 ـ الفترة الثالثة :

أ ـ الدفاع عن الاسلام
ب ـ الدين والسياسة
جـ ـ المناسبات الدينية
د ـ التأمل الفلسفي

المقالة الدينية

لا يجادل أحد في قوة الوازع الديني في ولاية طرابلس الغرب منذ أشربت قلوب سكانها الإيمان ، وبسط المذهب المالكي جناحيه على هذا الجزء من الشمال الأفريقي الذي ارتضى معظم سكانه الفقه المالكي نبراساً يسيرون عليه في معاملاتهم وعباداتهم ، ووجدت فيه الطرق الصوفية مناخاً خصباً لأورادها وأذكارها ، وحظيت بالكثير من المريدين الذين يعمر قلوبهم الإيمان ، وتطرب نفوسهم للغيبيات إلى وقتنا الحاضر .

إن بيئة مثل هذه يفترض أن تتبوأ فيها المقالة الدينية مكان الصدارة ، غير أن شيئاً من هذا لم يحدث ، فإن الفترة الأولى التي انفردت فيها «طرابلس الغرب» بالصدور كانت قاحلة تماماً ، وخالية الوفاض من المقالة الدينية ، وفي الفترة الثانية كانت من الندرة بمكان، ولم تبرز بشكلها الواضح إلا في الفترة الأخيرة عقب صدور الدستور، وبالرغم من الاتجاه الديني الذي يتشكل منه عصب الدولة العثمانية ، والدعوة السياسية الدينية التي نادى بها السلطان عبد الحميد بهدف جمع المسلمين في جامعة تقف في وجه الغرب المسيحي ، فإن الأصداء ظلت باهتة على صعيد المقالة الدينية ، وهذا مردّه ــ في رأيي ــ إلى طغيان المقالة السياسية التي احتوت الدينية فيما احتوت ، يظاهرها ما وقر في الأذهان من أن السياسة والدين أمران ممتزجان لا يمكن الفصل بينهما، فاكتفى الكتّاب باتخاذها مدخلاً للمقالة السياسية في معظم الأحيان .

ومن خلال التتبع التحليلي للخطوط العريضة التي سارت عليها المقالة الدينية يمكن أن تلحظ أن هناك محاور أساسية بنيت عليها ، أهمها فكرة الجامعة الإسلامية التي اشتد عودها بعد سيطرة السلطان عبد الحميد على أزمة الأمور .

والذي يبدو لي أن الكتّاب قد خدعوا بسياسته التي يظهر فيها تقريب العرب ، والتقرب إليهم[1] ، فلهجوا بحمده والثناء عليه في كل مناسبة ، وانبرت أقلامهم تحض على الاتحاد والالتفاف حول خليفة رسول الله كما يقول الكاتب مصطفى بن زكري : «لا يخفى على عامة المسلمين وخاصتهم ما تصل إليه الأمة وتناله من خيري الدنيا والآخرة لو اجتمعت على قلب رجل واحد وألقت مقاليد أمورها بيد أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وأجابت دعوته وأيدت دولته»[2] .

وبالطبع فلم يغب عن الكتّاب عمق الشعور الديني عند عامة الناس فسيقت الآيات القرآنية الحاثة على الاتحاد والتأكيد على الأمر الإلهي لجميع «المؤمنين بقوله ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾»[3] ، وقد بينت لنا هذه الآية أن حبل الله تعالى الذي يجب الاعتصام به هو الاجتماع المفهوم من قوله : ﴿ولا تفرقوا﴾ ، ولا يصل هذا الاجتماع إلى الحد اللازم المأمور به حتى يحب كل واحد لغيره ما يحبه لنفسه»[4] .

واستند الكتّاب فيما استندوا عليه لتحقيق دعواهم إلى الأحاديث النبوية وسرد شيء من حكم ومآثر العرب في ذلك ، ومن هذا الباب الرحب غدا الكتّاب يربطون بين الاتحاد وشخص الخليفة الذي يعدّونه محور الدولة ومحط الآمال ، وطاعته من أمر الله محتجين بالآية الكريمة : ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[5] ، ومن ثم فإن منازعته مخالفة للأمر الإلهي ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾[6] .

كذلك فقد حظي السلطان عبد الحميد بكثير من التمجيد والثناء باعتباره رمزاً دينياً بالغ كثير من الكتّاب في تقديره حتى أسن الحمد وعلته كدرة الملق ، واكتنفته شآبيب النفاق كما نرى في إحدى المقالات الدينية التي غالى كاتبها في تقدير سهر الخليفة على رعيته بقوله : «هل فيكم من له أدنى إلمام بتاريخ جلالته أو يعلم أقل العراقيل التي كانت تعترضه يتصور أنه أكل أكلة هنية أو نام نومة مستريحة ، فلا والله بل هو ــ كما قال الصادق المصدوق أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل[7][8] في غاية التعب ما بين دفع مضرة

---

(1) انظر : جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ص 139 وما بعدها .

(2) الترقي العدد 22 في 25 جمادى الآخرة 1315 هــ (1897 م) «كيف نفترق وكلمتنا في الله واحدة» .

(3) سورة آل عمران الآية 103 .

(4) الترقي العدد 23 في 2 رجب 1315 هــ (1897 م) «الاتحاد والانفراد» .

(5) سورة النساء الآية 59 .

(6) سورة الأنفال الآية 46 .

(7) في الأصل وضع الكاتب الجمل المعترضة بين حاصرتين () فاستبدلتها بشرطتين .

(8) انظر البخاري بحاشية السندي ، جـ 4 ص 3 .

وجلب مصلحة حسبما تقتضيه الظروف والأحوال ، وليس له فائدة تعود لجلالته إلا ما تطمح إليه أنظاره دائماً من رضى الله ورسوله وما أعدّ له من الثواب الجزيل»[1] ، ولا يخفى أن مثل هذه المقالة هي صدى لما يكتب في عاصمة الدولة[2] بأقلام حميدية لا تبالي أن يكون مركبها الوطني، شعاراً دينياً تمتطيه وقت الحاجة لتبلغ به شغاف قلوب المؤمنين .

وكثيراً ما كانت تستند المقالة الدينية إلى حائط التاريخ لتبرز دور العثمانيين في إنقاذ الدين الاسلامي من التردي في هاوية التمزق والتشتت في عصور الدويلات، وإعادة بناء دولة إسلامية قوية حين «منّ الله تعالى على الأمة الإسلامية بساكن الجنان «أرطغرل»[3] جد سلالة ملوك آل عثمان الفخام فمن بعده ، فرفعوا أعلامها وشيدوا أركانها بلم شعثها وسدّ ما انثلم منها وبتعويضها ما فاتها بامتداد الفتوحات شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً»[4].

وقد تتعرض بعض المقالات إلى القدح في الدول الإسلامية السابقة[5] ، كالأموية والعباسية وتفضل العثمانيين عليها مبالغة في التزلف وإرضاء للسلطة .

غير أن من المقاليين من كان صادق الولاء والإخلاص للخلافة وتشده آصرة الجامعة الإسلامية فكتب مقالات تلمس فيها حرارة الصدق ، ومن بين هؤلاء مصطفى بن زكرى الذي حلل في إحدى مقالاته أسباب الفرقة وبواعثها النفسية في معرض حديثه عن الاتحاد تحت مظلة الجامعة الإسلامية ويعزوها إلى سببين اثنين : أحدهما المطامع المادية الموصلة إلى الخيانة ، وآخرهما حب الرئاسة والتسلط .

ويمكن أن نلحظ من خلال هذا التحليل شجب الكاتب لاتجاهات التحرر الوطنية ــ التي أقضّت مضجع السلطان عبد الحميد ــ وما تدعو إليه الجمعيات السرية في منشوراتها خاصة في المشرق العربي ، وما أثاره عبد الرحمن الكواكبي في كتابيه «أم القرى» و «طبائع الاستبداد» ، ففيه إحساس السلطة بخطر بعض الزعامات العربية مما يعدّ في نظر أغلب دعاة الجامعة الإسلامية مروقاً من الدين وشقاً لعصا طاعة أمير المؤمنين ، لكل هذه العوامل كتب مصطفى بن زكري ما يلي : « . . . فمنهم من يريد عرض الحياة الدنيا وقد خان الله

---

(1) الترقي العدد 23 مصدر سابق .

(2) انظر الترقي العدد 64 ، حيث نقلت مقالة بحذافيرها عن صحيفة الكوكب العثماني .

(3) هو أرطغرل بن سليمان شاه التركماني ، والد عثمان الذي تُنسب إليه الدولة العثمانية ، توفي 687 هـ ، انظر : محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص 39 .

(4) الترقي العدد 23 ، مصدر سابق .

(5) انظر الترقي العدد 64 ، مصدر سابق .

ورسوله وباع دينه وقومه بثمن بخس دراهم معدودة ، ومنهم من ابتلاه الله بحب الرياسة وقيض له شياطين تسعى خلف آماله وتسير في مهامه ظلاله ولا تهمه مصالح الأمة ولا يؤلمه ما تشكوه من تقسيم أجزائها وإلقاء العداوة بين أبنائها فكيف تطمئن قلوبنا ونصغي إلى قوم يخادعون اللّه والذين آمنوا ، أم كيف نفترق وقد جمعتنا في اللّه كلمة واحدة» . [1]

وبعد الجامعة الإسلامية والدعوة لها صدقاً أو ملقاً يبرز محور ثان في اتجاهات المقالة الدينية يُعنى بتفسير بعض قواعد التشريع وبيان مراميها وغالباً ما يوظف هذا التفسير لصالح الدولة ، إلا أنه يتعرض بالنقد ـ أحياناً ـ لمسلك الحكّام والمأمورين ، ونعرض مثالاً لهذا الاتجاه مقالة للشيخ عبد الرحمن البوصيري عنوانها «الصلح سيد الأحكام» تناول فيها أهمية الصلح في فض المنازعات بين الأفراد ، ثم بين الدول ، وقدّم للمقالة بمقدمة في طبائع البشر ودواعي التشريع حيث إن الشارع قد وضع شرائع للناس «كافلة للحقوق رادعة للمعتدي ، وسن لهم أحكاماً مقدسة ينتهون إليها وحدوداً لا يتجاوزونها بل يقفون عندها وبمقتضى ذلك الشرع يحكم على الخصمين»[2] ، ويضع البوصيري يده على مكمن الداء منطلقاً من قاعدة متينة فهو فقيه ضليع في معالجة الأحكام الفقهية ، وقاض خبر النفوس ، الظالم منها والمظلوم ، فبيّن معاذير الخصومة ، وتباين الناس في طريق الوصول إلى حقوقهم فقد يضل صاحب الحق ويهتدي الآثم بما يلفق من حجج وبراهين إلى انتزاع حق خصمه وهي قضية بيّنها الحديث النبوي الشريف[3] ، فأومأ إليها الكاتب إيماء ، لأن المقالة ليس من هدفها الوعظ والإرشاد ، بل تفسير دوافع التشريع ، ويعرّج الكاتب على نقطة لها علاقة بالهدف الأصلي للمقالة ، لكن طريقة عرضها حملت نقداً موارباً لسلوك الحكام وأرباب السلطة ، فيقول في معرض حديثه عن أحد الخصماء : «أو كان من أهل الأنفة أو من الأجلاف المتبوعين فتتولد حينئذ ضغائن مؤدية إلى ارتكاب المفاسد فشرع أيضاً الصلح بين الخصوم لتندفع عند الميل إليه هذه الغوائل»[4] فكأن في نفس الشيخ رغبة في شجب مراكز القوى ، ورفضاً لسلوك الشريحة التي لا تطالها يد القانون، ولكنه لا يجرؤ على ذلك لسبب من الأسباب فاكتفى بهذه الإيماءة المغلفة بتفضيل الصلح .

---

(1) الترقي العدد 22 ، مصدر سابق .

(2) الترقي العدد 21 في 18جمادي الآخرة 1315 هـ (1897م) «الصلح سيد الأحكام وخير المال ما انتفع به الإسلام» .

(3) رُوى عن أم سلمة أن رسول اللّه ﷺ قال : «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار» انظر : البخاري ، متن البخاري بحاشية السندي ص 239 .

(4) الترقي العدد 21 ، مصدر سابق .

ثم يغرق الشيخ في سرد الحجج الفقهية وطرح القضايا المنطقية ليصل إلى أهمية الصلح ومن ثم يصل به إلى مرحلة الوجوب ، وعندها يستند إلى حائط التاريخ الإسلامي فيتحدث عن صلح النبي ﷺ وقريش ، وصلح الحسن[1] ومعاوية مستخدماً ـ ما وسعه الاستخدام ـ بعض المؤثرات القرآنية والنبوية ليوظف هذا التشريع في صالح الدولة العثمانية وصلحها مع اليونان ، هذا الصلح الذي أغضب الأوساط المثقفة في الدولة ورأت فيه إهداراً لدماء الشهداء وثروة الشعب فلا مبرر للصلح بعد انتصار العثمانيين وهزيمة اليونانيين ، ولكن السلطان عبد الحميد له رأي مخالف في هذه القضية ، وعلى الموالين إيجاد المعاذير ومن هؤلاء كاتب هذه المقالة الذي يرى أن الصلح «هو الحكمة الباهرة وعين الحكمة البالغة ودار خلود الحكمة التي انتجتها الأفكار العالية الممدوحة عند اللّٰه تعالى وخلقه»[2] ، وأن الصحف التي تناوىء المصالحة هي صحف متطرفة بعيدة عن السياسة بعد المشرقين ، وأما دماء القتلى فلم تذهب هدراً فهم أحياء عند ربهم يرزقون ، ويتمنون العودة إلى القتال ليقتلوا مرة أخرى . . ويتحوّل الكاتب بالمقالة إلى مسار آخر فيحث القاعدين على الجهاد بأموالهم بعد أن فاتهم الجهاد بأنفسهم ، ويُسهب في الحديث عن الجهاد وأنواعه وشروطه ومزاياه مستغلاً كل سانحة في مدح الخليفة بل حتى الوالي ومن والاه .

ومن المحاور البارزة التي بنيت عليها المقالة الدينية محور يشيد بانجازات الدولة في مجال الإصلاح الديني وتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية خاصة في الجانب الديني الاجتماعي ، ومن ذلك مقالة عنوانها «صندوق الايتام» سلط كاتبها الضوء على مشاكل اليتامى وما يلاقون من ظلم الأوصياء ، وعلى رعاية حقوقهم في «المحافظة على أموالهم والتحري منها ، وكف الأكف الخاطفة عن اختزالها وقطع أطماعهم عنها وتركها على حالها غير معترض لها بسوء حتى تصل إليهم سالمة»[3] ، ولذلك أنشأت الدولة صندوقاً يرعى أموال اليتامى غير أن العمل به في ولاية طرابلس الغرب ظل معطلاً وفقاً للأهواء وإهمال المسؤولين ، فينتقد الكاتب هذا الإهمال حيث يراه من «الأحوال المذمومة شرعاً وعقلاً ، المجحفة بحقوق هؤلاء الضعفاء مغايرة لرضاء الحق جل وعلا»[4] ثم يبيّن مزايا هذا الصندوق من تقسيم التركة حسب الأصول الشرعية ، ووجوه استثمار أموال اليتامى ، والإنفاق عليهم إلى غير ذلك مما يعود بالنفع والرعاية الاجتماعية المنطلقة من منطلق ديني .

---

(1) أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب ، ولد في السنة الثانية للهجرة، تولى الخلافة بعد مقتل أبيه، وتنازل عنها لمعاوية بن أبي سفيان ، توفي مسموماً سنة 49 هـ ، انظر : وفيات الأعيان جـ2 ص65 .

(2) الترقي العدد 21 ، مصدر سابق .

(3) طرابلس الغرب العدد 891 في المحرم 1317 هـ (1899 م) «صندوق الايتام» .

(4) طرابلس الغرب العدد 891 ، مصدر سابق .

وثمة مقالة أخرى هدفها الأصلي هو الإشادة بجهد الوالي في بناء سور لمقبرة سيدي منيذر[1] بطرابلس ، غير أن الكاتب قدّم لها بمقدمة ترجم فيها للصحابي ، الجليل منيذر اليماني ترجمة ضافية استعرض فيها إسهامه في الفتوحات الإسلامية ، ومكانته في رجال الحديث وشيئاً من ترحاله حتى وفاته في طرابلس حيث بيّن قصة إنشاء هذه المقبرة التي يستنكر الكاتب أن تكون «مرعى للحيوانات فضلاً عن كونها موطئاً للأرجل خلافاً لرضاء الله وخليفة رسول الله»[2] .

وفيما عدا ذلك لم يكن للمقالة الدينية جهد يذكر حتى إذا ما نظرنا إليها في الفترة الأخيرة من هذا البحث وجدناها تزخر بحيوية أكثر من ذي قبل ، وتخوض غمار العديدمن الموضوعات الجدلية والفلسفية بعمق ونضج ملحوظ .

وقد شغلت بالدفاع عن الإسلام وخوض معترك الجدل دفاعاً عنه ورداً لاتهامات أعدائه ، خاصة وقد طمى سيل العلمانية وعلت أصوات تطالب بعدم تدريس الدين الإسلامي في المدارس استناداً إلى أن الدستور العثماني كفل المساواة لجميع فئات الشعوب العثمانية أيا كان دينها فلا مبرر لتدريسه بعد ذلك ، فيكتب أحد كتّاب المقالة الدينية رداً على هذا بقوله : «وكل من له خبرة بما لأصحاب هذا الرأي من المقاصد لا يقع لديه هذا موقع الاستغراب ، ولكن ليعلم المارقون أن كل أمة استهانت بدينها عرّضت نفسها للزوال والاضمحلال وقد جاء في القانون الأساسي صريحاً أن دين الدولة هو الإسلام»[3] ، ولكي يفوّت الكاتب الفرصة عليهم يقترح تدريس جميع الأديان في المدارس ، بل يجعله واجباً ، فلكلٍ الحق في دراسة دينه .

وتعلو موجة أخرى يجدف لها العلمانيون تتهم الدين بأنه سبب التخلف وأن أوروبا لم تتقدم إلا بعد أن أزاحت الدين من طريقها ، ويرون في التجربة الفرنسية خير شاهد على ذلك ، فيردّ الكاتب بأن الدين الإسلامي كان «باعثاً على رقي المسلمين في الحيوة[4] الاجتماعية ولم يمنعهم من الوصول إلى أقصى درجة من التقدم في العلوم العقلية والرياضية والفنون الصناعية»[5] ، وأن أوروبا نفسها لم تصل إلى مدارج الرقي إلا بعد أن ترجمت كثيراً

---

(1) هو المنيذر الأسلمي ، ويقال اليمالي من مذحج ، صحابي محدث ، شارك في الفتوحات بشمال أفريقيا ، توفي سنة 96 هـ ، انظر : ابن حجر ، الإصابة في تمييز الصحابة جـ6ص 227 .

(2) طرابلس الغرب العدد 1148 في 11 صفر 1324 هـ (1906 م) «محافظة المقابر واحترامها» .

(3) الترقي العدد 118 في 28 ذو القعدة 1327 هـ (1909 م) «مستقبل الإسلام» .

(4) كذا ، والصواب : الحياة .

(5) الترقي العدد 118 مصدر سابق .

من الكتب والمعارف الإسلامية ، وينبه الكاتب إلى خلل في القياس على التجربة الفرنسية بأن فرنسا لها دين واحد أما الدولة العثمانية ففيها أديان متعددة ، فلو لم تدرس الأديان في المدارس فسينشأ جيل مضطرب لا يحكمه معتقد ولا تجمعه رابطة .

وفي مقالة أخرى يجادل كاتبها أحد[1] العلمانيين الذي كتب مقالة على صفحات «المؤيد» هاجم فيها الدين الإسلامي ، وإن كان جدالاً فيه حدة وانفعال إلا أنه يعكس حمية وغيرة على الدين الإسلامي ، ويجلي محاسن الإسلام في العدل والمساواة مستشهداً بمأثور العبر والقصص الوعظية ، ويؤكد الأصول الإسلامية لحضارة الغرب فيقول : «فلو كان عاقلاً وطالع تاريخ فرنسا لعلم أن أساس مدنيتها ما وصلت إليها إلا عن علماء الأندلس»[2] .

ومما سبق عرضه ندرك أن الأثر الأوروبي في طرائق تفكير المثقفين في الدولة العثمانية بدا واضحاً وضوح الشمس ، وهذا نتاج طبيعي لتوجه الساسة منذ حوالى منتصف القرن التاسع عشر إلى الأخذ عن أوروبا بدءاً بالنظم الإدارية والنهج التعليمي وانتهاء بطرائق العيش اليومية .

وكان لا بد من وجود تيار معاكس أدرك أصحابه فداحة الخطر الأوروبي فلاذوا بالتراث الإسلامي ، وطفقوا يتصدون لتلامذة أوروبا ويقارعون الحجة بالحجة ، وأدلى كتّاب المقالة في ولاية طرابلس الغرب بدلوهم في هذا الصراع ، فكانت المقالات الضافية التي تناقش في هدوء فلسفة الأديان ، وحاجة البشر إلى الرسل ، ولا سيما أن «للنفس الإنسانية جهتين : جهة التعلق بالبدن بسبب توارد المدارك الحسية والقيام بتدبر مدركاتها ، وجهة الاستعداد للإنسلاخ من البشرية إلى عالم التجرد والاتصال بالأفق الأعلى ، ولما كانت المرتبة الثانية أعلى مراتب النفس الانسانية ــ وليس في استطاعة كل إنسان إحرازها ــ مست الحاجة إلى وجود الزواجر فأرسل الله للخلق رسلاً اصطفاهم من بين الخلائق وأنزل لهم صحفاً وكتباً مشتملة على ما دعت له حاجة البشر من أحكام الوقائع وتحليل وتحريم بعض الأعمال»[3] .

وثمة مقالات أخرى تصدت لمزاعم الأوروبيين ومطاعنهم على الإسلام كاتهامه بأنه دين التعصب والدموية ، فانبرى الكتاب ينافحون عنه بكل حجة ، ومن هذه المنافحة ما

---

(1) أحمد رضا بك عضو مجلس المبعوثان عن أدرنة ، وقد كذّب في عدد لاحق نسبة المقالة له .

(2) الكشّاف العدد 8 في 26 المحرم 1327 هـ (1909 م) «ردّ على المارق الدكتور رضا» .

(3) الترقي العدد 118 ، مصدر سابق .

كتبه أحد الكتّاب مذكراً الأوروبيين بالحروب الصليبية التي أشعل أوارها رجال الدين المسيحي ، واتهمهم بزرع العداوة بين الشرق والغرب ، وفضح أساليب أوروبا في اتخاذ المدنية ستاراً تخفي تحته مطامعها ، وبين بعض ذرائعها لإثارة القلاقل في البلاد الإسلامية ، فكلما «وجدوا أمة مسيحية في الممالك الإسلامية شوقوها لشق عصا الطاعة من جهة ، وبادروا للمطالبة بانصافها من جهة ، صارخين صائحين بأن العداوة الدينية في المسلمين هي السبب الوحيد لهضم حقوق المسيحيين»[1] .

ويذكر الكاتب الغرب بمظاهر عصبيتهم في منع المهاجرين الشرقيين من دخول أمريكا ومنع اليهود في روسيا من دخول المعاهد الحربية ، وببعض قوانين فرنسا في مستعمراتها التي يندى لها جبين الإنسانية .

وعلى صعيد آخر ، يسترسل الكاتب في سرد العديد من صور التسامح عند المسلمين وعكسها عند المسيحيين ، ويستشهد بأن «روزفلت»[2] أبى أن «يقابل البابا عندما شرط عليه عدم التعرض للأديان ، ولكن المسلمين دعوا ذلك الرئيس إلى الخطبة في جامعتهم[3] وسمعوا بآذانهم مطاعنه»[4] .

وثمة نوع آخر من الدفاع عن الإسلام لم يتخذ الصيغة المباشرة في الجدل كسابقه ولكنه تحدث عن الدين الإسلامي مبرزاً مظاهر الدعوة فيه إلى المدنية والرقي يمثله الكاتب أحمد الفساطوي في إحدى مقالاته[5] فيبين كيف نقل الإسلام العرب من حضيض الجاهلية إلى ذروة المدنية في سنين قلائل ، ويعدد أسس المدنية من عدلٍ ، وإخاءٍ ، ومساواةٍ ، مستدلاً بالآيات القرآنية كقوله تعالى : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾[6] وقوله : ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[7] وقوله : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾[8] ، وكثير من الآيات التي تقف شاهداً على عظمة الدين الإسلامي .

---

(1) الترقي العدد 139 في 5 جمادي الأولى 1328 هـ (1910 م) «أوروبا والإسلام ومن هو المتعصب» .

(2) تيورد روزفلت ، ولد سنة 1858 م ، رئيس الولايات المتحدة من سنة 1901 م حتى 1909 م ، نال جائزة نوبل سنة 1906 م ، من رجال السياسة الأمريكية والعالمية البارزين ، توفي 1919 م ، انظر : الموسوعة ص 891 .

(3) الجامعة المعنية جامعة القاهرة .

(4) الترقي العدد 139 مصدر سابق .

(5) انظر : العصر الجديد العدد 16 في 8 جمادي الآخرة 1327 هـ (1909 م) «الدين والمدنية» .

(6) سورة النحل الآية 90 .

(7) سورة الحجرات الآية 10 .

(8) سورة الحجرات الآية 13 .

وفي مقالة أخرى يدعو الفساطوي المسلمين إلى الأخذ بأسباب التقدم والرقي ، وينبههم إلى الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى مستنداً إلى آيات قرآنية تحثّ على التدبر والاعتبار فيقول : «ولو تأمل الانسان إلى ما أودعه اللّه في كتابه الكريم من الآيات ، وما ضربه لنا من الحكم والأمثال من ذكر الأمم المتقدمة لعلمنا أنّه ما ذكر تاريخها ولا شرح أحوالها إلا لنعتبر بهم وبأحوالهم وبأعمالهم قال تعالى : ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾[1]»[2].

وللمقالة الدينية دور بارز في دمج السياسة بالدين ، فحرصت كل الحرص على هدم أي حاجز من شأنه أن يفصل السياسة عن الدين، حيث إنه «بالاحساسات الدينية تقاد الأمم أسهل مما تقاد بالاعتبارات السياسية»[3] وهذا هو الوتر الذي ظلت الدولة العثمانية تعزف عليه لتخدير أوصال رعاياها المسلمين ، غير أنه في ظل الوعي القومي في المشرق العربي سرت أشعة من سنا دعوات إصلاحية تلقفها كتّاب المقالة الدينية في ولاية طرابلس الغرب تلقف الظامىء وطفقوا يكتبون يهدي منها مقالات عاصفة تنتقد الحكّام والفقهاء ورجال الدين ومسالك المتصوفة والاتكاليين ، ومن هذه المقالات سلسلة عنوانها (السعي والعمل) حثّ فيها الكاتب على الجدّ وترك التكاسل تحت مظلة الزهد وعدّ هذه الدعوة من أهم واجبات العلماء فقال : «وإذا لم نقم بأداء هذه الفريضة لا نقدر على قدّ أغلال العطالة القاضية على النفوس ولا نتمكن من تخليص الأذهان من تلك الظنون الباطلة الملقاة من طرف المدعين إرشاد الخلق»[4]، وأكاد أجزم بأن كاتبها قد اطلع وتأثر بكتاب «أم القرى»[5] لعبد الرحمن الكواكبي ، الذي كانت سمعته تطبق الآفاق داعية من دعاة النهضة ، وعلماً من أعلام الحرية ، وبالرغم من أن كتاباته وكتبه كانت محظورة زمن عبد الحميد ، ويُنظر إليها بكثير من الريبة والحذر زمن الاتحاديين ، فإنا نجد صداها بالغاً مسامع الأوساط الثقافية في الولاية ، بل يعمد رئيس فرع الاتحاد والترقي في الولاية محمد البوصيري إلى كتابة مقالة ملتهبة ضمنها جزءاً مما دار في اجتماع من[6] اجتماعات جمعية أم القرى للكواكبي يهاجم فيه رجال الدين والفقهاء ، دون أن يشير من قريب أو بعيد لمصدره ، ولا أظن أن

---

(1) سورة يوسف الآية 111 .

(2) العصر الجديد العدد 19 في 28 جمادي الآخرة 1327 هـ (1909 م) «الدين والارتقاء» .

(3) الترقي العدد 171 في 12 المحرم 1329 هـ (1911 م) «الدين والسياسة» .

(4) الترقي العدد 120 في 19 ذي الحجة 1327 هـ (1909 م) «السعي والعمل» .

(5) انظر : الأعمال الكاملة للكواكبي ، دراسة وتحقيق محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ص 1975 م ص 265 .

(6) الاجتماع الثالث ، انظر : المصدر السابق ص 261 وما بعدها .

صنيعه هذا من قبيل السرقة الفكرية ولكن ليتجنب همزات الشياطين ، خاصة أن كتابي [1] الكواكبي فيهما من العداء للأتراك ما فيهما ، وباستعراض نماذج عشوائية من المقالة نجزم بأن الكاتب قد اطلع على أم القرى ، ونقل عنه عندما يقول « . . يمكن حصرها فيما ابتلى الله به هذه الأمة من علماء السوء الرسميين أو الجهال المتعممين»[2] ، ويقول الكواكبي : « . . وعندي أن داءنا الدفين دخول ديننا تحت ولاية العلماء الرسميين ، وبعبارة أخرى تحت ولاية الجهلة المتعممين»[3] .

ويقول البوصيري متحدثاً عن العلماء وتوارثهم الألقاب العلمية خاصة طبقة الأصلاء (زادكان) : «فترى المولود منهم في المهد ويعطى له منشور بأنه (أعلم العلماء المحققين) فبعد الفطام يترقى إلى (أفضل الفضلاء المدققين) وإذا صار مراهقاً أعطيت له (المولوية) ويُنعت في منشوره (أقضى قضاة المسلمين ووارث علوم الانبياء والمرسلين) ، فإذا صدر وصف (بأعلم العلماء المتبحرين وأفضل الفضلاء المتورعين وينبوع الفضل واليقين) . .»[4] ويقول الكواكبي : «فإنه يكون طفلاً في المهد ، وينعت في منشوره الرسمي من قبل حضرة السلطان بأنه : (أعلم العلماء المحققين) ثم يكون فطيماً فيخاطب بأنه : (أقضى قضاة المسلمين معدن الفضل واليقين ، رافع أعلام الشريعة والدين ، وارث علوم الانبياء والمرسلين) ، ثم ، وثم ، حتى يصدر فيوصف : (بأعلم العلماء المتبحرين ، وأفضل الفضلاء المتورعين ، ينبوع الفضل واليقين)»[5] ، وتمضي المقالة هكذا وقع الحافر على الحافر إلا من بعض إضافات كقصة ذكر المفتي محمد كامل[6] تحريم الربا أمام أحد الوزراء الذي ضحك قائلاً : هذه أول مرة أسمع فيها من يقول بحرمة الربا ، أو حذف بعض المقاطع من حديث الكواكبي مما يمسّ القسطنطينية مساً مباشراً ، أو بعض القوانين التي ارتضاها الاتحاديون ، ويختم المقالة بذكر مفارقة تدين العلماء والفقهاء ، فيقول : «وإنما الأسف من إحجام الناس عن مداركة ما فات خصوصاً العلماء فما نبض لهم عرق ، ولا نفثوا بكلمة إلى العامة في نصحهم وإرشادهم بعد نشر الدستور وإطلاق الحرية للأفكار والألسن ، مع اختلاف كبير عند العامة ومنازعتهم في مجالسهم في الشورى والحرية والمساواة»[7] ولعل

---

(1) طبائع الاستبداد وأم القرى .

(2) الترقي العدد 85 في 4 ذي القعدة 1326 هـ (1908 م) «ما أوجب تأخرنا» .

(3) الأعمال الكاملة للكواكبي ، محمد عمارة ، ص 261 .

(4) الترقي العدد 85 ، مصدر سابق .

(5) الأعمال الكاملة للكواكبي ، مصدر سابق .

(6) الترقي العدد 85 مصدر سابق .

(7) الترقي العدد 164 في 15 ذي القعدة 1328 هـ (1910 م) «الغرب والشرق» .

البوصيري قصد بصنيعه هذا إذاعة ما في كتاب الكواكبي من حيث لا يدري الراصدون وسدنة الأقلام .

وعُنيت المقالة الدينية بالنظر من زاوية السياسة الدولية فحللت دوافع الغرب في تربصه بالدول الإسلامية وبيّنت دوافع دول أوروبا للقضاء على المسلمين بشتى الوسائل ، فقد «توالى عقد المؤتمرات بين الدول المسيحية وتقررت بينهم قاعدة التزموا السير بموجبها وهي الاتفاق على إضعاف قوة الاسلام باقتسام ممالكه والقضاء عليها واحدة بعد الأخرى»[1] وساقت أمثلة عدة من أبرزها تحفز روسيا وبريطانيا لاقتسام إيران (العجم آنذاك) ، ومثل هذه المقالات في الولاية هي مؤازرة وجدانية لما يكتب في عاصمة الدولة ، ورجع صدى لاستغاثة المسلمين في شتى بؤر الاضطهاد السياسي والديني ، وانسجاماً مع الدعوة للجامعة الإسلامية التي ما برح كتّابها المخلصون يحرضون على الاتحاد وبيان عزة المسلمين زمن وحدتهم وما آل إليه أمرهم حين تفرقت بهم الأهواء .

وخاضت المقالة غمار المناسبات الدينية كالأعياد وشهر رمضان ، والمولد النبوي ، واستعرضت في معظمها مظاهر الاحتفاء بهذه المناسبات واستخلصت منها العبرة والموعظة ، وقد كتب أحد الكتّاب مباهياً بتعظيم أهل طرابلس للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام في يوم مولده فقال : «امتازت الأمة الطرابلسية برفع شأن وتعظيم المولد الشريف واعتبر لديهم بأنه أكبر الأعياد فتراهم يحتفلون به احتفالات فائقة شائقة لم يكن لها مثيل على وجه البسيطة»[2] وإذا تجاوزنا عن المبالغة الممجوجة أمكننا أن ندرك ما يوليه أهل هذه الولاية لذكرى المولد النبوي من اهتمام جعل الاحتفاء به يستمر طيلة شهر ربيع الأول تتلى فيه القصائد الموقعة والأناشيد المفعمة بالعاطفة الدينية الدافقة .

ومن جانب آخر فقد سَنّت الدولة قانوناً بالأعياد الرسمية واستثني المولد النبوي منها ، في حين أن مولد السلطان كان من هذه الأعياد ، فكتب أحد الكتاب مقالة عرّض فيها بالخليفة من طرف خفي قائلاً : « . . . ولم يُلتفت لعيد المولد النبوي الذي هو أشرف الأعياد وأعظمها ومع ذلك فاتخاذه عيداً رسمياً من الواجب المتحتم ضرورياً ، إذ لا يخفى فضل أشرف الأنبياء ﷺ ، كيف لا وهو أفضل الخلق على الإطلاق»[3] .

ولشهر رمضان استقبال خاص ينتهز الكتاب قدومه لكتابة مقالات وعظية يقاسمون

---

(1) انظر : الترقي العدد 111 في 9 شوال 1327 هـ (1909 م) «وجب الانتباه» .

(2) الكشّاف العدد 15 في 16 ربيع الأنور 1327 هـ (1909 م) «عيد المولد النبوي» .

(3) المصدر السابق .

بها أئمة المساجد والوعاظ مواطن الإرشاد والدعوة إلى الله ، ومنهم من يجدها سانحة لنقد السلطات في تقصيرها تجاه المساجد وصيانتها ورعايتها ، ومنهم من ذهب إلى أبعد من ذلك فانتقد الوعاظ والعلماء في «تأنيق العبارة وتردادها وتفسيرها بتكرار لفظها»[1] وطالبهم بأن «يفهموا الحاضرين باللغة الدارجة . . ويعلموهم ما هم أحوج إليه كالصوم والصلاة فإنا لا نرى معنى لالقاء التفسير والحديث على من لا يعلم كيف يصوم» .[2]

وثمة نوع آخر من المقالة الدينية استهوته فلسفة المتأملين ، واختراق حجب المادة إلى صفاء الروح ، فكتب بعض الكتّاب مقالات أروت غلتهم في هذا الاتجاه ، وهي وإن كانت قليلة إلا أنها دليل على نوع من أنواع التفكير له قراؤه كما أن له كتابه ، ومن أمثلته مقالة تحاور الروح فيها الجسد قائلة : «أيّها الهيكل المحكم البناء مالك قد وقفت هذا الجسم لأن يأوي جوهراً لطيفاً روحانياً معنوياً مثلي ، ما أشقاك وأتعس حظك وأقل نصيبك من الحياة الدنيا ﴿ولعذاب الآخرة أشد﴾[3]» .[4]

ويصوّر الكاتب مسعى البشر طيلة يوم كامل ينتهي بنوم طويل كلّه غفلة في غياهب المادية المظلمة ، لينتقل الجسد بعد ذلك إلى عالم من الكوميديا الإلهية يعرض فيه الكاتب مشاهد من القيامة ، كأن تقول النفس للجسد ــ حين يسأل عن ذنوبه فيتهرب من جريرة عمله بإلقاء اللوم على النفس ــ : «ولك على ذلك حجة تدليها لا تقبل قدحاً ولا خدشاً على زعمك في إسناد مساويك إلى النفس وهي قوله تعالى : ﴿إن النفس لأمارة بالسوء[5]﴾ . . ألم يكن لكل عضو من أعضائك وظيفة ، حياتك متوقفة عليها ، أم تعتقد أنها خلقت سبهللاً ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾[6] ، فالنفس قسماً[7] من تلك الأقسام وجزء من تلك الأجزاء ، فكيف تجعلها هي الركن العظيم والسبب الوحيد في مقترفاتك والله يقول : ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[8][9] .

---

(1) الترقي العدد 203 في 7 رمضان 1329 هـ (1911 م) «رمضان المبارك» .

(2) المصدر السابق .

(3) سورة طه الآية 127 .

(4) العصر الجديد العدد 7 في 5 ربيع الثاني 1327 هـ (1909 م) «خطرات ـ 2 حديث النفس» .

(5) سورة يوسف الآية 53 .

(6) سورة النحل الآية 78 .

(7) كذا ، والصواب : قسم ، بالرفع .

(8) سورة طه الآية 50 .

(9) العصر الجديد العدد 7 مصدر سابق .

ويخلص الكاتب من هذه المشاهد إلى ضرورة الالتزام بالعبادات المفروضة والقربات المطلوبة من صلاة وصيام وزكاة وحج إرضاء للخالق ، وتجسيداً لمعنى الخلق .

وبعد ، فقيما أسلفت ما يشهد بأن المقالة الدينية لم تكن هامشية بالمعنى الكامل في الفترة العثمانية ، وبأنها قامت ـ نسبياً ـ بدور فاعل في إرساء قواعد الدين الإسلامي وردّ شبه المغرضين من أعدائه ، وتوجيه الغافلين من أبنائه الوجهة الصحيحة ، تكاتفاً مع أنواع المقالة الأخرى لبناء ثقافة أصيلة أثبتت الأيام فاعليتها في الوقوف سداً مانعاً لتيارات الهدم ، ومعاول التقويض .

المقالة التاريخية

1 - الفترة الأولى :

ـ بدايات المقالة التاريخية

2 - الفترة الثانية :

ـ في تاريخ طرابلس الغرب

3 - الفترة الثالثة :

أ ـ طرابلس عبر التاريخ
ب ـ المقالة التاريخية والتعبئة السياسية

المقالة التاريخية

ليس بوسعنا أن نتحدث عن المقالة التاريخية في ضوء مفهوم معاصر لمعنى التاريخ ، فالذي بين أيدينا لا يرقى إلى مستوى الفلسفة النقدية أو التأملية للتاريخ ، ومن ثم فإن كتّاب هذه المقالات مستثنون من المطالبة بالتفسير التاريخي وموضوعية المؤرخ ، ولا مجال لمحاولات اكتشاف القوانين العاملة في تاريخ المجتمعات فيما كتبوا إذ لا أظن أن أحداً منهم قد شغلته قضية القانون الكلي العام التي تفسر على ضوئها أحداث التاريخ من أن التاريخ يعيد نفسه ، أو أنه آمن بالنسبية التاريخية وصعوبة تماثل الحدث . . إلى غير هذه المذاهب التي يفسر التاريخ الحديث وفقاً لمعطياتها .

وإذا كان هناك من المؤرخين[1] من يرى أن التاريخ قد انتهى به المطاف إلى حالة من الاستقرار أساسها سيطرة الغرب «وقد بدا عندئذ كأن التاريخ تكوّن من أحداث سابقة معينة هي التي انتهت بسيطرة الغرب الحالية ، وأما غيرها من الأحداث السالفة فلم تعد من صلب التاريخ ومن ثم فمن الممكن تجاهلها»[2] فإن كتّاب المقالة في ولاية طرابلس الغرب العثمانية لم يكن بوسعهم تجاهل تاريخ ولايتهم فطفقوا يكتبون تاريخها في إطار إفريقي صرف ولم يشغلهم العالم الآخر إلا بالقدر الذي يشاكل فيه ولايتهم .

وفي الفترة الأولى من هذه الدراسة يعوقنا ضياع معظم أعداد المطبوعة الوحيدة عن إصدار حكم واثق ، لكن ما بين أيدينا من نزر يسير يدل على بساطة في المبنى والمعنى ،

---

(1) أرنولد توينبي .

(2) آرنولد توينبي : تاريخ البشرية ترجمة نقولا زيادة ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت 1981 م جـ1 ص 10 .

شأنها شأن غيرها من أنواع المقالة الأخرى ولا غضاضة من الاستشهاد بمقطع من إحدى المقالات لنتبينّ مستوى هذه البداية الوليدة : «إن قطعة الأفريقا فعلى ما هو مبين أعلاه مجهولة عند الأمم القديمة ما عدى[1] سواحلها الشمالية ، وقد كان بمعرفة العرب مؤخراً الكشف إلى أطراف كثيرة من أواسط جهاتها الشمالية والشرقية وإن كان من طرف الأورباويون صرف الجهد والإقدام في الكشف والتحري على أطرافها الباقية فإن قلة ماء وشدة حر الجزيرة المذكورة وحيواناتها الوحشية مع وحشية أهاليها كانت في الدرجة المانعة لتحريرهم وبقي الكثير من محلاتها مجهولاً إلى الآن»[2] ومن خلال هذا الأنموذج يمكن أن نتصور طبيعة المعلومات التاريخية التي تعتمد في معظمها على الرواية والسماع أكثر من التأصيل عن المصادر العلمية في مظانها .

وفي الفترة الثانية يسطّر يراع الشيخ عبد الرحمن البوصيري سلسلة من المقالات كلها حول تاريخ طرابلس الغرب خصص الأولى منها لعلم التاريخ وبيان فوائده ودوره في ارتياد أسباب الرقي والتمدن حيث يقول : «فينبغي للعاقل أن لا يهجر هذا الفن ، بل يسبق إليه فإنه يجده أحلى من المن خصوصاً أحوال بلده ومسقط رأسه، ومحل وجوده الذي ربي به من يومه وأمسه ، وقد نبهت بهذا الإجمال على جزء من تواريخ بلدتنا ، ليسكن إليه المحتاج للوقوف عليه من أبناء جلدتنا»[3] ، ويحدد موقعها الجغرافي تحديداً عصرياً بحسب خطوط الطول والعرض ، وتحديداً فلكياً في الإقليم الرابع الذي برجه الجوزاء ، ومن السيارات عطارد ، ولا يجزم برأي قاطع في بداية بنائها فيورد بعض ما قيل في ذلك دون أن يرجح منها شيئاً ، غير أنه عند حديثه عن السكان يجزم بأنهم كنعانيون[4] في أصولهم الأولى خاصة قبائل زناتة ونفّوسة ومغلية وهوارة وغيرهم ، كما أن منهم من تحدر من أصول عربية حديثة كالهلاليين من بني زغبة وبني عدي وبني رباح ، ويسهب في تفصيل فتح المسلمين لطرابلس من بداية خروج ابن العاص[5] إلى برقة وعزله على إثر خلافه مع عبد الله بن أبي

---

(1) كذا ، والصواب : عدا .

(2) طرابلس الغرب العدد 257 في 11 جمادي الأولى 1291 هـ / 1874 م «تاريخ طرابلس الغرب» .

(3) الترقي العدد 16 في 13 جمادي الأولى 1315 هـ / 1897 م «إجمال تاريخ مدينة طرابلس الغرب» .

(4) تذكر المصادر التاريخية أن البربر عرب كنعانيون نزحوا من فلسطين عقب انتصار طالوت على جالوت متأثرة بالرواية التوراتية ، ومنها من يرجع استيطانهم شمال أفريقيا إلى فترة قبل ذلك ، انظر : مروج الذهب للمسعودي جـ 2 ص 123 .

(5) هو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ، ولد سنة 3 هـ ، صحابي ، ساهم في الفتوحات الاسلامية والصراعات السياسية ، خطيب مفوه ، روى عنه العديد من المحدثين توفي سنة 70 هـ ، انظر : فوات الوفيات للكتبي جـ 3 ص 161 ، والأعلام للزركلي ط 7 جـ 5 ص 78 .

السرح[1] كما هو معروف في كتب التاريخ الإسلامي .

ومما يميز هذه المقالات التعريف ببعض الأعلام في حدود احتياج المقالة في إطارها العام ، كأن يذكر من رفقاء ابن أبي السرح عقبة بن نافع[2] فيعرفنا بأنه الذي اختط مدينة القيروان فيما بعد هذه الحملة أو يذكر منيذراً الأسلمي فيفيد بأنه بركة مقبرة طرابلس ، وأنه لم يرو إلا حديثاً واحداً عن النبي ﷺ ويورد هذا الحديث[3] ، فهو بهذا يراعي المستوى الثقافي العام ويدفع بعض الشكوك فيما إذا كان منيذر هذا ـ مثلاً ـ هو الصحابي أو غيره ، وفي هذا نوع من القيام بجزء من التحليل التاريخي الذي يخرج التأريخ من دائرة السرد المباشر ولو بصورة نسبية .[4]

وقد تختلط الموضوعية التاريخية عند البوصيري بالأساطير فلا يكلّف نفسه تمحيص الرواية أو يعفي نفسه من مغبتها بذكر مصدرها ولكنه يوردها على علاتها ومن هذا القبيل قوله : « . . فسار (عقبة) نحو الغرب حتى وصل موضع القيروان وكان دجلة[5] مشتبكة بالأشجار مأوى الحيوانات من السباع والحيات وغير ذلك فوقف الأمير عقبة عليها فنادى بأعلى صوته ـ وكان جهورياً مجاباً ـ : أيتها الحيوانات إنا أصحاب رسول الله (ﷺ) إنا نازلون فمن وجدناه بعد ثلاث قتلناه فنظر الناس فإذا الدواب تحمل بعضها وأولادها

---

(1) عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري ، من كتّاب الوحي ، ارتد قبل الفتح ، وحسن إسلامه ، بعد أن استجار بعثمان بن عفان أخيه من الرضاعة ، ولي مصر في عهد عثمان ، حارب في الشمال الأفريقي ، وهو بطل معركة ذات الصواري ، اعتزل الحرب بين علي ومعاوية ومات بعسقلان سنة 37 هـ ، انظر : البيان المغرب في أخبار المغرب ، للمراكشي ، مكتبة صادر ، بيروت 1950 م جـ 1 ص 4 ، والأعلام طـ 7 جـ 4 ص 88 .

(2) عقبة بن نافع بن عبد القيس الأموي ، ولد سنة 1 ق . هـ ، من كبار قادة الفتح الإسلامي ، مؤسس مدينة القيروان ، ولي افريقية مرتين ، وبها قتل سنة 62 هـ ، انظر : الأعلام للزركلي طـ 7 جـ 4 ص 241 .

(3) «من قال رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، فأنا الزعيم لآخذن بيده فلأدخلنه الجنة» انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ، تحقيق علي محمد البجاوي ، نهضة مصر القاهرة جـ 4 ص 1485 .

(4) انظر في هذا : أدب التاريخ عند العرب ، عفت محمد الشرقاوي ، دار العودة ، بيروت ص 43 وما بعدها .

(5) جاء في اللسان : دجل الشيء غطاه ، فالمقصود غابة تغطي الأرض ، مجلد 1 ص 948 .

وفروخها وبيضها وهكذا انتقلت بمرءى من الناس فتامن[1] كثير من قبائل البربر إيماناً حقيقياً..»[2].

ويمضي باقي السلسلة[3] من هذه المقالات في وصف الحروب والغزوات التي تعرضت لها طرابلس وما دار من أحداث دامية عبر تاريخها القلق وتقلبها تحت رايات الدول المتعاقبة فكأنها مقالات خصصت لسرد حروب طرابلس خاصة فلم تجد شيئاً من التأريخ للحركة العلمية أو الاقتصادية أو الاجتماعية إلا بعض إلماعات لا تروي غلة ولا ترد فلّة .

وفي الفترة الأخيرة استولى تاريخ طرابلس على المساحة الكبرى من حيز المقالة التاريخية وحظيت الأندلس وكريت ببعض المقالات كما استدعى السرد التاريخي الحديث عن الحضارات السابقة كالحضارة الأغريقية والبونيقية والرومانية وعن غارات الوندال والمسيحيين من شتى ممالك أوروبا وقراصنتها .

وقد خطت المقالة في هذه الفترة خطوات ثابتة بالرغم من أنها من حيث الكم لم ترق إلى مستوى السياسية أو العلمية ، ولم تعرض للكثير من مراحل التاريخ القديم أو المعاصر أو دراسة شخصيات كان لها دور بارز في التاريخ المحلي أو الإسلامي ، الأمر الذي ترك فجوات واسعة في البناء الثقافي كان من الجدير أن يهتم المثقفون والكتاب بسدها .

والذي يتراءى لي أن كتابة المقالة التاريخية أمر بالغ الدقة ، فإلى جانب المحاذير السياسية هناك درجة من الاستعداد الفكري والثقافي لا بد أن يصل إليها الكاتب قبل إقدامه على خوض غمار مثل هذه التجربة ، فآثر كتّاب تلك الفترة ترك التاريخ للكتب فكان أبرز ميدان ألّف فيه الليبيون في تلك الآونة كتباً تعدّ مرجعاً في تاريخ ليبيا الحديث .[4]

ومن المقالات النموذجية التي يمكن أن تمثل المقالة التاريخية بمجمل خصائصها في تلك الفترة مقالة أخذت عن محاضرة في أحد معاهد التعليم عن تاريخ طرابلس الغرب درست الموقع الجغرافي للمدينة وأهميته الاستراتيجية من حيث اتصالها بالصحراء عن طريق يعتبر من آمن الطرق وأكثرها واحات وأقلها تعرجاً ، ويبيّن الكاتب ميزة هذا الطريق عما سواه من الطرق فيقول : «وأما غيرها من الطرق بخلاف ذلك فالشرقية منها وهو خط (دارفور)

---

(1) الصواب : بمرأى من الناس فآمن .

(2) الترقي العدد 20 في 11 جمادي الآخرة 1315 هـ /1897 م (إجمال تاريخ مدينة طرابلس الغرب) .

(3) الترقي 22 وما بعدها .

(4) منها : التذكار لابن غلبون ، والمنهل العذب لأحمد النائب الأنصاري .

و (أوجنكة) فهي على ما فيها من التعريجات الموجبة للأتعاب والبعد هي غير محفوظة ، وسالكها غير أمين[1] من تعدي القبائل الضارية فيها ، والطريق الغربية التي هي طريق قابس (لمين صالح) أي (توات) فهي خالية ومسرح للقبائل المتوحشة والمتلثمين الذين لا يخلو الحذر منهم مع عدم المياه ، وبهذه المقايسة يظهر الفرق ويتضح فضل الطريق الطرابلسية عن غيرها» .[2]

ويستعرض الكاتب بعد ذلك تأسيس المدينة من لدن الفنيقيين ويفسر سر تسمية (أويات) و (صبراتا) بأن الأولى رمز لذكرى الإله (ملكارت) والثانية تعني مخزن القمح عند الفينقيين ، ثم يشرح معنى طرابلس وكيف تحرف عن المدن الثلاث ، وأيات وصبراتا ولبلدة (ترى بولى) ، ويتحدّث عن هذه المدينة تحت حكم القرطاجنيين والرومان خاصة في عهد الأمبراطور (سبتيموس سيفيروس) وما هي عليه من الخصب والثراء .

ومثل هذا الكاتب يحاول أن يفسر أحداث التاريخ ما وسعه إلى ذلك سبيلاً فحديثه عن خصب ليبيا في العصور الغابرة وما هي عليه من الجفاف زمن كتابة المقالة أمر يحتاج إلى تفسير ، غير أنه لسبب من الأسباب أسقط عامل تغير المناخ من حسابه ، وطفق يبحث عن أسباب أخرى قائلاً : «فيظهر من هذا أن هذه القطعة كانت من أخصب ما يكون حتى كان المؤرخان الشهيران «هيريدوت» و «ابن خلدون» يصفان هذه القطعة بكثرة الخصب وأن هيريدوت ذكر[3] . . التي هي الآن أراض قاحلة ومن نظرها اليوم لا يصدق أنها كانت غابات ، والسبب في اندراس هذه القطعة وخرابها الدنداليون[4] الذين دخلوا إليها»[5] ، ثم يتحدث عن أطوار من الدعة والاضطراب مرت بها مدينة طرابلس ، ويستعرض بإيجاز ما مر عليها من حكّام الدول المتعاقبة بعد الإسلام ليعود إلى نقطة تفسير الجفاف وينسبه في هذه المرة إلى الكاهنة[6] فيقول : «ثم ظهرت الملكة المستبدة الكاهنة المشهورة فهلكت الحرث والنسل وبهذه الأسباب اندثرت الغابات وغارات[7] المياه من هذه المقاطعة» ، ومما

---

(1) المراد : غير آمن .

(2) الترقي العدد 76 في 16 شعبان 1326 هـ / 1908 م «نظرة في تاريخ طرابلس» .

(3) فراغ في الأصل وبقايا حروف غير واضحة ، لأن المقالة مطبوعة على الحجر بالمطبعة العسكرية بطرابلس ، ولعل المقصود اسم مكان كان يشتهر بالخصوبة والنماء .

(4) المقصود : الوندالبون .

(5) الترقي العدد 77 في 23 شعبان 1326 هـ/ 1908 م «نظرة في تاريخ طرابلس الغرب» .

(6) الكاهنة هي التي قاتلت حسان بن النعمان صاحب إفريقية وهزمته بوادي سكتانة وقطعت الأشجار ليرحل العرب عن إفريقية ، وقد قتلها حسان بعد ذلك سنة 82 هـ انظر : البيان المغرب ص 28 .

(7) لعل المراد : وغارت المياه ، من الغور ، وهو ذهاب الماء إلى باطن الأرض .

يلفت النظر أن الكاتب الذي حاول تفسير مثل هذه الظاهرة لم يشغل ذهنه بتمحيص أسطورة كانت سائدة في الأوساط الثقافية في طرابلس ، بل تابع الرواة الشعبيين فيما ينقلون في قصصهم الشعبي من سبب غزو الأسبان لطرابلس زمن الحفصيين[1] وهو ما بلغه الطرابلسيون من ثراء وسعة في الرزق أركنهم إلى الرفاه والدعة «حتى قيل إن أحد التجار استضاف بعض الأسبانيين وقد حضر البطيخ الأخضر أي (الدلاع) فلم توجد آلة صالحة لقطعة وذلك من قوة الأمن وعمومه وكان هذا التاجر يسحق بعض الدرر فوق الطعام عوضاً عن البهارت» ولعله قد ساوره بعض الشك في هذه الرواية إلا أنه لم يعلق عليها بما يبين رأيه فيها بل اكتفى بالتأمين على أن سبب غزو الأسبان لطرابلس كان كثرة المال ورفاهة السكان[2] ، لكنه يشيد بعد ذلك بسكان طرابلس ويصفهم بأنهم أهل بسالة وتدبير وأن تاريخ القراصنة حاز شهرة جعلت كل دول شاطىء البحر الأبيض المتوسط تدفع جزية سنوية مفروضة ويستشهد بأسر أسطول السويد وتوسط نابليون[3] لفك أسره ، وهذه من الحقائق التي لا تماري ، غير أن الكاتب قد انزلق في معرض الحمية إلى القول بأن نابليون لم يجرؤ على الذهاب إلى الشرق حتى أمّن نفسه من طرابلس بمعاهدة عقدها معها، واستقراء التاريخ ينبئنا بأن نابليون قد أرسل رسالة إلى قنصل فرنسا في طرابلس يطلب إليه إبلاغ يوسف باشا القرمانلي باحتلال فرنسا لمالطا مذيلة بما يلي : «قل للباشا إن قواتنا التي استولت على جزيرة مالطة في أقل من أربعة أيام لقادرة على معاقبته إن هو قصّر في احترام الجمهورية الفرنسية»[4] وقد حدث هذا الاحتلال تمهيداً لغزو مصر ، ولعلّ الكاتب التبس عليه الأمر إذ أنّ معاهدة عقدت مع نابليون عن طريق مبعوثه الخاص سنة 1801[5] تخوّل للفرنسيين التنقل بين طرابلس ومصر بحرية تامة[6] ، لكنها كانت بعد غزو مصر وليس قبله .

---

(1) هذه الغزوة التي شنها الكونت بيترو دي نافارا (Pietro Di Navarra) سنة 1510 م وارتكب فيها مجازر يندى لها الجبين .

(2) ذكر محمد عبد الكريم الوافي في تعليقه عن قصة البطيخ والبهارات أن شارل فيرو لم يذكر مصدر هذه القصة وأرجعها هو إلى كتاب المنهل العذب للنائب ، والذي أراه أنها من الأساطير الشائعة آنذاك ، بدليل ورودها في كتاب التذكار لابن غلبون والمنهل العذب ، وسكوت المؤلف عن ذكر مصدرها دليل أيضاً على شيوعها ، وكذلك ورودها في هذه المقالة ، انظر : الحوليات الليبية ص 63 وما بعدها .

(3) ذكر ذلك أيضاً أحمد النائب في المنهل العذب ص 313 ، ثم تم اتفاق بعد ذلك سنة 1802 م عن طريق مندوب نابليون الجنرال هوراس سيباستياني على معاهدة صلح بين الباشا يوسف القرمانلي وأميرال القوات السويدية في البحر الأبيض البارون دي سيد يستروم، انظر: الحوليات الليبية ص531 .

(4) الحوليات الليبية ص 520 .

(5) اكزافيه ناودي .

(6) الحوليات الليبية ص 530 .

وخلف هذا النموذج المشرق تقبع مقالات أخرى ظلت تدور في إطار وصف المدن القديمة الأثرية وخزن الرخام وشكل التماثيل وزمن الخصب وسعة الأراضي المعطاءة سادرة في ربقة السرد المجرد ، ويربطها جميعها خيط من الشعور بالمرارة من تعاقب الدول المتحاربة عليها كما تقول إحدى هذه المقالات : «ولا غرابة أيضاً إن هي فقدت رونقها واندثرت قصورها ومبانيها وخوت على عروشها أجنتها[1] ، لأن تاريخها قد أوضح لنا عمّا قاسته مدة قرون من هجوم المتغلبين وبقيت إلى ما شاء الله وهي مرسحاً[2] للفر والكر»[3] ، وهذا الشعور المرير الذي اتسمت به المقالة التاريخية لعل من أهم بواعثه استشعار الخطر الإيطالي واستحضار صور الغزو القديمة ومآسيها الدامية ، وهذا ما دفع بعض الكتاب إلى التذكير بمأساة الأندلس ويمكن استشفاف هذا التوجس من خلال عنوان إحدى تلك المقالات «صحيفة من التاريخ» ثم يردفه بآخر «أو الماضي مرآة الآتي» ليفرغ تحت هذا العنوان التحذيري ما يستشعره ويخشاه ، فيخص جزءاً من التمهيد باستعراض حال المسلمين زمن القوة والمنعة موجها الأنظار صوب مصدر الخطر فيقول : «وبهذه الخلال تملك بعض المسلمين قطر الأندلس وأرهبوا أمم الغرب فانزوت في جزر قارة أوروبا واعتصمت بجبالها وانكمشت في أدغالها»[4] مذكراً بأن الأندلس نكبت من حيث لم تقدر خطر أعدائها ، ولكي تكون الصورة أوضح لدى قرائه عمد إلى إيراد مقاطع من «نفح الطيب» فيها ما يقطع الأكباد من ذكر فظائع الأسبان وتنكيلهم بعرب الأندلس وما ذلك إلا ليضع «نصب أعين القراء شذرات من وقائع أهل الأندلس مع الأسبانيين عبرة لمن أراد أن يعتبر وتذكرة للغافلين» .[5]

وفي هذا نوع من التوظيف لأحداث التاريخ تنشد المقالة التاريخية من خلاله إيقاظ الهمم والتنبيه إلى الأحداث القادمة ، كذلك فقد وظّف كتاب هذه المقالة التراث التاريخي للتعبئة السياسية وبناء جبهة داخلية متينة تشد أزر الدولة ولا سيما في معالجة قضايا الصراع مع الدول الأوروبية المتحفزة للوثوب عليها ، ومن أمثلة ذلك مقالة تسرد تاريخ جزيرة كريت عبر العصور حتى وصل حكمها إلى العثمانيين وما لاقى المسلمون فيها من تعب واضطهاد على يد المسيحيين الذين تناصرهم الدول الأوروبية ــ وهذه عقدة المقالة ــ ومن

---

(1) المراد : جناتها جمع جنة ، وليس جمع جنين .

(2) كذا والصواب مسرح .

(3) الترقي العدد 103 في 26 ربيع الأنور 1327 هـ/1909م «طرابلس الغرب» .

(4) الترقي العدد 176 في 17 صفر 1329 هـ/1911 م «صحيفة من التاريخ أو الماضي مرآة الآتي» .

(5) الترقي العدد 176 مصدر سابق .

ثم يبرزها الكاتب واضحة جلية فيقول : «ومما يسوء كل عثماني أن وقعة نافرينو[1] التي تجسمت فيها خيانة وغدر بعض الدول الأوروبية حيث رمت الأسطول العثماني على حين غرة بدون إشهار الحرب حصلت بسبب الكريديين[2]» ولعل مثل هذه المقالة هو ما أوحى إلى بعض الباحثين القول بأن «أغلب المقالات التاريخية هي وسيلة لغاية ليس الغرض منها دراسة تلك العصور ، أو إبراز مظاهر التقدم والتأخر ، بل ذكر شمائل الخلافة ومآثرها»[3] وهذا إن صدق على جزء يسير منها لا يصدق على الأعم الأغلب ، إذ لا يخفى أن لا فائدة تعود على العثمانيين من تتبع تاريخ طرابلس الغرب في ظل البونيتيين أو القرطاجنيين أو الرومان ، وهي المقالات التي أثبت الإحصاء الدقيق أنها الجل الغالب .

ومما ذكرت آنفاً نعي جهد كتّاب المقالة التاريخية في دفع عجلة الوعي الثقافي والسياسي في ولاية طرابلس الغرب حسب ما استطاعوا ، فغطوا جوانب ، وأفلتت منهم أخرى ، ولكنّه كان جهداً مرضياً فيه بعض الغناء إن لم يكن الغناء كله .

(1) مدينة على الأرخبيل اليوناني اشتهرت بتدمير الأسطول العثماني ــ المصري ــ على يد روسيا وبريطانيا وفرنسا دون إعلان للحرب كما هو العرف الدولي ، حدث هذا سنة 1827 م ، انظر : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، محمد فريد ، دار الجيل ــ بيروت 1977 م ص 27 .

(2) الرقيب العدد 16 في 9 رجب 1329 هـ/ 1911 م «صفحة من التاريخ ، كريت والأدوار التاريخية حولها» .

(3) سالم بشير المرادي : فن المقالة في الصحافة الليبية ، رسالة ماجستير ص 267 .

المقالة الاجتماعية

1 ـ الفترة الأولى :

ـ التعليم وتطوير المدارس الابتدائية

ـ الضرائب وأثرها على المجتمع

ـ العادات الاجتماعية السيئة

2 ـ الفترة الثانية :

ـ التعليم

ـ التعبئة الوطنية

ـ الاجتماع السياسي

3 ـ الفترة الثالثة :

ـ التعليم

ـ السلوك العام

ـ العادات السيئة

ـ الجدل والتجريح

ـ الاجتماع السياسي

ـ نقد المأمورين

ـ الضرائب

ـ المجاعة

المقالة الاجتماعية

بالرغم من سعة الأفق الاجتماعي ، ورحابة ميدانه ، فإن المقالة الاجتماعية بدت في فترتيها الأولى والثانية ومضات شاردة لا تنير طريقاً ، ولا تهدي إلى مأمن ، وقد يعدّ هذا الحكم من التعجل إذا وضع في الاعتبار ضياع معظم الصحف في هاتين الفترتين، غير أن ماوصلنا ينبيء عن قلة اكتراث بالموضوعات الاجتماعية لا تخطئه عين البصير .

والخط البياني لسير المقالة باختلاف موضوعاتها ينبئنا بأن الاهتمام الأكبر قد وجه إلى الفروع ذات الصبغة المادية كالطب والزراعة والاقتصاد . . ولم تلق الفروع الانسانية ما يبرز أثرها إلا في الطور الثالث بعد إعادة الدستور العثماني .[1]

ومن خلال استعراض أفقي للفترة الأولى ، وبالنظر إلى ما وصلنا من أعداد طرابلس الغرب نجد أن مشاركة المقالة الاجتماعية اقتصرت على بحث تطوير التعليم ومناقشة بعض العادات الاجتماعية ونقدها ، ونقد لنظام جباية الضرائب في الولاية وأثره على المجتمع .

لقد شهد عهد السلطان عبد الحميد محاولات جادة للنهوض بالدولة لكن الولايات البعيدة ـ ومنها طرابلس الغرب ـ ما كان لها أن تطمع في إصلاح يكلف الدولة أموالاً لم يعجز السلطان عن إيجاد مصارف لها في الأناضول أو في ولاياته الأكثر أهمية ، ويبدو أن هذه كانت حقيقة مسلّمة لا ينازع فيها منازع ، ويمكن أن ندرك ذلك من خلال عرضنا لمقالة أدرك كاتبها تدني مستوى التعليم الابتدائي في الولاية وعقم أساليبه ، فطالب

(1) انظر اللوحة رقم 4 .

بتحديث المدارس وتزويدها بالمناهج التي أثبتت نجاحها في الآستانة يقول صاحب مقالة (مكاتبنا الابتدائية) : «من الواجب واللازم أن يقع التثبت والابتدار من كل الأطراف في تدارك الوسائط والوسائل اللازمة المفيدة لأمر توفق مادة التعليم والتدريس في تلك المكاتب على الأصول الجديدة التي ثبتت محاسنها لدى التجربة كما هو جار في دار السعادة»[1] .

ويبدو أن هذا الإصلاح قد تجاوز دار السعادة إلى ولايات أخرى حظها أوفر من حظ هذه الولاية وأصبح الفارق بين أسلوب التعليم فيها ، وفي غيرها ، ملموساً حتى أن الكاتب لا يتحرّج في ذكر تفوق المدارس في تلك الولاية عندما يقول : «لأنه لو أريد المقايسة بين الطلبة التي تربيها المكاتب الابتدائية التي أسست وفتحت على الأصول الجديدة في هذه السنين في أكثر الولايات الشاهانية والأطفال التي تدرس في المكاتب الصبيانية الكائنة في ولايتنا لظهرت درجة ترقي تلك المكاتب[2] والكاتب لم يشأ أن يصور درجة تخلّف التعليم في الولاية أو أسبابه لأن مثل هذه الإيضاحات تجره إلى ما لا تحمد عقباه ، ولكنه تحدث عن الكيفية التي طورت بها الولايات الأخرى نظام التعليم ، وهي كيفية يعرفها أهل الولاية دون ريب ، ففي تقديري أن أحداً لم يفاجأ بنصح الكاتب لأهل الولاية باحتذاء المصلحين في الولايات الأخرى حينما «بادر أهل الثروة في كل طرف لفتح جمعيات إعانة بينهم وجمعوا نقوداً كثيرة وبنوا وأنشئوا[3] مكاتب جديدة . . واستخدموا من طرفهم معلمين مستعدين وجلبوا من دار السعادة كتب[4] ورسائل مفيدة نافعة»[5] فماذا بقي بعدئذ للدولة ؟ ومع ذلك فالمقالة تفيض بالشكر والثناء على الحكومة والوالي لمجرد إظهاره نية تطوير المدارس في الولاية فإن «هذه النية الجليلة الخيريـة لمن موجبات الشكر والحمد . . ويجب على أهل الحمية والغيرة من أهالي ولايتنا أن يجروا المعاونة المقتضية هم أيضاً في هذا الباب نظراً إلى هذه الأفكار والنيات الجليلة التي تظهرها الحكومة السنية في سياق ترقي العلوم والمعارف»[6] ، ويعود تاريخ هذه المقالة إلى مطلع سنة 1883 م ، وهذا يعني أن التعليم الابتدائي ظل حتى هذه الفترة يعمه في ظلمات الجهل والقصور ، ولم تحرّك الدولة ساكناً إلا بالقدر الذي تسمح به النيات الجليلة ، في حين أن مطرقة الضرائب تهوى على

---

(1) طرابلس الغرب ، العدد 463 في 25 ربيع الأول 1299 هـ/1883 م «مكاتبنا الابتدائية» .

(2) المصدر السابق .

(3) كذا والصواب : أنشأوا .

(4) كذا والصواب : كتباً بالنصب .

(5) طرابلس الغرب العدد 463 ، مصدر سابق .

(6) طرابلس الغرب العدد 463 ، مصدر سابق .

كل شيء في الولاية، حتى عقارات الأوقاف عليها أن تدفع ضريبة[1] تصاعدية لخزينة الدولة ، ولو كانت وقفاً على المساجد والمدارس ومكاتب تعليم القرآن .

وللمقالة الاجتماعية مع الضرائب شأن في هذه الفترة ، فقد فرضت الولاية تخريص الزرع قبل[2] بدو صلاحه فأحدث هذا الفرض إنهيار الزراعة وهي المورد الأساسي للولاية ، وبعد أن استفحل الأمر عُدّل نظام الجباية إلى نظام العشر أسوة بولايات الأناضول والروم إيلي[3] ، مع تعديل مناسب لولاية طرابلس .

وثمة مقالة يستفيض فيها الحديث عن الأعشار وأساليب المخرصين والجباة وانعكاس ذلك على المجتمع وخاصة صغار الزراع ، نقف عندها وقفة نتبين من خلالها المستوى الاجتماعي لأهل الولاية ، وأول ما نستنتجه أن مجتمع الزراع مجتمع طبقي ، به طبقة تمثل الصفوة ، وطبقة تمثل السوقة ، ويبدو أن هذا التقسيم معترف به علانية فالكاتب لا يتحرج في ذكره عند الحديث عن مساوىء الخرّاص فيقول : «فإن معتبري الأهالي لا بد أنهم يطمعون ذلك المأمور بتخريص القضاء المغويين[4] له ويكرمونه فيأتي في خاطر ذلك المأمور أن غض البصر على ذلك من الأمر الطبيعي ولا شك أنه يكون في حركة ترضي الذين أكرموه رعاية لما فعلوه معه من الإكرام ، وأما أفراد الأهالي فعلى درجة وقدر إنصاف المأمور»[5] ، وعلاوة على ما سبق فإن الكاتب يكشف فساد ذمم المأمورين وارتشاءهم وتعسفهم في إرهاق الطبقة الدنيا حتى أن الزرّاع قد لا ينال من كله إلا نصف غلته أو دون النصف بكثير ، وما ذلك إلا ليعوض الجباة خزينة الدولة فيما تغاضوا عنه لمعتبري الولاية من جهة ، ولأن نصيبهم عشر العشر مما يجمعون من ناحية أخرى ، ومن ثم فقد لجأ الزرّاع إلى الشكوى من قاعدة التخريص فلما لم يجدوا أذناً صاغية عمدوا إلى الزراعة عاماً وتركها عاماً اكتفاء بغلة سابقة كي لا يزورهم الخُراص كل سنة ، وهذا بالطبع ما دعا الحكومة في الولاية إلى تعديل قاعدة التخريص حينما قلّت إيرادات الخزينة ، وليس الحرص على المستوى الاجتماعي للسكان .

---

(1) تنص المادة 43 من (النظامنامة) على أن تدفع العقارات الموقوفة اثنين ونصف في المئة إلى عشرين ألفاً ، فإذا تجاوز المبلغ ذلك فالضريبة مئة بارة عن كل كيسة ، انظر : طرابلس الغرب العدد 463 .

(2) عند المالكية لا يجوز التخريص إلا في التمر والعنب فقط ، انظر : بلغة السالك للصاوي على الشرح الصغير للدردير جـ1 ص 216 .

(3) الولايات العثمانية في أوروبا .

(4) كلمة مبهمة ، وأظنها من قبيل الخطأ المطبعي .

(5) طرابلس الغرب العدد 126 في 20 ذي القعدة 1285 هـ/1868 م «المواد الخصوصية» .

ومن المقالات الاجتماعية مقالة كتبت في بداية الفترة الأولى تعد من أوائل المقالات التي وصلت إلينا تعالج موضوعاً لا أعتقد أنه شكّل خطراً على المجتمع في الولاية ، ولكن الاقتداء بدار السعادة وترسم خطى ما يكتب فيها هو ما دعا كاتبها لأن يخوض غمار قضية الاجهاضض وما يترتب عليه من أضرار اجتماعية ودينية مختلفة . .

ومن اليسير أن ندرك أن مجتمع الولاية لم يكن يشكو في الحقيقة من هذه المعضلة وإلا لاتخذت شكلاً أكثر وضوحاً ، كتكرار الكتابة حول الموضوع عدة مرات ، أو إعلان فتوى شرعية تحرّم الإجهاض ، أو ورود شيء عنه في زوايا الأخبار والحوادث إلى غير ذلك من القرائن الدالة على شعور المجتمع بهذه المشكلة ، هذا إلى جانب أن مجتمع الولاية مجتمع قبلي تسيطر عليه مفاهيم القبيلة العربية التي تحبّذ الكثرة لتكسب العزة والمنعة ، وفي التراث الشعبي أهازيج كثيرة تفاخر بكثرة العدد وتتمنى زيادته ، وهي من أهازيج النساء خاصة ، فلا محل لفكرة الإجهاض حينئذ مع هذه النظرة ، ومن الناحية الدينية فإن مجتمع الولاية عرف بالتمسك بأهداب الدين وقضية الإجهاض تلتبس كثيراً بوأد البنات التي يشعر المسلمون بفداحتها في جميع مذاهبهم ، فالمقالة إذن كتبت بوحي وتأثير مما يكتب في الآستانة التي تسربت إليها بعض أمراض المجتمع الغربي بدافع من تقليد المغلوب للغالب حتى إن الكاتب في مطلع مقالته لا يتحدث عن هذه الظاهرة باعتبارها من حادثات الولاية وإنما لأن «نساء أهالي دار السعادة يرتكبن فعلاً ذمياً لا يجوز شرعاً ولا فرعاً وهو أمر إسقاط الجنين»[1]

وأيا كان الباعث لكتابة هذه المقالة فإن الكاتب قد حاول أن يصل إلى دوافع ذيوع هذه الظاهرة بين النساء بعد أن قرر أنها محض غرر وخطر واضح ، فبيّن سبباً قدّمه على غيره ليشعرنا بأنه الأقوى ، ومن ثم يضعه تحت دائرة الضوء لينبه إلى الوجه الآخر للقضية بطريقة غير مباشرة فيقول : «إن الدواعي التي تدعو النساء إلى هذا الأمر مختلفة فبعضهن يرتكبه لشدة الفاقة والاحتياج»[2] .

وقد لجأ الكاتب إلى عدة خطوط دفاعية تدفع عنه ما قد تفسر به مقالته فاستهلها بالعجب من صنع هؤلاء النسوة مع أن السلطان[3] لم يأل جهداً في المحافظة على صحة العموم ، حتى إذا أمن جانب السلطان ، عمد إلى تبرئة القابلات والأطباء من إقدامهم على إجراء الاجهاض لمعرفتهم بالعقوبات القانونية المترتبة على ذلك ، ثم يميّع القضية بأن

(1) طرابلس الغرب ، العدد 62 في 2 شعبان 1284 هـ/1867 م «مسألة اسقاط الأجنة» .

(2) المصدر السابق .

(3) السلطان عبد العزيز .

العلاج المؤدي للإجهاض معروف عند جميع النساء ، ومن ثم يقترب من دائرة الاتهام والتلميح إلى كنه الفساد الذي يعنيه فيقول : «وأكثرهن يعرفن هذه الخيانة فاللاتي يدعوهن داع من الدواعي المذكورة أولاً لما يحسسن بالحمل في جوفهن يرتكبن ذلك الفعل الذميم ويستعملن علاجاً يسقط به الجنين . وبعضهن يستعملن علاجاً لدفع ذلك الإسقاط ليحكم عليهن بالعقم مع أنهن يلقين أنفسهن بأيديهن إلى التهلكة والورطة الكبيرة»[1] ، ومن خلال هذا النص ندرك أن مقصود الكاتب هو التعرض لبيع الأعراض نتيجة الفقر والعوز ، وتجريم الدعارة ، للحد من انتشارها ، ويدل عليه إيراد بعض الألفاظ التقريعية مثل : الخيانة، وذلك الفعل الذميم، والورطة الكبيرة، مما لا مبرر له عند الحديث عن الاجهاض في صورته العادية ، ويتضح القصد أكثر عند ذكر تهرّب بعضهن من الإسقاط باتخاذ تدابير تضمن العقم ليحترفن الرذيلة ، وهذا ما يشير إليه الكاتب بالورطة الكبيرة .

وتمضي المقالة على هذا المنوال الذي يؤكد أن الكاتب لم تشغله مشاكل الولاية بالقدر الذي تشغله أحياء دار السعادة الفقير منها والمترف ، وربما كان الكاتب أحد المبعدين الذين تقلق السلطات العثمانية من وجودهم في الأستانة، لكنه ظل يلاحقهم من منفاه متستراً بما أسلفت واضعاً السمّ في الدسم ، ويؤيد هذا إصراره على الإصلاح بل ويطلب الإعلان عن جهد الدولة في هذا فيقول : «والأولى إصلاح هذه الأحوال في أقرب مدة في ظل موفقية حضرت[2] سلطاننا الأعظم وخاقاننا المعظم مع تنوير بصائر عموم الناس افتخاراً بدرج ما يقع به الإصلاح»[3]، فماذا بوسع الدولة أن تفعل إذا كان الأمر يتعلق بالإجهاض فقط، وهو أمر محرم شرعاً والقوانين تمنعه وتعاقب عليه ، فالأمر إذن يتعلق بإصلاحات أخرى يراها الكاتب واجبة على الدولة .

والكاتب ينقل لنا شيئاً من عادات المجتمع في الولاية عفى الزمن على بعضها ولا يزال بعضها باقياً إلى يومنا هذا ، فيتحدث عن الطالع والسعد ، وبعض العادات الاجتماعية المرهقة التي قد تكون سبباً في اللجوء إلى الإجهاض فراراً من سطوة العادات والتقاليد التي تكلّف بعض الناس ما لا يطيقون ، فيقول : «وقد يظهر للبعض أن يتعرض لهذا البلاء ويسعى في هذه الأسباب المهلكة بسبب تكاليف اعتادها الناس واستمروا عليها إلى الممات ، وخصوصاً أهل بلدتنا وهي أن المرأة إذا حملت تأخذ في التفكير فيما تعلقه برأس مولودها لما يولد لها من جوهر وألماس وذهب وغير ذلك ، وفي أعمال ما اعتيد للنفساء من

(1) طرابلس الغرب العدد 62 ، مصدر سابق .

(2) كذا ، والصواب : حضرة .

(3) طرابلس الغرب العدد 62 ، مصدر سابق .

اللوازم كمشي إلى الحمام في موكب بدف وولولة إلى غير ذلك من الكلف في يوم أسبوعه وغيره التي اعتادها الأغنياء والفقراء»[1] وقد اندثرت عادة المشي إلى الحمام ، وبقيت أثارة من تعليق التمائم والتعاويذ في الأرياف والدواخل حتى اليوم ، ولم نعثر فيما بين أيدينا عما ينبئنا عن المزيد من العادات الاجتماعية السائدة آنذاك .

وقد حاول بعض الكتّاب أن يعالج مشكلة غلاء المهور في قضاء غريان فبيّن ما كان عليه المهر قديماً في هذه المنطقة ، وما اعتراه من مغالاة جرّت عواقب وخيمة تفسد المجتمع وتشيع الفاحشة وتقل النسل .

ومن خلال هذه المقالة نعلم أن العادة في نوعية المهر تخلو من اشتراط الذهب والفضة التي يبدو أنها استحدثت بعد هذه الفترة ، أو أنها كانت من عادات أهل مركز الولاية ، أما في ما سواها فالسائد أن يدفع المهر من القمح والشعير والزيت وشيء من النقد كما يقول الكاتب مقارناً بين المهور في حالتها المرضية ، ومغالاة أهل غريان فيها : «كان من مقتضى العادة القديمة الجارية في قضاء غريان التابع لمركز الولاية في أمهار[2] النكاح أن يكون مهر الباكر[3] ستاً وخمسين مرطة من الشعير وعشر مرطات من الحنطة وثلاث جرّات من الزيت ومائة قرش، قد بلغ الآن هذا المهر بين أهالي القضاء المذكور ستا وخمسين مرطة قمح وثماني وثمانين مرطة شعير وعشر جرات زيت وعشرة من الضأن وأربعمائة قرش»[4] .

ولم تكن الفترة الثانية بأحسن حالاً من سابقتها ، فلم تلق العادات الاجتماعية ما يقوّمها من النقد والتوجيه ، ولم يشكل السلوك العام نقطة انطلاق لكتّاب المقالة الاجتماعية، وظلت معظم أركانها تشكو قلة الاكتراث إلا في بعض زواياها ذات العلاقة المباشرة بالدولة مما يدخل في حيّز الاجتماع السياسي ، والتعبئة الوطنية ، وقد استمرت العناية بالتعليم في مكانتها الأولى، وإن لم تتضمن برامج جدية ومقترحات عملية إلا أنها حازت نصيباً من النصح والتأكيد على أهمية هذا المرفق في بناء المجتمع والدولة ، وبين أيدينا أنموذج كتبه الشيخ عبد الرحمن البوصيري يقرن فيه بين التربية والتعليم ويجعلهما سبباً لبلوغ أوج الحضارة مستشهداً ببعض الصوّر التحليلية الفرضية كأن يقول : «وأخذنا مثلاً أفراد منزل واحد وفرضناهم أو بعضهم جهلاء وليس عندهم شيء من التربية فإنهم لا بد وأن

---

(1) طرابلس الغرب العدد 62 مصدر سابق .

(2) مهر تجمع على مهور ، أما أمهار فهي جمع مُهر ، ولد الفرس .

(3) المراد البكر ، العذراء من النساء ، أما الباكر فهو أول النهار إلى طلوع الشمس .

(4) طرابلس الغرب ، العدد 692 في 30 ربيع الآخر 1309 هـ/1892 م «مهر النكاح» .

تميل بهم الطباع البهيمية إلى سوء المعاشرة وعدم الائتلاف فترى كل واحد منهم ينزع إلى الانتقام من أخيه أو جاره بأقل سبب وربما وصل بهم الحال إلى الفتك ببعضهم»[1] ، وينقل الغرض من الأفراد إلى الجماعات ليثبت أثر التعليم والتربية في المجتمع مبرزاً دور الغريزة البشرية وميلها إلى الشر دون الخير ليبرر وجود الشرائع السماوية التي لا تبلغ غايتها إلا بالتعليم والتربية عن طريق الزواجر والنواهي ، ويستشهد بالتاريخ مؤكداً حرص ولاة الأمور على ذيوع المعرفة في الدول الإسلامية الكبرى ، ومثل هذه المقالة لم تخدم التعليم في شيء لأن كاتبها بما أوتي من حنكة في باب الحذر ومصانعة أولي الأمر أغفل الحديث عن الأساليب السائدة في الولاية ، ونقدها ، ولم يقترح أي برنامج لتطوير التعليم الذي كان يشكو عللاً مزمنة وأوصالاً بالية ، كما فعل في مقالة أخرى حينما نوّه بخلو البلاد من المدارس العالية[2] بل صرف جهده في باقي المقالة ليثني على السلطان عبد الحميد لإنشائه مكتباً حربياً[3] يستقبل الطلاب «من كل صوب وجهة حتى من ولايتنا هذه»[4] ولا يخفى هذا الشعور بالدونية الذي تصطبغ به نفوس أمثال الشيخ قليس بوسعه أن يقول كلمة في حق ظل الله[5] أو نظم دولته خارج إطار الزلفى التي أصبحت في عهد عبد الحميد زاداً يتسابق إليه أهل الحل والعقد ، وقد عز مركز السلطان عبد الحميد بانتصار دولته في حرب اليونان بعد سلسلة مريرة من الهزائم فبادر إلى الاستفادة من هذا النصر في بناء الجبهة الداخلية للدولة ، واستجاب كتّاب المقالة الاجتماعية في الولاية يدفعهم حماس ديني وحس وطني إلى حملات تدعو إلى الحث على التعبئة الاجتماعية، فبادر محمد البوصيري إلى كتابة مقالة يلوم فيها أهل الولاية على تقصيرهم في التبرع لمعرض دعا إليه السلطان يخصص ريعه لمشوهي الحرب وأسر الشهداء عندما قال: «فقد بقيت حاجة في النفس وهي أن جريدة الترقي يسوؤها كما يسوء كلا من أفراد وطننا أن تنقضي مدة المعرض ويبقى جيدها معطلاً من بين أجياد سائر الولايات»[6] .

ومثل هذا الموقف لا يمكن تفسيره تفسيراً إيجابياً يفهم منه رفض الولاية لنتائج الحرب ، أو عدم تشجيع الحكومة على خوض غمار حروب أخرى مماثلة .

---

(1) الترقي ، العدد 23 في 2 رجب 1315 هـ/1897 م «التربية والتعليم» .

(2) انظر الترقي العدد 7 في 9 ربيع الأول 1315 هـ/1897 م «طرابلس الغرب أمس واليوم وغداً» .

(3) معهداً عسكرياً يخرج الضباط في الجيش العثماني .

(4) الترقي العدد 23 مصدر سابق .

(5) ظل الله في الأرض أحد ألقاب السلطان عبد الحميد .

(6) الترقي العدد 16 في 13 جمادي الأولى 1315 هـ/1897 م «حاجة في النفس» .

وفي تقديري إنما نُظر إلى الأمر على أنه تنويع لأساليب الجباية مما دعا الكاتب إلى تنبيه واستنهاض همم «أرباب الحمية وأصحاب الوجدان خصوصاً الطوائف وأهل الحرف. . من السراجين والصياغين والنجارين والحدادين»[1]، ومن الواضح أن هؤلاء هم جلّ دافعي الضرائب، ومن هذه المقالات التعبوية مقالة أخرى كتبها الشيخ عبد الرحمن البوصيري يزرع فيها حب الوطن في النفوس مستنداً إلى جُذر الدين والتاريخ لتأصيل الإرتباط بالأرض حتى يبلغ الغاية المرجوة فيحصر معنى الوطنية في إطار هو خلاصة نظرة علماء الاجتماع عندما يقول: «وليس المراد من حب الوطن أن يملأ الوطني بيته بهيكله والأسواق بصخبه ومحال الملاهي بعبثه ويتوطن بما لا فائدة فيه لا لنفسه ولا للمجتمع المدني بل بعد تطهيره لأنفاسه ولسانه وقلبه يقيد بعقله شوارد الصلاح ويقرب بتدابيره أوابد الفلاح فيشغل ركناً من أركان ما به حياته وحيات[2] المجتمع الانساني»[3]، ويخلص الكاتب بعد كثير من الاستطراد إلى الثناء على الوالي وما سنّ من قانون التجنيد في الولاية وإقبال الشباب عليه، اضطلاعاً بدوره في التعبئة العامة، وتهيئة المجتمع لقبول ما سيجد تحت سماء غائمة تنذر بتغيرات تلوح خلف الأفق القريب.

وثمة مقالة أخرى لنفس الكاتب طرق بها باب الاجتماع السياسي وإن لم يلجه من أوسع أبوابه إلا أنه عرض شيئاً من تاريخ طرابلس العلمي والاقتصادي مغلفاً بنسيج سياسي يشوبه الحذر، فيومىء من بعيد إلى ما يهدف إليه، وقد شاقه تقدم بيروت وتمتعها بنوع من الاستقلال فود لو أن طرابلس كانت مثلها، فيقول محاذراً: «فلو أرسلت رائد نظرك إلى بيروت التي هي مدينة ساحلية عربية كطرابلس ورأيت نجاحها في كل فضيلة وفلاحها في كل مزية بسرعة عجيبة وتأملت في الأسباب لحكمت بأن كثرة الشركات والكبانيات هي الموجب الأول للثروة وأن المكاتب والمدارس والجرائد هي الأساس لجميع المعارف». [4]

ويتمنى الكاتب على الدولة أن تنهج سياسة مالية تعود على المجتمع بالرخاء والتقدم فيلفت الأنظار إلى التفريط في نبات الحلفاء، وإطلاق يد اليهود في استثمار خيرات الولاية ويطالب بتأسيس مصرف إسلامي حتى يستريح الناس «من هذه البلايا المتسلسلة التي كأنها لا آخر لها». [5]

---

(1) الترقي العدد 16 المصدر السابق.

(2) وحياة.

(3) الترقي العدد 17 في 19 جمادي الأولى 1315 هـ/1897 م «حب الوطن» بقلم ع ن.

(4) الترقي العدد 7 في 9 ربيع الأول 1315 هـ/1897 م «طرابلس الغرب أمس واليوم وغداً» عبد الرحمن البوصيري.

(5) الترقي العدد 7 مصدر سابق.

وينطوي هذا اليأس فترة تربو على عشر سنوات صمت فيها كتّاب المقالة الاجتماعية صمتاً مطبقاً لعله أشبه بالهدوء الذي يسبق العاصفة ، إذ مع عودة الدستور إلى البلاد علا صرير أقلامهم واتسعت المجالات أمامها فأوسعوا شؤون المجتمع نقداً وتصويباً، وخاضوا لجّة المشاكل الاجتماعية كالسلوك العام ونقده ، والعادات الخاطئة في المجتمع وكثير من قضايا الاجتماع السياسي ، والنقد الصريح للمأمورين ، وسيف الضرائب المسلّط على رقاب الكادحين ، وشبح المجاعة المخيف ، بل اتسعت دائرة المقالة الاجتماعية لتشمل نوعاً من الكتابة الوجدانية ، وجازت حد الحرية فانزلقت الاقلام إلى التجريح والمقارعة .

وكان من أبرز همومها التعليم والتربية في الولاية فأفردت له صفحات الصدارة ، وتناولته الأقلام من شتى الزوايا التي يجمعها خط واحد حيث تجمع على أن القاعدة الأساسية لبناء النهضة المرجوة تنطلق من النهوض بالتعليم عن طريق إعادة النظر في هيكله الذي يصوره أحد الكتّاب بأنه اسم لا رسم وهو «كبناء ظاهره حسن منمق وباطنه به من الخراب ما يتوجس الجالس فيه سقوطه عليه فيذهب ضحية عدم الإصلاح»[1] ومن ثم فمن واجب الشعب أن يضج بالشكوى مطالباً بالإصلاح بشتى الوسائل لأن الأمر قد استفحل وبلغت الأمية نسبة فاجعة كما يقدرها الكاتب قائلاً : «أوليس من العار وإشعار التأخر أن لا يكون من بيننا واحد في الألف على الأقل[2] يحسن القراءة والكتابة» ويسدد هذا الكاتب سهام الاتهام إلى دائرة المعارف ويصفها بأنها نائمة أو متناومة ويحرض قادة الإصلاح على انتقاد سيرتها الوخيمة .

ومما يجمع عليه كتاب المقالة في هذا الميدان مسؤولية الدولة مسؤولية مباشرة عن تدني أساليب التعليم فينتقدونها انتقاداً مباشراً في تركيز إنشاء المكاتب (المدارس) بمركز الولاية وإغفال ملحقاتها ، واختيار المدرسين وفق معايير تبعد عن غاية التعليم .

وقد يذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فيهاجم العثمانيين ويتهمهم بأنهم أسقطوا الولاية في ربقة الذل والمهانة بإغفالهم أهمية التربية والتعليم ، فنشأ الأفراد بمعزل عن التهذيب ، مستتراً وراء غلالة رقيقة من التعميم لا تحجب مقصده فيقول : «ولا شك في أن أمة بتلك الأفراد تكون هاوية في مهاوي الرق والعبودية منغمسة في بحار الذل والهوان (كأمتنا الطرابلسية) كلما تطلب طريق الهداية تقع في شرك الضلال ، ولذا يتبين لذوي الألباب أن لا سبيل إلى تقدم الأمة إلا بتربية أفرادها ولا طريق لتربية الأفراد إلا بإنشاء

---

(1) العصر الجديد العدد 2 في 29 صفر 1327 هـ/1909 ك ويا لها لو بسطة ويا لهاء ناصح أمين .

(2) وفي الأصل : لا يحسن ، وهذا خطأ مطبعي .

المكاتب وتعميمها في أنحاء القطر ولا تستقيم المكاتب إلا باستقامة القائمين عليها»[1] .

ويقابل هذا الاتجاه اتجاه آخر يداهن الحكومة ويشيد بإنجازاتها التي ما زالت قيد الإعداد كما في مقالة يتحدث كاتبها عن التعليم الاجباري الذي تنوي الدولة تطبيقه في الولاية ولعله خدع بجلبة الاتحاديين وتصديتهم حول التحديث والتطوير فاندفع يثني على القانون قبل صدوره فقال : «لا تزال حكومتنا السنية تهتم بتحضير مواد التعليم الإجباري على مقتضى النمط الحديث ليكون ذلك فاتحة أعمالها والحصول على بعض آمالها ، وهي لعمري أجل مبرة تذكر فتشكر وأبهى حسنة يتقرب بها إلى الشعب»[2] .

ويفيض في تعداد مزاياه من تربية الفرد إلى عظمة الأمة ، مرجعاً تقدم أوروبا إلى التعليم الاجباري وحده وتأخر الدول الإسلامية إلى إغفاله سادراً في مدح الاتحاديين إلى حد الإملال .

ومن أبرز الاتجاهات في معالجة مشكلة التعليم اتجاه بني على أسس عملية تبلورت في مقترحات رأى أصحابها أنها أسلم الطرق لحل هذه المعضلة ، فبعضهم يقترح تأسيس مدارس حرّة بأموال أهلية يختار لها المدرسون الأكفاء ، ويفرض التعليم فيها إجبارياً[3] ، ولا يخفى أن مثل هذه المقترحات بنيت على افتراضات أقدامها لا تطال أرض الواقع ، فالمدارس الحرة ــ خاصة الوطنية ــ أمر لا تحبذه حكومة الولاية ، ثم إنها تحتاج إلى أموال طائلة يستحيل جمعها كلية من أبناء البلاد دون مساعدة الدولة .

ومن المقترحات ما انصب على مشكلة التعليم في الدواخل أو ملحقات الولاية ، فالمكاتب (المدارس) ــ على قلتها ــ ما إن تفتح أبوابها حتى تغلق لعدم وجود مدرسين «فإن قسماً منهم لا يقبل أن يوظف خارجاً عن البلد الذي يسكنه وعذره في ذلك واضح لأن المرتب للمعلمين بالمكاتب الابتدائية لا يزيد عن ثلاثمائة قرشاً[4] بل أكثرهم مائتي قرش وهذا القدر لا يكفي للقيام بضرورات شخص واحد فكيف إذا كان صاحب عيال»[5] وانطلاقاً من إدراك السبب فقد اقترح محمد البوصيري على لسان جمعية الاتحاد والترقي في الولاية تأسيس مكتب ليلي[6] خاص بالوافدين من ملحقات الولاية يعدُّ كوادر من المعلمين

---

(1) المرصاد العدد 6 في 24 شوال 1328 هـ/1910 م «الثبات أساس التقدم» .

(2) العصر الجديد العدد 15 في 1 جادي الآخرة 1327 هـ/1909 م «التعليم الإجباري» محمد بن عمران .

(3) انظر : العصر الجديد العدد 2 «هيا بنا» .

(4) قرش .

(5) الترقي العدد 77 في 23 شعبان 1326 هـ 1908 م «المعارف» محمد البوصيري .

(6) المقصود : مدرسة داخلية .

يمكن تعيينهم بعد التخرج كل في مدينته أو قريته ، ويختم مقالته بما يميز عهد الأتراك من حثّ للمواطنين على التبرع بأموالهم لتنفيذ هذه الاقتراحات .

ولكن كاتباً آخر ينهج نهجاً مخالفاً فيطالب الدولة بدل أن يطالب الشعب مذكراً بأن «الأمة تدفع من شرايين حياتها مبلغاً عظيماً باسم المعارف ولا يسألون عنه ولا في أي شيء يصرف هذا المال»[1] ويهاجم دائرة المعارف ومديرها ثم يقترح أن ينفق مرتب المدير مضافاً إليه مبلغ من مخصصات المعارف[2] ، وبهذا المبلغ تنشأ «المكاتب الدينية الابتدائية ابتداء من غات وهكذا إلى كل الملحقات»[3] ، ولا يرى الكاتب أهمية لوجود المدير فإن أحد الكتبة يمكن أن يقوم بأعباء هذه الإدارة حتى تكثر المدارس بمركز الولاية ، وملحقاتها ، حينها يصبح لوجود المدير مبرراً ولإدارته أهمية .

وقد تعرض مدير المعارف في الولاية لحملات أدناها المطالبة بعزله ، ومن خلال استعراض نماذج من المقالات الاجتماعية التي كتبت في هذا الشأن يمكن أن ندرك أن هذا المدير من غلاة الطورانيين وأنه يحمل في نفسه كرهاً للعرب والعربية ومن ثم جاء وبالاً على نظم التعليم الأمر الذي جعل أرباب القلم يقفون له بالمرصاد .

ومن هذه المقالات مقالة استقبل بها بعد وصوله إلى الولاية تعرض بفشله في إدارة التعليم في «رودس» وتعتبره كارثة ، وعلى هذه الولاية أن تنال نصيبها منها فتقول : «وأتحفتنا ــ نظارة المعارف ــ بتعيينه للقيام بهذه المهمة لما رأته من آثار خدماته العظيمة . . في رودس الدالة على أهليته واقتداره ووو . . حرصاً على عدم حرماننا من المشاركة لإخواننا أهالي رودس في تلك الإصلاحات وأخذنا قسطاً معهم من فوائد ذلك»[4] ، وبهذه اللهجة الساخرة ينفث الكاتب ما في صدره من مشاعر لا يجرؤ على البوح بها في ثوبها الحقيقي ، كالتململ من جور الأتراك فيصف المدير بأنه متعال تعالي الملوك قائلاً : «إلا أن يرى جلالة مدير المعارف ما لا يراه عموم العثمانيين» أو ينكر على الدولة استغلالها لأموال الولاية فيتذرع بنقد المدير ليقول : «إن أموال المعارف المشار إليها لم يرثها عن والده أو جده حتى يبخل بها

---

(1) الترقي العدد 97 في 7 صفر 1327 هـ/1909 م «سعادتنا بالعلم» حسن كامل .

(2) مرتب مدير المعارف 3000 قرش والمبلغ المقترح إضافته 2000 قرش ، ويمكن أن نستدل على تبذير الحكومة إذا قارنا مرتب المدرس 300 قرش بمرتب المدير المذكور .

(3) الترقي العدد 97 مصدر سابق .

(4) المرصاد العدد 13 في 5 محرم 1329 هـ/6 ــ 1 ــ 1911 م «باكورة إصلاحات مدير المعارف» .

عن صرفها في تعليم أبناءنا[1] الطرابلسيين حيث إنها مجموعة بكد وجد أسلافهم وعرق جبينهم» .

ومثل هذه النفثات قد أوحى بها تقرير مدير المعارف الذي يطلب فيه إلغاء مكتب دار المعلمين (معهد المعلمين) بحجة أن خريجيه لا يجيدون التركية ، وهي حجة ليس بوسع الكاتب أن يدفعها ، أو أن يبرر عدم أهمية دراسة اللغة التركية لمعلم سيدرِّس في مدارس عربية فظل يدور حول هذا المعنى من بعيد كأن يصف طلبة المعهد بأن منهم من يفوق المعلمين علماً ممن عينتهم نظارة المعارف بمرتبات كبيرة ، أو أن يتهم المدير بعدم القدرة على تقدير فائدة المعهد إلى غير ذلك من المعاذير التي تخفي تحتها شعوراً بالغبن والاستياء .

ولقد تنبه كتاب المقالة إلى مخططات هذا المدير ، فكلما خطا خطوة انهالت عليه الأقلام بوخزاتها التي أرقته دون شك ، فمن دار المعلمين إلى المكتب الإعدادي حيث عمل على تخفيض عدد طلابه ووضع العراقيل في طريقه كي لا يصبح مكتباً ليلياً (مدرسة داخلية) وخاضت المقالة معه لجة الجدل القانوني[2] والتشهير به وبمخططاته . [3]

ومن أشد هذه المقالات عليه مقالة كتبت في الترقي ، وما أظن كاتبها إلا محمداً البوصيري ــ وهو رئيس فرع جمعية الترقي في الولاية ــ أو كتبت وفق رأيه ، لأنها موقعة بالترقي على غير العادة ، الأمر الذي ينبىء بأن الكاتب يلوح بعصا القاعدة الشعبية التي قد تزيح هذا المدير من منصبه ويتخذ الكاتب لها صيغة خطاب بل هي خطاب موجه إلى مدير المعارف ، يستهله الكاتب باحتقار المدير فيقول : «كنا نود أن لا نصرف شيئاً من زمننا الثمين في مناقشتك أيها المدير ولا نخسر جزءاً من صحيفتنا في نشر أعمالك التي لم تعد خافية على أحد[4]» ، ليخلص بعد ذلك إلى بيان سوء نية المدير وتحايله ليثبت للنظارة أن المكاتب الابتدائية لا تخرج العدد الكافي من الطلاب لدخول المكتب الاعدادي مستعرضاً قرار مجلس الأمة القاضي بقبول نصف الطلاب مجاناً بعد إثبات عجزهم عن دفع مصاريف الدراسة ، واللوائح الصادرة عن نظارة المعارف التي تفند اجتهاد المدير بعدم قبول طالب بالمجان إلا إذا قابله قبول آخر من الموسرين ، والغريب أن هذا المدير بالرغم من قرارات مجلس الأمة ونظارة المعارف ، ومجلس الولاية يجري تحريات على المتقدمين بمضبطة تثبت عجزهم عن

---

(1) أبنائنا .

(2) انظر : الرقيب العدد 12 في 10 جمادي الآخرة 1329 هـ/1911 م «هل عاد زمن الاستبداد يا دولة الوالي ؟» .

(3) انظر : المرصاد العدد 15 في 19 المحرم 1329 هـ/1911 م «المعارف في أيام مديرها الحالي» .

(4) الترقي العدد 175 في 10 صفر 1329 هـ/1911 م «خطاب مفتوح إلى مدير معارف الولاية» .

دفع المصاريف الدراسية باحثاً عن ذريعة لرفضهم ، وإحدى هذه الذرائع أن والد أحدهم يملك بيتاً لسكناه ، فخاطبه الكاتب ساخراً : «هل تريدون أن من يملك محلاً لسكناه يبيعه للإنفاق على ولده ، وهل تخطرتم ذلك المبلغ العظيم الذي تتناولونه في كل شهر يكفي لإعاشة ثلاثين طالباً . . وتفكرتم في أن ذلك مأخوذ من عرق أمثال ذلك الذي لا يكسب غير محل سكناه وهو يدفع في كل سنة إلى الخزينة أكثر مما يلزم لمصاريف ابنه» .

وفي هذا ما فيه من نقد للدولة أكثر من مدير المعارف ، ولعل محمداً البوصيري قد اطلع على نيات الاتحاديين ونعرتهم التتريكية التي أسفر عنها صبح الانقلاب فكتب أو أوعز لمن يكتب عن مدير المعارف بمثل هذه المقالة التي تنضح بالغيرة على الوطن ، وإحباط مخططات التجهيل التي يسعى لها مثل هذا المدير الطوراني .

كذلك فقد عنيت المقالة الاجتماعية في هذا الركن بانتقاد المناهج والمعلمين ، وسلوك بعضهم المنافي لما يتوخى من العملية التعليمية ، ومن هذه مقالة تذكر بأن ليس في الولاية سوى مدرستين إحداهما عسكرية والثانية ملكية (مدنية) ــ ولعل المقصود التعليم الثانوي ــ ويتحدث كاتبها عن منهج المدرسة المدنية فيصفه بأنه «مبادىء من العلوم كادت لا تذكر»[1] وينتقد إدارة المدرسة لحذفها كثيراً من المواد الأساسية متذرعة بذرائع واهية ــ وفي نظري ــ أن المد العلماني قد بلغ الولاية أو غشاها فحذفت مادة تجويد القرآن بسببه ، وساد الطورانيون فعز عليهم أن ينافسهم جيل من العرب يتحدث التركية فألغت تدريسها ، ولعل هذا ما قصده كاتب المقالة بقوله : «وكأني بالسبب الداعي لذلك علمها بأن الوظائف حتى البوليس لا تعطي إلا لمن يحسن اللسان فوقفت سداً منيعاً حائلاً بينها وبين الأهالي حتى يتم حرمانهم» .

ومن جهة أخرى فإن المدرسة لا تعين للتدريس بها إلا من يتحدث التركية وإزاء هذه العراقيل فإن عدد الطلاب بها أصبح محدوداً ، وما يلقى عليهم كان لتمضية الوقت كقصص عنترة ورأس الغول .[2]

وشنت حملة على مدرّسة بمدرسة البنات وقفت حائلاً بين التلميذات والدراسة بأخلاقها الفظة ، حتى تم نقلها إلى ولاية أخرى لكن المأساة تبلغ ذروتها حينما يعترض اثنان

---

(1) العصر الجديد العدد 5 في 20 ربيع الأول 1327 هـ/1909 م «حالة التعليم» .
(2) المصدر السابق .

من الجند على نقلها ويهددان بإخراج من يحل محلها بالقوة من المدرسة ، فما كان من مدير المعارف إلا أن أغلق المدرسة تجنباً للمكاره .[1]

ولم تغفل المقالة الاجتماعية في جانبها التعليمي عن نبش أموال الأوقاف التي وقفت على التعليم والتذكير بوجوب صرفها في إنشاء المعاهد والزوايا والإنفاق على الطلاب منها بدل صرفها في مرتبات للمستخدمين[2] ومن الكتّاب من يرى أن من واجبه التنبيه إلى ذلك فيقول : «بل الواجب علينا هو إرشاد هؤلاء الجماعة إلى ما يتهدد مستقبل المعاهد الإسلامية عموماً ومستقبل طلبة المدارس خصوصاً في ولايتنا التي أصبحت في حالة أحوج من غيرها لإنشاء المعاهد العلمية» .[3]

وبالرغم من أن المدارس الأجنبية في الولاية لها باع طول في نشر اللغات الأوروبية خاصة بين اليهود والمنعمين من الأتراك الذين أخذوا يرسلون أبناءهم إلى المدارس الفرنسية والإيطالية حتى اضطرت الحكومة إلى منعهم[4] بقرار من الوالي ، فإن المقالة الاجتماعية لم تعر الموضوع أية أهمية ولم نعثر فيما بين أيدينا على مقالة واحدة خصصت للبحث في هذا الأمر .

وقد تابع بعض الباحثين[5] صاحب المرصاد في إحدى مقالاته الانفعالية التي يزعم فيها أن المدارس التبشيرية قد تفشت في البلاد وفتكت بأبنائها فتكاً ذريعاً ، وذلك في فقرات استطرادية من مقالة موضوعها الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي[6] ، ولو كان الأمر كذلك لبادر الكتاب إلى التحذير منه في كل مناسبة وعلى صفحات كل الصحف كما هو الشأن دائماً .

ومن بين المقالات التي عنيت بالبحث في أمور التعليم في الولاية مقالة يخوض كاتبها غمار موضوع تأسيس [7] جامعة في طرابلس ، ويبدو أن المشروع مات في مهده ، أو وئد وهو

---

(1) الترقي العدد 89 في 3 ذي الحجة 1326 هـ/1908 م «فوضى أم حرية» .

(2) انظر : المرصاد العدد 14 مقالة الإسلام وفرنسا ، العنوان الفرعي «المبشرين أعداء الانسانية» .

(3) المرصاد العدد 24 في 30 ربيع الأول 1329 هـ/1911 م «المعاهد العلمية وإدارة الأوقاف» .

(4) انظر الغزو الثقافي الإيطالي ، القروي ص 113 رسالة ماجستير 1984 م .

(5) القروي في رسالته للماجستير «الغزو الثقافي الايطالي» ص 310 ،حيث نقل النص بكامله عن صحيفة المرصاد وأسقط بعض عبارات الشتم لأي فئة ولو أثبتها لظهر أن الأمر جله مسخر للشتم وبعيداً عن الموضوعية ، ثم إن الباحث لو انتبه إلى ما ورد في الصفحة السابقة للصحيفة من مراسلات تثبت خلو البلاد من أثر فعال للمبشرين لأدرك خطأ ما يقوله صاحب المرصاد .

(6) المرصاد العدد 14 في 12 محرم 1329 هـ/1911 م «الاسلام وفرنسا أو الهلال والصليب» .

(7) لم أعثر في ما بين يدي من مراجع تعنى بالتعليم في الولاية على ذكر لهذه الجامعة .

يجبو ، وقد أسف الكاتب لذلك فخاطب المؤسسين قائلاً : «لقد أتيتم شيئاً نكراً بافتراقكم على ناد استتموه وتنصلكم من اجتماع عقدتموه لأسباب طفيفة ودواعٍ سخيفة»[1] ، ثم يتحدث عن هذا المشروع وفائدته للوطن من نصب أساتذة للتعليم وإلقاء للمسامرات (المحاضرات) ورفع المستوى الثقافي والتأسي بالبلاد المتقدمة ويعيب عليهم اختصامهم على الرئاسة والعضوية والألقاب حتى جلبوا «على الجامعة الزوال» ويتجرع مرارة الأسى قائلاً : «كلية جليلة تحتوي على عدد لا يستهان به فتكسبه تربية وتهذيباً ، وتؤهله لأن يكون خير عضو عامل في الأمة فترقبها الأهواء المختلفة من كل جانب حتى تتركها بلقعاً» ، ويتعلق الكاتب بأمل إعادة مشروع الجامعة إلى الوجود فيعرض مقترحاً يتحدث فيه عن روح النهضة الطرابلسية، ويقترح إنشاء لجان للنظر «في أمور الجامعة . . وتدعيم أركانها وتوسيع نطاقها بعد سن قانون قاض بقتل المهارات[2] ودفع المشاجرات . . ويكون من ضمن ذلك القانون كون وظائف الجامعة بالانتخاب العام» ، ولكن أنى لجامعة أن تبنى وأسس التعليم الأولي مقوضة تحت ركام الفقر وسوء الإدارة والاضمحلال العام مما أسلفنا عنه الحديث آنفاً .

ومن أبرز موضوعات المقالة الاجتماعية التي عني بها الكتّاب نقد السلوك العام وتحليل الدوافع الأخلاقية لكثير من الظواهر السائدة لا في مجتمع الولاية فحسب بل في المجتمعات الشرقية في أغلب الأحيان ، ومقارنتها بنظائرها في المجتمعات الغربية .

ويمكن أن نلحظ أن معالجة المقالة الاجتماعية لقضايا السلوك العام اتخذت مسارين متوازيين : أحدهما اهتم بتحليل السلوك وعلاقته بالقيم الأخلاقية الموروثة ، وآخرهما اهتم به من حيث علاقته بدور الدولة في التوجيه وتهيئة الأسباب لسيادة السلوك القويم في المجتمع ، وقد نهج الكتاب لبلوغ المسار الأول مناهج مختلفة ، منها النقد المباشر للسلوك اليومي ، ومنها ما تم في شكل معالجات فنية كالاستعانة بالأحلام لبلوغ الغاية من المقالة .

ومن النماذج الدالة بوضوح على هذا المسار مقالة في نقد سلوك الشرقيين عامة وأهل الولاية خاصة يصم فيها الكاتب الرجل الشرقي بأنه يقول ما لا يفعل عكس الغربي ، ويحاول أن يحلل الأسباب الدافعة إلى ذلك فيقول : «والباحث في طبيعة البشر يقف هنا موقف الحيران فلم يكد يحكم بعد بأن هذه طبيعة الشرقي (لا يمحوها)[3] النصح ، ولا

---

(1) العصر الجديد العدد 19 في 28 جمادي الآخر 1327 هـ/1910 م «يا صمد الجامعة العثمانية» .

(2) كذا ، والصحيح : المهارة .

(3) لم أتبين حقيقة الكلمة لاهتراء الصحيفة وأقدر أنها (لا يمحوها) .

يستأصلها الإرشاد ، أم وصف عارض له من زمانه ومكانه وأقرانه يزول كلما سطا عليه الاجتهاد ، أم خور في العزيمة ، أم انحلال في الشكيمة ، أم جهل مستحكم ، أم قضاء مبرم ، (هذا الذي ترك الأوهام حائرة. .)»[1][2] ومن هذه التساؤلات ـ التي هي في حقيقتها أحكام ـ ينطلق مصوراً شخصية الشرقي من الداخل فهو عاطفي ينساق بسهولة وراء محدثه خاصة إذا مس العاطفة الدينية فإنه «يكاد يتميز من الغيظ وينفجر مرجل فؤاده من القيظ ، وكلما قرعت أسماعه ما يعانيه إخوانه في الدين ويتجرعونه من الأوصاب ويسامونه من سوء العذاب يوشك أن يتصدع قلبه ويطير لبه»[4] ويلون الكاتب بسخرية مثل هذه الأنواع من الاستجابة القولية تلويناً يكشف فيه الزيف والملق والمشاعر الخادعة التي تنخر في هيكل المجتمع الشرقي حتى إذا جاء وقت العمل انفض الجمع وكل يندب غيره ويعفي نفسه ، ويعرض الكاتب إلى نقد سلوك بعض علية القوم من الموسرين تجاه الفقراء السائلين مستشعراً خطر التفاوت الطبقي في المجتمع حيث إن طبقة الأثرياء تخلت عن مبادىء النبل التي يمليها الدين من ناحية وطبيعة الثراء من ناحية أخرى فلم يعد من المعيب أن ينهر الموسر سائلاً على رؤوس الأشهاد ، ليثبت أنه من طبقة غير طبقتهم ومن جبلة غير جبلتهم ، وغالباً ما يكون ذلك زلفى لجليس من الأجانب ، ويعيب الكاتب على المجتمع تفشي مثل هذه الظاهرة فيه قائلاً : «ونسمع ونرى في ملأ الناس والقهاوي والملاهي أنه متى قصده الفقير لا يكتفي بنهره المنهي عنه شرعاً بل يوفي له الكيل والميزان فيتمشدق لرفقائه وللحاضرين غير الوطنيين تزلفاً أو نصيحة لهم بزعمه بأن ذلك السائل له مال وعيال وماشية وضيعة وحاشية وبيعة ، وبعبارة أشمل يكاد يفهمهم أنه ملك متحيل حتى يعذر في نهره إياه ممن يتوسم منه انتقاد جريمته ويتدفق في شرح ترجمة حاله زوراً وبهتاناً . . وحيث إن القوم أساساً على شفا ويتصيدون للمنع بحبائل أوهى من العنكبوت فقد وصلت الحالة عندنا بحيث لا تكاد تسمع إلا نهر السائل أو الاندفاع من الجميع في ترجمة حاله فما أبصرهم بذلك وما أدراهم بما هنالك»[1] ، وفي هذه المقالة يعرّي الكاتب جانباً مشيناً من أخلاق المجتمع في الولاية فقد انتشرت الدعارة وبيع الأعراض نتيجة الفقر المدقع الذي ألجأ بعض النسوة والبنات الفقيرات إلى أن يقصدن «الأجانب واليهود فيدعونهم للفحشاء ويراودنهم للخنى» غير أن الكاتب لا ينحو باللائمة عليهن بل يلتمس لهن المعاذير ويحمّل الأثرياء

---

(1) صدر بيت عجزه : وصير العالم النحرير زنديقاً ، شاهد بلاغي على إظهار الاستغراب عن طريق الاشارة .

(2) الترقي العدد 167 في 6 ذي الحجة 1328 هـ/1910 م ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ .

(3) المصدر السابق .

(4) المصدر السابق .

وزوهن لإحجامهم عن مد يد المساعدة للمعوزين فسقطوا في مهاوي التردي الأخلاقي الذي ينعكس بالتالي على سلوك المجتمع كله .

ومن المعالجات الأخلاقية التي اهتم بها كتاب المقالة الاجتماعية في الولاية مشكلة التحاسد والتنازع في كل شيء ومردود ذلك على الولاية من الناحية الحضارية والأخلاقية خاصة إذا كان هذا التحاسد بين الطبقة المستنيرة ، ويحلل أحد الكتاب أسباب هذا المرض الاجتماعي الخطير فيرجعه إلى الجهل ، ويبين أن المجتمع مركب من طبقات ثلاث : طبقة العامة وطبقة الوسط ولا يعيرهما أي اهتمام لانعدام تأثيرهما في المجتمع ، وطبقة المستنيرين ، وهذه الطبقة هي التي جنت على المجتمع بتنازع أفرادها لأسباب الظهور والسيادة مصوراً ما يدور في أحد اجتماعات هؤلاء المستنيرين تصويراً يحلل فيه سبب العقدة وأطوارها المختلفة فيقول : «حتى إذا ما انضموا إلى بعضهم للمفاوضة فيها واستحضارها يتوتر عرق الجهل فيهم بمجرد ما يقترح أحدهم اقتراحاً فيها ، مفيداً كان أو لا ، فيردونه بلا تبصر فيه بل سرعان ما يسبق إلى فكرهم أنهم إن صوبوا رأيه وسددوه وعضدوه ربما يقدره غيرهم فيسقطون . . فيبادرونه بالتورك[1] أولاً على ألفاظه ، ثانياً يسفهون رأيه بلا دليل ، ثالثاً يبهتونه ، رابعاً يغيظونه ، خامساً يشتمونه ، سادساً ربما يلطمونه إن أحسوا منه مقاربة التوفيق»[2]ومن ثم تضيع المصلحة العليا للمجتمع ، ويعزو الكاتب سبب التنافس والتنازع ، علاوة على الجهل ، إلى تساوي الأفراد في الملكات والمكانة الاجتماعية فلا يوجد شخص قيادي يملك مؤهلات أكثر من غيره يمكن للجميع أن يعترفوا له بالفضل فيجل عن المنافسة والانتقاص .

ولتحول المجتمع بعد إعادة الدستور دور مهم في السلوك الاجتماعي إذ سرعان ما نافس الشباب طبقة الشيوخ في إدارة مقاليد الأمور ، وعزّ على أولئك أن تسند الأمور القيادية في الولاية إلى شرائح وسطى من المجتمع فوقفوا في طريقهم «يرمونهم بكل وصمة تلفت عنهم وجهة القوم وجردوهم عن جميع المزايا الفاضلة والأخلاق العالية»[3] ليبقوا على ما لهم من مكانة في المجتمع المتحول الجديد ، ودافع الشباب عن أنفسهم فحدثت خلخلة اجتماعية[4] كان لا بد لها أن تحدث في ظل الطفرة وتغير نظام الحكم دون تدرج وتمهيد .

---

(1) كلمة عامية بمعنى الهزء والسخرية .

(2) الترقي العدد 197 في 24 رجب 1329 هـ/1911 م وأسباب خذلاننا .

(3) المصدر السابق .

(4) من مظاهرها ذيوع مقالات الشتم ، والانتقاد الجارح ، واجتياز كثير من المثل والتقاليد الاجتماعية والدينية .

ومن المقالات التي اهتمت بمراقبة السلوك العام مقالة نسجها كاتبها من خيوط الأحلام ، فقص على قرائه حلماً رآه في منامه يدور حول جملة من الأخلاق والسلوك يهدف من خلالها إلى تقويم المجتمع وتنبيهه إلى سريان بعض المساوىء الاجتماعية فيه كالحسد والكذب والمراء والكبر وغيرها موظفاً في سبيل ذلك المأثورات النبوية وجوامع الكلم ، والأشعار الوعظية .[1]

ومنها مقالة أخرى ينتقد كاتبها اقتصار الناس على ألفاظ معلومة في تبادل التهنئة بالعيد دون الانتباه إلى المعنى الحقيقي للعيد ، ويرفض ميل الناس إلى استعمال بطاقات المعايدة لأنها تحبط المقصود من العيد ، من الزيارات وتطارح الآراء والاجتماع الذي هو من أكبر الغايات في التشريع الإسلامي كما في موسم الحج والعيدين .[2]

ومن هذا القبيل مقالة عرض فيها الكاتب إلى عادة أهل بنغازي في الاحتفال بالمولد النبوي منتقداً الطرق الصوفية ومشاركتها في الاحتفال بأداء بعض الشطحات في ميدان الاحتفال بالمدينة وسط سخرية القناصل والجاليات الأجنبية ، ويستنكر الكاتب مسار هذه الفرق الصوفية ويعدّها بدعة ، ولكنه يخشى أتباعها كما يبدو فيبادر إلى التخفيف من حدة هجومه قائلاً : «إنني أجل وأحترم مبادىء الطرق ومؤسسيها ولكن ذلك لا يمنعني من أن أقول للتلامذة لو كان الأساتذة أنفسهم موجودين في هذا الزمن لمنعوا هذه الشطحات أمام المنتقد الذي يحجنا بقواعد كتابنا»[3] إذ لا يخفى ذيوع أمر هذه الفرق وكثرة أتباعها بل ومساندة الدولة لكثير من خزعبلاتها صرفاً للأنظار عن مكامن الداء .

وفي المسار الآخر للمقالة الاجتماعية المعنية بالسلوك العام ونقده في دائرة تأثير الدولة كتبت مقالات ضافية تعالج مشاكل التربية ، ورعاية الأحداث ، والأخلاق العامة ، ومسؤولية الدولة عنها ، فمن الكتّاب من يعتبر التربية هي الدعامة الأولى في بناء الأمم فيتتبع أطوار نمو الطفل منذ ولادته مبيناً الآثار الايجابية والسلبية للتربية ونوعها وتأثيرها على سلوك الأطفال ، ليصل إلى أن سلوك الدولة تجاه الأفراد يؤدي إلى نفس النتائج التي يؤدي إليها سلوك الوالدين تجاه طفلهما فيقول : «إذا تأملت في هذا الانسان ورأيت أطواره وأخلاقه تعلم منه كيف تشب الأمم وتهرم فإذا كانت الحكومة سلكت بأمتها مسالك النجاح فلا تجني منها إلا ثمار الرفعة والمكانة الحسنة ، وإذا استغرقت في الزهو واللهو وغابت عن

---

(1) انظر : العصر الجديد العدد 21 في 23 رجب 1327 هـ/1909 م «أحلام العصر الجديد» .

(2) انظر : الكشاف العدد 1 في 7 ذي الحجة 1326 هـ/1908 م «المعايدة» .

(3) المرصاد العدد 24 في 30 ربيع الأول1329 هـ/1911 م «رأى في العوائد القديمة» .

معرفة حقوق محكوميها فلا تجني منها إلا إبر الضعة والدناءة والذل والخطر يحلق بها من كل جانب» .[1]

ويعرض الكاتب أحمد الفسطاوي لمشكلة حبّ الذات والنزوع إلى الأثرة والأنانية في مقالة مسلسلة كتبها من مصر متأثراً ببعض دعوات المصلحين بعيداً عن عسف العثمانيين ، فينتقد سلوك الطرابلسيين في إرسال غريزة حب النفس على عواهنها وعدم العناية بتهذيبها حتى أصبحوا يمتازون «بمهارة غريبة في انتخاب مطلبهم مما يضر بالغير وتراهم يتهافتون على العمل النافع لهم إذا كان فيه إضرار للمصلحة العامة»[2] ويعزو هذا العيب المقيت إلى استبداد الحكومة المطلقة «إذ الاستبداد أصل كل فساد في الأخلاق» ولا يخفى أن هذا الرأي أثر من آثار الكواكبي في كتابه «طبائع الاستبداد»[3] الذي يحمل الدولة مسؤولية انحراف الأخلاق والسلوك العام ، وينصح الكاتب بتعويد الأطفال على الاجتماع بأمثالهم للحد من غريزة حب النفس وتعويدهم على روح الجماعة كما تفعل البلاد المتقدمة .

وفي مضمار الاهتمام بالتربية ومسؤولية الدولة عنها ثمة مقالة ينتقد فيها الكاتب جملة من سلوك الشرقيين عامة ، ويقارنها بسلوك الغربيين ، مشيراً إلى بداية العلة منذ الدروس الأولى في التربية حيث يأخذ الوالد في تربية ولده «على أخلاق تشمئز منها النفوس وأول ما يودعه في قلبه الذل والمسكنة بأن يعلمه الوقوف على هيئة مخصوصة قابضاً يده إلى صدره منحني الرأس ويأمره بالركوع لمن يعتقد نفعه وضره»[4] ، وكل ذلك من أجل نيل وظيفة يباهي بها هذا الوالد نظراءه من الطبقات الدنيا ، فالاعتبارات الاجتماعية الموجهة من قبل الدولة تولي طبقة الموظفين والضباط مكانة اجتماعية لها الصدارة دائماً ، وهذا في رأي الكاتب سبب من أسباب تأخر المجتمع الشرقي ، وعكسه تماماً من أبرز أسباب رقي المجتمع في الغرب ، ويعرض الكاتب للعديد من مظاهر الانحلال الاجتماعي الناتج عن التربية الخاطئة كالتدخين ومعاقرة الخمر ، بل يستنكر حتى التحول في الهندام إلى ارتداء رباط العنق الملون والأكمام المنفصلة لغرابتها عن المجتمع ، ويحلل نوعاً من السلوك هو في حقيقته فصام اجتماعي فيقول عن جلوس الفتى في المقاهي وما يصاحبه من أنواع الملاهي : «وإذا

---

(1) المرصاد العدد 22 في 14 ربيع الأول 1329 هـ/1911 م «جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان» محمد الهلالي .

(2) الكشاف العدد 11 في 18 صفر 1327 هـ/1909 «عيوب تربية نفوس أبناء الأمة الطرابلسية» أحمد الفسطاوي .

(3) انظر : الأعمال الكاملة للكواكبي ، دراسة وتحقيق محمد عمارة ، ص 136 وما بعدها .

(4) الترقي العدد 86 في 11 ذي القعدة 1326 هـ/1908 م «الفرق بيننا وبينهم» .

مرّ عليه ــ والله ــ وهو على تلك الحالة ورمى ببصره إلى الأرض موهماً أنه مستح ، والحقيقة أنه يأنف من أن يفهم رفقاؤه الأتعس منه أن أباه ذلك الرجل الحداد أو الحائك مثلاً» .

واهتمت المقالة الاجتماعية كذلك بتحريض الدولة على تقويم أنواع من السلوك باعثها الأول تقصير الدولة في القيام بواجباتها ، مثل عدم رعاية الأحداث وتركهم يجوبون الطرقات ويعبثون بالمارة ويمارسون التشل سحابة يومهم على أرصفة الضياع[1] ، وقُدمت اقتراحات لإيوائهم وتعليمهم تعليماً حرفياً ، للحد من خطرهم على المجتمع[2] ، ومثل مناقشة الازدحام في سوق المشير وما ينشأ عنه من انتهاكات أخلاقية وأضرار مادية حيث يقول أحد الكتاب : «وكثيراً ما نرى الحرائر عاريات الوجوه مكشوفات الأطراف وتشاهد الصبيان سقوطاً على الجباه والأفواه ومشيعي الجنائز وقوفاً يرددون كلمة لا حول ولا قوة إلا بالله»[3] ويلح الكاتب في تحميل الدولة تبعة هذه الحوادث ويقترح أن يفتح باب جديد يكون متنفساً يخفف الزحام عن السوق المذكور .

وتضيق دائرة المقالة الاجتماعية فيتجه الكتّاب إلى مناقشة العادات الاجتماعية السيئة وإضرارها بالمجتمع في شيء من التركيز تناولت العادات في الأكل ، واللباس ، والجلوس ، والمشي ، بيد أن هناك جوانب من عادات المجتمع قد أغفلت إغفالاً تاماً كعادات الزواج وقضايا المرأة وغلاء المهور ، وغيرها ، فالملاحظ أن الجانب النسوي في المجتمع هو جانب معتم، يتحاشاه الكتّاب ما لم يضطروا إليه، وقد أصموا آذانهم عن دعوات تحرير المرأة التي تعصف فيما جاورهم من البلاد العربية في الشرق خاصة ، علاوة عن موقفهم الحذر من الغرب والارتياب في كثير مما يأتيهم عنه في الغالب الأعم .

وكتّاب المقالة يدركون تمام الإدراك أن المجتمع مقيد بسلاسل وأغلال عاتية وأن «العادات هي أشد بلاء وأقوى تأثيراً من كل هذه القيود»[4] ، ويكشف لنا أحد الكتّاب عن نماذج من العادات الاجتماعية التي تسود الشريحة الارستقراطية من المجتمع كعادة الأكل باليد في حضرة العلماء وبالشوكة في حرة الأوروبيين، أو بعض الطقوس التي أخذت مسلّمة رغم تنافيها مع أبسط قواعد التفكير السليم فيقول الكاتب عنها : «فالعادة تؤثر في لباس

---

(1) انظر : العصر الجديد العدد 12 في 10 جمادي الأولى 1327 هـ/1909 م «ميلاد تذكر فتشكر» .

(2) غفل الباحث سالم المرادي في رسالته «فن المقالة» عن مثل هذه المقالة فتعجل بإصدار حكم قال فيه : «لم تظهر قضية التشرد ولم تنتشر في المجتمع آنذاك» انظر : ص 65 من الرسالة المذكورة .

(3) العصر الجديد العدد 7 في 5 ربيع الثاني 1327 هـ/1909 م «السكوت على الضيق لا يليق» وطني غيور .

(4) الترقي العدد 89 في 3 ذي الحجة 1326 هـ/1908 م «تسيطر العادات» خالد القرقني .

الرجل مثلاً ، إذا كان أحد من العلماء يريد المثول أمام آخر أكبر منه حيثية يلزم عليه أن يرتدي بالبنيش (ولو كان في تموز اليمن) وإن كان واحد من الكتّاب كذلك يريد الدخول إلى آمره فلا بد له من نزع (الساكو) أي الرداء الموقي للبرد ولو كان في زمهرير أرضروم»[1] ، ومثل هذا إذا مدّ رجل قدميه في المجلس عدّ استخفافاً بالجالسين .

ومن العادات التي تكرس التفاوت الطبقي في المجتمع الواحد انتقاد سراة القوم إذا مشى أحدهم بصحبة فقير واضعاً يده في يده ، فيعدّ هذا مخلاً بالشرف[2] ، ومن الغريب في هذه العادات ــ إن لم يكن الكاتب قد انزلق إلى المبالغة والتهويل ــ أن يوصف الرجل بالجنون «إذا أكل الأرز قبل اللحم أو نزع من طربوشه نوارته أو جاء إلى مجلس واضطجع على جنبه»[3] ، ولعلّ سيادة مثل هذه النظرة هو ما دعا الكتّاب إلى مناقشة العادات الاجتماعية اليومية حتى في أدق زواياها .

ومن العادات السيئة التي أثارت انتباه كتّاب المقالة الاجتماعية تهافت أهل الولاية على شرب الشاى وإفناء الكثير من الساعات في التحلق حول موقده في بؤر ضيقة أو على قارعة الطريق منبهين إلى مصيبة البطالة التي تنشأ عن الانهماك في شرب الشاى بالطريقة الطرابلسية ، ناهيك عن الأضرار الصحية الناتجة عن رداءة النوع المستورد للولاية من ناحية ، وعن كثرة الغلي التي اعتادها الناس من ناحية أخرى ، وتباينت طرق المعالجة لهذه المعضلة ، فقد تناولها بعضهم من منظور علمي اجتماعي ، فبيّن منافع الشّاي وأنواعه ، وجودته ورداءته ، وتأثيره على الجهاز العصبي ، وكذلك ضرر النوعيات الرديئة منه التي ينتشر تعاطيها بين أوساط المجتمع حيث أخذت «سرايته تزداد يوماً فيوماً ، فقد سرى من الخواص إلى العوام ومن الرجال إلى النساء»[4] ، وتناولها بعضهم من منظور اجتماعي صرف ، فسخر أحد الكتّاب من إدمان هؤلاء على شرب الشاى في حين أن أجسادهم تلوي من الجوع والحاجة ولا يكاد يجمع أحدهم قليلاً من الدراهم حتى يبادر إلى إهدارها في حانات الشاى فينتزع من المشاهد اليومية مشهداً مزرياً حين يقول : «فلا تكاد تمر أيها القارىء الكريم بأسواق المدينة وحاراتها حتى ترى الناس حلقاً متهافتين ولا تهافت الذباب على العسل ، وما تقف مبهوتاً مستلفتين نظرك حتى يلوح لك من بين تلك الجموع وميض

---

(1) الترقي العدد 89 ـ «مصدر سابق» .

(2) المصدر السابق .

(3) الترقي العدد 90 في 10 ذي الحجة 1326 هـ/1908 م «تسيطر العادات» .

(4) الترقي العدد 85 في 4 ذي القعدة 1326 هـ/1908 م «مضار الشاي ومنافعه» عبد السلام المسلاتي .

نار يعلوها دخان متصاعد والناس متكئين[1] على أرائك الرمال . . »[2]

وإذا كان هذا شأن الكتّاب مع الشاي لأنه موجه إلى طبقات العامة في مجمله ، فقد اتخذ الكتّاب منحى آخر تجاه عادة سيئة أشد فتكاً بالمجتمع من الشاي ، تلك هي عادة شرب الخمر ، والذي يبدو لي أن الخمور بشتى أنواعها المحلية والمستوردة كانت معروفة[3] عند الجميع فالطبقات الدنيا لها (اللاقبي) وبعض الأنواع الرخيصة ، ولعلية القوم الخمور الأوروبية الفاخرة ، ومن هنا فانتقاد مثل هذه العادة أمر يثير غضب الحكام والمأمورين فآثر المقاليون السلامة وأغضوا عن هذه النقيصة فلم نعثر على مقالة واحدة تشجب صراحة شرب الخمر في الولاية كما هو الأمر مع الشاي ، بل كل ما كتب عن الخمور كان ذا صبغة علمية صرفة[4] أو كان الهدف الأسمى له المحافظة على نهج سياسي دون النظر إلى مساوىء الخمر الاجتماعية والدينية[5] ، ولعل فيما كتبته الترقي حول هذا الموضوع ما يدعم رأيي حين تقول : «أليس أكثر ما يصيبنا ناشيء من إدمان رجالنا على المسكرات . . وهلا يجدر بالدولة الاسلامية أن تجعل السكر محظوراً على مأموريها ولا أقل من أن يكون ممنوعاً عن السياسيين منهم» .[6]

ومن الموضوعات الاجتماعية التي تطرقت لها المقالة في ولاية طرابلس الغرب الجدل والتجريح ، وهي في هذا تبع لاتجاه ساد الصحافة العثمانية نتيجة فهم سلبي للحرية عقب عودة العمل بالدستور في الدولة العثمانية ، فتدافعت المقالات الجارحة التي يجوز بعضها أصول اللياقة ويتعدى حدود النقد البناء ، ويسف أحياناً حتى يغرق في مستنقع السباب والشتم الشخصي ، وباستعراضنا لأمثلة منها يمكن أن ندرك هذه الثلمة في تاريخ التطور المقالي في ليبيا ، ومن هذه المقالات مقالة كتبها قاضٍ انتقل من مدينة إلى أخرى فأشاع أعداؤه ، أنه نقل لعجزه عن القيام بمهام القضاء فردّ عليهم بمقالة أوشكت أن تستغرق صفحة كاملة صدّرها بقوله : «زعم بعض من لا خلاق لهم وكل ميّسر لما خلق له أننا خرجنا من العجيلات مجلوبين بأمر الوالي ، أو مكرهين من طرف الأهالي ، وكلاهما زعم

---

(1) كذا ، والصواب : متكئون .

(2) العصر الجديد العدد 2 في 29 صفر 1327 هـ/1909 م «الشاهي» .

(3) انظر خطاب الوالي إبراهيم أدهم المنشور في المرصاد العدد 13 بتاريخ 5 محرم 1329 هـ/6 ـ 1 ـ 1911 م .

(4) انظر مبحث «المقالة العلمية» في هذه الدراسة .

(5) نظر : الترقي العدد 187 في 12 جمادي الأولى 1329 هـ/1911 م «الخمر بحث لغوي أخلاقي أدبي» مصطفى الغلاييني .

(6) المصدر السابق .

باطل ، وتخمين من الحق عاطل . . » إلى أن يقول : «فقد جاءوا ظلماً وزوراً والله يعلم أنهم لكاذبون . . . ديدنهم الوقيعة خلقة ودينهم لمقة وصحبتهم فجر كذوب ومعرفتهم برق خلوب . . إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي[1] من يضل»[2]، وهكذا يمضي الكاتب في تقريع خصومه وتبيان مزاعمهم كأنما يترافع في قضية أمام القضاء .

وقد يغيض بعضهم تعاون الأعيان مع الإيطاليين فيشن عليهم حملة يصف فيها أفعالهم وأقوالهم حتى ليكاد يذكر أسماءهم علناً على صفحات الجرائد .[3]

ويشارك المحامون في هذه المشادات فيكتب أحدهم[4] رداً على مقالة انتقد كاتبها المحامين بالولاية واتهمهم بالجهل ، والنصب والاحتيال ، ووصفهم بأنهم من جراثيم الفساد ، وقد فند هذا المحامي مزاعم خصمه ، وهدده بإقامة دعوى قضائية عليه إن عاد لذلك مرة أخرى ، مما دعا الصحيفة إلى قفل الباب نهائياً على هذه القضية .[5]

ولم يسلم من هذه المهاترات حتى النواب في مجلس المبعوثين ، بل شهدت الصحف شيئاً من مناظراتهم ومنافراتهم كما حدث عندما كتب مبعوث بنغازي[6] مقالة على صفحات «الحضارة» عنوانها «بيان لازم» هاجم فيها المبعوث الطرابلسي[7] ، فرد الأخير بمقالة عنوانها «بيان ألزم» اتهم فيها نظيره بأنه من الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، واتهمه ببعثرة الجهود وإغفال التصدي للسياسة الإيطالية تجاه ليبيا إلى غير مما دار في أروقة مجلس المبعوثين في الآستانة .

ومن أشد التجريح والمهاترة ما دار بين محمود نديم بن موسى[8] والهاشمي المكي[9] أبي قِشّة من سباب وشتم وتبادل للاتهامات فعد كل يترصد سبيل صاحبه ، وشغلت صحيفة المرصاد والرقيب من جهة وأبي قشة من جهة ثانية بالخوض في هذا المستنقع الآسن الذي لم

---

(1) سورة النحل الآية 37 .

(2) الترقي العدد 201 في 22 شعبان 1329 هـ/1911 م «لا سلامة من الخلق» .

(3) انظر الترقيالعدد 201 مصدر سابق «صدى من زليطن» .

(4) محمد قدري .

(5) انظر : الترقي العددين 83 و 84 «الحقوا كل صنعة بأربابها» حسن كامل ، و «دفاع المحامين» م . ق .

(6) عمر منصور باشا .

(7) محمود ناجي .

(8) صاحب جريدة الرقيب .

(9) صاحب جريدة «أبو قشة» .

يخدم المقالة ولا الأدب في شيء إلا بقدر ما يبين من الانجراف وراء الأهواء وسيطرة الجاهلية . [1]

ومن أبرز مسارات المقالة الاجتماعية مسار نحا فيه الكتاب منحى يمكن أن نعله في باب الاجتماع السياسي حيث سلطت الأضواء على الممارسات السياسية وعلاقتها بالمجتمع ، فعني معظمهم بالبحث في أسباب تأخّر الشرق عموماً وأهل الولاية خصوصاً ، ولكل رأي في هذه الأسباب ، فمنهم من يرجعها إلى الدورة التاريخية ، ومن ثم يأمل أن يبلغ الشرق منتهى الحضيض ليبدأ نهضـة جديدة فيقول : «سيصل الشرق إلى أدنى الحضيض كما كان وصل إليها الغرب سابقاً . . ستجري هذه الأحوال تحت قانون ونظام سنة الخالق تعالى في الكون»[2] ، ويفلح الكتّاب في تعرية الأمراض الاجتماعية التي تنخر في بناء المجتمع عامة ومجتمع الولاية خاصة كالجهل والحسد والكبر والبغضاء وغيرها من الأدواء التي تعشعش في البنى المتخلفة في كل حين . [3]

ومن الكتّاب من يضع يده على أسباب التخلف الاجتماعي بتحميل الدولة تبعة ذلك ولا يرى في نقل السلطة من يد الخليفة المطلق التصرف إلى يد الاتحاديين بنظامهم الديموقراطي حلاً شافياً بل إن «على الحكومة ورجالها تنبيه أعصاب أمتها المخدرة وإقادتها إلى مجاري الرقي الاقتصادي»[4] وذلك بالحد من المصروفات الكمالية وتوجيهها إلى عوامل النهضة الفكرية والاجتماعية . [5]

وبعض الكتّاب ينتقد المجتمع في الولاية ويتهمه بأنه ميّال إلى الدعة وقانع «بما يسد الرمق ويقوم بواجباته الضرورية ولا يزيد على ذلك إما لما فطر عليه من عدم الميل إلى الكمالات مع حبه الاستكانة وعدم الشهرة وإما لبواعث أخرى من الهيئة الحاكمة»[6] التي

---

(1) انظر : المرصاد الأعداد 13 و14 والرقيب 12 وملف أبي قشة في دار المحفوظات الوطنية .

(2) الترقي العدد 201 في 22 شعبان 1329 هـ/1911 م «هل الذنب على الحكومة أم على الأهالي» م . خ .

(3) انظر : الترقي العدد 200 في 17 شعبان 1329 هـ/1911 م «هل الذنب على الأهالي أم على الحكومة» م . خ . وكذلك الترقي العدد 100 في 28 صفر 1327 هـ/1909 م «لم تقدموا وتأخرنا» م . ن.

(4) الترقي العدد 203 في 7 رمضان 1329 هـ/1911 م «هل الذنب على الحكومة أم على الأهالي» م . خ .

(5) اشتط بعض الباحثين في تفسير هذه السلسلة من المقالات إلى الحد الذي زعم فيه أن الكاتب ذهب إلى أن التمسك بمبدأ الخلافة لا مبرر له ، ففي ظلها زرعت بذور الفساد في المجتمع العربي ، وليس في المقالات شيء من هذا على الاطلاق انظر : فن المقالة في الصحافة الليبية ، سالم المرادي ، رسالة ماجستير ص 65 .

(6) الترقي العدد 100 مصدر سابق «لم تقدموا وتأخرنا» م . ن .

كاد الكتّاب يجمعون على مسؤوليتها عن تدهور المجتمع في الولاية ، فمن مطالب بحجز أموال الأوقاف عن الآستانة وصرفها على دور العلم والمساجد والمشروعات الخيرية التي تعود على المجتمع بالنفع بدلاً من إرسالها «إلى دار السعادة إعانة للمسرفين وتوسيعاً لمعيشتهم السفاهية»[1] إلى مطالب بإنشاء دار للعجزة [2] إلى داع لثورة عاتية تخلّص الولاية من الكوادر الإدارية العتيقة منتقداً طريقة اختيار أولي الأمر فيقول : «ومن الأدواء المزمنة للحكومة السابقة السارية في اللاحقة أنها متى أرادت تقليد الأعمال للرجال إنما تنظر للشكل والزي والهيكل والهندام والقيافة والنسب والحسب والثروة والجاه والمال والعصبية ، فهل الشبان الذين هم رجال الغد ليس لهم نصيب في الهيأة الاجتماعية» . [3]

غير أن الحكومة لم تعدم نصيراً يدافع عنها ضد حملات المطالبين بالإصلاح الاجتماعي إذا انبرى أحد كتّاب «الترقي» يبين حالة الولاية قبل الانقلاب الاتحادي ودرجة التخلّف التي كانت عليها من خلوها من الطرق والمدارس والمشاريع الحيوية . . مما يحتاج إصلاحه إلى حقبة من الزمن غير قصيرة وأن العيب ليس في الحكومة وحدها بل المجتمع نفسه قد وقف حجر عثرة في سبيل الإصلاح وكمثال على ذلك يقول معتذراً عن اختلال الأمن : «إن الذنب في اختلال الأمن العام ذنبنا إذ قد عودّنا شبابنا على المسكرات وتعودنا على حماية السارقين وكتم الشهادة وعدم إرشاد الحكومة إلى الجناة واتفق أقوياؤنا على هضم حقوق الضعفاء منا وأكل أموالهم بالباطل . . فيلزم أن نقوم بإرشاد الأمة إلى ما فيه صلاحها لتكون عوناً للحكومة على نجاحها»[4] وهو بهذا يقرب الفجوة بين مطالب المجتمع ونهج الدولة في سياستها الإصلاحية .

وقد شغل الأمن عدداً من كتّاب المقالة الاجتماعية ، فأفاضوا في توجيه سياسة الولاية للعمل على ما من شأنه ضمان أمن الفرد ومن ثم المجتمع وتذرعوا لذلك بشتى الذرائع فما أن يُعين والٍ جديد حتى يبادره الكتّاب ببسط الأمر بين يديه محصوراً في نشدانهم الأمن والإصلاح التعليمي[5] ، وتضطرب الأمور في بعض ملحقات الولاية فيهرع الكتّاب لتحليل الأسباب المؤدية لذلك ، ويستخلص أحدهم أن الظروف المحلية في ملحقات الولاية لا

---

(1) الترقي العدد 106 في 17 ربيع الآخرة 1327 هـ/1909 م «الأوقاف وما أدراك ما الأوقاف» حسن كامل .

(2) انظر : الترقي العدد 100 في 28 صفر 1327 هـ/1909 م «تقديم الأهم على المهم» محمد وصفي .

(3) الترقي العدد 171 في 12 المحرم 1329 هـ/1911 م «إنما المرء بأصغريه لا ببرنسه وجبتيه» محمد البوصيري .

(4) الترقي العدد 120 في 19 ذي الحجة 1327 هـ/1909 م «والطفرة محال» .

(5) انظر الترقي العدد 100 في 28 صفر 1327 هـ/1909 م «أهم مطالبنا الأولية المعارف والأمنية» .

تتيح الفرصة لتطبيق القانون لعدة أسباب يرجع أهمها إلى سوء اختيار القائمين بالأمر ، وقد كفت يد السلطة الإدارية فوجد المجرمون مخلصاً من تلك السلطة الاستبدادية القاهرة وآنسوا من قوة القانون ضعفاً فصاروا يعيثون في الأرض فساداً»[1] ومن ثم يرى الكاتب «أن حفظ الأمن العام الذي هو أقوى دعائم العمران لا يتم إلا بقوة زاجرة إما قانونية أو عرفية»[2] ، ومن هنا نجد بعض المتصدين للإصلاح الاجتماعي من زاويته السياسية يرى في سطوة المستبدين خيراً ما دامت تحفظ الأمن وتقطع دابر الخارجين عن المجتمع والقانون عندما يقول عن فشو الجريمة بعد العمل بالدستور : «وما هي إلا أمور لم نعهدها زمن دور الاستبداد ، إنما بعد إفشاء الحرية في البلاد ، وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم وما ربك بظلام للعباد[3]»[4] .

ولكن المؤكد أن الحرية قد أتاحت الفرصة لكتّاب الإصلاح الاجتماعي لتوجيه الساسة ، وانتقادهم علناً وأحياناً تذكر أسماؤهم الشخصية ، كما وجد هؤلاء متنفساً لشجونهم المكتومة إبان العهد الحميدي فأفاضوا في سرد حيل وألاعيب المأمورين بل ورجال القضاء أيضاً حتى إن المحاكم كانت تعد «كنزاً لأرباب الغايات وغنيمة لأهلها وأحبولة يصطادون بها منافعهم»[5] عن طريق الرشوة وتحويل المظلوم ظالماً والمدعي مدعى عليه ، ويبدو أن الرشوة قد ذاع أمرها حتى بين صغار الموظفين ، فأولى المقاليون علاجها اهتماماً بالغاً وبينوا مساوئها التي يقول عنها أحد كتّاب المرصاد : «اتسع الخرق على الراقع وانصدع ركن العدالة وانثلم سياج الشرع الشريف والناموس الإلهي وأخفيت الحقوق تحت سجاف الرشوة والاستبداد»[6] ، ويكشف هذا الكاتب عن مسار هذا الداء وتفشيه بين كبار الموظفين ومن ثم سرى إلى صغارهم فأصبحوا من ملّاك العقارات في فترة وجيزة ، وعلا تبعاً لذلك أنين المستضعفين وصراخ المظلومين ، ويتنبأ الكاتب بسقوط الدولة وانهيارها وفقاً لاستقراء التاريخ ما لم يبادر أولو الأمر إلى رأب هذه الهوة السحيقة .

وتتبّعت مقالات الإصلاح المأمورين وموظفي الدولة وانتقدت تقصيرهم في أداء

---

(1) الترقي العدد 116 في 14 ذي القعدة 1327 هـ/1909 م «تنازع السلطة أو ضياعها بين العدلية والملكية» .

(2) المصدر السابق .

(3) استئناس بالآية رقم 30 من سورة الشورى ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾

(4) الكشاف العدد 11 في 18 صفر 1327 هـ/1909 م «مراسلات الكشاف» محمد السنوسي المسلاتي .

(5) الترقي العدد 109 في 10 جمادي الأولى 1327 هـ/1909 م «اللهم كما أنت نأمت عنا سنته» .

(6) المرصاد العدد 7 في 8 ذي القعدة 1328 هـ/1910 م «آفة العدالة الرشاء» .

أعمالهم ، بل تتبّعت حتى حياتهم الخاصة وسلوكهم المستتر ولياليهم الماجنة التي يصف أحد الكتّاب طرفاً منها فيقول : «صعدت إلى الدور فرأيت صالة مفروشة بالزرابي المبثوثة وبوسطها خوان دائرة عليه الأفندية والنسوان ، يعاقرون بنت الحان ويترنمون بالألحان ، وغانية تارة ترقص رقص الجمال وآونه تصفع الأنذال وهم مسرورون ، ومن أفعالها متشكرون»[1] ويمضي في وصف فجور المأمورين حتى إذا دارت بهم الخمر انتهوا إلى الشجار وافتضح أمرهم .

وقد يحوّل بعض الكتّاب هذه المراقبة النقدية إلى محاكمة طويلة يتفنن فيها حتى يخرج بها إلى دائرة الكتابة في الأخلاق أو الصور النمطية ، وقد يطول بعضها حتى يصبح سلسلة تربو على سبع حلقات كما في سلسلة ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ التي خصصها كاتبها لبيان مثالب نائب القضاء الشرعي في «ورفلة» .

ومن القضايا التي شغلت كتّاب المقالة الاجتماعية التعسف في جباية الضرائب فسطرت المقالات التي تطالب الدولة بإصلاح نظام الضرائب وتشجب تعسف الجباة ووسائلهم القمعية التي أدت بالكثير من السكان إلى تفضيل الهجرة[2] على الاصطلاء بنار (الويركو) أما من بقي فعليه أن يتكفل «بإطعام العساكر وتعليق الشعير لحيواناتهم وإعطائهم يومية مخصوصة في صبيحة ما يقلعه ليلاً من الذبائح للأفراد وأما الضابط فإنه يختص بذبيحة مخصوصة ويومية مضاعفة تعادل ما يدفع لمعيته كرات حتى إذا جمع الكل وقدر يكون أضعاف ما تطلبه الحكومة من تلك القبيلة»[3] .

ومما تجدر ملاحظته أن الكتّاب لم يطالبوا بإلغاء الضرائب أو حتى مساواة الولاية بغيرها ــ إذ أن الضرائب في طرابلس الغرب أكثر منها في باقي الولايات[4] ــ بل إن قصاراهم هو طلب التخفيف في سنوات الجفاف والقحط ، حيث بلغ من تعسّف الدولة أن الضرائب تفرض بأثر رجعي[5] ، وتجبى بالسياط والتعذيب الجسدي «والضرب بالعصي والكرباج والربط بالشبك والتعليق في رؤس[6] النخيل» .[7]

---

(1) المرصاد العدد 16 في 26 المحرم 1329 هـ/1911 م «ليلة أنس» .

(2) انظر : الترقي العددين 113 و116 في 23 شوال و 7 ذي القعدة 1327 هـ/1909 «لواء فزان» .

(3) الكشاف العدد 14 في 9 ربيع الأنور 1327 هـ/1909 م «تحصيل الأعشار» .

(4) انظر : الكشاف العدد 15 في 16 ربيع الأنور 1327 هـ/1909 م مقالة عن الضرائب بدون عنوان .

(5) انظر : الترقي العدد 166 في 29 ذي القعدة 1328 هـ / 1910 م «غدر الحكومة عار» سعيد الباروني .

(6) رؤوس .

(7) الكشاف العدد 14 ، مصدر سابق .

ومما زاد الأمر سوءاً أن عضت المجاعة البلاد بأنيابها في السنوات الأخيرة قبيل الاحتلال الإيطالي ، فحاول كتّاب المقالة الاجتماعية إثارة انتباه الدولة لأجدى الطرق لمعالجة هذه المعضلة ، وتباينت اتجاهاتهم في ذلك تبايناً شديداً ، فمنهم من يحمّل الدولة وزر الأشلاء الذاوية تحت الجدر ، وفي الطرقات ، لتقاعسها في جلب الحبوب من الولايات الأخرى في بداية سنوات القحط بحجة أو هي من نسيج العنكبوت ، حين رأى مجلس إدارة الولاية أن بذور الحنطة والشعير المستوردة لا تنتج إنتاجاً جيداً في التربة الطرابلسية فكتب أحد هؤلاء الكتّاب قائلاً : «فاحتياج الفلاح للبزر لا لإصلاح جنسه ليروج في عالم التجارة بل ذلك لاتخاذه عوناً على كيد الزمان ودفع غائلة المجاعة العامة في زمن الخصب حيث إذا كانت هذه السنة خصبة ولم يزرع بها شيء فحالتها وما قبلها سواء ، فما ضر لو جُلب وزُرع وحُصد فوجد أدنى من نوعه .. أما يحافظ الحيات[1] الانسانية أما سيكون سداً دريعاً ودرعاً منيعاً لهؤلاء[2] المساكين الذين ملئو[3] الأزقة والأسواق»[4] .

ومنهم من تصدى لجشع التجاروالمحتكرين الذين يصدرون البقية الباقية من الحبوب في الولاية إلى خارجها سعياً وراء ربح عاجل يضرسون به هياكل المتسولين ، في حين أن الدولة لم تحرّك ساكناً حتى بلغ اليأس بأحدهم مبلغاً سأل الله علانية أن «يبدّل هاته الأيام ويجلي ما غيهب من الغمام وينير بالزوال كسوفه ويصرف بيد نقاد المنية زيوفه ولا سلام»[5] ومثل هذه الصرخة تحمل في ثناياها بذور الثورة التي كانت واقعة لا محالة لولا الاحتلال الايطالي .

ومن الكتّاب من عالج مشكلة المجاعة من زاوية أخرى حيث إن سكّان الدواخل والبادية قد نزحوا من مواطنهم ولاذوا بمركز الولاية (طرابلس) فكثرت الخيام والأكواخ داخل المدينة ، فاقترح على الدولة ترحيلهم إلى مناطق معينة وإيجاد عمل للقادر على الكسب ومساعدة العجزة منهم[6] ، تحقيقاً لما يراه الكاتب من «أن مزاحمة هؤلاء للسكان واختلاطهم بهم مع كثرة مضاهم وتفشي الحمى بينهم من تأثيرالجوع وعدم النظافة المعتاد لهم مما يدعوا

---

(1) الحياة ، ومن الاستعمال الشائع في تلك الفترة تعدية الفعل «حافظ» بنفسه .

(2) لهؤلاء .

(3) ملأوا .

(4) الكشاف العدد 4 في 27 ذي الحجة 1326 هـ/1908 م «مقالة عن المجاعة بدون عنوان» .

(5) العصر الجديد العدد 11 في 3 جمادي الأولى 1327 هـ/1909 م «صراخ لعله يفيق» .

(6) الترقي العدد 200 في 17 شعبان 1329 هـ/1911 م «خطران يهددان البلاد» .

إلى سراية تلك الأمراض وتكون العاقبة شراً على البلاد ، وأما كثرة السرقات وتعدد النهب مما يعدّه البعض انسلاباً للأمن العام فذلك أمر ضروري في كل مجتمع غير منتظم»[1] ، فهو هنا ينبه الدولة إلى حالة الفوضى وذيوع الجريمة بأنواعها، وانتشار الأمراض والأوبئة حفاظاً على أرستقراطية المدينة بالدرجة الأولى وحمايتها من أبناء البادية والقرى ، وتعددت طرق المعالجة حتى وصلت إلى الاستغاثة[2] ، لكن أحداً لم يجرؤ على تذكير الأستانة بأيام المجاعة في الأناضول وما فعله الليبيون لكسر شوكتها وإنقاذ إخوة لهم في الدين من أنيابها .

---

(1) انظر : المرصاد العدد 26 في 16 ربيع الثاني 1329هـ/1911 م «لو كان الفقر رجلاً لقتله» .

(2) الترقي العدد 200 مصدر سابق .

المقالة الاقتصادية

1 - الفترة الأولى : ـ خالية

2 ـ الفترة الثانية :

أ ـ ترجمة المقالات الاقتصادية
ب ـ المقالة الاقتصادية والصناعة
جـ ـ المقالة والمبادىء النظرية للاقتصاد

3 ـ الفترة الثالثة :

أ ـ الاقتصاد السياسي
ب ـ الاقتصاد الاجتماعي
جـ ـ الاقتصاد التطبيقي

المقالة الاقتصادية

علم الاقتصاد علم حديث النشأة ، وهو قرين للثروة ولا معنى لوجوده إن لم توجد ، ولا يكفي أن يعرف العالم الغربي قيمة الدراسات الاقتصادية ليصبح لها نظير عند الشرقيين ، خاصة في جزء كولاية طرابلس الغرب أمضه الفقر والعوز ، وأزرى به التخلف والجهل ، ومن هنا فإن المقالة الاقتصادية لم تخطر ببال أحد طيلة الفترة الأولى التي انفردت فيها (طرابلس الغرب) بالصدور ، بل إنها في فترتها الثانية ـ وهي فترة ازدهرت فيها معظم أنواع المقالة ـ ولدت ولادة عسيرة ، ووقفت على رجل واحدة معتمدة على نقل أو تعريب ما ينشر في صحف الأستانة في معظمها .

وقد اعتنى بعض الكتّاب بالتنبيه على أهمية الموارد الاقتصادية وتعددها في الولاية ، ولمسوا العجز الفاضح في مستوى الصناعة والتمويل الاقتصادي فكتبت مقالات في حث الأثرياء على إنشاءالمصانع والأخذ بيد صغار الصناع لتطوير مصنوعاتهم الأمر الذي كان له صدى حتى عند عامة القراء كما يبدو من افتتاحية إحدى هذه المقالات التي تقول : «سرّنا ما ظهر من الارتياح بما قابلنا به من الاستحسان أكثر القراء الكرام مما نشرناه في أحد أعدادنا الأخيرة عن الصناعة الوطنية»[1] .

ويستعين محمد البوصيري صاحب الترقي بإحدى المقالات من (لسان الحال) ليسد ثغرة في التعبئة الاقتصادية يبدو أن الكتّاب في الولاية لم يوفوها حقها ، تدور حول استثمار رأس المال في الصناعة المحلية ، وتسليط الضوء على ابتزاز الأوروبيين للثروات عن طريق

---

(1) الترقي العدد 29 في 22 شعبان 1315 هـ/1897 م «الصنايع» محمد البوصيري .

استيراد المواد الخام وإعادة المادة مصنعة بعد ذلك إلى مصدرها الأصلي ، وفي معرض حديثه عن استغلال تجار أوروبا لجهد الزراع ومصدري البلاد العثمانية يعرّج الكاتب على عرض بعض وجهات النظر ذات المنشأ الاشتراكي[1] في علاقة صاحب الأرض بالعمال وأساليب الرأسماليين في استغلال جهد العمّال حينما يقول : «فإن هؤلاء ــ العمال ــ يتعهدون بحرث الأرض وغرسها والمحافظة على الزرع وحصده وجمعه ببذل معلوم من المال غير أنه ــ رب المال ــ يشترط على هذا الشريك أو المزارع ألا ينفق دراهمه في خارج المزرعة بل يجد عند صاحب العقار ما يحتاج إليه من الملبس والمطعم وبهذه الطريقة تعود إلى صاحب العقار أمواله بربح جزيل ويكون قد عالج الأرض وغرسها على نفقة مزارعه»[2] ، والكاتب يناقش مشكلة منافسة المصانع الأوروبية المتطورة بمصانع بدائية بمنطق طوباوي بعيد عن أساليب المعالجة الاقتصادية ، ومن نافلة القول أن الولاية لا يهمها من هذه القضايا شيء ، فهي بعيدة عن التصنيع البدائي بله التصنيع المتطور ، وإعداد الخطط لمنافسة المنتجات الأوروبية .

وللوقوف على مبلغ مستوى التصنيع في هذه الفترة نعرض مقالتين نستشف منهما الدرك الذي عليه هذا الركن الاقتصادي في الولاية ، فقد نشرت طرابلس الغرب ــ وهي صحيفة الولاية الرسمية وما ينشر فيها يعكس إرادة الدولة وجهدها في تسيير أمور البلاد من شتى النواحي ــ نشرت مقالة عن صناعة الحليب ومشتقاته ، ما إخال طرق الفلاحين تبعد عنها كثيراً ، يقول كاتبها : «يوضع الحليب الذي سيؤخذ قشده في أوعية واسعة غارقة مهما أمكن ، وحيث تتفرق المادة السمنية التي داخل السطح بهذه الصورة وتعلو فوقه ففي ظرف زمن قليل تفرز المادة المذكورة التي في نفس الحليب بالتمام»[3] ، ومقالة أخرى في صناعة الأحذية ، يوصي كاتبها بأن يتخذ كل شخص قالباً لرجله ليصنع له نعل بمقاسه ، ويعيب إهمال القواعد الصحية في صناعة الأحذية قائلاً : «كان من الألزم أن تجعل النعال أيضاً موافقة لبعض القواعد الصحية كسائر الملبوسات لكن لا نزال نرى الأساكفة والمشترين لم

---

(1) بلغ التململ في أوروبا غايته عقب الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر من استغلال النظام الرأسمالي ، واتساع الهوة بين الطبقات ، حيث تركزت الثروة ، وهيمن الانتاج الآلي ، وأتاحت أجواء الحرية الفرصة لظهور الكثير من المفكرين الذين يدعون إلى إقامة مجتمع جديد بمختلف الأيديولوجيات من لدن سانت سيمون حتى كارل ماركس ، حيث أصبح للاشتراكية مفهوم محدد ، للمزيد انظر : معجم الدبلوماسية والشؤون الدولية ، سموحي فوق العادة ، مكتبة لبنان ــ بيروت 1974 م ص 399 .

(2) الترقي العدد 29 مصدر سابق .

(3) طرابلس الغرب العدد 1063 في 18 ربيع الأول 1322 هـ / 1904 م على بيان صناعة الحليب ــ أعمال القيمق «القشدة» والسمن» .

يهتموا أصلاً بذلك مكتفين بمجرد الظرافة الخارجية»[1] ويسرد جملة من النصائح في اختيار الجلد ونوعه وبعض الأقيسة وأنواع الصبغ إلى غير لك مما يهم الصنّاع .

ومن الملاحظ أن الصناعات المحلية ذات الصبغة الوطنية كالألبسة الليبية وصناعة الحصر والفخار لم يلتفت إليها على الإطلاق ، وأظن أن مردّ هذا إلى كونها لا تهم الحكّام الأتراك فلم تلق نصيباً من الرعاية والتوجيه .

وعلى صعيد آخر ثمة بعض المقالات التي تتحدث عن أسس علم الاقتصاد ، وشيء من تاريخه ربما قصد منها تبصير أرباب الصناعة والتجارة بالأساليب العلمية الصحيحة التي يجب أن تُبنى عليها معاملهم وتجارتهم ، منها مقالة تتحدث عن تقسيم رأس المال إلى رأس مال ثابت ، ورأس مال متداول يقول كاتبها : «وقد قسم الاقتصادي آدم سميث[2] الثروة العمومية العائدة لكل قوم على الوجه الآتي ، وهي أولاً الثروة التي تنفق رأساً ولا تجلب تمتعاً ولا إيراداً كالذخائر[3] والأرزاق والمأكولات والمشروبات المخصوصة لتعيش الناس والمساكن والنقود والواردات التي تصرف في أسباب المعيشة ثانياً القسم الثابت من رأس المال أي ما يحصل منه إيراد وتمتع بدون أن يتبدل صاحبه وهو عبارة عن الأربعة الأنواع الآتي ذكرها من الأشياء ، أولها الماكينات والأنوال وسائر أنوا الآلات والأدوات المسهلة للأعمال الصناعية ثانيها الدكاكين والمخازن والمعامل ومباني المزارع كالاصطبلات والمستودعات وكافة المساكن والانشاءات التي يحصل منها إيراد وتمتع سواء لصاحبها أو لمستأجرها ، ثالثها الإصلاحات الحاصلة في الأراضي ، رابعها ما يكسبه الأفراد من المهارة والمعرفة»[4] ، ولكن مثل هذه المقالة قد اختفت باختفاء مجلة الفنون[5] التي كانت تعنى بنقل وترجمة المعارف الحديثة التي كان يذهب معظمها صرخة في واد ، حتى دخلت الولاية في الطور الثالث حيث فتحت الحرية نافذة على علم الاقتصاد بشتى فروعه ، فانثالت المقالات في اقتصاد الدولة والولاية ما وسعها الجهد وأسعفتها المعرفة .

والذي لا مراء فيه أن صدور الدستور قد أحدث أثراً بالغاً في إيقاظ الهمم وإرسال

---

(1) طرابلس الغرب العدد 1146 في 20 محرم 1324 هـ/1906 م «نعل صحي قوي» .

(2) ولد سنة 1723 م أسكتلندي الأصل ، من كبار المفكرين الاقتصاديين ، مارس التدريس في جامعة جلاسكو ، من أهم مؤلفاته (ثروة الأمم) توفي 1790 م ، انظر : الموسوعة الميسرة ص 1016 .

(3) المقصود ما يدخر من قمح أو شعير.

(4) ملف مجلة الفنون ، دار المحفوظات الوطنية ـ طرابلس .

(5) لم يصدر منها إلا 27 عدداً .

المنى من عقالها ، فغادرت وكناتها مستبشرة بصبح جديد ، وأدلى كل بدلوه في خلق حركة بعث فكرية ، ولو قُدّر لها أن تبقى لكانت شيئاً مذكوراً ، وإن من أهم القواعد التي شاء لها أربابها أن تكون أساساً من أسس النهضة، المقالة الاقتصادية حيث رُسم لها مسار ذو ثلاث شعب : أولاها الاقتصاد السياسي[1] (Politicaleconomy) والثانية الاقتصاد الاجتماعي[2] (Socialeconomy) والثالثة الاقتصاد التطبيقي[3] (Appliedeconomy) ، وكثيراً ما تتداخل هذه الشعب في مقالة واحدة .

وقبل الخوض في تفصيلات هذه الشُّعب ثمة سؤال يفرض نفسه، وهو لماذا أغفل الكتّاب باقي فروع الاقتصاد الأخرى ؟ فلم نجد أثراً للمقالة في الاقتصاد الزراعي أو التدبير المنزلي مثلاً مع شدة احتياج الولاية إلى مثل هذه المقالات ، والذي يتراءى لي أن الاقتصاد في الولاية تنازعته عوامل متشعبة من أهمها تسلط رأس المال الإيطالي على مقدرات العمل والانتاج ، فكانت الحاجة أمس إلى الاقتصاد السياسي ، هذا من جهة ، ومن الجهة الأخرى إصرار رأس المال الوطني على إيجاد مكان لائق له عن طريق توظيف القدرات الاجتماعية وتهيئتها للقبض على ناصية الأمور فكانت مقالة الاقتصاد الاجتماعي ، وعلى الصعيد الثالث أزرت المجاعة وتقاعس الدولة بالوضع العام في الولاية فبحث الكتّاب عن وسائل تطبيقية لدفع شبح الموت أو الهجرة فكانت مقالة الاقتصاد التطبيقي .

ولكي ندرك جهد كتّاب المقالة الاقتصادية لا بد لنا من مدخل باستعراض مقالة شاء لها كاتبها أن تكون بمثابة تعريف بعلم الاقتصاد منذ جذوره القديمة إلى فروعه المعاصرة ، واتخذ لها عنواناً يحمل في ثناياه اعتراضاً على مصطلح كُتبت له السيادة حتى يومنا هذا ، فقد كتب الدكتور سليمان غزالة سلسلة من المقالات عنوانها «الاقتصاد السياسي أو التدبير الاجتماعي» خصص المقالة الأولى منها لتأصيل معنى التسمية من الجانب اللغوي والاصطلاحي ، وفضل فيها استعمال (التدبير الاجتماعي) لدلالته على المعنى ، وهجر (الاقتصاد السياسي) لكونه ترجمة حرفية عن لغات أخرى لا تتفق والدلالة الدقيقة للمعنى في العربية ، ثم يصور تلازم الاقتصاد للحياة بأنه من الغرائز الفطرية عند جميع الحيوانات ، وأن البشرية قد عرفته منذ الأزمان الغابرة مستعرضاً أطوار نشوئه عند اليونانيين

---

(1) يعنى بسياسة الدولة الاقتصادية عموماً من حيث الأسعار والعملات والتجارة الداخلية والقوانين المؤثرة في عملية الانتاج والتوزيع .

(2) يدرس حاجة المجتمع الاقتصادية ومن أبرزها وضع العمال .

(3) يبحث في الوسائل التي تنمي الاقتصاد بزيادة الانتاج وإصلاح النظم الاقتصادية .

من عهد سقراط[1] وتلاميذه ، وعند غير اليونانيين مستشهداً بيدبا[2] وفلسفته ليصل إلى أن المسائل الاقتصادية كانت قد شغلت العلماء في جميع الأعصار ولكن الأفكار والعوائد والأخلاق عند الأقدمين كانت غير مستعدة لها فلم يقبلها ولم يحتفل بها العموم»[3]

وكما أسلفت فإن الدافع الأبرز إلى الاهتمام بالاقتصاد السياسي كان سيطرة رأس المال الايطالي على الولاية الذي كان يمضي وفق خطة ذات أبعاد سياسية صرفة تصبّ في قناة الاتجاه الاستعماري ، فلهجت المقالات بتبيان خطر هذا الاستثمار لرأس المال الأجنبي الذي وصل إلى إدارة أهم المرافق في الولاية ، كما نرى في إحدى هذه المقالات التي تندد باحتكار شركة إيطالية للنقل البحري بين مرافىء الولاية حين قالت : «إن شركة روباتينو[4] الإيطالية قد احتكرت منذ مدة طويلة سواحل هذه الولاية ، ولعدم وجود مزاحم لها قد أخذت تستعبد على[5] التجار وتعاملهم في كل زمان حسبما تريد، ولقد تكررت شكوى التجار من سوء معاملاتها خصوصاً وقد ظهرت في المدة الأخيرة بمظهر سياسي وأنها تخدم سياسة إيطاليا أكثر مما تخدم مصالح التجارة»[6] وصاحب هذا النقد لوم لحكومة الاتحاديين يصور خيبة الأمل التي شعر بها مثقفو الولاية ، فقد أدركوا أن الشعارات المرفوعة هي شعارات للاستهلاك فحسب ، وأن السياسة الاقتصادية للدولة ستمضي في مسارها القديم حيث الولايات حقل والعاصمة هي البيدر ، وذلك حينما سحبت نظارة البحرية[7] باخرة النقل الوحيدة (باندرمة) التي كانت تسير بين سواحل درنة وبنغازي ومصراته وطرابلس تاركة الولاية تحت رحمة شركة روباتينو الإيطالية بعد أن كانوا يتأملون وأن ينظم إليها غيرها ليصير السير في هذه السواحل منتظماً ، بل أملوا أن يحصل في المستقبل ربط هذه السواحل مباشرة بعموم السواحل والثغور العثمانية وانتظام سير البريد ليتخلصوا من شرور تلك

---

(1) فيلسوف يوناني ولد سنة 469 ق .م ، خلد تلميذه أفلاطون تعاليمه في محاوراته حوكم وحكم عليه بالموت سنة 399 ق .م ، انظر : الموسوعة الميسرة ص 985 .

(2) حكيم هندي تنسب إليه مجموعة قصص خرافية (البانشاتنترا) ، وقد يكون شخصية خيالية انظر : الموسوعة ص 458 .

(3) الترقي العدد 188 في 19 جمادي الأولى 1329 هـ/1911 م «الاقتصاد السياسي أو التدبير الاجتماعي» سليمان غزالة .

(4) رأسمالي إيطالي يدعى (فلوريو روباتينو) Florio Rubattino كانت سفنه تربط سواحل الولاية بإيطاليا ثم تحول هذا الخط الملاحي إلى ملكية بنك دي روما ، انظر : الطريق إلى لوزان ص 47 .

(5) (على) هنا زائدة ، وأظنه خطأ من المحرر حيث إن العدد كتب باليد على ألواح الحجر .

(6) الترقي العدد 77 في 23 شعبان 1326 هـ/1905 م «التجار والشركة الايطالية» .

(7) لها نفس مهام أمانة المواصلات والنقل البحري .

الشركة الايطالية إذ فاجأهم الخبر بأن نظارة البحرية قد استدعت باخرة باندرمة إلى دار السعادة فساءهم ذلك وتعطلت مصالح التجار الوطنيين» . [1]

وفي إحدى دوائر الاقتصاد السياسي يضن كاتب بثروة الولاية حتى عن العثمانيين أنفسهم فيرى أن ثروة الولاية أولى بها أن تكون لأهل الولاية ويحض الأثرياء على بذل المال في سبيل ارتياد مجال كشف الثروات الطبيعية ، والذي دعاه إلى هذا هو قدوم إحدى الشركات من تسالونيكا ـ حينما كانت ولاية عثمانية ـ للتنقيب عن المعادن في الولاية فيقول : «حتى إذا عثرت على معدن من المعادن تستأثر به وتفوز باستخراجه وتستقل بخيراته ، هذا كله يجري ونحن ننظر ولم نفكر في شيء من ذلك ولم نتسابق لاغتنام كنوز أراضينا التي ادخرتها لنا هذه المدة الطويلة»[2] وفي هذا الإطار يبيّن الكاتب أهمية معدن الفوسفات[3] الذي تم كشفه في الخمس ووجوه الاستفادة منه صناعياً وزراعياً ويعرض لبعض التقديرات الفنية لكمياته التي قد تصل إلى تسعين سنة من الاستثمار وإيضاح بعض المصاحبات الاقتصادية كتأثيره على معدن الميتا[4] في تونس وما قد ينشأ عنه من تدهور أسعاره ، ويحذّر الكاتب من الشركات الأجنبية ويحرض على عدم تمكينها من الحصول على امتياز استخراج الفوسفات ويقترح على أرباب المال في الولاية تأسيس شركة مساهمة عامة تتولى الكشف عن المعادن واستثمارها ، قطعاً للطريق على الشركات الاجنبية ، وبالطبع المقصود بالدرجة الأولى هي الشركات الإيطالية ، مذكراً إياهم بأنهم «أولى وأحق باستثمار ذخائر وطنهم حيث إنه إذا أخذها أرباب القبانيات[5] الأجنبية لا يستفيدون من ذلك شيئاً اللهم إلا استخدام بعض أنفار من العملة ولا إخالهم يفعلون بل لا يأتون بهم إلا من أبناء وطنهم وبني جلدتهم»[6] ، ويعرّى أساليب هذه الشركات في استغلال بعض العملاء من أهل النفوذ الذين يشترون الأراضي لصالح المستعمرين فيقول : «فتسابق إليه بعض من لهم كلمة ونفوذ واشترى تلك الأراضي بثمنٍ في مقابلة ما بباطنها لا يُعدّ شيئاً يذكر ، ولا مانع من أن تكون يدهم في ذلك مستعارة . . مع أن الشايع أن هذه الأراضي «أميرية»[7][8] وينبه

---

(1) الترقي العدد 77 مصدر سابق .

(2) العصر الجديد العدد 13 في 17 جمادي الأولى 1327 هـ/1906 م «المعادن في طرابلس الغرب» .

(3) ملح نتج عن امتزاج حامض الفصفوريك بأحد المعادن الأرضية كالحديد أو البوطاس ، (الأطرون) .

(4) معدن يستخدم في تزيين الأواني المعدنية الخزفية .

(5) المقصود الشركات ، وهو تحريف لكلمة كامبني مجموعة بالعربية .

(6) العصر الجديد العدد 13 مصدر سابق .

(7) أميرية : تعود ملكيتها للدولة .

(8) العصر الجديد العدد 13 مصدر سابق .

الكاتب أبو قشة إلى بعض أساليب المستثمرين خاصة بنك دي روما في الاستيلاء على الأراضي عن طريق توظيف الأعيان والوجهاء من أرباب المدن لمعرفتهم بما «هو مغروس في النفوس من إجابة طلب صاحب الشركة المالية أو المنصب أو الحيثية» . [1]

ومن هنا نرى أن الاقتصاد المحلي للولاية قد تمّ اختراقه اختراقاً تاماً ، وأن الطابور الخامس قد فعل فعله في نخاع البلاد على شتى الأصعدة ، بل وصل الأمر بدهاة السياسة الاقتصادية إلى توظيف موقف الدولة العثمانية السياسي لصالح اقتصاد بلادهم وذلك باستغلال الخصومة بين النمسا والعثمانيين في الترويج لبضائعهم بتحريك أحد المأجورين ليكتب سلسلة من المقالات يلهب فيها الحماس لمقاطعة بضائع النمسا وقد جاء في إحداها ما يلي : «نحن وإن كنا لا يمكننا العلم بالقرارت التي يمكن أن يجريها التجار نقول حبذا لو يشرعون في رفض السكر الذي لا يزال يدخل منه إلى بلدتنا نحو ألف ليرا في كل أسبوع»[1] ليبدأ نوعاً من الدعاية المباشرة لسكّر مرسيليا فيقول : «نعم يرد إلى الولاية سكر مارسيليا زيادة عن سكر أوستريا ــ النمسا ــ لكن قدره قليل فإنه يمكن أن لا يتجاوز مائة ليرا في الأسبوع ، وسكر مارسيليا وإن كان أغلى بعشر أو خمس عشرة بارة في الأقة لكنه أحسن من الآخر نوعاً وقوة فالفرق مقابل لنفاسته في الواقع»[3] ولم يكتف الكاتب بهذا العرض الفاضح لأهداف محركيه بل يدعو أيضاً إلى أن يعلن التجار الذين يبيعون السكر المارسيلي عن أنفسهم ليعرفهم الناس متطوعاً بذكر أسماء بعضهم وهم بالطبع من الإيطاليين أو من عملاء بنك دي روما قائلاً : «وقد حققنا الآن بأن (آرنستولابي)[4] و(فازيسي) ممن يدخلون سكر مارسيليا فلو أنهم أنفسهم يعلنون إلى الأهالي محلاتهم التي تبيع السكر بأسمائهم بإعلانات ووسائط أخرى حتى لا يبقى أحد يأخذ سكراً من محل ما لم يفهمه سكر مرسيليا» . [5]

ومن هنا نرى أن المقالات التي خاضت غمار الكتابة في الاقتصاد السياسي قد انتبهت إلى بعض مخططات الاجتياح الاقتصادي الذي تعرضت له الولاية وغاب عنها بعضها الآخر فنشرت مثل هذه المقالة التي ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب .

ولكتّاب المقالة الاقتصادية رأي في سياسة الدولة المالية يعلن عنه أحدهم بعد أن

---

(1) المرصاد العدد 26 في 16 ربيع الثاني 1329 هـ/1911 «زميل صاحب المرصاد» أبو قشة المتقاعد .

(2) الترقي العدد 84 في 27 شوال 1326 هـ/1908 «مقاطعة ــ أو حرب اقتصادية» .

(3) المصدر السابق .

(4) تاجر ايطالي تعاون مع بنك دي روما وباع اسمه التجاري له ، انظر الترقي العدد 191 ، أما الآخر فلم أعثر له على ترجمة .

(5) الترقي العدد 84 مصدر سابق .

اشترطت فرنسا شروطاً مهينة عندما طلبت منها الدولة العثمانية قرضاً تسد به عجزاً في ميزانيتها ، ويتلخص في الاستغناء عن المشاريع غيرالضرورية والاقتصاد في النفقات ، حتى إذا ألحت الضرورة على الاقتراض فإن على الدولة أن تتجه إلى بريطانيا وألمانيا للحصول على قروض بدون شروط أو بشروط غير مجحفة ، ولا يخفى أن مثل هذه المعالجة لمشاكل الدولة هي معالجة فاترة ينقصها الحماس والصدق الذي لمسناه في معالجة أمور الولاية وتحمل في ثناياها يأساً موارباً من جدوى فعالية سياسية الاقتراض التي تعمه الدولة في غياهبها عبّر عنه الكاتب بقوله : «فلذلك نرى الفكر العام الآن يتألم من تتابع القروض واستلاف الأموال من مصارف الأجانب وكل يصرح بأن لا دواء للتخلص من هذه الحالة إلا بالاقتصاد والتأني في المشروعات الكمالية والاقتصار على إعمال ما هو ضروري ومفيد من الوجهتين الاقتصادية والسياسية» . [1]

أما المقالة في شقها المعني بالاقتصاد الاجتماعي فقد تولى الدكتور سليمان غزالة مهمة التعريف بعلم الاقتصاد الاجتماعي باستفاضة بالغة، وغطى الجانب النظري فيه مجادلاً ومحاوراً لمن يقول بعدم أهميته ، أو من ينكره أصلاً ، وردّ على حجج الفريق المقابل له مما ينبئنا بطبيعة الأجواء الفكرية السائدة آنذاك ، وهي في مجملها صدى للنهضة العلمية في أوروبا سواء من رافدها الأصلي مباشرة أو عن طريق الشرق العربي ، وما يقابلها من بيئة محافظة تنظر إلى المعارف الحديثة بشيء من الريبة والحذر لصدورها عن الغرب المسيحي تحت ضغط ذاكرة ليس فيها ما يبعث على الثقة بما يرد عن الغرب ، ويمضي الكاتب بعد ذلك في بيان منزلة الاقتصاد الاجتماعي بين المعارف الانسانية ليخلص إلى أن «فوائده ربما تكون أعظم وأنفع للانسان من بقية العلوم ، لأن الرجل مهما كان عاجزاً ذاهلاً عن معرفة الحقائق والدقائق لا بد من أن يخطر له أحياناً ويسأل نفسه هذا السؤال : لماذا الناس يخدم بعضهم بعضاً بأجرة مقدرة ؟ ولماذا قد تخصص كل منهم لتهيئة بعض مما يحتاج غيره إليه . . .» . [2]

ومن كتّاب المقالة من ابتعد عن المداخل التي يشوبها الجدل والصراع الفكري ، وكتب عن زاوية واحدة من زوايا علم الاقتصاد الاجتماعي ومن ذلك مقالة تناولت تباين طرق السعي في العمل وما يترتب على كل طريق سلباً وإيجاباً كتقسيم الناس إلى فئات «منهم من جد وكدّ فأثرى وأخذ حيزاً مهماً في الهيئة الاجتماعية ومنهم من جد وراء العلم فأصبح عالماً ولكنه يعد أيضاً ساع في نوال الثروة إذ أن الثروة لا تنحصر في المال فقط بل إن العلم

---

(1) الترقي العدد 157 في 12 رمضان 1328 هـ/1910 م «القرض العثماني» .

(2) الترقي العدد 199 في 9 شعبان 1329 هـ/1911 «توطئة في التدبير الاجتماعي» سليمان غزالة .

يعد ثروة أيضاً ويدعى (ثروة معنوية) ومن الناس من قعد عن العمل فأصبح فقيراً مالاً وعلماً وأضحى عالة على الهيئة الاجتماعية»[1] فلا يشغل الكاتب نفسه بأكثر من تتبع السعي وأثره في المجتمع حتى نهاية المقالة .

وقد تتداخل فروع الاقتصاد في مقالة واحدة إما لعدم وضوح الفوارق بينها في ذهب الكاتب ، وإما لترتبها على بعضها كما سنلمس من عرض مقالة شقها الأول في الاقتصاد السياسي وشقها الآخر في الاقتصاد الاجتماعي ، فقد أبان الكاتب عن فهم دقيق لمخطط ايطاليا الذي عرف بالاحتلال السلمي ، وغايته الاستيلاء على شرايين الاقتصاد في الولاية وانتظار الفرصة الملائمة لضمها إلى ممتلكاتهم ، ويطرح سؤالاً ينتقل بالاجابة عنه إلى الشق الاجتماعي ويضع يده على مكمن الداء ، ويشخص المرض دون مواربة أو تستر فيقول : «إن الجواب عن هذا السؤال قد يكون بديهياً لدى من لم يقدح زناد الفكر ولم يكن واقفاً على كنه الأحوال الاجتماعية ولا خبرة له بحقيقة الحالة الاقتصادية في ولايتنا ، إن تتابع الجفاف وتوالي سني القحط أورث الأهالي انحطاطاً في الأخلاق وذهب بكثير من المزايا والعادات الاجتماعية فلذلك لم يبق ذلك الجفاء الفطري الذي كان يسوق كل فرد للتباعد في معاملة أعداء بني جنسه ووطنه»[2] ، وهذا التحليل يكفي لفهم البنية الاجتماعية وتأثير الانهيار الاقتصادي عليها ، ومن ثم يطرح الكاتب حلولاً ليس بوسع مجتمعه المتداعي ولا دولته المرمة أن تفي بشيء منها .

ومن هذا القبيل مقالة أخرى ترشد إلى سبيل الخروج من هذه الدوامة عن طريق إنشاء الشركات المحلية وإسقاط جانب الدولة من الحساب التي لم تفعل شيئاً للحد من «إبتزاز الاجنبي لأموالهم واستنزاف الموسوي[3] لدماء حياتهم»[4] ، وتشجب المقالة الانهيار الاجتماعي والشعور بالعجز الذي انعكس في عدة مقولات يبدو أن ترديدها كان شائعاً كقول كاتب المقالة : «وإذا راجعت أصفاهم رأياً وأرجحهم عقلاً لا تراه يبادرك إلا بقوله إن الطرابلسيين لا يمكن أن ينجحوا في عمل يعود على بلادهم بالفوز أصلاً وكتب الله عليهم أن يبقوا إلى قيام الساعة لقمة سائغة للنزيل إلى غير ذلك من العبارات المثبطة للهمم» . [5]

---

(1) ملف أبو قشة ، دار المحفوظات الوطنية طرابلس «الاقتصاد السياسي ، السعي والعمل» .

(2) الترقي العدد 193 في 25 جمادي الآخرة 1329 هـ/ 1911 م «الاستيلاء التجاري أو الاحتلال السلمي» .

(3) اليهودي .

(4) العصر الجديد العدد 13 مصدر سابق .

(5) المصدر السابق .

وتهتم مقالة الاقتصاد الاجتماعي بالبطالة وأسبابها خاصة ما ينشأ عن قوانين أو قرارات الدولة ومن أبرز مشاكل البطالة ما جره قانون الريجي (مؤسسة التبغ) من تدني المستوى الاقتصادي لقضاء الزاوية التي تعد التبغ من أوفر محصولاتها ، وبالتالي انعكس هذا المنع على باقي الولاية وفي هذا يقول أحد الكتّاب : «كل من الناس يعلم أن سبب نقصان الثروة وتقاعصها[1] من هذه الولاية بل وموت كثير من الخلق هو حصر الدخان ومنع الناس من زراعته إلا بتلك الشروط المدسوس فيها مخالب ولا بد أن تنشب في حلقوم كل من أقدم على قبولها»[2] ، وكثيراً ما يطالب كتّاب المقالة بإيجاد فرص للعمل والنهوض بمستوى العمال بمناسبة ويبدون مناسبة لكن الدولة لم تول جانب الاقتصاد الاجتماعي أي عناية تذكر فذهبت مقالاتهم أدراج الرياح .[3]

وكما يتداخل الاقتصاد السياسي والاجتماعي فكثيراً ما يلتبسن معهما الاقتصاد التطبيقي ، ومن العسير أن نجد مقالة في أحد الفروع الاقتصادية يمكن أن نعدّها خالصة له دون غيره ، ومن هذه مقالة عنوانها (المجالس العمومي) يمكن أن تصنّفها بشيء من الرا في خانة الاقتصاد التطبيقي حيث إن الكاتب اختار لبناء هيكل مقالته الهيكل الاشتراكي فعرض منذ البداية «أن رواج التجارة والصناعة في أي بلد كان ، يتوقف على تعميم الثروة بين أفراد تلك البلد»[4] واستعرض نماذج عدة للنهوض باقتصاد كل بلد بحسب نوع ثرواته ليصل إلى أن ولاية طرابلس أذات أراض واسعة قوية الانبات وأقرب طريق لثروة عموم الأفراد هي تقدم الزراعة»[5] ومن ثم فإن من أهم واجبات المجلس العمومي النهوض بالولاية زراعياً ، ويعرض الكاتب برنامجاً متكاملاً عموده الفقري شقّ طريق من مركز الولاية إلى سهل قطيس وحفر عدة آبار نافورية في السهل ، وفي وادي الميرة ووادي المجيّين وربطها بشبكة طرق مع باقي المناطق الهامة يقوم السكان بالعمل فيها وذلك بأن «تقسم الطرق إلى أقسام وتوزّع على نسبة نفوس كل قضاء ، ويكلف أهالي القضاء بإتمام القسم العائد لهم»[6] ويعدّ مشروعاً مماثلاً لغرس الأشجار المثمرة في هيئة غابات مجمعة يلتزم كل فرد بتعهد عدد معين من الأشجار ورعايتها ، ومن خلال العرض التطبيقي الذي قدمه

---

(1) الصحيح : تقاعسها .

(2) الترقي العدد 77 في 23 شعبان 1326 هـ/1908 م «المصيبة الكبرى» .

(3) انظر : الترقي العدد 196 مثالاً على ذلك .

(4) الترقي العدد 99 في 21 صفر 1327 هـ/1909 م «المجلس العمومي» .

(5) المصدر السابق .

(6) الترقي العدد 99 «المجلس العمومي» مصدر سابق .

كاتب هذه المقالة نلمس الدعوة إلى العمل الجماعي التي تحمل في أحشائها فكرة تطبيقية لأحد الاتجاهات الاشتراكية التي سادت جزءاً من هضاب الفكر في أوروبا في القرن التاسع عشر ، وأفرد لها كتّاب المقالة الاقتصادية حيزاً غير يسير وعرضت عدة صنوف من التطبيقات ذات المنشأ الاشتراكي منها مقالة تعرض على حكومة الولاية نوعاً من هذا التطبيق أساسه اشتراك رب المال مع العامل ، أو رب الأرض مع العامل بقرض من الدولة التي «تستطيع أن تشرك كل اثنين أو ثلاثة منهم وتمدهم بما يكفل لهم العمل من حيوان وغيره ويكون صاحب الأرض والحيوان كفيلان[1] لثالثهم وبذلك يكون المال مضموناً من جهة ويضطر ثالثهم الذي لا شيء له غير بدنه مجبوراً على العمل بدناً فينفع نفسه وصاحبيه ولا يبقى معدماً وعالة على جيرانه وبهذه الطريقة يكون العمل والثروة قد قسما وزالت أسباب القحط والمجاعة» .[2]

وتعددت مقترحات الكتّاب لايجاد مخرج للولاية من التردي الاقتصادي في جميع مواطن الدخل حتى إن أحدهم يقترح الحد من قبول الطلبة في المدارس التعليمية وتوجيههم إلى المعاهد الزراعية والصناعية لإعادة التوازن بين طبقة الموظفين والحرفيين ، ويدعو أيضاً إلى نوع من الحماية الاقتصادية قائلاً : «فإن حاجة ولايتنا إلى مصنوعات الاجانب لم تكن بالدرجة التي يعسر علينا إيقافها فلم يزل القسم الأعظم من الأهالي يكتسي المنسوجات الوطنية»[3] ، ومن الكتّاب من يرى أن الحلول الناجحة تكمن في تكوين شركات زراعية وصناعية تدفع بعجلة الاقتصاد كما يحدث في دول الغرب المتقدمة ، وهذه الفئة يبدو أنها قد أخذت بالحضارة الغربية فأرادت الوصول من أيسر الطرق دونما نظر لباقي مكونات هذه الحضارة .[4]

وهكذا نرى أن جهد كتّاب المقالة الاقتصادية بشتى فروعها قد انصب على دراسة المصلحة العليا للولاية باعثهم الأقوى شعور عميق بفداحة المأساة التي تعاني منها بلادهم فخطر المجاعة يتهددهم صباح مساء ، وسيل المطامع الأجنبية يجرف بلورهم بلا رحمة ، والدولة عاجزة عن تسديد مرتبات موظفيها فلا عجب أن تخبو صيحاتهم الرائدة ، ويحتويها أنين الكثرة الكاثرة من المستضعفين .

---

(1) كذا والصواب كفيلين .

(2) الترقي العدد 196 في 17 رجب 1329 هـ/1911م «خطر الاستيلاء الاقتصادي وكيف نتقيه» .

(3) الترقي العدد 115 في 7 ذي القعدة 1327 هـ/1909 م «حياتنا الاقتصادية» .

(4) انظر : الترقي العدد 79 في 8 رمضان 1326 هـ /1908 «الأمة العثمانية» .

المقالة الثقافية والنقدية

* أولاً : الثقافية

1 ـ الفترة الأولى :

أ ـ النهج التعليمي

ب ـ المدنية

2 ـ الفترة الثانية :

خالية

3 ـ الفترة الثالثة :

أ ـ المدنية

ب ـ الحضارة العربية والتاريخ

جـ ـ أدب الرحلة

* ثانياً : النقدية

1 ـ الفترة الأولى :

خالية

2 ـ الفترة الثانية :

النقد التفسيري

وعرض الكتب

3 ـ الفترة الثالثة :

أ ـ المقالة النقدية وعرض الكتب

ب ـ المقالة النقدية وقضية اللغة العربية

جـ ـ المقالة والنقد التقييمي ، أساليب الكتابة ، الخطابة ، المسرح

د ـ المقالة النقدية والصحافة

المقالة الثقافية

يطالعنا للوهلة الأولى أن المقالة الثقافية قد موورست من خلال جميع أنواع المقالة الأخرى ، غير أن هذه الممارسة لم تكن مقصودة لذاتها ، بل جاءت عرضاً ، ومن ثم فقد دعت الحاجة إلى وجود هذا النوع من المقالة ليسد ثلمة في البناء الفكري للولاية ، خاصة إذا علمنا أن المقالة الأدبية قد عزّ وجودها[1] لاعتبارات عدة من أهمها عدم تهيؤ البيئة لوجود مثل هذا النوع من المقالة ، حيث كان العصر في مجمله ـ لا في ليبيا وحدها ـ يعطي المقام الأفضل للعلوم التطبيقية ، ومن ثم فقد عقد لواء السيادة للمقالة العلمية ، وما يدور في فلكها من المقالات التعليمية التي تنطلق من منطلقات شتى غير آبهة ببواعث الوجدان ، وإن استعارت من حيث الأساليب غلالة الأدب وتجملت برصين العبارة وحذت حذو المقالة الأوروبية في القرن التاسع عشر ، ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى وجود المقالة الثقافية ، وما وصلنا من صفحات المطبوعة الوحيدة في الفترة الأولى يدل على أن المطبوعة الوحيدة قد أولت اهتماماً خاصاً للبناء الثقافي تمثّل في العديد من المقالات التي من شأنها أن تضع أسساً للمعرفة على غرار التعليم المدرسي في نمط أكثر حرية وأوسع باباً ، كأن تعرّف إحداها التاريخ الطبيعي بأنه «التعريف عن تركيب أرض تلك المملكة وصورة تشكيلها

---

(1) ذكر أحد الباحثين أن الترقي كانت سبّاقة إلى تخصيص زاوية خاصة بالأدب تسمى زاوية «مباحث أدبية» مما يفهم منه أن ثمة مقالات أدبية كانت تنشر في هذه الزاوية ، والحقيقة أن مفهوم الأدب عند الترقي كان يعني الشعر فقط ، وهو مقصور على أبيات يطلب تشطيرها أو تخميسها في الغالب ، وقد ينشر فيها شيء من المراثي ، أما ما ذكره الباحث من أن مقالة «فاقد اللغة فاقد للحياة» في العدد 139 مما نشر في هذه الزاوية فهذا مخالف للواقع ، وإنما نشر في صفحة أخرى ، وتحت بند مراسلات في نفس العدد المذكور انظر : فن المقالة في الصحافة الليبية ، المرادي ص 214 .

ومعادنها ونباتاتها وحيواناتها ومائها وهوائها وغيره » . [1] ، ليتسنى للكاتب أن يعرّف بأفريقيا ونوع تضاريسها ومعادنها وكل ما يتعلق بها من الناحية الجيولوجية .

وفي مقالة أخرى يعرض أحد الكتّاب إلى المدنية فيتناولها من عدة زوايا ، اجتماعية ، وأنثروبولوجية ، واقتصادية ، ويجعل مبناها على محورين البداوة والحضارة ، مستعرضاً علاقة الانسان بالطبيعة ، مفيضاً في تقسيم أطوار الحياة ومستوى احتياجات الانسان فقسم الحاجة إلى نوعين : مادية ومعنوية ، ويقسّم المادية إلى ضرورية وكمالية فيقول : «والحاجات المادية أيضاً تنقسم على قسمين قسم منها للاحتياجات الضرورية والآخر للاحتياجات الغير الضرورية فالاحتياجات الضرورية هي الأكل والشرب واللبس بما يقتضيه الاقليم والهواء من الثياب وغير ذلك . . والاحتياجات الغير الضرورية هي عبارة عن الأكل والشرب النظيف وأعمال الألبسة والمسكن على الصورة التي تحصل بها الراحة» [2].

ويمضي في ترتيب الأشياء على بعضها فيرتب ضرورة وجود الصناعة على احتياج الانسان للمأكل والملبس والمسكن ، ويرتب ضرورة وجود المعارف على الصناعة ليخلص إلى تفضيل حياة المدنية على حياة البداوة .

وفي حلقة أخرى يكمل الكاتب حديثه عن المدنية فلا يراها حكراً على أحد بل هي وليدة السعي والمعرفة «وعلى هذا فيكون منبع المدنية السعي والمعارف ومولد البدوية الجهل والبطالة وسعادة نوع البشر المدنية وهي متوقفة على هاتي الكلمتين (السعي) و (المعارف)» [3].

ويخبو وميض المقالة الثقافية في الفترة الثانية لتطغى المقالة العلمية في إطار التركيز على وضع أسس لنهضة اقتصادية أسهم كتّاب المقالة في التمهيد لها إسهاماً بارزاً ، لكنها عادت في الفترة الثالثة من حيث انتهت ، فقد شغلت المدنية كتّاب الفترة الأخيرة ، فأفاضوا في مناقشتها والجدل حول ضرورتها للمجتمع الانساني ، ومن النماذج المرشدة في ذلك مقالة طالت حلقاتها حتى جازت الأربع عني كاتبها بتتبع معنى المدنية في الوسط الثقافي للولاية بما يرشدنا إلى أن هناك من يرفضها ويظن أنها مفسدة جاء بها الغرب في ركابه ، ويتضح ذلك من قوله : «هذه الكلمة دخلت عندنا بين العوام منذ اختلاطنا بالأوروباويين وهي في وطننا تدل عند أكثر الناس على المقاصد العالية ، وعند بعض الفرق على الفحشيات الجديدة التي ظهرت بيننا حديثاً» [4] ثم يسلك الكاتب سبيلاً الهدف منه تثقيف القراء وشدهم إلى معنى

---

(1) طرابلس الغرب العدد 257 في 11 جمادي الأولى 1291 هـ/1874 م «التاريخ الطبيعي» .

(2) طرابلس الغرب العدد 257 «المدنية» مصدر سابق .

(3) طرابلس الغرب العدد 258 في 18 جمادي الأولى 1291 هـ/1874 م «الأمم المتمدنة والأقوام البدوية» .

(4) الترقي العدد 91 في 24 ذي الحجة 1326 هـ/1908 م «المدنية» .

المدنية عن طريق سرد بعض آراء الحكماء حيناً وعن فلسفة أسباب الوجود حيناً آخر ، ثم يعرض وجهة نظر الرافضين للمدنية مدفوعين بميل إلى تحبيذ الفطرة الأولى ، ويسرد العديد من حججهم التي لا بد أنها تدور على ألسنتهم في منتديات الأدب وبؤر المعرفة كتساؤل بعضهم «هل راحة الذي اعتاد أكل خبز البر والرقاد على التراب ناقصة عن راحة الذي ألف أكل الأطعمة النفيسة والرقاد فوق الأسرة المذهبة والرياش الفاخرة ؟»[1] ، بيد أنه ينضم إلى الفريق المؤيد للمدنية مجادلاً ما وسعه الجهد ، مستعيناً بأدلة عقلية منطقية ، تدحض حجج الخاملين ، ويدعو إلى أخذ مدنية الغرب منقحة من شوائبها .[2]

ويبدو أن الحديث عن المدنية كان قضية الساعة في نهاية القرن الماضي ومطلع القرن الحاضر ، ويكاد يجمع كتّاب المقالة الثقافية على ترجيح فكرة قبول مدنية الغرب بعد تجريدها مما ينافي قيم المجتمع المسلم في الولاية فتآزروا لتثقيف الطبقات الوسطى في المجتمع بما يكفل قبولهم للمدنية وصرفهم عن نظرتهم التي لا تنطبق «على فحواها جهلاً منهم بما تنطوي عليه من دقة المقصد وسلامة الغرض فترتب على ذلك مجانبة النفوس إليها وسخط الناس عليها بل والتظاهر بمعاندة أجيالها ومنابذة إقبالها حيث يصير البغض لها جزءاً من الخلق» .[3]

وهناك اتجاه آخر في توجيه الثقافة العامة هدفه إيقاظ الحمية الدينية وحمل في ثناياه التذكير بدور العرب في نشر الثقافة الاسلامية عن طريق مناقشة الكتب التي تتحدث عن الحضارة العربية وإيراد مقاطع منها تطول وتقصر كما في مقالة «الحضارة العربية» التي نشرتها الترقي مسلسلة وفيها دفاع عن الاسلام وردّ ادعاءات أعدائه مما يعدّ حجر الزاوية في البناء الثقافي للولاية .[4]

ومن كتّاب المقالة الثقافية من يسلّط الضوء على التاريخ الاسلامي بعيداً عن دائرة السرد التاريخي وألبس أحداثه ثوباً تثقيفياً يخدم من خلاله قضايا الساعة .[5]

---

(1) المصدر السابق .

(2) انظر : الترقي العدد 92 سلخ ذي الحجة 1326 هـ/1908 م والعدد 93 في 8 المحرم 1327 هـ/1909 م «المدنية» .

(3) العصر الجديد العدد 18 في 21 جمادي الآخرة 1327 هـ/1909 م «المدنية» محمد بن عمران .

(4) انظر : الترقي العدد 108 في 3 جمادي الأولى والعدد 109 في 10 جمادي الأولى 1327 هـ / 1909م . «الحضارة» م.خ .

(5) انظر : الترقي العدد 105 في 10 ربيع الآخر 1327 هـ /1909 م «الاتحاد» عبدالله الشريف .

وفي واقع الأمر لم يقتصر هذا على التاريخ الاسلامي بل تعداه إلى تاريخ أوروبا كما فعل الهاشمي المكي حينما كتب مقالة اختار لها عنواناً طريفاً «بيضة ديك» وظف فيها التاريخ توظيفاً ثقافياً حين عرف القراء بنسب (نابليون) وبشيء من تاريخ فرنسا الاجتماعي في إطار من التحليل النفسي لبعض الاتجاهات السياسية التي تهدف الدول من خلالها إلى إرساء قواعد جذرية في التراث الثقافي القومي ، وضرب أمثلة على ذلك ما قامت به الصحف الفرنسية من إذاعة أن البطل أدهم باشا[1] والقائد الياباني (طوغو)[2] من أصل فرنسي ، بل أن السلطان عبد الحميد نفسه تجري في عروقه دماء فرنسية[3] لتشرف الأمة بانتماء العظماء إليها .

ومن المقالة الثقافية ما يمكن أن يسلك في أدب الرحلة حيث سجل بعض الكتاب انطباعاتهم عن مدن ليبية مثل بنغازي ودرنة والخمس في مقالات عليها طلاوة أدبية افتقدتها كثير من المقالات ذات الصبغة التعليمية في شتى فروع المقالة ، فقد كتب محمد علي البارودي مقالة سجل فيها انطباعاته عن مدينتي بنغازي ودرنة وصفهما وصفاً شاملاً مقتفياً أثر كتب الرحالة حتى في أسلوب الصياغة ، وقد تطرق إلى وصف بؤس مدينة بنغازي ورداءة طرقها وكدر مياهها فقال : «يعجز القلم عن وصف ما يتخلل أعماق شوارعها والطرق ومقارعها من الأوساخ الطامة والعفونات الكثيفة يشرب متواطنوها ماء مالحاً»[4] ، ولم يدع في وصفه شيئاً يمكن أن يخلّ بالهيكل العام لصورة المدينة في ذهن القارىء إلا تحديد موقعها الجغرافي .

أما درنة فقد كانت أحسن حظاً حين أخذ الكاتب بروعة الطبيعة فأرسل قلمه يصور صفاء سمائها وطيب هوائها وعذوبة مائها وصنوف نباتها فقال «وسماؤها أصقل من سماء فرنسة جمالاً ، على أن طقسها يفضل حالاً ، في قلة الغيوم المقلقة والبرود الممحقة . . هواؤها أرق من نفحات الجنان ، وأشهى من مداعبة الحسان يبرد في وقت الحر ، ويسخن في آونة القر . . مياهها كثيرة وأنهارها غزيرة . . يتصل نباتها ببعضه ، من غير اعتناء لحفظه»[5] ،

---

(1) قائد الجيش التركي في حرب اليونان ويعرف ببطل تساليا .

(2) قائد جيش اليابان المنتصر على روسيا .

(3) انظر : الكشاف العدد 11 في 18 صفر 1327 هـ/1909 م والعدد12 في 25 صفر 1327 هـ/1909 م «بيضة ديك» الهاشمي .

(4) العصر الجديد العدد 20 في 12 رجب 1327 هـ/1909 م «رحلتنا للجهة الشرقية» محمد علي البارودي .

(5) العصر الجديد العدد 21 في 23 رجب 1327 هـ/1909 م «رحلتنا للجهات الشرقية درنة» محمد علي البارودي .

وبالرغم من هذا الوصف الأخاذ فإن الكاتب لم ينس أن يصف سوء إدارة المدينة وتراكم الأوساخ بها وسيادة الجهل فيها ، ولعل الكاتب يقصد من ذلك لفت انتباه الدولة إلى هذا الجزء المحروم من الولاية في إطار العمل على بناء شامل يهدف إلى نهضة القطر كله .

وإذا كان البارودي قد أغفل وصف البحر بالرغم من أن وسيلته كانت بحرية فإن الكاتب الهاشمي المكي قد وصفه في رحلته إلى الخمس فقال : «كان الهواء ساكناً والجو معتدلاً والبحر في هدو تام ، فكنت والليل منسدل الأرجاء أشاهد منظراً من أجمل ما يرى حيث انعكست أشعت سنى[1] لمعان النجوم على لجين الماء فكنت وتلك كملاك بين قبتين سماويتين تناجي الوجدان وتخاطب الضمير على ما أودعته يد القدرة من الحكمة في الكون» . [2]

ويمكن أن أتكهن بالدور التثقيفي الذي تقوم به مثل هذه المقالات من تعريف للقراء بأجزاء من وطنهم لم يسعفهم المال ولا الوسائل بالتجوال فيه فبقيت هذه الوسيلة ذات أثر فعال في تقريب الشقة بيسر وسهولة .

---

(1) كذا والصواب : سنا .

(2) دار المحفوظات الوطنية : ملف أبو قشة ، صحيفة أبو قشة بتاريخ 26 رجب 1328 هـ/1910 م «رحلتنا» .

المقالة النقدية

ليس بوسعنا أن نحكم بأن هناك مقالة نقدية بالمعنى الواسع للنقد[1]، ولكن بوسعنا أن نقول بأن كتّاب المقالة النقدية في ليبيا ــ فترة الدراسة ــ قد أسهموا بوضع لبنات بنيت عليها نظرات نقدية أثرت في أساليب ومناهج الكتّاب، وفيها انتهت إليه الكتابة النثرية في آخر العهد العثماني، وما تلاه من عصور الأدب في ليبيا.

وقد طغى الجانب التفسيري في معظم المحاولات النقدية لظروف أملتها المرحلة، فالحاجة إلى التعريف والشرح أمسّ من الحاجة إلى التقييم والتبصرة، خاصة إذا علمنا أن السائد في تلك الفترة هو التقريظ، وتزيين المؤلفات بمقدمات مدحية يوجه فيها النظر إلى الأديب أو الكاتب لا إلى عمله أو ما كتب.

ومن ثم فقد عبّرت المقالة النقدية عن نفسها من خلال محاور: نقد الكتب، وقضايا العربية بما يشمل أساليب الكتابة والخطابة، والاهتمام بالصحافة والمسرح، على تفاوت في التناول بين فترتي الدراسة الاخيرتين، فقد خلت الفترة الأولى تماماً من المقالة النقدية، لعوامل اقتضتها طبيعة النشأة، وفي الفترة الثانية ولدت ولادة هائلة، وتسللت إلى عالم الفكر والثقافة في الولاية على استحياء، وربما كان من المناسب أن نسوق أحد نماذجها لنقف على مشاركتها في البناء الفكري والأدبي في بداية أمرها، فقد كتب أحد الكتّاب مقالة عرض فيها بالتفسير والتعريف لكتّاب نشره طبيب فرنسي[2] ضمنه خلاصة تجاربه مدة خمس

---

(1) انظر: جان لوى كاباتس: النقد الأدبي والعلوم الانسانية، ترجمة: فهد عكام، دار الفكر ــ دمشق 1982 م ط 1 ص9.

(2) موريس دي فلوري

عشرة سنة أثبت من خلالها أن العمل المطرد لا يضعف البدن ، وأن انتشار الأمراض بين الكادحين مردّه إلى عوامل أخرى غير العمل .

والكاتب في عرضه للكتاب حاول أن يرتب أفكاره بشكل منظم ومقنع فشرح أطوال تجربة الطبيب ، والشريحة التي أجريت عليها ، وبيان اللبس الذي يحدث عند الملاحظة الأولية لانتشار الأمراض بين العاملين ، ثم يشرح أسباب إرهاق العمال فيقول : «وإليك أسباب التعب الحقيقية التي بيّنها (المؤلف) الأكل الردى وعدم انتخاب الغذاء نظراً للوجود والمعدة والسعي والعمل وكيفية الحياة ، والأكل أقل أو أكثر من اللزوم وكثرة استعمال المواد المقوية وكثرة شرب القهوة والجاى[1] والدخان والأفيون وما ماثلها من المكيفات وشرب الكئول[2] والمسكرات بأنواعها والسكنى في البيوت الخالية عن الهواء والمزدحمة بالاشتغال في أماكن عارية عن الهواء والضياء» .[3]

ثم يمضي الكاتب في وصف تفسير بعض محتويات الكتاب كتقسيم المؤلف «العمل في مؤلفه المفيد إلى قسمين السعي والعمل وخصص السعي بالذهن والعمل بالبدن . . »[4] إلى غير ذلك مما شغل أوروبا تلك الفترة التي تسعى فيها جاهدة لإرساء حقوق العمال وتحسين ظروف العمل فالكتاب من الناحية العملية لا يخدم الحياة الفكرية في الولاية فعرضه من قبيل الترف الفكري الذي لا مبرر له في ولاية يسحقها الفقر والمرض ويعشش الجهل في رؤوس السواد الأعظم من أهلها .

أما الفترة الأخيرة فقد شهدت حركة نقدية لاتغفل ــ بالرغم من أن هناك من الباحثين من يراها «ملاحظات بسيطة لا يعتمد عليها الباحث كل الاعتماد»[5] ــ فقد خطت المقالة النقدية خطوات واسعة ، شملت عرض ومناقشة الكتب في لغات غير عربية ، وأساليب الكتابة ، والخطابة ، والمسرح ، وغيره ، فهي قد نبتت منبتاً طبيعياً ، شأن باقي فروع الأدب والمعارف الانسانية ، أما ما ذهب إليه بعض الباحثين في أدب هذه الحقبة من أن المقالة النقدية قد ولدت ولادة خلاصية فهي نتاج لذيوع فن التشطير والتخميس الشعري مما يعتبر «بداية لمقالات نقدية قامة»[6] لم تتبوأ مكانها إلا بعد منتصف الثلاثينيات من هذا

---

(1) الشاى .

(2) الكحول .

(3) طرابلس الغرب العدد 1205 في 13 رجب 1325 هـ/1907 م . «إدامة الصحة وكيفية العمل» .

(4) المصدر السابق .

(5) سالم المرادي : فن المقالة في الصحافة الليبية ، رسالة ماجستير 1983 م ص 213 .

(6) المرادي : فن المقالة في الصحافة الليبية ، رسالة ماجستير 1983 م ص 218 و219 و221 .

القرن ، فهو رأى يحمل نقضه في أردانه ، فالتشطير والتخميس ضربان من الصناعة الشعرية يبعدان كثيراً عن بنية المقالة النقدية التي لا يخفى على أحد أنها من الفنون النثرية الخالصة .

ومما تجدر ملاحظته أن المقالة النقدية كتبت بأقلام كتّاب لهم باع طويل في عالم المعرفة ويجيدون بعض اللغات الأوروبية علاوة على التركية والعربية ، ويتجلى هذا في تصدى أحدهم لتقديم عرض لأجزاء من كتاب «الحضارة العربية» لجوستاف لوبون[1] (Gustave Lebon) اطلع عليه في لغته الأصلية فكتب حوله مقالة سبقت ترجمة الكتاب إلى العربية بما يناهز الستين سنة[2] ، وعن هذا يقول الكتب : «تيسر لي في هذا الأسبوع بفضل واحد من محبي العلم مطالعة كتاب «الحضارة العربية» تأليف فريد عصره المستشرق الشهير (الدكتور كوستاو لوبون) فرأيت فيه حقيقة في موضوع مناقشات الغربيين والشرقيين منذ انتشار الدين الإسلامي إليك مآلها على وجه الإجمال»[3] واختار الكاتب فصلاً[4] بالغ الحساسية لتعلقه بالمعتقدات الدينية عند المسلمين ومقارنتها بالمسيحية واليهودية والبوذية ، وإبراز ميزات التشريع الإسلامي ، ومناهج الحياة عند العرب المسلمين .[5]

وإذا كان الكاتب لم يمارس العملية النقدية بمعناها الكامل ، فحسبنا أنه قلم الشرح والتفسير بغرض لفت الانظار إلى المؤلف وإبراز قيمته الفكرية .

وثمة مقالة أخرى يمكن أن تسلك في عرض الكتب ونقدها يصحح كاتبها لمؤلف كتاب (أحوال طرابلس الغرب)[6] بعض ما أورده في كتابه من مغالطات خاصة في انتقاده لغة أهل الولاية وبعض عاداتهم فيقول : «هو لا يدري من لغتها غير كونها ليست لغته واعتياده على أناس وإن كانوا عرباً قد لا تكون لهم معارف يفرقون بها بين مفردات لغتهم ولغة غيرهم لأنهم تلقوا ألفاظاً وجدوها مشتركة بين لغتي العرب والترك فلا يدرون أيهما الأصل»[7] وهذا من قبيل انتقاد منهج المؤلف وعدم تحريه الدقة في مصادر معلوماته .

---

(1) فيلسوف فرنسي ولد سنة 1841 م من أشهر علماء الاجتماع ، توفي 1931 م انظر : المنجد في الأعلام ط 2 ص457 .

(2) قام بتعريبه عادل زعيتر سنة 1969 م والمقالة كتبت سنة 1909 م .

(3) الترقي العدد 108 في 3 جمادي الأولى 1327 هـ/1909 م «الحضارة العربية» م خ .

(4) انظر : حضارة العرب ، جوستاف لوبون ، تعريب عادل زعيتر ، مطبعة عيسى الحلبي ـ القاهرة 1969 م ص 125 وما بعدها .

(5) انظر : الترقي العدد 109 .

(6) طرابلس غرب أحوالي ، رجب أفندي مسعود ، باللغة التركية .

(7) الترقي العدد 199 في 9 شعبان 1329 هـ/1911 م «طرابلس غرب أحوالي» .

وإلى جانب ما بيّن الكاتب من أخطاء المؤلف في الاستشهاد فقد أثنى عليه ووعد بالعودة إلى مناقشته ، مما يضفي موضوعية على المقالة من شأنها أن ترسخ أقدام العملية النقدية في عمومها .

ومن القضايا التي اهتم بها كتّاب المقالة النقدية قضية اللغة العربية فقد أصيب الناطقون بها بخيبة أمل بُعَيد إعادة العمل بالدستور سنة 1908 م ، حين كانوا يؤملون أن تصبح لغة رسمية للدولة أو على الأقل في الولايات العربية فصدمهم الاتحاديون بفرض اللغة التركية دون سواها لغة رسمية للدولة فتوالت المقالات التي تدعو للحفاظ على العربية ، وتغمز في قناة لغات أخرى كأن يقول أحد الكتّاب : «ومما لا يشك فيه اثنان أن هذا الاختلاط ـ العرب بغيرهم ـ ينشأ عنه الضعف في اللغة إن لم نقل الإضمحلال فخوفاً من ضياع هذه اللغة العظيمة التي لا يوجد فيها غلو الفرس ولا جبن غيرهم . .[1] قيّض الله لها رجالاً فدونوها» .
ولا إخال مثل هذه المقالات إلا رداً على بعض كتّاب الصحف بالأستانة الذين طالبوا بتنقية اللغة التركية من الكلمات العربية استجابة للنوازع الطورانية ، ومن ثم فلم يتمكن النقاد من النظر في اللغة العربية نظرة نقدية صرفة بل شغلوا بالدفاع عنها وإبراز محاسنها ودورها التاريخي في إرساء قواعد الحضارة الانسانية .

وبالرغم من ذلك فإن هناك من تجرّد للنظر في أحرف الكتابة ودراستها في دائرة تقرب من علم الأصوات وقدم بين يدي مقالته بمعاذير لعله أراد بها أن يتقي صولة المتزمتين ، فقال عن صعوبة قراءة الأحرف العربية : «هذا هو السبب في تأخير المسلمين عن غيرهم شرقاً وغرباً فلا يتقدم المسلمون إلا بتسهيل القراءة لأبنائهم ، ولا يخفى أن أشكال الحرف لم تكن متنوعة في بدء الإسلام كما في زماننا هذا ولا مانع لتنقيحها وتقليل أنواعها شرعاً وعرفاً . .»[2]

ثم يعرض مقترحه الذي يمكن تلخيصه في تثبيت شكل واحد فقط لكل حرف وحذف ما عداه والتزام الكتابة بهذا الحرف سواء في بداية الكلمة أو وسطها أو آخرها ، ويضرب أمثلة عملية لذلك، وفي نهاية المقالة أعلن بأنه «بيّن أصولاً أتقن وترتيباً أنفع من هذا وهو أن لا تتغير الأشكال الآنفة وتتفهم من أشكالها إعرابها وحركاتها»[3] وما يعوقه إلا

---

(1) الترقي العدد 139 في 5 جمادي الأولى 1328 هـ/1910 م «فاقد اللغة فاقد الحياة» م . ع . م .
(2) المرصاد العدد 22 في 14 ربيع الأول 1329 هـ/1911 م «حروفنا وتسهيل القراءة» مسعود أفندي .
(3) المصدر السابق .

بعض الآلات التي لا توجد بولاية طرابلس الغرب ، وقد ظلت هذه مشكلة الحرف العربي حتى يومنا هذا دون أن تحظى بحل لا يجر وراءه سيلاً من المشاكل والمحظورات .

واهتم كتّاب المقالة النقدية بالأساليب فشجبوا الصنعة واللجاج في تتبع شارد الألفاظ ، وأرشدوا الكتّاب إلى مسالك اليسر والسهولة ، ويبدو أن مثل هذه النظرات النقدية التي لم تقتصر على صفحات الجرائد بل كانت تلهج بها الألسنة في المنتديات الأدبية كانت عميقة الأثر في نفوس عامة الكتّاب فانحسر ظل السجع واقتناص المحسنات ولم يبق إلا سؤر ظل يلوح في صفحة النثر حتى انقضى العهد العثماني .

ومن المقالات النقدية مقالة شاء لها كاتبها أن تكون إرشاداً للمنشئين فافتتحها بلوم المتقعرين قائلاً : «من الكتاب من تأخذهم نشوة الظهور وحب الشهرة بالتعمق في اللغة العربية وحفظ مفرداتها فيطوح بهم ذلك عما هو مطلوب منهم من الجري على الأساليب التي تكفل إيصال المقصود واستيفاء المرغوب»[1] ، فالكاتب إذن ينبذ الإغراب في الألفاظ ويرى أن الهدف من الكتابة هو «ما يشترك في علمه حادّ القريحة وجافيها ومقل الآداب ومستوفيها . . في حلة من نسيج الحديث المحبب المعنى الواضح المبنى»[2] وهذا في رأي فهم دقيق يتيح لصاحبه أن يمارس العملية النقدية ممارسة الواثق .

ولم يقتصر توجيه كتّاب المقالة النقدية على أساليب الكتابة فقط بل تعداه إلى أساليب الخطابة، فكتبت مقالات تبين أسس الخطابة ، وشيئاً من تاريخها ، وغمراً من طرائقها ومؤثراتها ، ومن هذه المقالات ما يطول حتى يجوز عدة حلقات[3] ، كمقالة كتبها سليمان غزالة ، استعرض فيها أصول الخطابة وما تبنى عليه من «فطرة صالحة لها يظهرها الفن بالممارسة من القوة إلى الوجود» .[4]

ويعرض كاتب آخر بالنقد لأساليب الخطباء في الولاية ويشن حملة ساخطة على ما انتهجوا من تلاوة خطب مكرورة «طالما قرعت الأسماع حتى مجتها الأذواق وسئمتها الطباع فلم يبق لها أدنى تأثير»[5] ومن ثم فإنه يعرض جملة من التحليلات تصب في قناة النقد التوجيهي منها أن الخطابة يستخرج معناها من لفظها ، فالخطيب يخطب القلوب ويشد

---

(1) العصر الجديد العدد 17 في 14 جمادي الآخرة 1327 هـ/1909 م «الكتاب والمنشئون» .

(2) المصدر السابق .

(3) انظر : الترقي من العدد 88 إلى 90 .

(4) الترقي العدد 90 في 10 ذي الحجة 1326 هـ/1908 م «فن الخطابة» سليمان غزالة .

(5) الترقي العدد 156 في 14 رمضان 1328 هـ/1910 م «خطب أم خطوب» .

الأفكار إليه وهذا ما نسميه حديثاً بعنصر الإثارة ، فالكاتب هنا ينبه إلى ضرورة توفر هذا العنصر بما يسرد من جملة المؤثرات حينما يقول : «فهي إذاً محتاجة إلى ألفاظ رقيقة ومعان أنيقة وجمل مسجعة وعبارات مشجعة بقدر احتياجها إلى مفردات مستعملة عند الخاصة والعامة وكلمات مألوفة مطروقة بحيث لا يسمعها أحد من أي طبقة كانت إلا ويدركها بتمام معانيها فتؤثر في قلبه وتسكن في سويداء ليه»[1] ، ومنها تأكيده على حرارة الصدق إذ أن ما يلقيه الخطيب عن معتقد أبلغ إلى شغاف القلوب مما سواه ، بل لم يغفل الكاتب عن تبيان الحركة المصاحبة واختلاف نبرات الصوت أو ما يسميه طه حسين[2] التشكيلات المختلفة لصوت الخطيب[3] ، فقد فصلها مقرونة بآثارها النفسية على السامعين .

كذلك فقد تناولت المقالة النقدية المسرح أو فن التشخيص كما يسميه نقاد تلك الفترة في إشارات عابرة أحياناً ، وفي مقالات مكتملة أحياناً أخرى ، ومن النماذج الهادية إلى ذلك مقالة عنوانها «فن التشخيص» أظهر كاتبها سعة اطلاع ومعرفة بتاريخ المسرح ونشأته من لدن اليونانيين ، وقدم لقراءته عرضاً تاريخياً أجمل فيه أطوار نمو الحركة المسرحية ، وتناول بالنقد التفسيري بعض التكوينات الفنية للمسرحية كقوله : «وكلما كان الممثل بارعاً في تمثيله متقناً في أوصافه مقلداً في صوته وحركاته حكيماً في أسلوبه يكون الناظر متأثراً مما يراه ويسمعه متهيج الحواس متحرك العواطف منجذب الفؤاد فيتولد في قلبه حب الانتقام أو الكرم أو الشجاعة أو الإسعاف بحيث يحصل له ميل زائد ، أو فتور كلي في جميع ما يتمثل بين يديه من الأخلاق الحميدة والذميمة»[4] ولا يساورني شك في أن الكاتب يرمي إلى بيان غاية المأساة كما يراها (أرسطوطاليس) من حيث هي تطهير للنفس حتى إنه في منتصف المقالة يصرّح بأن المتأخرين قد بنوا المأساة (التراجيديا) على ركيزتين هما الشفقة والرعب أخذا عن أصل الوضع، وهذا ما قاله به أرسطوطاليس[5] ثم تحدّث الكاتب عن هيكل للمسرحية من

---

(1) المصدر السابق .

(2) طه حسين ، ولد سنة 1889 م بقرية الكيلو بالصعيد المصري ، كُفَّ بصره في الثالثة من عمره ، تأدب في الأزهر ، ونال الدكتوراه من الجامعة المصرية ، ومن السوربون ، عمل بالصحافة والتعليم الجامعي ، له آثار أدبية وفكرية من أشهرها : في الأدب الجاهلي ، وعلى هامش السيرة ، والأيام ، توفي سنة 1973 م ، انظر : الأعلام للزركلي ط 7 جـ3 ص 231 .

(3) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ، مصدر سابق ص 593 .

(4) الترقي العدد 87 في 18 ذي القعدة 1326 هـ/1908 م «فن التشخيص» .

(5) انظر : فن الشعر ، أرسطوطاليس ، ترجمة وشرح وتحقيق : عبد الرحمن بدوي ، دار الثقافة ، بيروت 1973 م ط 2 ص 41 .

حيث فصولها ومشاهدها ، والحدث الدرامي ، وتماسك المسرحية ، وتصاعد عقدة الصراع أو ما يسميه التشوق المتدرج إلى غير ذلك من الأصول الفنية للبناء المسرحي ، وبالرغم من هذا العرض الجميل فإن الكاتب يسجل لنا بكل أمانة بأن هذا الفن «غير موجود في قطرنا إلا نادراً ولم يكن له شأن عندنا بسبب استعماله باللغة الاجنبية»[1] ، غير أن هناك مجموعات من الشباب قد كسرت قيود العادات والتقاليد وأقدمت على ممارسة التمثيل باللغة العربية[2] ، وربما من أجلهم كتبت مثل هذه المقالة لتبصرهم بالأصول الصحيحة للفن المسرحي .

ومن الأبواب الواسعة للمقالة النقدية باب خُصت فيه مهنة الصحافة بالنقد الهادي حيناً والعاصف أحياناً أخرى، وقد أفاضت هذه المقالات في بيان مهام الصحافة والمسؤوليات المنوطة بها من توجيه للرأي العام وتثقيف للمجتمع وقيام بمهام السلطة الرابعة فكلما «زاد انتشار الجرائد بين أمة أو في بلدة قويت روابط الاتحاد بين أفرادها واجتمعت كلمتهم وتمركز الرأي العام بينهم وتحكم صدى فكر الأمة وحسب له رجال الحكومة حساباً وراقبوه بشدة تبصر[3]» ، غير أن الجانب الإيجابي للصحف والصحافة لم يلق مزيداً من الاهتمام في حين أن سلبيات الصحافة ظلت في بؤرة الضوء ، وقد تطلع كتّاب المقالة النقدية في هذا المجال إلى مستوى الصحف الغربية ، فاستعر أوار تجريحهم وشنت حملات عارمة على المتطفلين على مهنة الصحافة كأن يكتب أحدهم مقالة لاذعة يعنونها بإذا ضاق المعاش فكن صحافياً ، يصب فيها جام غضبه على الصحف والصحفيين وقانون المطبوعات حتى إنه يسخر من بعضهم فينعته بالأمية وجهل القراءة والكتابة[4] ، وقد تتسع دائرة النقد فتطال صحافة الشرق عامة لما درجت عليه من سعي للخلاف حتى كانت «وبالاً على الأمة وعاملاً قوياً على تفرق الآراء وتكاثر الأحزاب واستحكام حلقات العداوة والنفرة بين أفراد الأمة[5]» ، ثم تضيق لتتناول الصحافة في الولاية ، ومن أبرز ما يؤخذ عليها إهدار الطاقات في المعارك

---

(1) الترقي العدد 87 مصدر سابق .

(2) ربما كانت من هنا بداية للمسرح في ليبيا وليس كما ذهب الباحث عبد المجيد الصادق المجراب في كتابه المسرح الليبي ، في نصف قرن حيث ذكر أن ميلاد المسرح كان سنة 1928 م في مدينة درنة ، انظر ص 82 ، وهو رأي سائد في الأوساط الأدبية .

(3) الترقي العدد 190 في 4 جمادي الآخرة 1329 هـ/1911 م «الصحافة في الشرق» .

(4) انظر: الترقي العدد 191 في 11 جمادي الآخرة 1329 هـ/1911 «إذا ضاق المعاش فكن صحافي» .

(5) الترقي العدد 190 مصدر سابق .

المقالة العلمية

1 - الفترة الأولى : ـ البدايات

أ ـ دراسة أنموذج النشأة

ب ـ أصداء الولايات

2 - الفترة الثانية :

أ ـ الزراعة والإرشاد الزراعي

ب ـ الصحة والانسان

جـ ـ الحيوان

د ـ مقالات قليلة في بابها

3 - الفترة الثالثة :

تلاشي المقالة العلمية

المقالة العلمية

ليس بدعاً أن تتعثر المقالة العلمية في محيط يسوده الجهل والفقر والتخلف في ولاية ليس بها إلا مطبوعة واحدة ، تحاول جاهدة أن ترسل خيوطاً من وميض المعرفة ، فكانت بذلك المعلم الأول للشعب العربي في الولاية ، فلا عجب إذن من أن تحبو المقالة العلمي في فترتها الأولى ساذجة ليس لها عمق التمحيص العلمي الذي سرعان ما اكتسبته في فترتها الثانية .

ولقد اهتمت المقالة العلمية في طورها الأول بموضوعات تمس الحياة اليومية مساً مباشراً كالعناية بزرع أشجار التوت ، لتربية دود الحرير عليها ، وكالإرشاد للسبل الصحيحة للزراعة ، وأنواع المزروعات وغيرها ، وإذا كان هذا ينسجم مع التقدير القائل بأن ثمة بوادر لنهضة علمية هذه المقالات طليعة لها فإن التساؤل يتجه إلى معرفة من تكتب له هذه المقالات أهي للمثقفين؟ وماذا يفيد موظف أو مأمور في أروقة إدارات الدولة من معرفة أنواع البطاطا؟ وإذا كانت تكتب للفلاحين فما غناؤها لفلاح أمي يقضي سحابة يومه في المزرعة؟

والذي يبدو لي أن النهضة العلمية قد قطعت شوطاً مشهوداً في المشرق العربي ، وانفتح المثقفون الأتراك على الغرب منذ فترة كافية لإيجاد هذا التوجه العلمي ، وسادت مثل هذه المقالات صحف الدولة العثمانية في شتى ولاياتها وكانت «طرابلس الغرب» الصحيفة الوحيدة ، فهي وسيلة المعرفة في الولاية فتوجه كتابها ــ وهم موظفون لدى الدولة ــ إلى ترجمة أو تلخيص ما يطبع في الصحف الأكثر تقدماً .

بل يبدو أن نظارة الزراعة كانت تعد دراسات متنوعة لتطوير الوسائل الزراعية

يقتطع منها الكتاب ما يناسب الولاية ، ويكتبونه في هيئة مقالة ، ولا يأبهون لمستوى القراء ، أو لإفادتهم مما يكتبون[1] .

وقد حاول بعض الكتّاب أن يسد الهوة بين الجريدة والفلاح فخاطب المشائخ والأعيان ليكونوا حلقة وصل بين كتّاب هذه المقالات والزراع بنقل ما فيها إليهم وحثهم على الاستفادة منها[2] .

ومن خلال استعراض بعض النماذج لهذه المقالة ندرك بدايتها الغرة التي تعكس المستوى العلمي السائد آنذاك ، فقد كتب أحد المثقفين مقالة عن القنفذ ومقاومته للسم ، تثنية على ما نشرته صحيفة طرابلس الغرب في أحد أعدادها الأولى من أن عالماً روسياً لاحظ عدم تأثير السم على القنافذ ، وأن عالماً ألمانياً أجرى تجربة أثبت بها أن القنفذ يأكل الحيوانات السامة ، ولا يتأثر بالسم ، وأضاف عليها كثيراً من مشاهداته الشخصية حينما كان مديراً لقضاء مرت ، فأورد قصة أحد الفرسان الذي شرب دم القنفذ بكامله لعلمه أن له مزايا صحية «وأن في دم القنفذ ولحمه شفاء من السم ، لأنه كلما أكل حيواناً ذا سم لم يؤثر فيه سمه أصلاً[3]» ، وهذا من المعتقدات الشعبية التي لا زال بعضها سائداً حتى يومنا هذا .

والجدير بالملاحظة أن هذه المقالة تدل على مواكبة للتوجه العلمي الأوروبي في تلك الفترة حيث كان الاهتمام منصباً على أبحاث المناعة والتطعيم ، وإن كان من المستبعد أن تسلك في بابها ، ولا يعير الكاتب أحكامه قدراً من التمحيص والتدقيق بل يرسلها جزافاً كقوله : «والحال أن شرب الدم مستكره . . والعقرب أقوى سماً من سائر الحيوانات . .[4]» فلم يكدح ذهنه في تبين حرمة شرب الدماء ، أو أي أنواع العقارب يعني . . بل إنه يبدي حيرته من أمر الأعراب في الصحراء الذي لا يتوقون الشمس والبرد ومع ذلك لهم أجسام قوية وقلّما يشكون من المرض ، ويتساءل : هل مردّ ذلك إلى دم الحيوانات المسفوح أم لأمر ، آخر ؟ ، ويعلن حيرته قائلاً : «والحاصل أن عقلي يقصر عن إدراك ذلك ، ولم يحط بعلم هذا الأمر ، وأن تجاريب القنفذ وغيره من شأن مشاهير الحكماء[5] الذين لهم اعتناء بذلك . .[6]» .

---

(1) انظر : طرابلس الغرب العدد 770 في 20 شوال 1313 هـ (1895 م) .

(2) انظر : طرابلس الغرب العدد 1101 في 25 ذي الحجة 1322 هـ (1904 م) «نبذة زراعية» .

(3) طرابلس الغرب العدد 62 في 3 شعبان 1284 هـ (1867 م) «القنفذ» .

(4) المصدر السابق .

(5) المقصود الأطباء ، وهذا أحد استعمالاتها القديمة ، لا زالت منه أثارة عند العامة حتى اليوم .

(6) طرابلس الغرب ، العدد 62 مصدر سابق .

ومثل هذا الكاتب إن لم يقدم لنا مادة علمية فقد سجل لنا شيئاً من عادات ومعتقدات الشعب بعيد منتصف القرن الماضي .

أما المقالة العلمية المبرمجة فكانت ــ كما أسلفت ــ صدى لما ينشر في زوايا الدولة الأكثر تقدماً ، فجاءت جامدة جمود الدروس التعليمية تعنى بسوق الحقائق دون اعتبار لأساليب العرض ، كأن يفتتح كاتب مقالته عن دودة الحرير افتتاحاً مباشراً فيقول : «إن الدود الذي يربى ليؤخذ منه المحصول ليس له سوى بضعة أنواع على أن الأوصاف التي بها تتفرق هذه الأنواع ليست ثابتة في دودة واحدة فيشاهد أن الدود الذي أصله من بزر واحد قد يحصل منه أنواع متعددة[1]» ثم يمضي في تبيان أنواع الشرانق وألوانها ومزاياها وتعداد البيض الذي يبلغ الآلاف ، إلى أن يصل إلى شجرة التوت التي يتغذى عليها الدود ، فيذكر أنها جاءت من الصين ويفصل في كيفية استنباتها منذ انتقاء البذرة حتى تصير شجرة مكتملة، ثم تتبعها حلقات أخرى مسلسلة في شرح كيفية تربية الدود التربية المثلى .

ولست أدري إن كان في ليبيا آنذاك من يهتم بالحرير الطبيعي إلى الحد الذي تعد له مزارع خاصة ويبذل هذا الجهد الإرشادي في سبيله ، بيد أن هناك مقالات أخرى اهتمت بالارشاد إلى محاصيل تناسب مناخ الولاية وتربتها ، مثل زراعة البطاطا[2] ، وحوت معلومات لا أظن أن الفلاحين يجهلونها ، وإن كانت قيمة من حيث التعريف بفصائل هذا المحصول ، وأجود أنواعه ، وأنسب الأوقات لزراعته ، ولكنها لم تخل أيضاً من كونها لم تكتب لمزارعي ولاية طرابلس الغرب في أصلها ، حيث ورد ببعضها تحذير من الجليد الذي قد يقتل البذرة في ظروف معينة ولا يخفى عدم جدوى هذا التحذير في مناخ معتدل في معظمه[3] .

كذلك أبدت المقالة العلمية في الفترة الأولى اهتماماً خاصاً بالأمور الصحية ، ومناسبة بعض الأقاليم لانتشار الأمراض ، وخصائص المدنية والريف فيقول عنها أحد الكتاب : «وأما المدن فهواؤها أدفأ من الفلاة لسبب كثرة النيران التي تشعل فيها ، وكثرة حيطان بيوتها التي تمتص الحرارة ، ولكنه غير نقي لسبب ما يعرض له من الفساد من ازدحام البشر ومن

---

(1) طرابلس الغرب العدد 681 في 3 ذي القعدة 1308 هـ (1891 م) «معلومات مختصرة في دود الحرير» .

(2) تعريب لكلمة (Batatas) ، إذ ليس لها اسم في العربية ، انظر : معجم للمصطلحات العلمية والفنية ، يوسف الخياط ص 68 .

(3) انظر : طرابلس الغرب العدد 770 في 20 شوال 1313 هـ (1895 م) «زراعة البطاطة» .

البلاليع والأسراب[1] ومن الكربون[2] الذي يصعد من النيران[3]» .

وهكذا ولدت المقالة العلمية في ليبيا مصبوغة بالصبغة التعليمية المباشرة ، لكنها تمتاز بتجاوز الأساليب الملتوية والصناعة اللفظية التي واكبت معظم المقالات في الشرق حتى فترة متأخرة نسبياً .

وظلت المقالة في فترتها الثانية تدور في فلك تلك الصبغة حتى بعد أن خطت خطوات على طريق الوصول إلى المفهوم الصحيح للمقالة العلمية ، ويظهر هذا جلياً من خلال حصر الخطوط العريضة لمسارها في تلك الفترة ، فلم تتسع آفاقها إلا لموضوعات الحياة اليومية ، تلبية للحاجات المادية ذات العلاقة المباشرة بالانسان ، فأوسع أبوابها فتح على الزراعة والارشاد الزراعي انسجاماً مع توجه الدولة أو الحكومة في الولاية التي دأبت على إيلاء الزراعة اهتماماً خاصاً باعتبارها أهم مورد في تلك الحقبة ، حتى أن الصحف تنشر إحصاء لعدد الأشجار التي زرعت في بعض الأقضية مقروناً بالشكر لقائم مقام ذلك القضاء[4] تشجيعاً له وحثاً لغيره[5] .

ومما تجدر ملاحظته أن المقالة العلمية تناولت الزراعة من خلال معيارين : أولهما نظري يقوم على عرض نظريات في علم الزراعة كنظرية «مازورهالتي»[6] في تكبير حجم السنابل التي يعرض لها أحد الكتّاب مناقشاً فيقول : «ولقد كانت ولم تزل نظريات المذكور مظهراً لتقدير أرباب الفكر وإن كان تصدى بعضهم في هذا الزمان لوضع نظريات يحاولون بها إثبات النقص في نظرية هالتي المذكور ، على أني أراني مضطراً بحكم وجداني على تعليم زراعنا أصول تصفية البذر الذي نحن بصدده حتى يتحقق المتخصصون من أهل الفن ما انطوت عليه تلك النظريات ويمحصونها فيقفون على نتائجها[7]» وقد تعرض بعض المقالات إلى علم وظائف الأعضاء ، وشيء من قوانين علم النبات مما يقع في إطار الدراسات النظرية .

---

(1) كذا ، ولا معنى لها هنا ، وربما كانت خطأ مطبعياً .

(2) المقصود : أكسيد الكربون عندما يحترق ينشأ عنه غاز الكربون ، وهو غاز خانق ، انظر : معجم المصطلحات العلمية والفنية ص 578 .

(3) طرابلس الغرب العدد 701 في 28 شوال 1309 هـ (1891 م) «حفظ الصحة» .

(4) القضاء أحد التنظيمات الإدارية العثمانية ، والقائم مقام هو المسؤول الأعلى في القضاء .

(5) انظر : طرابلس الغرب العدد 1107 في 8 صفر 1323 هـ (1905 م) .

(6) لم أعثر له على ترجمة .

(7) طرابلس الغرب العدد 1200 في 8 جمادي الآخرة 1325 هـ (1907 م) «اصلاح البذور بالتنقية» .

ويستمد المعيار الثاني رؤيته من خلال النهج التجريبي القائم على الأساليب الموروثة في معظمها ، وقد يتطرف بعض كتّاب هذا النهج فيشك في صحة عمل بعض الأجهزة الحديثة كالبارومتر[1] (Barometer) قائلاً : «ينبغي أن لا يغتر بـه ولا يتقيد بما يبينه من العوارض ، والأولى في هـذه الصـورة الـرجـوع إلى الأحـوال الطبيعية والعـلامـات السماوية[2]» .

وقد تبدي بعض المقالات استجابة لرغبات القراء في الكتابة عن مواضيع معينة ، مما ينبيء بأن ثمة أصداء لما يكتب في هذا القبيل من المقالة كأن تقول إحداها : «ولما كان إيضاح هذه المعلومات يحتاج إلى شرح طويل فنحن نذكّر بعدة إفادات ابتدائية في فنون تتعلق بها وإرشاد للقراء[3]» .

غير أن المقالات ما تتعدى الأفات الابتدائية لتدخل في مرحلة من التعريفات المنطقية كأن تهتم بتبيان الفرق بين الزراعة وفن الزراعة ، وقد تعرض لشيء من الاقتصاد الزراعي بالحديث عن رأس مال الأراضي ، ورأس مال الشغل إلى غير ذلك من المعارف التي لا أظن أن الزراع يأبهون لها كثيراً .

ومن كتّاب المقالة من حاول أن يتملص من جفاء المادة العلمية فعمد إلى رونق أدبي يكسو به مقالته في الإرشاد الزراعي واتخذ من وصف الرياح مدخـلاً إلى غايتـه فقال : «تبدلت الأرياح الغربية الشمالية الشديدة ، والغربية المبيلة بشرقية ، وشرقية جنوبية منعشة للأجسام ، وأتمّ العلمة جميع أشغالهم في هذا الموسم ولم يبق للزرع سوى الارتفاع عن سطح الأرض بالتدريج ــ تقوية لأنظار الأمل القارة حوله ــ وتخلّص الرعاة من جميع المشاق وأصبح الربيع النضر زيادة عن الحد المطلوب لمعيشة الحيوانات الأرضية ، وطفقت الخرفان ترعى وتمرح بصورة تستجلب أنظار المولعين بتتبع حكمه العليـة[4]» ، ويخلص من هذه الديباجة إلى ما يجدر بالزراع عمله من إعداد للأرض بحفرها وتقليبها وتهيئتها لاستقبال مياه الأمطار والاستفادة من أشعة الشمس ، وخلطها بالاسمدة ، وإزاحة الطفيليات إلى آخر الإرشادات التي لا يستغني عنها المزارع .

وقد بذل كتّاب المقالة العلمية جهداً في تبصير القراء من أرباب الفلاحة بأمور تهيئة

---

(1) مقياس الضغط الجوي ، وهو نوعـان زئبقي ومعدني ، انظر : معجم المصطلحـات العلمية والفنية ص51 .

(2) طرابلس الغرب العدد 1196 في 11 ربيع الآخرة 1325 هـ (1907 م) «معرفة تبدل الهواء» .

(3) طرابلس الغرب العدد 1218 في 22 شوال 1325 هـ (1907 م) «أصول تشفية الأشجار المثمرة» .

(4) طرابلس الغرب العدد 1101 في 25 ذي الحجة 1322 هـ (1904 م) «نبذة زراعية» .

التربة وتبيان ما قد يغيب عنهم كتنبيههم إلى قضية المناوبة بين أنواع المزروعات مما يعطي فرصة للتربية في موازنة المواد التكوينية بتنوع ما يزرع فيها فتعطي محصولاً أفضل ، وتعداد أنواع التربة ، وما يناسب كل نوع من المزروعات ، ومن ذلك ما جاء في إحدى المقالات الارشادية . . «إذا كانت الأرض رملية كانت صالحة لزراعة الكتان والشعير والخرطال والحنطة السوداء والعدس والذرة والفاصولية والبطاطا واللفت والجزر والقلقاس[1]» .

حتى إذا ما أقبل موسم زراعة الأشجار انثالت المقالات التي ترشد إلى أفضل السبل وأنسب الأوقات لشتل الشجيرات الصغيرة وطرائق شتلها ، وخلاصة ما تهدف إليه هذه المقالات الارشادية تبصير الزراع بأن من الأشجار ما يمكن تكثيره عن طريق النواة ، ومنهاما يكثر عن طريق الفسيل مثل النخيل ، أو بطريقة التدلي مثل العنب .

وفي موسم التقليم تنصب المقالات العلمية المهتمة بالزراعة على بيان كيفية تقليم الأشجار بمنهجية تشبه مخططات التعليم ، حيث تحدد أماكن التقليم بالسنتمرّات ، ومواعيد سكون الماء في الأغصان ، بل يصرّ بعضهم على تحديد تعريف لمعنى التقليم فيقول : «التقليم هو قطع الأغصان الغير النافعة المتكتسي بها الساق[2]» .

وإذا ما كتب أحدهم عن التطعيم قرّب الصورة لأذهان الفلاحين بتشبيه العصارة النباتية بدم الانسان ، وفصّل كيفية التطعيم ، وحدد عمر الغصن الذي يؤخذ منه الطعم ، ويسمى هذه العملية بطعم القلم[3] فرقاً بينها وبين طعم الورق الذي يقول عنه كاتب آخر : «لقاح الورق يكون للخوخ والتفاح والكرز والمشمش والدراق والليمون والبرتقال هذا من الفاكهة ، وللورد وما ماثله من الأشجار الزهرية ، ويجرى تلقيحه في أغصان جنية تتخذ مطعوماً يكون عمره أشجارها من سنة إلى خمس سنوات[4]» ، ويغرق بعد ذلك في وصف إجراء هذا التقليم بمقاييس هندسية وزوايا ونقاط ارتكاز ما أظن الفلاحين قد أفادوا منها شيئاً .

وتحظى أشجار الحمضيات بعناية خاصة لا من حيث الارشاد الزراعي العام فحسب ، بل من عدة وجوه أخرى حتى أن أحد الكتاب يخصص مقالة مسلسلة في حلقات

---

(1) طرابلس الغرب العدد 1190 في 21 صفر 1325 هـ (1907 م) «المناوبة في الزراعة» .

(2) ملف مجلة الفنون ، الدار الوطنية طرابلس ص 26 .

(3) انظر : طرابلس الغرب العدد 1195 في 4 ربيع الأخر 1325 هـ (1907 م) «القواعد الفنية في حق تطعيم الاشجار» .

(4) طرابلس الغرب العدد 1200 في 8 جمادي الأخرة 1325 هـ (1907 م) «طعم الورق» .

عن البرتقال في حو البحر الأبيض المتوسط ، يعدّد مزاياه وفوائده فيقول : «أوراق أنواع كثير من الأشجار الراجعة لفصيلة البرتقال تستعمل في الطبابة والمشروبات وفي باقي كثير من الصنائع[1]» ، ويعتمد في جل هذه الفوائد على الطب الشعبي والتجارب المتوارثة ، والصناعة البدائية في معظمها .

كذلك فقد حظيت مع غيرها بما يمكن أن نطلق عليه المقالة الشريحية حين تفرد مقالات مسلسلة لتتبع نوع واحد أو شريحة واحدة من شرائح التكوين كما حدث في مقالة عنوانها (أصول تشفية الأشجار المثمرة) من إفراد أكثر من حلقة لتتبع العصارة النباتية وعلاقتها بالضوء ودورها في النمو ، وسرعة جريانها في الأغصان المستقيمة دون المعوجة ، وعلاقتها بالثمر . . إلى آخر ما يتعلق بالعصارة ودورها[2] .

كما احتلّت العناية بأمراض الحمضيات وطرق علاجها مساحة من حيِّز المقالة العلمية فصلت فيها الأمراض العارضة لها وبيان أسباب وطرق علاجها ، ومما تجدر ملاحظته أن التركيز على الحمضيات يفيد اهتماماً خاصاً تشذ فيه المقالة العلمية عن مسارها الانسياقي وراء ما ينشر في صحف الدولة عموماً دونما نظر إلى علاقته بالولاية ، ويمكن أن تدلل على هذه الخصوصية بما جاء في إحدى المقالات من «أن المرض العارض لأشجار الليمون والبرتقال والمندلينة[3] الموجودة داخل ولاية طرابلس الغرب هو من المرض المسمى «فوزا ريوم سارقو قروم»[4] ومن علة الاختمار التي هي نتيجة ذلك المرض[5]» .

واهتمت المقالة كذلك بوصف الحشرات الضارة للحمضيات وصفاً سهلاً ميسوراً وعرضت لأطوار نموها دون الغوص في تفاصيل التركيبات المعقدة لهذه الأطوار بما يناسب القارىء العادي كأن تقول : «وهذا الداكوس هو دود أسود الرأس أبيض الجثة شفافها ، يتكون من البيض الذي يضعه ذباب شجر الزيتون على الفواكه المنعقدة من حزيران حتى أيلول[6]» .

---

(1) طرابلس الغرب العدد 1234 في 23 صفر 1326 هـ (1908 م) «غرس البرتقال حوالي البحر الأبيض» .

(3) طرابلس الغرب العدد 1218 في 22 شوال 1325 هـ (1907 م) وما قبله وما بعده .

(3) المقصود : اليوسفي .

(4) (Fusarium) (نوع من الفطريات يسبب ذبول النبات ، انظر : معجم المصطلحات العلمية والفنية ص 516 .

(5) طرابلس الغرب العدد 1019 في 24 نيسان 1319 مالية ، «متنوعة» .

(6) طرابلس الغرب العدد 1189 في 14 صفر 1325 هـ (1907 م) «عاهة الليمون والبرتقال والماندارين وصور مداواته» .

وقد تنبه بعض الكتّاب إلى أهمية التوازن الطبيعي الذي يحمي النباتات فعابوا على المزارعين محاربتهم للنمل مما ينشأ عنه اختلال في هذا التوازن مع حشرات أخرى ضارة بالأشجار ، ومن ثم فقد عرضت الحلول المتعددة لحماية الحمضيات دون الاعتماد على الطبيعة وحدها كتكثير عددها ووصف العديد من التركيبات الكيماوية ، أو بعض الأدوية البسيطة كالكبريت البري وما شابهه من وسائل بدائية في معظمها[1] .

وبعد الحمضيات يأتي الاهتمام بالزيتون في مرتبة تالية لما له من قدرة على مقاومة العطش والأمراض فلم يحظ بمزيد اهتمام من كتّاب المقالة العلمية في هذا المضمار إلا بالقدر الذي يبدو ضرورياً ، وقد أعرب أحد الكتّاب عن هذا بقوله : «نعم شجر الزيتون وإن كان شجراً ممتازاً بتحمله لليبس ومقاومة الأمراضض لكنه غير مستغن كلياً عن كل تقيد وحراثة ، فهو بذلك الامتياز لا يخرج عن كونه شجراً ومحتاجاً للأغذية المخصوصة والماء والهواء والنظافة المخصوصة به[2]» .

ومن الملاحظات اللافتة للنظر أن المقالة العلمية لم تتطرق إلى النخيل بشكل مستقل إطلاقاً طيلة هذه الفترة من الدراسة ، علماً بأنه عرضة ــ كغيره من الأشجار ــ للأمراض الفتاكة ، ويحتاج إلى عناية موسمية على أقل تقدير ، وهذا ــ ما أراه ــ يرجّح أن الكتّاب يستندون إلى حائط المعرفة الغربي ، إن لم يكن ترجمة فتمثل واحتذاء غيّب ــ فيما غيّب ــ الاهتمام بأشجار النخيل .

وقد تسفّ المقالة العلمية إسفافاً مزرياً فتشكل انحداراً في مؤشر سيرها كأن يذكر أحدهم أن ما «(5) ع ويحصد ليكون غذاء للانسان والحيوان يسمى حبّاً[3]» ، أو أن يحشر في المقالة العلمية الدعاء للسلطان ، وما شابه ذلك مما لا يمتّ إلى العلم بصلة .

ولموسم الحصاد عند كتّاب المقالة المعنية بالزراعة اهتمام خاص فاتخذ مدخلاً للإرشاد إلى الطرق الصحيحة لجني المحصول ، وإذاعة الوسائل العلمية ودفع الزّراع نحو الميكنة الحديثة ، وحثهم على تجاوز مرحلة الأعمال اليدوية مع الافاضة في الحديث عن التربة أو أنسب الأوقات لجني ما يزرع في كل منها ، ويبيّن أحد الكتّاب للزرّاع أهمية التوقيت في جني بعض المزروعات فيقول : «فإن القمح الذي يحصد باكراً تزيد أوصافه التجارية وتستوي

---

(1) المصدر السابق .

(2) طرابلس الغرب العدد 1108 في 15 صفر 1323 هـ (1905 م) «لماذا لا يثمر شجر زيتوننا بخصب كل سنة» .

(3) طرابلس الغرب العدد 1107 في 8 صفر 1323 هـ (1905 م) «في الحبوب» .

نخالته وترقّ ويكون لون حبّه فاتحاً ودقيقه كثيراً وأبيض ويزلق في اليد بسهولة والذي يحصد متأخراً يتصلّب حبه ويتكمد لونه ولبه قوي ونخالته غليظة ودقيقه قليل البياض والحسن ويسقط بعض حبه بتأخر حصاده فيقلّ محوله[1]» .

وهكذا نجد أن المقالة العلمية قد غطت الجانب الزراعي تغطية كاملة فدرست التربة وأنواعها وخصائص كل نوع ، وتتبعت أهم الأشجار في الولاية منذ بزرتها الأولى حتى تؤتي ثمارها .

وقد أفاضت كثيراً في الحديث عن المزروعات الموسمية من الخضر، وأبرزت القيمة الغذائية لكل نوع مما لا يتسع المجال لتتبعه تتبعاً استقصائياً فاقتصرنا على إيراد أمثلة نموذجية تعكس دور المقالة العلمية في بناء الجانب الزراعي في الولاية .

وإذا كان هذا شأن المقالة العلمية في الزراعة فإن أهم موضوع عُنيت به بعد ذلك كان الطب والعناية الصحية ، ومن المعلوم أن النصف الأخير من القرن التاسع عشر قد شهدت أوج المكتشفات الطبية في أوروبا ، ومن ثم طالت شآبيبه الشرق عامة ، فتبوأت المقالة العلمية في جانبها الطبي مكانة سامية في ولاية طرابلس الغرب ، وكان دورها الأسنى بارزاً في ميدان التوعية الصحية ، فكُتبت مقالات شتى في رعاية الاسنان وآلية الهضم ، ووظائف الأعضاء ، ونُوقشت الأمراض السارية وأضرار الخمور .. إلى غير ذلك من المواضيع ذات العلاقة المباشرة بصحة الانسان .

والملاحظ أن جل هذه المقالات تميز باليسر والسهولة كأنما نظر إلى مستوى القاعدة الثقافية المنشودة إفادتها ، بيد أن هناك مقالات كُتبت بلغة صارمة تبعد عن القارىء العادي بمصطلحاتها الطبية ، ورموزها الشائكة .

ويمكننا التعّرف على جهد المقالة في هذا المضمار من خلال استعراض بعض نماذجها ، فثمة مقالة شاء لها صاحبها أن تكون مدخلاً في الرد على من يهملون العناية بأسنانهم اعتماداً على أن العلم اكتشف لهم أسناناً صناعية بديلة ، وهنا يجدر أن نستنتج مدى انبهار الناس بالحضارة الغربية والتقدم المادي الذي جعلهم يشعرون باتساع هوّة تخلّفهم ، فيحاول الكاتب تسفيه هذه النظرة من خلال التأكيد على أن الأعضاء الصناعية مهما بلغت دقة صنعها فهي دون الطبيعية «إذ مهما زُينت المصنوعات المستحصلة بواسطة الصنائع ، ونظّرت باللطافة الطبيعية والمنظرة البديعية الفطرية لا تخرج عن كونها صنعة عادية

---

(1) طرابلس الغرب العدد 1118 في 4 جمادي الأولى 1323 هـ (1905 م) «أعمال حزيران الزراعية» .

مؤقتة[1]» ، وتنبئنا هذه المقالة عن بداثية مزرية في خلع الأسنان ، فقد كانت عملية الخلع تتم بالكلبتان[2] ويقوم الحلاقون بها دونما نظر إلى قواعد الصحة ، ومبادىء التعقيم[3] .

ومثل هذه المقالة تمثّل النموذج البسيط للمقالة العلمية التي لا يكتبها متخصص ، وإنما يكتبها مثقّف ملم بما يكتب ، مع تفاوت بين الكتّاب في درجات الإلمام ، فقلّما يخضع هؤلاء أنفسهم لمعايير العلم وطرائقه ، وإنما يرسلون الأحكام على عواهنها ، كأن يُصدر أحدهم حكماً على الهضم بأنه أهم الوظائف الموجودة في الأبدان ، وبسببه يكثر الدم ، أو أن يذكر تجربة يكثر ترديدها في تلك الآونة وهي أن الأطباء قاموا بتجربة هضمية خارج المعدة لمواد غذائية مسحوقة ، وأخرى غير مسحوقة فهضمت المسحوقة في فترة أوجز من الأخرى[4] .

وعلى الجانب الآخر نستعرض مقالة في ذات الموضوع سلكت المسلك العلمي الصحيح سواء من حيث اللغة المحددة للمعاني المقصودة أم من حيث صحة المعلومات ودقتها ، يقول كاتبها : «فالعمل التذويبي في العصارة المعدية ناشيء عن عنصر خاص يعرف بالبيسين[5] أي العنصر الهضمي ، وهو بامتزاجه بحامض كحامض كلور الماء أو حامض اللبن تكون لها خاصية تذويب الألبومين[6] أي الزلال ، والفبرين[7] وفي المادة الليفية الداخلية في تركيب الدم ، والفلتن[8] وهي المادة اللزجة في الحبوب وتذويب سائر المواد الحاوية للأزوت[9] وتحويل هذه المواد إلى كتلة قريبة من السيلان تعرف بالكيموس[10] [11]» .

كذلك فقد اهتمت مثل هذه المقالات ببيان خطأ بعض المعتقدات وتصويبها وذكر شيء من قصة الاكتشافات الطبية كالتعريف بأول من تنبه إلى عمل العصارة المعدية وسرد

---

(1) طرابلس الغرب العدد 1104 في 17 المحرم 1323 هـ (1905 م) «حفظ صحة الاسنان» .

(2) أداة يستعملها الحدادون ، وتخلع بها الأسنان ، انظر : المعجم الوسيط ص 794 .

(3) المصدر السابق .

(4) انظر : طرابلس الغرب 1105 في 24 المحرم 1323 هـ (1905 م) «نبذة في وظيفة الأسنان» .

(5) (Pepsin) انزيم هاضم يقوم بدور رئيسي في تفتيت المواد البروتينية .

(6) (Albumin).

(7) (Fibrin) وعرب بالليفين ، انظر : المعجم الطبي الموحد ص 272 .

(8) (Volutin) .

(9) (Nitrogen).

(10) (Chymus).

(11) ملف مجلة الفنون ، دار المحفوظات الوطنية ، طرابلس ص 23 .

تجـار العلماء في استخراج العصـارة المعديـة من جوف الـطيور وإجـراء تجارب هضميـة عليها[1] .

وعنيت المقالة العلمية بوظائف الأعضاء ، فللبنكرياس وعصارته حديث مسهب ، وللعصارة المعوية من جدران الأمعاء الدقيقة ودورها شرح واف ، بل للحيوانات النباتية وأجهزتها الهضمية مساحة وافية وصفت فيها وصفاً دقيقاً يشبه الأشرطة الوثائقية ، التي تعنى بعالم البحار ، منها : «فإن في كثير من الحيوانات النباتية الشعاعية المعروفة بالكثيرة الأرجل لا تتركب الأنبوبة الهضمية إلا من تجويف يكاد يشغل كل جسم الحيوان وتنتهي برتج ولا يتصل بالخارج إلا بفوهة تقوم تارة مقام الفم وتارة مقام المخرج[2]» .

ومثل هذه النماذج تقدم لنا تصوراً لما كتب من المقالة العلمية في مضمار الطب بلغة أقرب إلى لغة المتخصصين ، وهذا مما يميز أسلوب المجلة الوحيدة طيلة الفترة العثمانية في ليبيا ، ويفسر سراً اختفائها السريع لعدم مناسبتها للبيئة الثقافية اليافعة[3] .

وثمة أنموذج آخر جاء وسطاً بين النوعين السالفين عالج مشاكل التغذية واحتيـاج الجسم إلى السعرات الحرارية ، اتخذ الكاتب له مدخلاً فيه شيء من الطرافة ، إذ ذكر اعتناء الناس بتغذية حيواناتهم واهتمامهم بالأصول العلمية في ذلك ، بيد أنهم يهملون شأن تغذيتهم ، ثم ينبه إلى ما يترتب على سوء التغذية من مضمار تطال حتى الأجيال القادمة ، ومنها يستغرق في تصنيف المواد الغذائية ، وتقسيمها إلى مواد زلالية (Proten) ، وشحمية (Lipid) ومائية فحمية (Carbohydrate) ويعرض لاحتياج الجسم للماء ونسب الأملاح وما يلزمه من حُريرات يومية مستعم نسباً تقديرية ووحدات قياس لا يبدو أنها سائدة فيضطر إلى شرح بعضها كأن يقول : «والكالوري الواحد عبارة عن قوة النار اللازمة لاصعاد حرارة كيلو غرام ماء إلى درجة واحدة[4]» ، ويقصد بالكالوري (Calorie) الحريرة المستعملة في قياس الطاقة الغذائية[5] ، وقد يتساهل الكاتب في بعض الحقائق العلمية كأن يـذكر أن

---

(1) من هؤلاء «ريومور» الذي أثبت أن بالإمكان هضم اللحم إذا وضع في أنابيب صغيرة صلبة ذات ثقوب ، و«سبالا نزاني» الذي ربط قطعاً من الاسفنج بسلك وجعل الطيور تبتلعها فحصل بذلك على شيء من العصارة الهضمية واستخدمها في عملية هضم خارج المعدة .

(2) ملف مجلة الفنون ، ص 24 . دار المحفوظات الوطنية ، طرابلس .

(3) المجلة المقصودة هي مجلة الفنون ، وصاحبها ومحررها ومترجمها وموزعها : محمد داود ، ولم يصدر منها إلا (27) عدداً فقط .

(4) طرابلس الغرب العدد 1095 في 6 ذي القعدة 1322 هـ (1904 م) «كم غذاء نحتاجه في اليوم» .

(5) انظر : المعجم الطبي الموحد ص 129 .

الجسم «يفقد مقداراً عظيماً من الماء في اليوم بواسطة إدراره وجلده وكبده[1]» ، ومعلوم أن جزءاً من الماء يفقد مع التنفس أيضاً ، أما الكبد فلا علاقة له بالأمر .

ومما لا تخطئه العين أن المقالة العلمية في مجال الطب في الفترة الثانية من هذه الدراسة قد أحدثت أثراً واضحاً تدل عليه المناقشة والتعقيب على ما ينشر في صفحات الجرائد ، وقد كتب أحد الأطباء مقالة استغرقت أكثر من ست حلقات رداً على ما نشر في الترقي من أن الدماغ البشري تموت خلاياه ويولد غيرها في ستين يوماً ، وأن جسم الانسان يتجدد بكامله كل سبع سنين ، وقد استعرض الكاتب جملة من شرائح الثقافة السائدة كاعتقاد البعض أن هناك ميكروبياً للموت ، وتفاؤلهم بأن يعثر له على لقاح ، أو الافتراض الذي يقول به بعض الفلاسفة : «لما كان جسد الانسان يتجدد كله تماماً في مدة معلومة وكان حق كل متجدد الدوام والتخلّد فالانسان حقه أن يخلد في هذه الدنيا[2]» فصوّب هذه المعتقدات مجادلاً كلاً بمنطقه ، فهو ينفي بالبراهين العلمية قضية التجدد في الخلايا الدماغية لأنه يتكون من خلايا معقدة لا تجدد وإنما «ذلك زعم وهي لم يستند على مبادىء العلم والخطأ فيه مضاعف تشريحياً وفزيولوجياً[3]» ، ويعكس على الفلاسفة قضيتهم المنطقية قائلاً : «إن جسد الانسان لا يتجدد كله تجدداً تاماً ، وكل غير متجدد يخلق ويفسد ، لا محالة[4]» ، حتى إذا فرغ من الجدل والمناقشة شرع يقدّم خلاصة في تاريخ الطبّ من لدن «أبقراط»[5] مروراً بـ «أرسطو»[6] وعلماء الاسكندرية وانتهاء بـ «جالينوس»[7] وكتابيه في علم التشريح ومنافع الأعضاء ، ويشيد بدور العرب في علم الكيمياء الذي بنى عليه تقدّم علم الحياة في العصور الحديثة ، ويلقي لمعاً من الأضواء على مسيرة علم الحياة فيذكر أن العالم الفرنسي .

---

(1) المصدر السابق .

(2) الترقي العدد 18 في 27 جمادي الأولى 1315 هـ (1897 م) «الدماغ البشري» .

(3) المصدر السابق .

(4) الترقي العدد 18 مصدر سابق .

(5) طبيب يوناني عرف بأبي الطب ، ولد سنة 460 ق م ، فصل الطب عن الخرافة والغيبيات ، نقلت كتبه إلى العربية على يد حنين بن إسحاق وعيسى بن يحيى وثابت بن قرة وغيرهم ، توفي 370 ق م ، انظر : الموسوعة ص 7 .

(6) فيلسوف يوناني ولد سنة 374 ق م ، تلميذ أفلاطون ، صاحب مدرسة المشائين من آثاره : الأورغانون في المنطق ، والسماع الطبيعي ، وكتاب الكون والفساد ، توفي 322 ق م ، انظر : الموسوعة ص 117 .

(7) طبيب وكاتب يوناني ولد سنة 130 م ، طغى على ميدان الطب حتى القرن 16 م ، له ما ينيف عن خمس مئة مؤلف معظمها في الطب صاحب مذهب في التشريح والفسيولوجيا توفي 200 م ، انظر : الموسوعة ص 597 .

«بيشا»[1] قد خلص هذا العلم من ربقة الكيمياء والفلسفة الطبيعية وبعد به عن «مهد طفوليته ووضع له أصولاً وأركاناً بإظهاره جلياً لكل من الأنسجة التي يتركب منها جسم الانسان طبائع ومنافع وخواص لا تقوم إلا بها»[2] .

وفي إحدى حلقات هذه المقالة الطويلة يصف الكاتب الكُرية (Globule) التي هي الحالة التشريحية الأولى للخلية ، وعناصر تكوينها الكيماوي في غير ما إغراق في الجزئيات التشريحية الدقيقة التي لا تناسب القارىء غير المتخصص ، وقد تكون مبعثاً على السأم ، واكتفى بوصف الخلية من حيث تركيبها من نواة (Nucleus) ونوية (Nucleolus) وغشاء ، ومن حيث تركيبها الكيميائي من الماء ومواد زلالية ودهنية وأملاح معدنية ، ولعل مثل هذا الاختصار مما يوقع في الخطأ أحياناً ، فالكاتب لم يذكر اسم الغشاء المحيط بالنواة السيتوبلازم (Sytoplasm) ، ثم يجعل وجود النوية غير لازم دائماً حين قال : «أما هذه ــ الخلايا ــ فتكون في حالة اكتمالها مركبة من غشاء يحيط بالبروتوبلاسم في وسطها جرم أجوف من ضمنه أحياناً جرم آخر يسمى الأول نواة والثاني نويوة»[3] .

ثم يسهب في الحديث عن باقي حلقات هذه السلسلة من انقسام الخلية وأغراض الانقسام وسائر أطوارها الأخرى حتى تموت وهي في خدمة الجسد .

ولقد نهجت المقالة العلمية في مجال العناية الصحية نهجاً تصل به إلى التثقيف الصحي عن طريق إبراز دور وظائف الأعضاء ، كما نرى في مقالة كان محورها وظائف الجلد ، حيث رأى كاتبها أن الوظائف الحيوية «للمعدة والرئة والعروق وسائر الأعضاء المهمة الداخلية مقدرة معلومة عند كل أحد لكن كثيراً من الناس لا يهتمون بما يجريه الجلد من الوظائف الحيوية كاهتمامهم بتلك»[4] ، فأبان عن بعض وظائف الجلد دون تعمق في تركيبات النسيج الجلدي ، أو وصف لطبقات المتعددة ووظيفة كل طبقة ، ولا يمكن أن نعد مثل هذه المقالة علمية بالمعيار الدقيق لاشتمالها على بعض المغالطات ، كاعتبار التنفس من وظائف الجلد ، في حين أنها أهملت الحديث عن دوره في حفظ الحرارة ، ومهمته الحسية ، ناهيك باغفال دور الغدد الدهنية والعرقية (الأكرينية والأبوكرينية)[5] مما لا تعد المقالة ــ في

---

(1) ماري فرانسوا زافيه ولد سنة 1771 م ، فسيولوجي ومشرح كانت دراسته للأنسجة أساس التشريح الحديث ، توفي 1802 م ، انظر : الموسوعة ص 467 .

(2) الترقي ، العدد 20 في 11 جمادي الآخرة سنة 1315 هـ (1897 م) الدماغ البشري .

(3) الترقي العدد 21 في 18 جمادي الآخرة 1315 هـ (1897 م) «الدماغ البشري» .

(4) طرابلس الغرب العدد 1177 في 11 ذي القعدة 1324 هـ (1906 م) «النظافة البدنية» .

(5) غدتان تفرزان العرق الملحي ، ووظيفته التبريد في الطقس الحار ، والأبوكرونية أكبر من الكرونية ، =

هذا المجال ـ علمية إلا به ، ولكنا نرتضيها في عداد الارشاد العلمي الذي تتطلبه تلك الفترة .

كذلك عنيت المقالة العلمية بالأمراض السارية فتناولها الكتّاب من عدة زوايا إرشادية وتثقيفية ، بما أبانوا من سبب انتشار الأمراض وطرق العدوى وكيفية الوقاية منها ، كما سنرى من خلال استعراض نموذجين : الأول راعى فيه الكاتب مناقشة مرض محلي لم يأبه الناس لعلاجه ، والثاني يمكن أن نسميه مرضاً دولياً عصف بالعالم في موجات متتالية ، فكتب الطبيب «سليمان غزالة» مقالة ضافية في عدة حلقات تناول فيها هذه المرض ، وهو الجدري ، منذ عرفه العالم .

يقول الكاتب في النموذج الأول عن مرض الحمى في الولاية : «وبلدتنا وإن تكن مصونة لله الحمد من العلل المهلكة كالحمى الصفراء ، لكن بها أماكن فيها الحمى ، والحمى ليست مرضاً مؤقتاً كالطاعون والوباء والريح الأصفر وتبقى في الأماكن التي تفشو فيها سنين وأعواماً وتعرض البدن الذي تصيبه لكثير من الأمراض المهلكة بالقرح التي تفتحها فيه فليست أقل ضرراً من الأمراض المذكورة»[1] ثم يبينّ سبب انتشارها محصوراً في البعوض ، ويحث على محاربته بردم البرك والمستنقعات ورش المبيدات ، مبيناً دورة الحياة الكاملة للبعوض ووسائل القضاء عليه بالسبل المتاحة التي تنم عن المستوى المتدني للرعاية الصحية في الولاية ، مثل نصحه بسد البيت سداً محكماً وملئه بدخان الكبريت مدة ساعتين أو ثلاث ليتم القضاء على ما به من بعوض .

وفي النموذج الثاني يتناول الكاتب تاريخ المرض وأماكن قدومه إلى أوروبا وبلاد العرب ، ورحلة اكتشافه منذ أن كان ملتبساً بالطاعون ، ويبرز الكاتب دور العرب في اكتشاف مرض الجدري فيقول : «فأول من شخصه وعرّفه حق تعريفه هم أطباء العرب ومن جملتهم الرازي فانهم وضحوا صفاته وأعراضه وبيّنوا ما كان قد أغلق على من سبقهم وأدخلوه في جدول بقية الأمراض والعلل»[2] .

ثم يبينّ وسائط العدوى ، والوسط المناسب لانتقاله من معدٍ وناقلٍ للعدوى دون أن يصاب بها ، ومن مستعد لتقبل العدوى . . ويقدم تفسيراً لظهور الجدري في هيئة موجات

= وتتركز في مناطق الإبطين والشرج والمناطق التناسلية وجميعها تساعد على بقاء الجلد ليناً ، وتحمي من سفعة الشمس .

(1) طرابلس الغرب العدد 1165 في 16 شعبان 1324 هـ (1906 م) «التخلص من الحمى» .

(2) الترقي العدد 26 في 24 رجب 1315 هـ (1897 م) «الجدري» .

بأن انفجار الحويصلات يعقبه جفاف مادتها فتساقط وتنتشر في انتظار وسيط ينقلها إلى جسم مستعد لاستقبالها ثم تعود دورتها ثانية بمجرد تمكنها من مضيف جديد ، ويسلك الكاتب منهجاً تاريخياً في تتبع أطوار المرض فيذكر أن اكتشاف التلقيح كان في القرن الثاني عشر على يد أحد الأمراء القوقازيين[1] الذين أخذه عنهم العثمانيون ، وأوصلوه إلى بريطانيا في القرن الثالث عشر لينتشر بعد ذلك في أوروبا كلها .

ويعرض الكاتب بعد ذلك إلى اكتشاف أنواع أخرى من اللقاح مثل اكتشاف اللقاح البقري (كوبكس) سنة 1774 م ، واللقاح العجلي[2] ، واللقاح الجيتري[3] ، وناقش أي هذه اللقاحات أصلح وما يعترض بعضها من الصعوبات ليخلص إلى أن اللقاح العجلي هو السائد بعد أن كثر المهتمون بتحضيره .

وهكذا عمل هذا الطبيب على إذاعة الوعي الصحي ، وتنبيه العامة إلى أخطار العدوى المسببة لانتشار كثير من الأمراض الفتاكة[4] ، وخاصة الجدري الذي حصد الآلاف من سكان الولاية .

وبالرغم من أن الدولة إسلامية وتعتبر نفسها دولة الخلافة إلا أن للخمور فيها سوقاً رائجة مما حدا بكتّاب المقالة أن يقرعوا جرس الانذار منبهين إلى خطورة الكحول من الناحية الصحي دون ذكر للناحية الدينية على الاطلاق ، وهذا المنحى يدل على أن الأثر الأكبر في الاقناع مصدره الحجة العلمية وليس الدينية ، ولا سيما إذا كانت الدعوة في أوروبا لهذا الأمر قد لاقت نجاحاً مشجعاً ، فمن السهل على شعب نظر إلى أوروبا نظرة إعجاب بل انبهار أن يختار ما تختاره لنفسها ، وهذا يفسر لنا سبب استشهاد أحد الكتّاب بمقاومة فرنسا انتشار الخمور حين قال : «ويكفيك أن الهيأة[5] التي تشكلت في فرانسة ضد العرق لها ألف ومائتان وخمسون شعبة واثنان وخمسون ألفاً وأربعمائة وواحد وسبعون عضواً حسب

---

(1) ينسب اكتشاف لقاح الجدري في الدوائر العلمية إلى إدوارد جينر (Edward Jenner) وقد اكتشفه سنة 1796 م ، انظر : . World Health (Magazin) August – september 1987 . Dr Jenner's — Legacy .

(2) لقاح يزرع في العجول ومنه يلقح الانسان ، استثمر سنة 1858 م .

(3) في الأصل الجيتري ، ولا معنى له ، ولعل المراد الجينري نسبة إلى جينر .

(4) ما يدعو إلى نشر مثل هذه المقالات هو حث الحكومة في الولاية على الاعتناء بالتلقيح ضد مثل هذا الوباء الفتاك الذي لم تفعل الدولة حياله شيئاً يذكر ، انظر : طرابلس الغرب العدد 1147 .

(5) رسم الهمزة على الألف موافق للقاعدة الاملائية ، لكن السائد هو رسم الهمزة على النبرة إذا سبقتها ياء أيا كانت حركتها .

الموازنة العمومية المنظّمة قريباً ، وقد استقر رأي مائة وخمسين ألفاً في فرنسة في أيام قلائل على إصدار قرار في منع استعمال الآبسنت»[1] .

وثمة مقالة أخرى تحذّر من تأثير المسكرات ببيان تركيبها المبني على (الاسبيرتو) وشرح تأثير الكحول على الأعضاء بدءاً من امتصاص الماء من المعدة إلى انتقاله للكبد وباقي أعضاء البدن مستعرأ تفاعل بعض الأحماض في الجسد ونتائجها الفسيولوجية المؤدية في النهاية إلى السقوط في هوّة المرض .

ومن هنا يمكن أن نقول بأننا قد سلطنا الضوء على أبرز الموضوعات التي عالجتها المقالة العلمية في مضمار الطب البشري متجاوزين عن الكثير من المعالجات التي لم ترق إلى مستوى التحليل والتمحيص .

وكما اهتمت المقالة العلمية بالجانب الصحي للإنسان ، اعتنت كذلك بالحيوانات فأفردت لها حيّزاً غير رحب نسبياً لكنه سدّ ثغرة ما كان بالامكان تجاوزها ، وليس من المستغرب في بيئة تجل الفروسية ، وتحظى الخيول فيها بمكانة مرموقة منذ القدم أن تبدي اهتماماً كبيراً بالخيول ، وأن يقرع جرس الانذار أحد كتّاب المقالة العلمية في الولاية حينما لاحظ تهاوناً وعدم اكتراث تسرب إلى مضمار الفروسية حينما قال : «ونشاهد بمزيد الأسف أن نوع الخيل تتناقص يوماً فيوماً أشكاله الممدوحة ونسله ، سواء في نفس الولاية الجليلة أو في المواقع ، وإعادة ذلك وإصلاحه واجب»[2] .

وانطلاقاً من هذا الواجب فقد كتب بسيم البيطري[3] مقالة متخصصة في أصول انتقاء الخيول وتجويد سلالاتها بدءاً من اللقاح الذي يحدد وقته بالنسبة لولاية طرابلس من شهر يناير لاعتدال المناخ ، ولأن فصل الربيع يزيد فيه حليب الحجر ويسهل هضم العشب النضر على الأمهار المولودة فيه ، وتختفي الحشرات المزعجة حتى مطلع الصيف ، ويحذر من مضار ولادة الأمهار في الصيف مما ينشأ عنه عدم نجابتها ، ويضع بعد ذلك مواصفات دقيقة لأصول انتخاب الخيل مما لو رسمت بريشة فنان لم تعد صورة الجياد العربية الأصيلة ، كأن يراعى عند اختيار الفحل أن يكون واسع الصدر ، صلب المفاصل واسعها ، مستقيم الأرجل ، شديد مخارج الحبال الوترية ، أجرد الشعر ناعمه ، وفي الحجور إضافة إلى ما

---

(1) طرابلس الغرب العدد 1171 ، في 28 رمضان 1324 هـ (1906 م) «مضادة العرق» .

(2) طرابلس الغرب العدد 1139 في 8 ذي القعدة 1323 هـ (1905 م) «معلومات مفيدة ومختصرة في حق إصلاح نوع الخيل وتكثيره» .

(3) طبيب بيطري ، سوري الأصل ، يوزباشي في الجيش العثماني بالفيلق 37 ، كتب هذه المقالة أثناء عمله في طرابلس .

سبق سعة الجزء الخلفي «فإن التي من هذا القبيل يخرج نتاجها نجيباً ودرهماً مبذولاً»[1] .

ويذكر الكاتب ألوان الخيل وما يغلب على كل لون من صفات خبرها العرب[2] حتى الخبرة حتى أصبحت عندهم قاعدة أو هي كالقاعدة ، ولا يساورني شك في أنه نظر إلى ما يتعلق بالخيل في «حيوان» الجاحظ ملياً قبل كتابة هذه المقالة[3] .

ثم يفيض بعد ذلك في انتقاد أساليب أهل الولاية في سياسة خيولهم وإهمال مرابضها وأجسادها مبدياً النصح ومرشداً إلى الأصول المثلى في رعاية الجياد الرعاية الحقة .

وفي مقالة أخرى يناقش نفس الكاتب أصول العناية بالحيوانات العاملة أو ما يسميه بحيوانات الأشغال ، ويحلل سبب تفشي المرض والوهن في أجسادها فيقول : «فإن الفساد المشاهد في حيوانات داخل هذه الولاية وظهور الدّبر صلبة ورطبة في الأطراف الأربعة والمفاصل في أكثر المهار تنشأ عن تشغيلها دفعة بلا ترويض فوق طاقتها[4]» .

وانطلاقاً من ملاحظته هذه على حيوانات الولاية وما تلاقيه من قسوة في المعاملة يفيض في بيان الأسس العلمية الصحيحة التي يجدر الأخذ بها لتسير عجلة العمل والانتاج في الاتجاه المطلوب ، كأن يحدد السن المناسبة لبدء للعمل ، ومناسبة كل سن لنوع من العمل ، كالجرّ ، والفلاحة ، والركوب ، والسباق ، ويبين أصول الترويض الصحيحة منتقداً بشيء من الحدة غفلة بعض المرشدين عن الأساليب الصحيحة لترويض الحيوانات المشتراة حديثاً وإقحامها في ميدان العمل فور شرائها ، وينبّه إلى قاعدة التدرج المرحلي حتى تصل إلى المستوى المطلوب .

ومما تجدر ملاحظته أن الكاتب لم يذكر من هذه الحيوانات إلا الخيول فهل كانت هي الحيوانات الوحيدة المستخدمة في الشغل ؟ والذي نعرفه أن الحمير والبغال والابل من أهم حيوانات الركوب والجر والفلاحة ، كما أن الثيران لها دور بارز في الفلاحة دون الركوب والحمل ، ولا أعتقد أن ولاية طرابلس شذت في هذا عن غيرها .

كما أن المقالات التي تعالج أصول رعاية الحيوانات صفة عامة كثيرة ومتنوعة جميعاً على

---

(1) طرابلس الغرب العدد 1139 مصدر سابق .

(2) انظر : عبد الله بن جزى الغرناطي : كتاب الخيل ، تحقيق محمد الخطابي .

(3) انظر في هذا : الحيوان جـ1 ص 104 و272 وما بعدها ، وجـ2 ص 47 و 236 ، وجـ3 ص 252 ، وجـ5 ص 338 .

(4) طرابلس الغرب العدد 1147 ، في 4 صفر 1324 هـ (1906 م) «بحث في القواعد التي يجب مراعاتها في حيوانات الاشغال وفي التقيدات اللازمة في حقها» لبسيم البيطري .

رعاية الأصول الصحية من تغذية ونظافة وتشغيل حسب القدرة إلى غير ذلك مما يصب في قناة النمو الاقتصادي العام .

وحظيت الأغنام بشيء ضئيل من الارشاد بالرغم من أنها من أهم موارد الولاية ، فهل اكتفى الكتّاب بالاعتماد على خبرة الرعاة العريقة في مجتمع جله رعوي من القدم ؟ أم يئسوا من بلوغ مقالاتهم مسامع الرعاة فاكتفوا ببيان الموعد المناسب لجز الأصواف ، وفطام الأحمال[1] ؟ وبشيء من الحديث عن أمراضها مثل الرعام[2] وداء الكبد[3] في الماعز بوصف أعراض المرض والتحذير من انتشاره ومثل هذه الارشادات لم تدع إليها حاجة الولاية مباشرة بل جاءت تبعاً لانتشار الأمراض في ولايات أخرى أكثر أهمية للدولة كالاناضول والروميلي .

وعرضت المقالة العلمية لبعض الحشرات النافعة والضارة ، فتتبعت أطوار نمو النحل وحياته داخل الخلية وتكاثره وهجراته وأمراضه[4] مما ينمّ عن اهتمام بالغ بالعسل كمورد اقتصادي مهم ، ووصفت أطوار ذبابة مايس[5] وصفاً علمياً دقيقاً تناول فترة البيض والحضانة والشرنقة والبيات الشتوي وسواه من أطوارنمو الحشرات ، وبيّنت الأضرار التي تسببها هذه الحشرة ووسائل مقاومتها من معالجة التربة ببعض المستحضرات الكيماوية إلى جمعها باليد إلى الاستعانة بطيور الحمّ ، وهي الطريقة التي يفضلها الكاتب في إبادة هذه الحشرة حين يقول : «ينبغي إحضار مقدار من الدجاج في فصل عزق البساتين في ابتداء الربيع على الأقل فإنه لا يخلو من فائدة[6]» .

ويبدو أن الخلد دائم الإزعاج للفلاحين الأمر الذي دعا بعض كتّاب المقالة العلمية إلى الكتابة عنه بشيء من الاستغراب فقال : «وطبيعة أعضائه في خصوص الحفريات جديرة بالحيرة ، رأسه طويل حاد مجهز بعظام صغيرة وعضلاته قوية لها عضوان قصيران في شكل ذراع قرب رأسه وهما أيضاً مجهزان ومقويان بيدين واسعين طويلين قويين منتهيين بأظفار حادة يعسر تفريقهما[7]» ثم يتتبع سائر أطواره وألوانه وعاداته وطرق معاشه وعدد صغاره

---

(1) انظر : طرابلس الغرب العدد 1119 في 11 جمادي الأولى 1323 هـ (1905 م) «أعمال حزيران الزراعية» .

(2) داء يصيب الحيوان والانسان .

(3) يعرف أيضاً بذات الجنب والرئة .

(4) انظر : طرابلس الغرب العدد1130 في 6 شعبان 1323 هـ (1905 م) «صناعة تربية النحل» .

(5) حشرة دودية مغطاة الجناح تفسد عروق الورد وبعض النباتات المشابهة له .

(6) طرابلس الغرب العدد 1130 عدد سابق «الحشرات المضرة بشكر الورد» .

(7) طرابلس الغرب العدد السابق «فقرة زراعية» .

ودورة الحمل عند أنثاه وغذاءه وسائر دقائق حياته ، ثم يذكر فوائد للفلاحين من أكله الديدان الضارة بالجذور ، خاصة في فصل الشتاء ، غير أنه يشكل ضرراً بالغاً بأكله الجذور والجذيرات بعثرته البذور وتعرية الحبّ إلى جانب أن أكوام التراب التي يحدثها تعوق حصاد الحشائش والمزروعات .

ومن الموضوعات العلمية التي شدّت كتّاب المقالة في الولاية الكهربية والكهرباء ، فهذا الاكتشاف النوراني قد بهر بدون شك جميع الفئات من المجتمع المتخلف ، فسلّطت الأضواء عليه ، فبعضهم كتب عن الكهرباء في الظواهر الطبيعية كالصواعق والبرق ، وبعضهم كتب عن أهمية الكهرباء لتقدم البشرية فهي «ليست مجرد فاعل قادر للطبيعة بل إنها عامل قادر للمدنية الحاضرة من حيث إحرازها اليوم موقعاً مهماً جداً في الصنائع وسائر شعب المعارف البشرية[1]» ، ومن هذا المنطلق درس كتّاب المقالة العلمية خاصية الكهربائية في الأجسام بالتماس أو بالدلك كما في المعادن وبعض الكائنات الحية ، مستعرضين أهم التجارب في هذا الميدان[2] .

وعرض الكتّاب للأسماك الحاملة للكهرباء كأسماك (توربيل) و (كيمنوت) و (سوريتام) ، فبيّن خصائصها الكهربائية ثم وصف جهاز الكهرباء في أجسامها فقال : «فجهاز الكهرباء الموجود بهذه الحيوانات البحرية موضوع في جهتين من القفاء ويجنب غلصمتها ، وهذا الجهاز مركب بالطبع من مخروطات وزوايا المخروطات المذكورة توجد متجهة لبعضها ، وكل مخروط على شكل قناة رقيقة مجوّفة ومحاط بالأوعية والأعصاب ، وأوساط هذه القنوات مفرزة بعدة صفائح قاطعة لبعضها بانحراف ووسط القنوات مملوءة بمادة سيالة لزجة ، وقد أحاطت بهذا الجهاز خيوط عصبية كثيرة[3]» .

وعن الكهرباء في سائر الحيوانات يبيّن الكاتب أن القطط من أكثر الحيوانات حيازة للقوة الكهربائية ، ويناقش بعد ذلك نصيب الانسان من هذه الخاصية مستخلصاً عدة نتائج مؤداها تفاوت مقدار الكهرباء في الأجسام البشرية بحسب معطيات جسدية ونفسية وجنسية .

وثمة مقالة أخرى تعنى بتتبع الكهربية في نسيج من الصوف والحرير باعتبارهما من المنتجات الحيوانية ولهما خاصية التكهرب بالدلك مما لا يوجد في القطن والكتان مثلاً لأصولهما

---

(1) طرابلس الغرب ، العدد 1174 في 19 شوال 1324 هـ / 1906 م (الكهرباء الحيوانية) .

(2) من هذه التجارب تجربة (غلواني) سنة 1784 م و (بونرن) و(كومج) .

(3) المصدر السابق .

النباتية ، يعرض الكاتب خلالها تجارب علمية أجريت على الحرير ذي الكهربائيتين بالتفصيل وفق القوانين الطبيعية للحرارة والبرودة ليستخلص أن «في النسيج القابل للتكهرب ميلاناً للتبرد عند التسخن وميلاناً للتسخن عن التبرد[1]» .

وإذا كانت السمة البارزة في نهج العلماء والمثقفين في الولاية بل في الشرق كله هو الإعجاب الشديد بالنهضة العلمية في أوروبا فإن هناك من يرى في بعض التقدم العلمي بلاء على البشرية ، ويسوق أدلة على رأيه بما يستعرض من الأسلحة المدمرة كمدافع (كروب) وبنادق (مورتين) و (موزر) وما تحظى به من احتفال العالم بها في حين أن اكتشاف (باستورPasteur)[2] وأشعة (رونتجن[3] Roentgen[4]) وما ماثلها من الانجازات العلمية لصالح البشرية لم تحظ بمثل ذلك الاهتمام .

ويتنبأ بأن العالم سيمضي قدماً في اختراع المزيد من وسائل الدمار ، بل يلمح إلى حرب النجوم حينما يقول : «عن قريب تصير ربي السحاب استحكامات وسهول وأعماق البحار ميادين المحاربات وبنو الانسان ملتقى للصواعق والزلازل[5]» .

وبعد ، فقد استعرضنا أهم الموضوعات العلمية التي بحثتها المقالة في الفترة الثانية من هذه الدراسة ، ولم يبق إلا أشتات لا تمثل مساراً ثابتاً لهذه المقالة مثل ما كتب في مجلة الفنون من مقالات علمية يصبغها الطابع التعليمي المدرسي ، كالتعريف بالبحار والقارات ومساحة الأرض ، ونسبة الماء إلى اليابسة وغيرها .[6]

أما الفترة الأخيرة من هذه الدراسة فقد خبا فيها مشعل المقالة العلمية بعد أن كان وهاجاً ، ويبدو أن السبب المباشر في هذا هو صدور الدستور العثماني ، وانشغال الصحف

---

(1) ملف مجلة الفنون ، دار المحفوظات الوطنية ، طرابلس ص 5 .

(2) لويس باستور ،كيماوي فرنسي ولد سنة 1822 م ، مكتشف البسترة وإليه تنسب ، أدت تجاربه إلى القضاء على فكرة التوالد البكتيري ، صاحب الفضل في التطعيم ضد مرض الجمرة والكلب ،توفي 1895 م ، انظر : الموسوعة ص 311 .

(3) الأشعة السينية .

(4) فيلهلم كونراد رونتجن ، فيزيائي ألماني ولد سنة 1804 م ، اكتشف أشعة الموجة القصيرة ، له أبحاث عديدة في مجال الفيزياء وأبرز اكتشافاته هي الاشعة السينية ، نال جائزة نوبل سنة 1901 توفي 1923م ، انظر : الموسوعة ص 903 .

(5) الترقي العدد 15في 6 جمادي الأولى 1315 هـ /1897 م «الانسان عدو الانسان» .

(6) انظر : ملف مجلة الفنون ،دار المحفوظات الوطنية ، طرابلس ص 10 .

في الولاية ــ كما في باقي الدولة العثمانية ــ بالمقالات السياسية والخوض في غمار النقد والتجريح ، وحجب القلق المستوفز أبعاد الرؤية العلمية للكتّاب التي لا يمكن أن تؤتي ثمارها إلا في ظل الاستقرار السياسي والنفسي .

وقد غيّب وصول الاتحاديين إلى السلطة هذا الاستقرار فاندفعت الأقلام تخوض في كل شيء ، وانزوت أقلام المقالة العلمية إلا من بعض مقالات كتبت على استحياء ، ولقد توهم بعض الباحثين أن من الصحف من التجأت إلى المقالة العلمية هروباً من المقالة السياسية لكونها صحيفة رسمية طوع إرادة الحاكم أو الوالي فلا مجال للسياسة فيها[1] .

والحقيقة أن الاستقرار السياسي ــ أيا كان باعثه ــ والرغبة الملحة في إدراك معارج التقدم ، واللحاق بأوروبا في نهضتها الحديثة كانت الباعث الأسمى على سيادة المقالة العلمية قبل صدور الدستور العثماني ، وصحيفة طرابلس الغرب المعنية لم تخل إطلاقاً من المقالة السياسية ولم تهرب منها إلى العلمية كما كان يُظن ، بل عرفتها منذ سنواتها الأولى[2] ، وحتى بعد صدور الدستور سنة 1908 م ، ولعل الدافع إلى هذا الوهم هو القياس على كثافة ما يكتب من المقالات السياسية في (الترقي) و (المرصاد) من ناحية ، وإغفال أثر الدستور ــ في هذا الشأن ــ من ناحية أخرى .

وكل ما يمكن قوله عن المقالة العلمية في الفترة الأخيرة هو انزواؤها في وقت يلهج فيه الكتّاب والقراء بمبادىء الحرية والاخاء والمساواة ودعاوى الإصلاح والمطالبة بالتغيير ، حتى أن ما كتب منها اتخذ له مدخلاً من مداخل الإصلاح والتطوير كما نرى في مقالة تتحدث عن الآبار النافورية قدم لها بحديث عن النواب في الولاية والمجلس العمومي[3] ، أو مقالة أخرى عن الاتصال البرقي (التلغراف)[4] المقصود منها حث الولاية على الأخذ بوسائل الحضارة الغربية فهي إصلاحية أكثر منها علمية ، كذلك ما ماثلها من مقالات طبية مدارها حث الحكومة في الولاية على الأخذ بالأسباب الصحية الموصلة إلى الحد من تفشي بعض

---

(1) انظر : سالم المرادي : فن المقالة في الصحافة الليبية ، رسالة ماجستير 1983 م ص 257 .

(2) انظر : مبحث المقالة السياسية في هذا الكتاب ، وكذلك : طرابلس الغرب ، الأعداد : 69 و 1188 و1227 .

(3) انظر : الترقي العدد 100 ، في 28 صفر 1327 هـ / 1909 م «ذكرى لمجلسنا العمومي» .

(4) انظر : المرصاد العدد 16 ، في 26 المحرم 1329 هـ / 1911 م «فوائد التلغراف» .

الأمراض الفتاكة كالجدري[1] والكوليرا وغيرها من الأمراض التي تعصف بسكان الولاية حيناً بعد حين .

فهي قد وظفت توظيفاً مباشراً يخدم الاتجاه العام الذي يرى أن الوقت قد أزف لنبذ أسمال الماضي البالية ، ونسج رداء جديد معتمد على العلم ومبادىء الحرية .

---

(1) انظر : العصر الجديد ، العدد 3 في 6 ربيع الأول 1327 هـ/1909 م «الجدري» .

مقالة المناسبة

1- الفترة الأولى :

بدايات المقالة الوصفية

2 الفترة الثانية :

أ - المقالة الوصفية والتعليم

ب - الأوسمة والنياشين

جـ - أعياد السلطان

د - الأعياد الدينية

هـ - التدريب العسكري

3- الفترة الثالثة :

أ - تغير ملامح المناسبة في المقالة الوصفية

ب - وصف الاحتفالات بأعياد الدستور

جـ - وصف احتفالات التدريب العسكري

مقالة المناسبة

كان من المفترض أن أعقد هذا المبحث للدراسة المقالة الوصفية ، فلما نظرت إلى ما لدي من المادة الأساسية وجدتها محصورة في باب واحد من أبواب الوصف وهو المناسبة ، فكل ما كتب لم يكن الوصف فيه مقصوداً لذاته بل تبعاً لمناسبة معينة إما دينية وإما سياسية فلم أر حاجة إلى اطلاق الوصفية عليه .

ومن النماذج المبكرة لهذه المقالات ـ مما وصل إلينا ـ مقالة تعود إلى سنة 1868 م ، أي في السنة الثانية لصدور طرابلس الغرب، ومناسبتها أول احتفال بما يشبه عيد العلم، حيث يصف الكاتب مظاهر هذا الاحتفال وقدوم والي الولاية إلى مكتب الرشدية مصحوباً بالأعيان وكبار مسؤولي الدولة وأمراء العسكر ليحضر امتحان الخريجين فيقول : «ولما استقر المجلس وانتظم أي انتظام بمحضر الشيوخ العلماء الأعلام صار الامتحان لكافة الطلبة فرداً فرداً بأسلوب لطيف حسن على حسب سن المسؤل[1] وما ينتقنه مثله من أي فن من الأسئلة النحوية ولغتي التركية والفارسية وصناعة الجغرافية[2]» . ويصف إجابات التلاميذ ، ويثني على المعلمين ، ويصف الوليمة التكريمية ، ومشاعر المتحفى بهم تجاه الدولة والسلطان ، قاصراً الوصف على ما تقتضيه المناسبة ، وكذلك كانت بقية مقالات الوصف في الفترة الأولى .

ومن المناسبات التي حظيت بمزيد الاهتمام في الفترات الثلاث عيد جلوس السلطان

---

(1) المسؤول .

(2) طرابلس الغرب العدد 112 في 27 رجب 1285 هـ/1868 م «والامتحانات» .

على العرش ، حيث دأبت الصحف على وصف مظاهر الاحتفال بكل دقائقه ومن نماذجه في الفترة الأولى مقالة وصفية لمظاهر احتفال الولاية بعيد جلوس السلطان عبد الحميد على العرش ، بعد مقدمة دعائية تزخر بإسباغ كل ألقاب المجد والخلود على الخليفة وصف كاتبها حضور المسؤولين والأعيان ومراسم تقديم التهنئة للوالي ومشاركة قناصل الدول الأجنبية في الولاية بحضور الحفل ويستعرض الكاتب أنواع الزينة في الشوارع والقناديل على واجهات المحلات ومعلقات الأدعية للسلطان والألعاب النارية في سماء المدينة الغافية على ضفاف البحر فيما يشبه لوحة تشكيلية ممزوجة بأنغام الموسيقى المنبعثة من أبواق الفرق العسكرية[1] .

ومما تجدر ملاحظته على الفترة الأولى خلو المقالة الوصفية في جانب المناسبة من الاكتراث بالمناسبات الدينية فلم نعثر ــ فيما وصل إلينا ــ على مقالة واحدة تتحدث عن عيد من الأعياد الدينية[2] .

أما في الفترة الثانية فقد ظل اهتمام الدولة بالتعليم مدار المقالة الوصفية فسجلت مظاهر الاحتفال بالخريجين تسجيلاً وثائقياً لم يغادر صغيرة ولا كبيرة ، ويعكس فيما يعكس سيادة أسلوب المدح والتزلف للسلطان والوالي حتى توشك المقالة أن تستحيل إلى سرد لألقاب الخليفة والدعاء له ، ومن أمثلة هذه المقالات مقالة تتحدث عن مظاهر الاحتفال بتخريج دفعة من مكتب العرفان استغرقت المقدمة المدحية نهراً بكامله من أنهر الصفحة الأولى ليقول الكاتب بعدها عن الاحتفال «وتفصيل ذلك هو أنه زين داخل المكتب وخارجه بالرايات الظفرية وعلّقت لوحة مكتوب فيها (باد شاهم جوق يشا) ببنان مدير مكتب العرفان وصورة الأسلحة العثمانية المرسومة بصبغ زيتي في الضلع القلبي من بهو المكتب المذكور وعن يمينها ويسارهما رسوم علم الأشياء كالنباتات والدماغ والأعصاب الانسانية والحيوانات الأهلية والوحشية ذات الثدي ومجردته وخرائط جغرافية وعلى سفرتين باليمين واليسار آلات التلغراف وسائر الأدوات الكهربائية وكرتا الأرض المجسمة والمسطحة وخرائط القطعات الخمس تركية وفرنساوية[3]» . ويسهب الكاتب في وصف الامتحان وأسماء الممتحنين والمواد التي سئل عنها كل طالب والهدايا التي قُدمت للمتفوقين . . مما يساعد على استخلاص تاريخ لنظم التعليم في ليبيا لتلك الفترة بيسر

---

(1) انظر : طرابلس الغرب العدد 640 في 9 المحرم 1307 هـ/1889 م «زينة الجلوس السعيد السلطاني» .

(2) لاحظنا في مبحث المقالة الدينية أن الفترة الأولى خلت من المقالة الدينية خلواً تاماً .

(3) طرابلس الغرب العدد 1075 في 13 جمادي الآخرة 1322 هـ/1905 م «رسم الامتحان وتوزيع المكافآت» .

وسهولة[2] ، ومقالة أخرى تصف حفلاً في مكتب الاناث الرشدي تم فيه توزيع المكافآت على أنغام آلة البيانو[2] .

وتسهم المقالة الوصفية في التعريف بمكتب الصنائع من خلال وصف دقيق لاحتفال تخريج دفعة من طلبته وعرض صور وصفية من منتجات الطلاب المتمثلة في «المنسوجات الحريرية المختلفة ومعمولات من النِّجارة والنقش والتسوية على الطراز الجديد وصنائع مختلفة من صنعة الأحلية على أصول أوروبا وزرابي كبيرة نسجت على الطراز الإيراني . . .»[3] ويسهب الكاتب في وصف مظاهر الاحتفال كالالعاب البدنية المصحوبة بالعزف الموسيقي (الجمباز) وزيارة الوالي وباقي المدعوين لجناح المعروضات الصناعية . .

ونستخلص من مثل هذه المقالات اتجاه الدولة الجاد لإصلاح الولاية واهتمامها بمرافق التعليم ، خاصة إذا لاحظنا أن هذا النوع من المقالات قد اختفى في الفترة الثالثة بعد إعادة العمل بالدستور العثماني ليحل محله نمط آخر من المقالات النقدية تطالب بالاصلاح والتغيير[4] ، مما يدل على انصراف الدولة عن مثل هذه الاحتفالات التي تعكس نظرة المسؤولين للتعليم وأهميته .

ومن مقالات المناسبة في الفترة الثانية مقالات اختصت بوصف مظاهر الاحتفال بمنح الأوسمة والنياشين ، وتوشك أن تكون نسخاً مكررة تبدأ بالدعاء للسلطان واعتبار منح الأوسمة منةً وتكرماً منه ، ثم وصف شامل للزينة والأضواء ، وطبقات المدعوين ، وتتبع لفقرات الحفل ، وختام بالدعاء للسلطان يتميز بالمبالغة في التذلل إلى حد الاملال ، وقد يُعقب بعريضة يرفعها المتمتعون بالترقية أو الوسام إلى ظل الله في العالم[5] .

وقد شغلت مقالة المناسبة بأعياد السلطان[6] ، وأبرزها عيد ميلاده ، ويوم جلوسه على العرش ، وقد تطرأ على الخليفة أعياد عارضة تبتهج بها الولاية أياماً وليالي وتتطاير البرقيات بين مركز السلطنة ومركز الولاية ، ومن هذه المناسبات الطارئة إبلال الخليفة من مرض ألمّ به فأعلمت الولاية بذلك «فبمجرد ورود هذه البشارة نشط وكيل والي الولاية

---

(1) لاحظنا عدم استفادة الباحثين في تور التعليم في ليبيا من مثل هذه المقالات .

(2) انظر : طرابلس الغرب العدد 1122 في 2 جمادي الآخرة 1323 هـ/1906 م «توزيع مكافآت» .

(3) طرابلس الغرب العدد 1167 في 3 شعبان 1324 هـ /1906 م «امتحان وتوزيع مكافآت» .

(4) انظر : مبحث المقالة الاجتماعية .

(5) انظر مثلاً : طرابلس الغرب العدد 1131 «تحديث بإحسان على إحسان من لدن جلالة الخليفة الأكرم» والعدد 1150 «تحديث بنعمة ولي النعم الأعظم» .

(6) السلطان عبد الحميد .

العالي حضرة ذي الدولة المشير رجب باشا سمير الصداقة وحليف العبودية فأمر بذبح القرابين لتوزع على الدراويش بالتكايا والطلبة بالمدارس والموقوفين بالأحباس وسائر الفقراء الذين بمركز الولاية صدقة خالصة[1]» وأبلغت ملحقات مركز الولاية بالنبأ السعيد لتنال نصيبها من الاحتفالات في المساجد والتكايا ، وتنبئنا هذه المقالة عن بعض العادات في مثل هذه الحالة مثل قراءة «منقبة مولد فخر الكائنات» أي قصة المولد النبوي الشريف ، في جميع المساجد والتكايا ، وبحضور الوالي في مسجد «طورغود باشا» إلى منتصف الليل ، ولم يقتصر الأمر على المسلمين وحدهم بل إن الموسويين «اليهود» قد اجتمعوا «في معابدهم المتعددة إلى الساعة الرابعة ليلاً يوردون وينشدون الخطب والمنظومات المشتملة على المحامد والمحاسن السنية للحضرة المعظمة السلطانية ويكررون الأدعية الخيرية . . »[2] ببقاء الخليفة على سدة السلطنة لينعم الجميع بالخير والمساواة ، وتنبئنا هذه المقالة أيضاً عن أن هيئة المابين قد كُلفت من قبل السلطان بإعلام أهل الولاية أن الخليفة قد بلغه ما قمتم به بهذه المناسبة ، فدعى هذا إلى احتفال مهيب في مركز السلطة بالولاية وصفته المقالة وصفاً كاملاً .

وإذا كان التتبع الدقيق لأحداث المناسبة في مقالات صحيفة الولاية الرسمية أمراً مقبولاً فإن الأمر مع الصحيفة الشعبية الأولى يجب أن يختلف ، لكنا وجدناها تقتفي أثر كتّاب طرابلس في المقدمات المدحية ، والدعاء المستفيض ورسم التعاريج الدقيقة في مظاهر الزينة وعلامات الابتهاج كأن يقول أحد كتّاب الترقي في وصف حفل بعيد ميلاد الخليفة : «ظهرت البلاد في مظهر بهيج وأشرقت كواكب الأنوار المصطنعة والقناديل المعلّقة بكافة الثكنات العسكرية والدوائر الأميرية وأكثر الأسواق العمومية والمحلات التجارية وأغلب المنازل الأهلية فنابت عن نور الشمس وخلف ذلك النهار نهار وأمست المدينة في حلة بهيجة ورونق يأخذ بمجامع الألباب»[3] ويسرد بعد ذلك أماكن الزينة وتوهج الأضواء ورحلة الوالي التفقدية وكل مظاهر الاحتفال حتى الدقائق منها ، ولم يختلف هذا النمط عن نمط كتّاب المقالة الوصفية في صحيفة طرابلس إلا في الاقلال من المبالغة في المدح والدعاء ، ودأبت مقالة المناسبة[4] على هذا حتى عودة الدستور .

---

(1) طرابلس الغرب العدد 1161 في 5 رجب 1324 هـ /1906م «بشارة سنية بعافية الحضرة المبجلة السلطانية» .

(2) طرابلس الغرب العدد 1161 مصدر سابق .

(3) الترقي العدد 29 في 22 شعبان 1315 هـ /1897م «مولد السلطان» .

(4) انظر على سبيل المثال : طرابلس الغرب العددين 1166 و 1132 .

أما مظاهر الاحتفال بعيد جلوس الخليفة على سدة السلطنة العثمانية فقد تناولتها المقالة الوصفية كسالفتها برسم لوحة لمظاهر الزينة من أضواء ومعلقات وألعاب نارية ودوي مدافع وصخب موسيقي ، وتوشك أن تكون كل المقالات نسخاً عن أصل واحد إذ المراسم هي هي وقوالب العبارات محفوظة مكررة كل عام[1] .

ويميز الفترة الثانية من هذه الدراسة اهتمام الدولة العثمانية بالاعياد الدينية مما لا يوجد له نظير في الفترتين الأولى والثالثة ، وذلك تمشياً مع سياسية الدولة في بناء الجامعة الاسلامية التي تتطلب بالضرورة اهتماماً خاصاً بالأعياد الدينية ، إذ في الفترةالأولى لم تتبلور فكرة الجامعة الأسلامية ، وفي الفترة الثالثة جرف الدستور والاتجاه الطوراني كل الأسس في العصر الحميدي ، ويمكن حصر المناسبات الدينية في عيدي الفطر والاضحى وعيد المولد النبوي الشريف أما المناسبات الدينية الأخرى كشهر رمضان أو الحج فإنها وإن نالت نصيبها من اهتمام كتّاب المقالة ، إلا أنها بعدت عن مجال المقالة الوصفية حيث لم تجر العادة بالاحتفال بها على غرار الأعياد المذكورة ، وللمقالة الوصفية منهج واحد في وصف الاحتفالات فهي في جميع حالاتها كالفراش تنجذب دائماً إلى بؤرة الضوء ، فتصف بإسهاب خط سير الوالي ومراسم التهنئة والمجالة الرسمية[2]دون أن تأبه إلى مظهر الاحتفال بالعيد عند الطبقات الشعبية فلم تصف لنا كيف يستقبل الناس العيد ، ولم تحدثنا عن التقاليد المتبعة آنذاك ، ولعلنا نجد شيئاً من هذا عند استعراض انموذج لمقالة وصفية تعني بتتبع مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي ، يقول كاتبها بعد أن يصف الأضواء والقناديل التي تزدان بها المدينة : «واشتغلت أهلها بالتهليل والتكبير في الجوامع والزوايا إلى نصف الليل وفي اليوم الموالي زار جميع المشايخ والدراويش كافة الأولياء وسائر المحلات المباركة من القصبة منشدين للقصائد بمزيد الاحتفال إلى المساء[3]» .

وتحدثنا بعض المقالات عن اهتمام الوسط العام بهذه المناسبة المتمثل في قراءة قصة المولد وديواني الشيخ البغدادي والشيخ البهلول طيلة شهر ربيع الأول في إجمال عابر[4] ، ولو عرض أحد كتّاب المقالة الوصفية لليلة من ليالي هذه الأذكار فوصفها لنا لأمكننا تصور

---

(1) انظر أمثلة لذلك : طرابلس الغرب الأعداد 931 و 1030 و 1127 و 1162 .

(2) انظر : طرابلس الغرب الأعداد 1043 و 1091 و 1100 .

(3) طرابلس الغرب العدد 1152 في 15 ربيع الأول 1324 هـ / 1906 م «مولد خير الأنام عليه الصلاة والسلام» .

(4) انظر : الكشاف العدد 15 في 16 ربيع الأول 1327 هـ / 1909 م «عيد المولد النبوي» .

العاطفة الدينية التي يوقع عليها أولئك المنشدون مدائحهم النبوية ولبعد بنا عن حصار مراسم الدولة المتكررة في كل محفل .

ومن المناسبات التي عنيت بها المقالة الوصفية التدريب العسكري ، فقد شهدت ولاية طرابلس الغرب في عهد نامق بك إصلاحات عديدة منها تدريب الليبيين تدريباً عسكرياً حديثاً لعلّ الدافع إليه الشعور بالخطر الأجنبي الذي يتهدد الولاية ، ومن هنا فقد أقبل الليبيون على معسكرات التدريب بحماس بالغ يصوره لنا أحد كتّاب المقالة الوصفية فيقول : «فبينما أرتب المقدمات بصيرتي إذ بداع دعاني من سريرتي ، دع عنك سفسطة البراهين والأسباب وهلم إلى «برهان الدين»[1]» من الأبواب فلبيته بالقبول ، وتشرفت بالدخول فإذا هي فسيحة الأرجاء ، وهيولي الهيجاء ، بعيدة الأطراف ، ومنازل الأشراف ، والناس فيها صفوف ، بل عشرات ومئات وألوف ، فأذهلني ما شاهدته من الأنام ، حتى خيّل لي أني في منى أو في المشعر الحرام ، والسواد الأعظم منهم قد عانق السلاح ، وأتوا بحي على الفلاح ، وهم يدرسون فنون حركات العساكر ، حذوك النعل بالنعل في جميع المظاهر مجتهدين بجميع ما في الطوق ، مجمعين أمرهم بكمال الرغبة والشوق ، فتدربوا في حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، وأحسنوا فجعل الله سعيهم مشكوراً[2]» ومثل هذه المقالة ـ بغض النظر عن الإرهاب الأسلوبي الذي اختاره كاتبها ـ من أقرب النماذج إلى تمثيل المقالة الوصفية الحقة ، فالكاتب ينظر إلى الموضوع من زاوية أثره على نفسه فيصف مشاعره متأثراً بالمشاهد الوصفية للمتطوعين ، مبرزاً العامل الديني الذي يشهد بقوة الانتماء ، فكثرة المتطوعين تذكره بمنى أو بالمشعر الحرام ، وتقاطرهم على معسكر التدريب يذكّره بإجابة المؤذن للصلاة ، وهذا الاتحاد النفسي يصعب العثور عليه فيما استعرضنا من النماذج الآنفة ، وبالرغم من أن المقالة طويلة نوعاً ما من الطول إلا أن الكاتب سربلها بشيء من الفن القصصي جعل في متابعة قراءتها متعة وتشويقاً ، ونحا بها منحى من الصنعة الأدبية ميزها عن كثير من المقالات الوصفية المباشرة التي تلتبس بسوق الخبر أكثر من التباسها بالبناء المقالي .

وثمة مقالة أخرى عرضت للموضوع نفسه ، ولما كان معظم المتطوعين من فرسان الكورغلية اختار الكاتب مدخلاً لطيفاً تحدث فيه عن الخيل ، وفضل اكتسابها مستعرضاً أهميتها من الناحية الدينية مثنياً على أهل الولاية لما يولونه من اهتمام بها حتى أنه وقلما نجد

---

(1) معسكر التدريب في طرابلس .

(2) الترقي العدد 5 في 24 صفر 1315 هـ / 1897 م «هكذا هكذا وإلا فلا لا» .

من له قدرة وميسرة ولم يتخذ فرساً لصرف الحوادث وحل عقد النوايب وطي المراحل ونشر الفضايل»[1] ليعترف بعد ذلك بأن ثمة قصوراً في معرفة الفنون الحربية لدى الفرسان في الولاية ومن ثم فإن قانون التجنيد قد جاء ليسد هذه الثلمة وكان الاحتفال بهذه المناسبة مهيباً «حيث أشرقت طلائع الكتائب من كل فجّ وجانب وتحاملت سيول الفرسان طائرة بأجنحة الشوق لاغتنام فرصة الزمان واجتناء ثمار الأماني»[2] والكاتب هنا لم يقتصر على وصف المناسبة فقط بل رصّع مقالته بذكر محاسن الخيل ورسم لها بعض الصور الأدبية مما يقوى عنصر الذاتية في المقالة ، وهناك العديد من المقالات الوصفية ذات الرداء الموشى بالزخرف والصنعة البديعية وجلّها بمناسبة التدريب العسكري وتخريج دفعات من المتطوعين في مختلف الأسلحة[3] ، والقليل منها في موضوعات متفرقة اقتنص الكتّاب مناسباتها لإظهار الزلفى ومدح الحكّام ، فلم تفدنا بشيء من الناحية الموضوعية .

وبعد العودة إلى العمل بالدستور تشكلت مواضيع المقالة الوصفية تشكيلاً جديداً وسقطت مناسبات كان لها المكان الأسمى ، وبرزت مناسبات أخرى لم تعرفها الوصفية من قبل ، فلم يُكتب شيء في وصف الامتحانات المدرسية ، ولم يعد للنياشين السلطانية احتفالات جديرة بالوصف ، وأُسدل الستار على الأعياد الدينية ، وأصبح القدح المعلى لوصف أعياد الدستور ، والتدريب العسكري ، وظل السلطان متمتعاً بأعياده حتى نهاية الفترة الثالثة ، ويمكن أن نلحظ أن أبرز المتغيرات في المقالة الوصفية القصد في الديباجة المدحية التي كانت تطول حتى تستغرق شهراً بكامله فأصبحت مقصورة على بعض الأسطر مجاملة للخليفة والخلافة[4] ، وبعد أن كان وصف الألسنة وهي تلهج بالدعاء لأمير المؤمنين مرتكزاً من مرتكزات مقالة المناسبة تغير لتصبح «الألسن لهجة بنداء الحرية والانسانية[5]» ، غير أن وصف مظاهر الاحتفالات ظلت كما هي أو أختصر قليلاً وقد تعتريها بعض التوريات كأن يقول أحد الكتّاب في وصف ليلة الاحتفال بعيد مولد السلطان : «وفي ليلتها طفحت البلدة في النور بعد الظلمة المستولية عليها وستملأ بمداد الافتخار صفحات التاريخ[6]» وانتهى هذا التململ بانتهاء السلطان عبد الحميد ونهج خلفه السلطان محمد رشاد الخامس

---

(1) الترقي العدد 6 في 2 ربيع الأول 1315 هـ /1897 م «الخيل معقود بنواصيها الخير» مصطفى بن زكرى .

(2) الترقي العدد 6 مصدر سابق .

(3) انظر : الترقي الأعداد9 و10 و38 .

(4) انظر : طرابلس الغرب العدد 1257 في 18 شعبان 1326 هـ /1908 م «الولادة السلطانية» .

(5) طرابلس الغرب العدد 1257 مصدر سابق .

(6) المصدر السابق .

نهجاً يميل إلى الاقتصاد ومجانبة البذخ فاقتصرت المقالة الوصفية على سرد المراسم المعتادة في إهاب يميل إلى الخبر أكثر من المقالة[1] .

ومن النماذج التي خالفت مقالة المناسبة مخالفة كلية مقالة عنوانها «التذكار لعيد ميلاد أمير المؤمنين» لكن الكاتب عدل عن وصف الاحتفال إلى إثارة جملة من القضايا تتعلق بالمراسم وطبقات المدعوين وانتقد سيطرة القناصل وخرقهم لقواعد الحكومة (البروتوكولات) في أداء المجاملات الدبلوماسية[2] ،وهذا الاتجاه يمثل تحولاً جذرياً في مسار مقالة المناسبة أملاه ما مرت به الولاية نتيجة لإعادة العمل بالدستور ، وارتفاع أسهم الحرية في الدولة بأسرها ، وبالقدر الذي تقلصت به المقالة المعنية بأعياد الخليفة زاد ظل المقالات الوصفية تحت دوحة الدستور فانثالت تترى عند أول احتفال بعيد الدستور وقد سرت في النفوس آمال سكرى بمبادىء الحرية والمساواة يصورها أحد الكتّاب في مقالة يصف بها مظاهر الاحتفال بالدستور فيقول : «برزت المدينة تختال في ثوب من الفخار قشيب ، نعم بدى الثغر في مهرجان رائق ، ومظهر شائق ، يأخذ بمجامع القلوب بهمة أهل الحمية الذين ما برحوا يتسابقون للتظاهر بمثل هذه المظاهر الجليلة التي دلت على إحساسهم الحي وتقديرهم لنعمة الحرية والمساواة ، فلم يبرح أحد لم يظهر بهذا التظاهر من أهل ولايتنا على اختلاف طبقاتهم ولم يترك محل إلا ونشرت عليه البنود الهلالية وأعلام الحرية تتخللها أرفع وأبهى وأجمل التماثيل وصور الأبطال الذين سقوا بذورها بدمائهم الطاهرة ليخلصوا الملة ويصعدوا بالدولة إلى متن الفخار[3]» ، ويتعقب الكاتب بعد ذلك حلقات الحفل بحماس بالغ حتى المساء ويمزج أحاسيسه الشخصية بالوصف الخارجي للزينة والخطب وأنغام الموسيقى ، وطبا مدّ الحرية واستشراف أسبابها فاغتنمت الفرص في كل مناسبة وتفنن كتّاب المقالة الوصفية وجازوا حدود النثر فاستهلت بعض المقالات بقصائد مدحية تتغنى بالحرية والشورى كما نرى في إحدى مقالات الترقي حيث جاش شعور كاتبها لدى افتتاح مجلس المبعوثان فاستهل المقالة بقصيدة حول الشورى ثم خاطب نفسه قائلاً : «وماذا عسى أن يخطّ القلم وماذا يحصر الوصف وأين تقع العبارة في نعت يوم خليق بالتعظيم جدير بالتمجيد والتكريم[4]» ، وبعد أن أفرغ ما في نفسه من السرور الدافق التفت إلى مظاهر الاحتفال في

---

(1) انظر : طرابلس الغرب العدد 1340 في 27 شوال 1328 هـ /1910 م «احتفال الأمة العثمانية بعيد الولادة السلطانية» وكذلك : طرابلس الغرب العدد 13631 «عيد الجلوس السعيد السلطاني» .

(2) انظر : المرصاد العدد 6 في 24 شوال 1328 هـ /1910 م «التذكار لعيد ميلاد أمير المؤمنين» .

(3) العصر الجديد العدد 20 في 12 رجب 1327 هـ /1909 م «العيد الملي يوم 10 تموز» .

(4) الترقي العدد 88 في 25 ذي القعدة 1326 هـ /1908 م «عيد مجلس المبعوثان» .

الولاية فوصف المواكب والرايات وفرق الموسيقى واستعرض خطب الخطباء بلغاتهم المتعددة بل علّق على بعضها في مضماره الوصفي حين قال: «وكلهم جاءوا على الغرض بأجلى بيان وأحلى عبارة خصوصاً الشيخ سليمان أفندي[1] الذي كان له التصفيق الحاد في كل جملة والشكر التام من جميع الحاضرين[2]» ، ويمكننا أن نستخلص من مثل هذه المقالة بعض (البروتوكولات) الرسمية للولاية كمشاركة القناصل في الاحتفالات الرسمية بالحضور وبالخطابة أحياناً ، وتهنئة الدولة في شخص الوالي وضرورة ردّ الوالي للزيارة في مقارهم الرسمية شكراً لهم على المشاركة .

ومن الملاحظ أن كتّاب المقالة الوصفية في الصحف الشعبية أقل وطأة على العهد الحميدي من الصحيفة الرسمية طرابلس الغرب التي دأبت على أن تصدّر مقالة المناسبة بهجوم دامغ على عهد الاستبداد قبل الشروع في وصف المناسبة وأحداثها[3] .

وللمقالة الوصفية مع التجنيد والتدريب العسكري شأن آخر يختلف عنه في الفترة الثانية فقد اكتفت بمباركة المشروع ووصف مظاهر الاحتفال به، أما في الفترة الأخيرة فقد طالب كتّاب المقالة الدولة بالعمل على تجنيد الشباب ، وتلبية رغبة المواطنين الذين أقبلوا «وفوداً وزمراً يتطلبون لباس الدولة وحمل سلاحها والمرابطة في الثغور للذود عن بيضتها[4]» .

ويبدي أحد كتّاب العصر الجديد أسفه لخلو الجيش العثماني من أبناء ولاية طرابلس الغرب فيقول : «إني وأيم الطبيعة العذراء وجمالها الباهر ليحزنني أن لا أرى ولا أهلياً واحداً منخرطاً في سلك الجندية يتدرب على أسلوب القتال الحديث يحسن استعمال السلاح من الطراز الأول يتمرن ويتدرب على الحركات بأسلوب مخصوص حذو أخ له جنباً لجنب كتفاً لكتف طبق قوله تعالى في محكم الذكر : ﴿إن الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص[5]﴾ لا أشتاتاً متشردين»[6] ، وما أن يعلن قانون الجنيد حتى يستشعر الكتّاب نفرة منه فيكتبون مقالات تحريضية ينسبون فيها فشل المحاولة الأولى إلى عهد

---

(1) سليمان الباروني .

(2) الترقي العدد 88 مصدر سابق .

(3) انظر مثالاً على هذا : طرابلس الغرب العدد 1372 «عيد 10 تموز الملي» .

(4) العصر الجديد العدد 22 في 29 رجب 1327 هـ / 1909 م «الجند سياج الملك ــ عود على بدء» الهاشمي .

(5) سورة الصف الآية 4 .

(6) العصر الجديد العدد 18 في 21 جمادي الأخرة 1327 هـ / 1909 م «الجند سياج الملك» 1 ، الهاشمي .

الاستبداد وسوء النظم التي أُتبعت فأرهقت المجندين ونفرت غيرهم[1] ، مستعرضين النظم الجديدة وسماحتها مستشهدين بآيات الجهاد وشعر الحماسة وكل ما يثير الحمية[2] ، وتتدافع أفواج المتطوعين ، وتشهد المدينة عرساً تتداعى له مختلف الفئات لتشهد مراسم قراءة (الفرمان) العالي الشأن بصدد قانون التجنيد في الدولة عامة ، وتُشغل المقالة الوصفية بهذه المناسبة فتصف لنا المواكب بأعلامها المزركشة والجموع من المواطنين «بوجوههم الباسمة مصطفين ومنتظرين بملابسهم العيدية مترغين بتغريد الطيور على تلك الأشجار اليانعة والسماء الصافية تلقي عليهم تسليات التهاني والبحر هادىء ساكن[3]» ، ويمتزج وصف الطبيعة بوصف الرايات الحريرية وألوانها القزحية مع أنغام الموسيقى التركية والعربية فتشكل لوحة فنية ينسجها قلم مبدع من أقلام كتّاب المقالة الوصفية ليبرر طولها الذي استولى على أكثر من نصف الجريدة ، ولم يقف الأمر عند مركز الولاية بل تعداه إلى ملحقاتها ، فأقيمت الاحتفالات بقراءة الفرمان ونقلت المقالة الوصفية جل هذه الاحتفالات بتفصيل دقيق[4] يغني عنه ما أسلفنا من نماذج .

---

(1) كانت مدة التجنيد سبع سنوات وقد تزيد عن ذلك ، وغالباً ما يقضي المجند هذه الفترة دون أن يتقاضى مرتبه على قلته .

(2) انظر الترقي العدد 175 في 10 صفر 1329 هـ / 1911 م «القرعة العسكرية» .

(3) المرصاد العدد 20 في 24 صفر 1329 / 1911 م «مظهر الاحتفال بقراءة الفرمان العالي الشأن» .

(4) انظر : الترقي العدد 178 في 1 ربيع الأول 1329 هـ / 1911 م «فرمان أخذ العسكر» .

الفصل الرابع

روّاد المقالة في ليبيا

مصطفى بن زكري

محمد البوصيري

داود أسعد

محمد علي البارودي

سليمان غزالة

محمد النائب الأنصاري

عبد الرحمن البوصيري

أحمد الفساطوي

محمود نديم بن موسى

محمد الهاشمي المكي

روّاد المقالة

بعد أن استعرضنا أنواع المقالة في ليبيا إبّان الفترة العثمانية ، وتناولنا بالتحليل موضوعاتها ، يجدر أن نسلط الضوء على أبرز أعلامها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، غير أنّ العقبة الكأداء التي عاقت كثيراً من الجهد في هذا السّبيل هي إغفال المقالات من أسماء كتّابها، فقد مضت الفترة الأولى وما بالوسع تحديد اسم كاتب واحد من كتّابها، ومع إطلالة الفترة الثانية أصبح الأمر أقل عسراً ، وبعضهم يكتب اسمه صريحاً ، وبعضهم يكتبه رمزاً ، وبعضهم يمكن معرفته من خلال خصائص لغته وطريقة النسج في أسلوبه مقارنة بمقالاته الأخرى الموقعة بتوقيعه ، أمّا الفترة الثالثة فقد كان الأمر أكثر يسراً ، حيث قلّت ظاهرة الاغفال في هذه الفترة عن سابقتيها .

ومثل هذه الظاهرة قد تُعدّ ظاهرة عامة في بداية كل صحافة ، ففي أوروبا خلال القرن الثامن عشر ، كان الكتّاب يوقعون بأسماء مستعارة ، أو يستترون خلف شخصيات خيالية[1] ، غير أنّي أعتقد أنّ البواعث مختلفة لاختلاف البيئات وتباينها ، ومن أبرز أسباب إغفال الكتّاب لأسمائهم في طرابلس الغرب التواضع والبعد عن التعرض للحمد ، فتقدم الصحيفة لبعض كتّاب المقالة بما يلي : «وردت لنا هذه المقالة من أحد الفضلاء الأعيان الذين لا يحبون الظهور تحت هذا العنوان»[2] .

ثمّ أصبح من المألوف أن يوقّع بعضهم بحروف رامزة ، مثل : س . غ ، أو ع . ن ، وأحياناً يوقعون بصفات رامزة مثل : النّاصح الأمين ، أو الوطني الغيور أو الصحفي

---

(1) انظر : محمد يوسف نجم ، فن المقالة ص 58 .

(2) الترقي العدد 5 .

المتقاعد . . الخ ، وبعضهم يكتب اسمه كاملاً بعيداً عن نزعة التواضع ، والاختفاء ، ويمكن أن نستدل ، بمشادة صحفية بين مدير المعارف[1] في الولاية وصحيفة الترقي ، على العرف السائد في التوقيعات، يقول المدير في تعقيبه على مقالة نشرتها الترقي: «جرت عادة الجرائد أنها إذا نشرت مقالة بلا إمضاء تنصرف رأساً إلى رئيس تحريرها ، أو إلى عموم هيأتها التحريرية ، أي تشمل الجريدة باعتبارها شخصاً معنوياً ، وإن كانت ممضاة تعود رأساً وطبعاً إلى موقعها»[2] ، وخلاصة رأي الصحيفة ينحصر في «أن نشر إمضاء صاحب المقالة فيما إذا كان من غير هيأة التحرير يُقصد منه إعلان اسمه والتنويه بذكره حتى يقتدي به أقرانه من ذوي الأفكار فيقدمون على التحرير والانشاء وخصوصاً في البلاد التي لم تكن زاقية في فن الصحافة» .

ومن هنا يمكننا الحكم بأنّ المقالات غير الموقّعة في الأغلب الأعم هي لرئيس التحرير ـ خاصة مقالة الافتتاح ـ أو لأحد أعضاء هيئة التحرير ، وكثيراً ما نستدل على ذلك بحديث الكاتب نفسه ، كأن يقول : جريدتنا أو : عددنا السابق . . الخ .

وقد بُنيت المقالة في ليبيا في العهد العثماني بأقلام كتّاب كانت لهم الريادة الأولى في هذا المضمار ، وحتى نتعرف على ملامحهم من قريب نستعرض تراجمهم الشخصية وسيرة حياتهم في ايجاز يوصل إلى المبتغى .

---

(1) أحمد اديب بك .

(2) الترقي العدد 99 في 21 صفر1327 هـ /1909 م «بعض أسئلة من جريدة الترقي» .

(1)

مصطفى بن زكري

(1853- 1917 م)

من أبرز أعلام المقالة في الفترة الثّانية مصطفى محمد بن زكري ، وهو علم من أعلام الأدب في ليبيا ، كان مدار بحثٍ ودراسةِ المهتمّين بالأدب منذ الثّلاثينات من هذا القرن[1] ، وتعاقب ذكره ودراسته في كثير من الأبحاث والمؤلّفات المعنيّة بالأدب العربيّ في ليبيا[2] ، وهو أديب شاعر ولد في طرابلس سنة 1853 م ، وينحدر في أصوله العريقة من جذور مغربيّة أندلسيّة ، وقد كثر اللّغط في نسبه ومحتده حتى في أيام حياته ، فانبرى يدفع عن نفسه قائلاً :

وينسبني للترك والرّوم معشر	ولست بتركيٍّ ولست بروماني
ولكنني من يعلم الله سرّه	ويعلم بالإسلام وجدي ووجداني[3]

وتربّى في بيت تظلّله أجنحة الثّراء وما يستتبع هذا من إعداد الأبناء لتولّي مواطن الوجاهة وتقلّد المناصب الرّفيعة ، فدرس على يد أجلّة العلماء في طرابلس ، ونال قسطاً وافراً من العلوم الحديثة ، وشيئاً من اللّغات الأجنبية[4] هذا إلى جانب شغفه بالعلم منذ كان يافعاً ، وذكائه الفطريّ ، كل هذه العوامل جعلت منه أديباً وشاعراً يجاري شعراء

---

(1) انظر : مجلة ليبيا المصورة ، العدد 3 من السنة 1937 م «ديوان ابن زكري» بقلم أحمد رفيق المهدوي .

(2) انظر : محمد الصادق عفيفي ، الشعر والشعراء في ليبيا ، والاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث ، وكذلك : الطاهر الزاوي : أعلام ليبيا ، وكذلك : المصراتي ، لمحات أدبية عن ليبيا ، وكذلك : محمد مسعود جبران : مصطفى بن زكري في أطوار حياته وملامح أدبه ، وغيرها .

(3) ديوان مصطفى بن زكري ، تحقيق علي مصطفى المصراتي ، دار لبنان - بيروت 1972 م .

(4) انظر : محمد مسعود جبران ، مصطفى بن زكري ، ص 33 وما بعدها .

عصره ، ويجيد نسج شعره على منوال مدرسته وأبناء جيله ، ومن حسن طالع بن زكري أنه نشأ وترعرع في فترة استيقظت فيها طرابلس ، فكان العلماء يقصدونها من البلاد المجاورة ويلقون دروسهم ومحاضراتهم في مساجدها ومعاهدها ، إلى جانب الأساتذة المقيمين كالشّيخ محمد كامل بن مصطفى الذي يمكن أن نعدّه أستاذ جيل تلك الفترة[1] ، فقد تتلمذ على يديه معظم أعلام المقالة في ليبيا ومن بينهم مصطفى بن زكرى .

وتذكر بعض المصادر[2] أن ابن زكرى قد اشتغل بالتّعليم برهة ثم انصرف عنه إلى التّجارة ، وهي رواية نتوجّس منها بعض الخيفة ، لأنها أحادية المصدر أولاً ، ولأن خُلق بن زكرى ونفسه الشّاعرة تضيق عن مكابدة التّدريس ، فقد كان ـ ولا سيّما في شبابه ـ لاهياً ميّالاً للعبث واللّهو غير آبه بالأمور الجادّة في حياته وحياة بلاده ، وآية ذلك «ما نلمسه من عدم تأثّره بالنّوازل والأحداث الكثيرة التي جدّت في بلاده وفي خارجها»[3] ، ولم تضرّسه الحياة بأنيابها إلاّ بعد وفاة والده ، وتحمُّله أعباء الأسرة وتبعاتها فانغمس ساعتئذ في الحياة الحقّة ، وانتهج نهجاً جاداً مارس من خلاله وسائل العيش المتاحة وارتضى منها التّجارة معاشاً ، وتقلّد بعض المناصب التّشريفية، كعضوية مجلس الولاية ورئاسة مكتب الفنون والصّنائع ، فكان له نشاط ملحوظ ، وأثرٌ لا يمكن إغفاله ، وقد كان لابن زكرى نشاط سياسيّ أفصح عنه في مقالاته التي بارك فيها خطوات الدّولة العثمانية عامة وحكومة ولاية طرابلس الغرب خاصة ، في إطارها السّياسيّ زمن السّلطان عبد الحميد وما يدعو له من رباط (الرّابطة العثمانيّة) ، ثم أدرك توجّه الاتحاديين العنصري فاتّخذ مساراً جديداً يشهد له بالجرأة ، والإقدام ، حينما اتّخذ من علاقاته التّجارية جسراً يصل منه إلى حلم سياسيّ لم تسعفه الأقدار بتحقيقه ، لقد كان يحلم باستقلال ذاتيّ على غرار استقلال تونس ومصر يدفعه إلى ذلك ما أدركه من سياسة الأتراك وتخاذل الاتحاديين وتفريطهم في تحصين ليبيا ، ولعلّه اطّلع على ما دفعه إلى هذا الموقف دفعاً ، كيف لا وهو المستشار لدى الوالي رجب باشا ومَن بعده من الولاة المطّلع على خبايا السّياسة ومراهناتها المميتة ، ولعلّ هذا ما جعل بعض الباحثين يشكّ في وطنيّته فيقول : « ويبدو أن ضعف حسن حسني[4] باشا الذي كان « تركياً بجنسيّته ايطاليّاً بروحه وأعماله » ونفوذ يأوره فروكر اليهودي أسهما في هذا

---

(1) انظر : محمد مسعود جبران ، مصطفى بن زكري ص 36 ، و : الزاوي ، أعلام ليبيا .

(2) انظر : محمد الصادق عفيفي ، الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي ص 196 .

(3) محمد مسعود جبران ، مصطفى بن زكري ص 45 .

(4) ولي طرابلس الغرب بين سنتي 1909 م و 1910 م ، وهو غير حسن حسني الذي تولى الولاية بين سنتي 1902 م و 1904 م ، وكثيراً ما يقع اللبس بينهما في كثير من المصادر .

الانكسار ، ولم يدعا لابن زكرى مجالاً للاستمرار في متعلّقاته العثمانية ، بل لا أبعد إذا قلت إنّهما عملا على استلابها وطمسها ، وسارا بعد ذلك في اتجاه جديد وصفته بعض الإشارات بأنّه اتجاه ينحو منحى التخلّي عن الأتراك والعمالة لإيطاليا»[1] ، ويبدو لي أنّ هذا الباحث عنى ببعض الإشارات في النّص الأنف ما قاله خليفة التليسي[2] في إحدى محاضراته على طلبة قسم اللّغة العربيّة بكلية التربية من أنّ الوالي رجب باشا قد قلّد بعض الشخصيات الفاعلة التي كان يعرف لها علاقات مشبوهة بالمصالح الإيطالية والدوائر الاستعمارية ـ قلّدها ـ مناصب لكسب مساندتها وتأييدها ، وهذا رأي مردود على التلّيسي إذ ليس من الحكمة أن يقرّب رجلٌ محنّك كرجب باشا من يشكّ في إخلاصه ليصبح مستشار الولاية ورئيس مدرسة من كبريات المدارس[3] في طرابلس ، وهو ـ أي رجب ـ من يعرف التاريخ السياسيّ للولاية عداءه الشديد للإيطاليين ومن يتمسّح بأعتابهم ، هذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرى فقد سلقت أقلامُ كتّاب الفترة الأخيرة إيطاليا وعملاءها بألسنة حداد ، ولم أعثر على مقالة واحدة تغمز ـ حتى مجرد الغمز ـ في قناة ابن زكرى ، وهي التي لم تخش الولاة[4] أنفسهم بله مستشار الولاية أو من في حكمه، ويورد الباحث محمد مسعود جبران[5] في كتابه عن بن زكرى ما يبرّىء ساحته في ثنايا اتهامه إيّاه بالعمالة فيقول : « والرّاجح عندي أنّ وجهات النظر بينه وبين الوالي لم تتطابق تطابقاً تامّاً ، وهذا ما يستفاد من القرائن ، ففي الوقت الذي يقدم فيه رجب باشا بعض التسهيلات الخاصّة بالنفوذ الألماني في الولاية ترى ميل مترجمنا ـ ابن زكرى ـ مع ثلّة من الأعيان للتّساهل مع التغلغل السّلمي الإيطالي»[6] ، إذن فالصّراع صراع مصالح بين ألمانيا وإيطاليا ، ورجب باشا يساند ألمانيا لعلاقتها مع دولة الخلافة أمّا بن زكرى فلعلّه كان يسعى للخلاص من الاتحاديين ولو عن طريق إيطاليا بتصوّره للاستقلال الذاتي ، وفي هامش نفس الصّفحة يحيل جبران إلى مصادر تفيد بأنّ

---

(1) محمد مسعود جبران ، مصطفى بن زكري ص 71 .

(2) خليفة محمد التليسي ، ولد بطرابلس سنة 1930 م أديب وكاتب وشاعر ، تولى العديد من المناصب الحكومية ، من آثاره الشابي وجبران ، رفيق شاعر الوطن ، رحلة عبر الكلمات ، مختارات من روائع الشعر العربي ، وكثير من الكتب المترجمة ، أمد الله في عمره ، انظر : دليل المؤلفين العرب الليبيين ص 127 .

(3) مدرسة (مكتب) الفنون والصنائع ، انظر : طرابلس الغرب العدد 1133 .

(4) انظر : أبو قشة العدد المنشور بتاريخ 11 شعبان 1328 هـ/1910 م «دفاع عن الصحافة» وقد نشر المصراتي المقالة في كتابه : كفاح صحفي ص 54 .

(5) أستاذ بكلية التربية ـ جامعة الفاتح .

(6) محمد مسعود جبران ، مصطفى بن زكري ص 74 .

الوالي أبدى روحاً ودّية إزاء مشروع الاستيطان اليهودي في ليبيا[1] ، وثمّة نقطة فات جبران الوقوف عندها وهي توقّف بن زكرى عن الكتابة للترقي بعد عودتها للصدور ، وكانت حظيت بعطفه وتقريضه في فترة صدورها الأولى ، وفي رأيي أنّ بن زكرى قد دبّج مقالاته في الترقي وساندها في بداية صدورها لأنها كانت منسجمة مع خطّه السياسي في الولاء لدولة الخلافة والرّابطة العثمانية ، أما في عودة صدورها بعد وصول الاتحاديين إلى الحكم فقد كانت تمثّل واجهة حزب الاتحاد والترقي[2] ، ومبادىء هذا الحزب لا تتّفق مع نهجه السالف ، فأمسك قلمه حيث لا جدوى من الوقوف في طريق التيّار .

أمّا ما يتّهم به بن زكرى من تقاضي مرتب من بنك دي روما فهو اتهام يحتاج إلى دليل ، ولا دليل فيما ساقه جبران نقلاً عن مجلة (الفتح) ، بل إنّ الدليل العقلي يبرّىء بن زكرى ، فقد ذكر جبران نفسه نقلاً عن صاحب كتاب (حرب إيطاليا من أجل الصحراء)[3] أنّ المرتبات التي صرفها بنك دي روما جاءت آية من السماء لموظّفي السلطان عبد الحميد الفقراء الذين لم تدفع رواتبهم بانتظام ، ولا أظنّ بن زكرى وهو صاحب شركة مصرفية[4] ويملك نزلاً سياحياً في وسط مدينة طرابلس ، وشريك في مصنع لمواد البناء ينتظر آية بنك دي روما .

هذا ومما لا شك فيه أن نشاط بن زكرى التجاري وثراءه المالي قد عاقا نشاطه الفكري ، فقد خلت فترات طويلة نسبياً في حياته من الابداع الشعري الذي يغلب على إنتاجه ، وقد جفا الكتابة المقالية جفوة كاملة ، أو أنه لم يصلنا من نثره إلاّ أقله ، ولعلّ الأيام تكشف عن شيء من هذا الخبيء فنعيد تقييم الرجل من جديد ، فما وصلنا من نثره هو مجموعة مقالاته التي سطرها مباركاً بها الصحوة العثمانية في الولاية ، عرضنا لها في مواطنها[5] .

وفي أخريات حياته تكالب عليه المرض ، وعوادي الزمن ، فهجر الكتابة ، وأطرق إطراقة اليائس ، فدويّ المدافع أعلى من صرير الأقلام ، ثم توفاه الله سنة 1917م أو 1918 م ، على اختلاف بين مصادر ترجمته[6] .

---

(1) انظر : مصطفى عبد الله بعيّو : المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا ص 69 ـ 71 .

(2) انظر : العصر الجديد العدد 14 في 24 جمادي الأولى 1327 هـ/1909 م «متى يبلغ البنيان يوماً تمامه» .

(3) فرانسيس ماكولاخ .

(4) انظر : فرانشيسكو مالجيري ، الحرب الليبية ، ترجمة وهبي البوري ، ص 24 .

(5) انظر : مبحث المقالة الدينية ، في فصل أنواع المقالة وموضوعاتها ، ومبحث الأسلوب في فصل القيمة الفنّية للمقالة من هذا الكتاب .

(6) انظر : دليل المؤلفين العرب الليبيين ، ص 471 والأعلام للزركلي ط 7 جـ 7 ص 244 .

(2)

محمد البوصيري

ولد الشيخ محمد البوصيري بغدامس في ثلاثينات القرن الماضي ، وهو أكبر أخوته الستّة ، ومن بينهم الشيخ عبد الرّحمن البوصيري ، وتعلم مبادىء العربية وقراءة القرآن على يد أشياخه في غدامس ، وبعد رحيل الأسرة إلى طرابلس دأب على حضور حلقات الدّراسة في أشهر مساجدها ، فاكتسب أساساً متيناً ، غذّى به ملكته الفكرية الى جانب اطلاعه الواسع ، وسعة أفقه ممّا جعله يتميز بوعي أهّله فيما بعد ليصبح علماً من أعلام الحياة الأدبية والفكرية في ليبيا ، غير أن مما يثير الانتباه هو سكوت مصادر الترجمة في ليبيا عن تفصيل حياة مؤسس أوّل صحيفة وطنية شعبية ، (التّرقي) ، بل إني وجدت حُجُباً تلفّ حياته ، حتى عند من قابلت من أسرته ، فلم أظفر بتفصيل دقيق لها ، كما لم أعثر على شيء من آثاره المكتوبة[1] .

والشيخ محمد البوصيري صاحب مبدأ تجديدي متحرّر ، فقد أعلن عن المنهج الذي اختطه لصحيفته (الترقي) ، فأنّ على الكاتب أن يتجنّب « ما يرتكبه الكتّاب من ارتكاب التعسّف لتلفيق سجعة أو تلصيق قافية »[2] وهذا المبدأ قد طبّقه على نفسه دون شك ، لكن بعض كتّاب صحيفته ظل يرسف في قيود أسجاعه وحبائل فواصله حتى فترة متأخرة[3] ، وقد أصدر صحيفته سنة 1897م ، لكنها توقفت لأسباب عدة ليس هذا مجال مناقشتها ، وأثناء فراغه الصحفي أسندت إليه وظيفة عضو محكمة الاستئناف بطرابلس سنة 1905م[4] ،

---

(1) ليس للمترجم له ذرية ذكور ، وقابلت بعض أحفاد إخوته وأبناء عمومته .

(2) المصراتي ، صحافة ليبيا في نصف قرن ، ص 51 .

(3) انظر : فصل القيمة الفنية للمقالة ، مبحث الأسلوب ، من هذا الكتاب .

(4) انظر : طرابلس الغرب العدد 1109 .

وبعد العودة للعمل بالدستور أعاد صحيفته (الترقّي) للصدور مرة ثانية ، ونشط في مزاولة العمل السياسي ، حيث تأسّست جمعية الاتحاد والترقي في طرابلس ، وانتخب الشيخ محمد البوصيري رئيساً لها في نفس السنة التي صدر فيها الدستور[1] ، ومن خلال هذه الجمعية التي رعت صحيفة الترقي وصحفاً أخرى ، قام البوصيري بدور هامّ في التحريض على سيادة الدستور وحثّ المواطنين على المطالبة بحقوقهم كاملة ، حتى وصل به الأمر إلى الاصطدام بالسلطة ، فحبسه الوالي مع مجموعة من شباب الترقي ، غير أن الأمر أدّى إلى عزل الوالي في النهاية[2] .

ويبدو أن الشيخ محمداً البوصيري كان من المعتمد عليهم في شؤون القضاء ، حيث عُيّن عضواً بمحكمة البداية سنة 1910م[3] ، ولم يمنعه هذا من مزاولة نشاطه الصحفي ، فكانت مقالاته تترى تذيع الوعي وتحمّس الشعب ، فكان بذلك أبرز كاتب للمقالة السياسية ، وخاض غمار الإصلاح الاجتماعي والديني[4] فكتب مقالات عاصفة ، وأخرى هادئة متّزنة ، وهو شديد الإعجاب بالكواكبي ، يقتبس منه ويحتذي به ، وهذا يفسّر ميله الشديد إلى صفوف الأحرار حتى ولو كانوا من جماعة الاتحاد والترقي الذين أسفر الصبح عن نواياهم العنصرية .

ويتميز أسلوب البوصيري بالسلاسة والطلاوة ، فلا هو مغرق في العناية الأدبية ، ولا هو خلو منها ، وهو شديد الوضوح في أفكاره يسلسلها في المقالة كأنها العقد المنظوم ، وأعجبُ غاية العجب من عدم اقتحامه مجال التأليف مع توفر أسبابه لديه ، اللّهم إلاّ إذا كانت مشاغل الوظيفة ، وأعباء الصحيفة قد سدّتا عليه أقطار الوقت ، فاكتفى بفن المقالة يكتبها على صفحات الترقي ، حتى باغت الغزو الايطالي ولاية طرابلس الغرب ، فألجم قلمه وتوارى في خضم الأحداث الدّامية .

---

(1) انظر : الترقي العدد 74 «ملحق نشرت به تفاصيل تأسيس الجمعية وأسماء المرشحين» .

(2) انظر : الترقي العدد 111 «أسباب احتجاب الترقي» وفيها يسرد الشيخ محمد البوصيري القصة كاملة ، وفي كتاب المصراتي (صحافة ليبيا في نصف قرن) ص 58 سرد لقصة هذا الصراع لا يطابق ما ذكره البوصيري .

(3) انظر : طرابلس الغرب العدد 1337 .

(4) من أمثلة مقالاته «مجلس المبعوثان» الترقي العدد 80 ، والاجتماعية «إنما المرء بأصغريه» الترقي العدد 171 ، والدينية «مما أوجب تأخرنا» الترقي العدد 85 .

(3)

داوُد أسعد

(1866- 1917 م)

ولد داود أسعد سنة 1866 م ، ونشأ في طرابلس في كنف والده الذي كان من رجال القضاء ، وتلقّى تعليمه الأولي في مدرسة (مكتب الرشدية) بطرابلس ، ثم أكمله في العديد من البلاد التي كان ينتقل إليها والده ، فدرس في بيروت ودمشق واستانبول ، وكان له شغف خاص باللغات ، فأجاد منها التركية والفارسية والفرنسية والايطالية والانجليزية ، فضلاً عن اللغة العربية[1] . وتختلف المصادر الأدبية في أصله فيذكر المصراتي بأنه عربي ، ويقول غيره بأنه من المثقفين الأتراك[2] ، ولست أدري علام استند المصراتي في حكمه ، في حين أن الدلائل تدل على تركيّته ، بدءاً من الاسم نفسه ، فالليبيون يتشاءمون من السواد فيطلقون على الأسود وصف أسعد ، إلى جانب خلوّه من اللقب أو الكنية ، وقلّما يخلو منها اسم عند أهل هذه الولاية ، ويُغلّب تركيّته توليه العديد من المناصب في الولاية ، وفي مركز الدولة العثمانية نفسها[3] ، وهي مناصب لا يحظى بها إلاّ الأتراك في الغالب ، فقد عمل «معاون صحيفة» ومنشأ عربياً ، و«وكيل مكتوبجي» ، وأصبح في آخر العهد العثماني « مميّز قلم » رئيس الكتّاب والمحررين بالسراي ، كما شغل وظيفة مدير للمعارف في ولاية (أزميت) .

وإيّاً كان فقد تفرد بأنه صاحب أول مجلة في ليبيا وهي مجلة (الفنون) ولم يترك لنا شيئاً من آثاره تتبينّ منه ما كان عليه من إلمام بالأدب وفنونه ، فكل ما عندنا أعداد من مجلته

---

(1) انظر : المصراتي ، صحافة ليبيا في نصف قرن ص 34 .

(2) انظر : أحمد صدقي الدجاني ، ليبيا قبيل الاحتلال الايطالي ، ص 280 .

(3) انظر : المصراتي ، صحافة ليبيا في نصف قرن ص 35 و 36 .

متفرّقة ، وكل المقالات المنشورة بها مترجمة عن صحف ومجلات وكتب قال عنها داود أفندي : « وكل ما ذكرنا مقتبس ومعرّب من أشهر الكتب الموجودة ، والرسائل والمجلات ، وليس لنا فيه أدنى فضل سوى كلفة الجمع والتلفيق والانتقاء والتعريب »[1] ، فهو ليس مقالياً بالمعنى الكامل ، لكنه ساهم في تأطير المقالة العلمية بالذات ، وعمل على تثبيت وذيوع الأسلوب المترسل الخالي من الديباجة والتخييل ، وهو جهد يذكر له بكل عرفان ، ويتحدث عنه المصراتي فيرسم لنا صورة العالم الذي يستغرق البحث والمعامل كل وقته ، وما أزهد أمثال هذا الرجل في العناية باللفظ وتجميل الأسلوب ، فحسبه أن تكون اللغة صحيحة والمعنى واضحاً ليصل إلى ما يريد من أخصر طريق ، ولعل هذا ما دعاه إلى جعل مجلته مدرسة حرة ، يدرس بها المتخصصون والهواة والمبتدئون ، فنوع موضوعاتها وبسطها « لينتفع بها المبتدىء ويتفكّه بها المنتهي » وبذل في سبيل ذلك أقصى الجهد ، فقد كان يترجم ويصوّر ويرسم ويحفر القوالب « الكلاشيهات » ، علاوة على عمله الأصلي في الدولة ، وهو جهد غير يسير فلا نستغرب إذا توقّفت المجلة بعد صدور سبعة وعشرين عدداً فقط .

واعتزل داود أفندي العمل وتفرغ للبحث والترجمة فترة من الزمن حتى أُسندت إليه وظيفة الترجمة في دائرة الأملاك إبّان الاحتلال الايطالي وتوفي رحمه الله سنة 1917م .

---

(1) المصراتي ، صحافة ليبيا ص 41 .

(4)

محمد علي البارودي

(. . . ـ 1910 م)

ومن أعلام المقالة في ليبيا محمد علي البارودي ، وهو عصاميٌّ عمل في تثقيف نفسه ، ولم يكن من أرباب القلم الذين ملكوا ناصيته ، ولكنه كان طموحاً حين أنشأ صحيفة « العصر الجديد » لتحتضن الأقلام الناشئة ، وأقلاماً أخرى لها من الدّربة والمران ما يدفع بالصحيفة إلى الصفوف الأولى ، وقد اهتمت هذه الصحيفة بالجوانب الاجتماعية والسياسية فشكلت مدرسة في اتجاه المقالة أعطيت فيه الأهمية الكبرى للإصلاح الاجتماعي ودبّج يراع البارودي مقالات في التعريف بالمدن الليبية في أسلوب سهل ميسور ، وكل ما يؤخذ عليه أنه مقلّ في الكتابة ، ويعتمد على معاونيه في تحرير الصحيفة .

ولم تعمّر صحيفته إلاّ عامين[1] توقفت بعدهما عن الصدور ليصدر صاحبها مجلة فنّية لم تمهله الأقدار حتى يصدرها ، فتوفي رحمه الله في 14 نوفمبر 1910م[2] .

---

(1) انظر : المصراتي ، صحافة ليبيا ص 81 .

(2) انظر : طرابلس الغرب العدد 1344 .

(5)

سليمان غزالة

(1854- 1929 م)

ولد سليمان غزالة سنة 1854 م وهو عالم أديب بحّاثة من أهل الموصل بالعراق ، عمل طبيباً بالمحجر الصحي في طرابلس ، ثم انتقل منها إلى الشّام ، وعاد إلى طرابلس مرّة أخرى في مطلع عام 1908 م[1] .

أسهم في تحرير صحيفة الترقي ، وربّما كان له باع في الأمور الفنية الصحفية ، فقد قالت عنه الترقي : « إنّ حضرة الدكتور سليمان غزالة الذي لم يزل معاضداً لنا كما كان الرّكن الأهم والسّاعد الأقوى في أيام مبدأ انتشار جريدتنا بما له من الوقوف التّام والدراية الكاملة في فنّ الطباعة والتحرير»[2] .

وبالرغم من أن هذا الطبيب الأديب قد قام بدور فاعل وبنّاء حيال النهضة الفكرية بالولاية فإنّ جميع الباحثين قد أغفلوا تفاصيل حياته ، وكدت أسقط في هوة اليأس من معرفة حتى النّزر اليسير منها ، ثم تسربت خيوط الأمل إلى نفسي فواصلت البحث والاستقصاء حتى تيسر لي معرفة قدر مرضٍ يسدّ ثغرة في ترجمته .

وقد كان الدكتور سليمان غزالة يعتنق الديانة المسيحية[3]، ومتزوجاً من سيّدة فرنسية تعنى بالأدب والآداب ، وهي صاحبة مجلة (لا فرانس لو تيريس)[4] فرنسا الأدبية ، وقد

---

(1) انظر : طرابلس الغرب العدد 1227 «تحويل وظيفة وقدوم» .

(2) الترقي العدد 88 في 25 ذي القعدة 1326 هـ /1908 م «فن الخطابة» .

(3) انظر : المرصاد العدد 24 في 30 ربيع الأول 1329 هـ /1911 م «الخلف الصالح» .

(4) انظر : الكشاف العدد 8 في 26 المحرم 1327 هـ /1909 م .

قامت بنشر بعض المقالات العربية لكتّاب ليبيين[1] ، وهو يجيد الإنجليزية والفرنسية ويعنى بالدراسات الاجتماعية ، وقد صنّف العديد من الكتب في هذا الميدان منها (الاعتماد على النفس) و (الحرية) ، وله كتب في ميادين أخرى منها (سوانح الفكر) ، و (سوانح الكلم) و (حياتي الشخصية) وغيرها[2] ، وجلّ مؤلفاته نواتها الأولى من المقالات التي كتبها في صحف ليبيا مثل (سبب الموت الطبيعي) نواته الأولى مقالات الدماغ البشري المنشورة في الترقي[3] .

ومن مساهمات غزالة في المقالة إبان الفترة العثمانية سلسلة من المقالة العلمية تدور حول الخلايا وتكوين الإنسان ، بل حول خلية الحياة الحيوانية والنباتية[4] ، ومقالة أخرى طويلة تدور حول الجدري وأعراضه وأسبابه وعلاجه ، ونبذة عن تاريخه[5] ، وهو إلى جانب الأهمية الموضوعية لهذه المقالات يعنى كثيراً بالجانب اللغوى والأسلوبي ، فقد أسهم في تعريب وإذاعة بعض المسميات العلمية التي عرّبها المشارقة ، وعمل على شيوع الأسلوب المترسل الخالي من الديباجات والصنعة الزخرفية ، في إهاب من السلاسة اللغوية والطراوة الأدبية ، مما يعد جفاء الأسلوب العلمي وحدّيته الصّارمة ، وأسهم كذلك بسلسلة من المقالات الاجتماعية والاقتصادية[6] ، عني فيها بالدّلالات الاصطلاحية الى جانب نبذ من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي ، وهو إلى جانب هذا أديب تهفو نفسه إلى الأدب ، ويحرص على ذيوعه فيكتب مقالة طويلة عن فنّ الخطابة[7] ، تعريفاً به وبأهميته ليهتدي النّشء والخطباء إلى المنهج الصحيح للخطابة وفق معاييرها الأدبية الحديثة ، كما أسهم أيضاً بتحرير المقالات العلمية في مجلة الفنون وصبغها بسبغة من أسلوبه المحبب[8] الطّلي .

وسليمان غزالة يتميّز بروح أدبية جمعت حوله الأدباء وعشّاق الأدب ، فكانوا يقضون

---

(1) منها مقالة (تسيطر العادات) لخالد القرقني المنشورة في الترقي العدد 89 في 3 ذي الحجة 1326 هـ / 1908 م .

(2) انظر : الأعلام ، للزركلي ط 7 1986م جـ3 ص 131 .

(3) نشر هذا الكتاب بالعربية والفرنسية، للمزيد انظر : كوركيس عوّاد ، معجم المؤلفين العراقيين ، مطبعة الإرشاد ، بغداد 1969 م ، جـ2 ص 60 .

(4) انظر : الترقي الأعداد من 18 إلى 23 ، «الدماغ البشري» .

(5) انظر : الترقي الأعداد من 26 إلى 42 ، «الجدري» .

(6) انظر : الترقي الأعداد من 188 إلى 199 «الاقتصاد السياسي أو التدبير الاجتماعي» . «وتوطئة في التدبير الاجتماعي» .

(7) انظر : الترقي الأعداد من 88 إلى 90 .

(8) انظر : المصراتي ، صحافة ليبيا ، ص 41 .

الأمسيات الجميلة يتذاكرون روائع الأدب ، ويقُصّ عليهم من النوادر والحكم ما يشبع شغفهم ، وأحياناً ينشدهم من شعره ما تدعو له المناسبة ، ومن إحدى هذه الجلسات جلسة ذُكر فيها آل الفاروق فأشاد بفضلهم وثنّى بأبيات في مدح أحد أفراد هذه العائلة[1] في الولاية ، منها : ـ

تلقّى من الفاروق (حمدي) مزيّة	لطعن خصور أو قلوب إذا انبرى
سهاماً وأقلاماً تبارى مهنّداً	وما تلك إلاّ بعض فضل بلا امترا
بإرث من الخطّاب خُصّت بنسله	فلا من دعي يقتفيها من الورى[2]

ويبدو أنّ اهتمامه الأدبي في جانب النّثر أوفى منه في جانب الشعر ، وإن لم يكن بمقدورنا إصدار حكم واثق بهذا الشأن لغياب كل أشعاره عنّا ، فإنّ ما وصلنا منها يدلّ على قلة الدربة في أصول الصنعة الشعرية ، وعلى ضعف في البواعث المكونة لنفس الشاعر كالعاطفة ، والقدرة على التّصوير الخيالي . . . الخ[3] .

وهكذا ظلّ سليمان غزالة يدفع عجلة النهضة في الولاية ، علاوة على عمله الطبي ، حتى قبيل الغزو الإيطالي لليبيا ، ثم تقطّعت الأسباب ، وأغلب الظنّ أنّه غادر الولاية عندما سحبت الدولة العثمانية موظفيها عقب الاتفاقيات السياسية بينها وبين إيطاليا ، وتوفي سنة 1929 م[4] .

---

(1) احمدي الفاروقي ، رئيس محكمة استئناف طرابلس آنذاك .

(2) انظر : المرصاد العدد 24 ، مصدر سابق .

(3) انظر : الترقي العدد 156 حيث نشرت له قصيدة تشوبها بعض العيوب الفنية .

(4) انظر : كوركيس عواد ، معجم المؤلفين العراقيين ، جـ2 ص 60 .

(6)

محمد النائب الأنصاري

هو محمد بن أحمد النائب الأنصاري ، سليل عائلة عريقة في العلم والمعرفة ، استوطنت طرابلس الغرب بعد هجرتها من الأندلس ، ووالده صاحب كتابي (المنهل العذب) و (نفحات النسرين والرّيحان) ، نشأ في بيت تظلّله مكتبة حوت النّفيس من الكتب والمخطوطات[1] [2] ، فنهل من معينها ، وتربى في كنف والده الذي كان واسع الاتصالات الثقافية ، فكانت الصحف والمجلات تأتيه من كلّ حدب وصوب ، فتربّت عنده ملكة حبّ الصحافة ، وكان يجالس شباب حزب الاتحاد والترقي في طرابلس ، وهم من طليعة المثقّفين في البلاد ، فاكتسب ثقافته بالاحتكاك والمجاورة ، غير أنّه مما يؤسف له أن مصادر التّراجم في ليبيا قد أهملته إهمالاً كاملاً ، فلم يصلنا شيء عن حياته إلاّ بعض إلماحات كتبها المصراتي في كتابيه (صحافة ليبيا) و (أعلام من طرابلس) ، وبعض إشارات أخرى لا تغني في البحث شيئاً ، ولعلّ مردّ ذلك إلى انقراض أسرة النّائب من طرابلس ، كما يقول المصراتي .

ومحمد النائب كغيره من المثقّفين تقلّب في مناصب إدارية حتى وصل إلى قائم مقام قضاء الزّاوية ، غير أنّه اصطدم بإدارة (الريجي) ـ إدارة احتكار التّبغ ـ فدبّرت له المكائد لعزله[3] ، فعزل لأسباب واهية ، وتنبئنا بعض المصادر أنّه عمل بوظيفة الكاتب الأول بقلم

---

(1) ذكر المصراتي أنها تضاهي مكتبة أحمد تيمور أو أحمد أمين ، أو مكتبة الكتاني بمراكش ، انظر : أعلام من طرابلس ص 72 .

(2) عبثت بها الغير بعد وفاته ، وبقي قسم منها الآن في مكتبة مركز جهاد الليبيين في طرابلس .

(3) انظر : الترقي العدد 77 في 23 شعبان 1326 هـ /1908 م والمصيبة الكبرى» .

الدفتر خاقاني بالمركز[1] في الفترة التي أصدر فيها صحيفة (الكشّاف) بعد إعادة العمل بالدستور سنة 1908م ، واختير عضواً في مجلس النواب (المبعوثان) في الدورة الانتخابية لسنة 1911 م[2] .

ويذكر المصراتي أنّ محمد النائب كان يجيد العربية والتّركية والفرنسيّة ، وهذا يؤيّده تولّيه الوظيفة الآنف ذكرها في الدفتر الخاقاني ، وكتابته تحت اسم الصحيفة ما يفيد صدورها بالعربية والتركية والفرنسية ، وسواء كُتبت الصحيفة بهذه اللغات أم بقيت مجرد حلم راود النائب فهذا يدل على معرفته بهذه اللغات الثلاث ، وما وصلنا من كتابته بالعربية لا ينم عن ملكة أدبية متميزة ، فهو من أوساط الكتّاب ، يكتب بلغة يخالطها شيء من الركاكة واللّهاث وراء الصّنعة غير المتقنة ، وكثيراً ما يزلّ قلمه فيقع في الأغلاط الشّائع منها وغير الشّائع[3] ، وبصفة عامة فقد كانت (مدرسة الكشاف) ركيكة اللغة ضعيفة السّبك تكثر فيها الأخطاء كثرة بيّنة[4] ، وهذا يعكس مقدار ما عليه صاحبها من المقدرة اللغوية بشكل أو بآخر .

والكاتب محمد النائب يعدّ من أبرز كتّاب المقالة السياسية[5] ، فقد أسهم بمقالاته في بيان مبادىء الحرية والدستور ، وناهض النّوايا الإيطالية ، وهو شديد الحماسة لفكرة الجامعة الإسلامية حتى بعد تولّي حزب الاتحاد والترقي السلطة ، ويبدو أنه قد امتدّ به الأجل إلى ما بعد الغزو الإيطالي ولعله هاجر إلى الآستانة حيث لحق بوالده أحمد النائب .

---

(1) انظر : طرابلس الغرب العدد 1267 .

(2) انظر : المصراتي ، صحافة ليبيا ، ص 54 .

(3) انظر : الكشاف العدد 1 «المقالة الأولى» .

(4) سيرد تفصيل هذا في فصل القيمة الفنية للمقالة : مبحث الأسلوب .

(5) انظر : فصل أنواع المقالة وموضوعاتها ، مبحث المقالة السياسية .

(7)

عبدالرحمن البوصيري

(1843- 1935 م)

« هو الشيخ عبد الرحمن الأخضري بن الحاج محمد البوصيري بن القاضي قاسم بن أبي القاسم بن محمد بن عثمان ، الغدامسي مولداً الطرابلسي إقامة ، المالكي فروعاً ، وكان مولده رضي الله عنه في 22 من ذي القعدة سنة 58 بعد المائتين والألف هجـريـة»[1] .

بهذا التعريف قدّم أحد تلاميذ الشيخ لكتابه (مبتكرات اللآلي والدّرر في المحاكمة بين العيني وابن حجر) .

فالشيخ ليس من كتّاب المقالة فحسب بل هو مؤلّف خاض غمار التّصنيف في علوم مختلفة كالأصول والحديث والبلاغة[2] ، وهو شاعر مقلّ ذلّت له ناصية اللغة ، فنظم الشعر على طريقة الفقهاء ، وأغلب شعره في باب المناسبة[3] ، وقد تلقّى دروسه الأولى بعد أن حفظ القرآن الكريم على يد أشياخه في (غدامس) ، ثم انتقل إلى طرابلس وتتلمذ على أجلّة العلماء فيها ، وهو من تلاميذ أستاذ الجيل محمد كامل بن مصطفى[4] ، وكان عصامياً قضى شطراً كبيراً من شبابه في مكابدة السفر طالباً للعلم متوسلاً بالتجارة، فزار تونس والقاهرة والأستانة ، ثم استقر به النّوى في طرابلس[5] ، فانخرط في سلك القضاء حيث

(1) مقدمة مبتكرات اللآلي والدرر .

(2) من مؤلفاته : نزهة الثقلين في رياض إمام الحرمين ، في الأصول ، والجواهر الزكية في مصطلح حديث خير البرية ، وفاكهة اللّب المصون على شرح الجوهر المكنون ، في البلاغة ، وكلها مخطوطات ، والأخير منها بين يدي وأوشك أن أنتهي من تحقيقه والتعليق عليه .

(3) انظر : الترقي العدد 14 .

(4) انظر : دليل المؤلفين العرب الليبيين ص 199 .

(5) من حديث شخصي مع الأستاذ محمد محمد البوصيري حفيد الشيخ عبد الرحمن لابنته .

تولّى وظيفة محرّر مقاولات الأهالي ، ثم رئيس قلم المحكمة الشرعية ، ثم قاضياً بالنواحي الأربعة ، فقاضياً بالزاوية الغربية ، وقد استمر في تولّي القضاء حتى بعد الاحتلال الإيطالي ، حيث كان القاضي الشرعي لطرابلس[1] .

وإلى جانب اشتغاله بالقضاء اشتغل بالتّدريس والوعظ في المساجد ، وتذكُر بعض المصادر أن دروسه الرّمضانية استمرت طيلة خمسين عاماً[2] .

والشّيخ عبد الرحمن هادىء الطّبع وقور ، شديد التّواضع ، في روحه فكاهة وميل للدّعابة كما يخبرنا أحد تلاميذه[3] ، ويبدو أن وقاره انعكس على مقالاته فلم نلحظ شيئاً من هذه الدّعابة ، وإنّما كان أبرز ملامحه النّفسية في مقالاته قوّته العقلية وقدرته على الجدل والمناقشة والإقناع ، يقف من قارئه موقف المعلم فيلقي إليه فكرته في المقالة مؤيّدة بالبراهين والأدلّة ، ثم يمضي عنه وكأنّه يقول له : انتهى الدّرس ، وهو حصيف في تناوله للموضوعات السياسية شديد الحذر يساير الحكّام ، ويترك الباب مواربأ دائماً ، ويتجلّى حذره هذا في أدق صوره عند توقيع المقالة ، فإذا كانت تاريخية تبعد عن المحاذير السياسية وقعها باسمه كاملاً ، وإذا كانت تتعلق بالدولة وقعها بحرفين رامزين (ع . ن) ، وإذا كانت تتعلّق بالسلطان وقعها بحرف واحد (ع)[4] ، وقد يلجأ إلى التوقيع الرّامز ، إذا أغرق في المدح والتزلّف[5] وكأنّه يتوارى ، من سوء ما فعل ، وهذه الصفة مما يؤخذ على الشّيخ ، فهي تغضّ من قدره ولا سيّما أنها لازمته حتى مع الإيطاليين في آخر أيامه[6] .

والشيخ من روّاد الكتابة في الفترة العثمانية ، وقد مهّد الطريق أمام غيره ليحتذوا حذوه ، فاجتنب أساليب الصناعة في جلّ مقالاته ، وأرسل قلمه مترسّلاً بلغة رصينة

---

(1) انظر : الرقيب العتيد العدد 800 في 16 صفر 1355 هـ / 1936 م .

(2) انظر : الزاوي ، أعلام ليبيا ص 203 .

(3) انظر : الرقيب العتيد العدد 799 في 2 صفر 1355 هـ / 1936 م .

(4) انظر : سلسلة مقالاته (إجمال تاريخ طرابلس الغرب) في الترقي 16 ـ 38 . و (الصلح سيد الأحكام) في الترقي عدد 21 و (جلالة السلطان المعظم والسلم العام) الترقي 26 .

(5) انظر : الترقي العدد 17 (حب الوطن) .

(6) نشرت (بريد برقة) في عددها السابع والثمانين بتاريخ 27 مارس 1926 م ما خلاصته أن طرابلس الغرب تعد هدية لموسليني من ضمنها سيف كتب عليه :

يا من تقلد بالسلاح فأرخوا — خير السيوف قلاد موسليني

وكتب على يراعه الذهبي :

فإذا الشجاعة والبلاغة أرخا — برز الوزير بسيفه كيراعه

والبيتان من شعر الشيخ عبد الرحمن البوصيري .

وعقلانية معتدلة فيما يقرب من روح الأبحاث العلمية والدروس الأكاديمية ، وإن لم تخل من بعض الرّواء الأدبي[1] ، وهو من أبرز كتّاب المقالة التاريخية ، وأسهم بقسط وافر في المقالة السياسية والدينية[2]، غير أنّه هجر الصحف بعد الفترة الثانية ، وغلّ قلم المقالة ، ولعلّه بذلك أفسح المجال لقلم تصنيف الكتب في العلوم الشرعية والدينية ، وقد عمر ـ رحمه الله ـ حتى جاوز التسعين ، وتوفّي في طرابلس يوم 15 المحرم سنة 1354 هـ ، 19 من أبريل سنة 1935 م .

---

(1) انظر : فصل القيمة الفنية من هذا الكتاب ، مبحث الأسلوب .

(2) انظر : فصل أنواع المقالة وموضوعاتها ، مبحث المقالة التاريخية والسياسية والدينية ، من هذا الكتاب .

(8)

أحمد الفسّاطوي

(000-1936 م)

هو أحمد بن محمد الفسّاطوى الطرابلسي ، ولد بطرابلس في العقد ما قبل الأخير من القرن الماضي ، واشتهر بنسبته إلى (فسّاطو) بالجبل الغربي ، تلقى علومه الأولى في بلاده ثم رحل إلى مصر حيث درس بالأزهر الشريف ، وهناك تولّدت عنده ملكة الكتابة ، فكتب عدّة مقالات في صحف مصريّة وتونسية وليبية[1] ، وشهد في مصر عنفوان الصّراع بين (اللواء) و (المؤيّد) ، واطّلع على كثير من خبايا السياسة الإنجليزية وكتب عن مصر محلّلا وناقداً ، فكان ما كتبه شاهداً له بالألمعية والفطنة رغم ميعة الشّباب وغفلة الحداثة[2] .

وعقب عودته من الأزهر سنة 1909 م ، عمل بالتّدريس أوّل الأمر ثم أضاف إليه الصحافة فأصدر صحيفة (المرصاد) ومنها صبّ حمم غضبه على الإيطاليين ، فكانت معارك صحفية يجابه فيها الفسّاطوي أساطين الصحافة الإيطالية فيقارعهم الحجة بالحجة ويذرأ عن وطنه ما وسعته الحجّة وأسعفه البيان ، وقضى ركناً من صحيفته في خصام الهاشمي أبو قشة ، ولكنه كان يعفّ كثيراً عن موارده ترفّعاً وإباء .

وللفسّاطوي مواقف سياسية تعدّت طور الجهاد بالقلم ، فجهاده بالكلمة على صفحات (المرصاد) معلوم ، ولا يخفى على أحد ، غير أنّ الصفحة المطموسة من حياته السياسية هي إغفال دوره الفكري في الدعوة إلى نشر مبادىء حزب الاتحاد الإسلامي ، الذي يشجب مسار حزب الاتحاد والترقي في الدولة العثمانية ، ويبدو أنّ خلية طرابلس قد

---

(1) منها المقطّم المصرية ، والزهرة التونسية ، والكشّاف الليبية .

(2) انظر : العصر الجديد العدد 18 في 21 جمادي الآخرة 1327 هـ / 1909 م «مصر» .

تولّت مسؤولية الجهاد عند بدء الغزو الإيطالي للولاية ، وتحت يدي وثيقة أرسلها القسّاطوي إلى إخوانه من الطرابلسيين أعضاء الحزب[1] في مصر ردّاً على استفسار وصله منهم ، يصف فيها حالة الحرب ويشجب دور الأتراك في المعارك قائلاً : « . . . فاعلموا يا كرام أنّ مواعيد الترك المتمادية الكاذبة التي لم يصح منها حتى واحد إلى هذا اليوم وانسحابهم الدّائم في أثناء القتال في ميدان الوغى وسوقهم لأبناء العرب أمام مدافع إيطاليا الملعونة وأمام بنادقها وحرابها كما تساق الغنم المسكينة إلى الذّبح قد أثّر تأثيراً على هؤلاء بني اسماعيل العرب المساكين وأخذ انقاد حماستهم الأولى » ويتهم القسّاطوي الأتراك باختلاس المساعدات التي كانت تصل المجاهدين من البلاد الإسلامية ، ويبدي القسّاطوي حماسة شديدة ويحرض رفقاءه على المضي في الدّعوة للحزب وإقناع أهل مصر فيقول : « ناشدتكم الله داوموا على بذر هذه الأفكار وغرسها في أذهان إسلام مصر مبيّنين لهم أنّه من المحال التوصّل لطرد الإنكليز الكفّار من مصر والهند وإخراج الفرنساويين من تونس والجزائر وأنه لا يمكن تخليص المسلمين من نير قوم الكافرين ما لم تنتشر وتتّسع وتعم جميع العالم الإسلامي تلك الجمعية المقدّسة فعليكم ببذل الجد والجهد والسعي » . . .

وفي هذا الإطار من الانتماء الدّيني والقومي يشارك القسّاطوي في المعارك مشاركة مباشرة وذلك بنقل الذخيرة والإمدادات ، كما جاء في أحد المصادر التاريخية : « الشيخ أحمد القسّاطوي والدكتور عثمان بك[2] توجهوا بالأمس إلى جهة يفرن ونالوت حاملين (قسم) كبير[3] من الجبخانة[4] والسلاح والأرزاق »[5] ، وقد عمل مع الشيخ سليمان الباروني عندما ولي طرابلس الغرب ، فتولّى وظيفة قائم مقام غدامس ، ثم أصبح عضواً في الحكومة الطرابلسية بعد إعلان الجمهورية[6] .

وشارك في حزب الإصلاح والترقي ، بل كان سكرتيراً له[7] ، غير أنّ مما يعاب عليه بعد هذا التاريخ الناصع مهادنة الأعداء ، حينما استقام الأمر لإيطاليا ، وليته قبع في زاوية من زوايا الظل يدرّس في المساجد أو المدارس ، ولكنه انخرط في سلك الوظيفة حتى أصبح مستشاراً للحكومة الإيطالية ، وشيخاً للمدرسة الإسلامية العلياء بطرابلس ، وتوفي وهو

---

(1) منهم أحمد بن غلبون ، وأحمد بن عويدان ، وحمزة محمد الفيتوري .

(2) لم أعثر له على ترجمة .

(3) كذا ، والصواب : قسماً كبيراً .

(4) كلمة تركية تعني مخزون الذخيرة .

(5) زعيمة الباروني ، صفحات خالدة من الجهاد ، مطابع الاستقلال الكبرى ، 1966 م ص 92 .

(6) السابق ص 207 و 256 و 257 و 379 .

(7) انظر : دليل المؤلفين العرب الليبيين ص 70 .

يحمل رتبة (اغراند أو فيشيالي)[1] ، ولعلّه كان يرى في هذا وجهاً من وجوه إصلاح البلاد ، ولا يجوز أن نزن فعله هذا بميزاننا المعاصر ، فلكلّ عصر ظروفه ومعاييره .

وقد ظل القسّاطوي يمارس كتابة المقالة حتى وفاته ، حيث نشرت له (ليبيا المصوّرة) عدّة مقالات بعد وفاته[2] ، والقسّاطوي صاحب مذهب جديد في كتابة المقالة في ليبيا ، فهو أوّل من أدخل التقسيم والتبويب في المقالة واتخذ العناوين الفرعية[3] ، وساهم بإدخال لغة المقالة في المشرق إلى صفحات الصحف الليبية ، وكان يتجنب أساليب الصنعة والبهرج ، مفضلاً الترسل والسلاسة ، ولولا شائبة الجنوح إلى الخطابة لكانت مقالاته في طبقة أعلى من طبقتها ، وقد أدلى القسّاطوي بدلوه في أنواع مختلفة من المقالة ، فكتب في السياسة ، والتربية ، والدين ، وغيرها .

وتوفي رحمه الله يوم 15 فبراير 1936 [4] ، وهو يجاهد في سبيل رقي التعليم ، وقلمه يسطّر المقالات دفاعاً عن الإسلام والمسلمين .

---

(1) انظر : مجلة ليبيا المصورة العدد 6 السنة 1 مارس 1936 ص 13 .

(2) السابق العدد 9 السنة 2 يونيو 1937 م ص 24 .

(3) انظر : فصل القيمة الفنية للمقالة مبحث الهيكل .

(4) في دليل المؤلفين أنه توفي في منتصف شهر أبريل 1936 م وقد تابع الدليل الزاوي في خطئه في كتاب (أعلام ليبيا) ص 94 ، والصحيح ما ذكرت ، انظر : مجلة ليبيا المصورة العدد 5 السنة 1 فبراير 1936 م ص 2 .

(9)

محمود نديم بن موسى

(1876- 1937 م)

ولد الشيخ محمود نديم بن موسى في طرابلس سنة 1876م ، في بيت من أرفع بيوتات العلم ، فهو سليل طائفة من العلماء المتبحرين في العلوم الشرعية[1] ، وتلقى دروسه الأساسية في مدينة طرابلس ، ثم انتقل إلى مصر حيث درس بالأزهر ، حتى نال الإجازة العالمية ، وكان خلال إقامته بمصر يحضر دروس الشيخ محمد عبده ، وغيره من العلماء المبرّزين[2] ، حتى إذا عاد إلى طرابلس عاد ومعه مبادىء الإصلاح والدعوة إلى النهضة الشاملة ، وامتهن التدريس بجامع أحمد باشا ، والمحاماة الشرعية ، والقضاء في زوارة ، حتى إذا آنس من نفسه مقدرة على الكتابة شارك في تحرير (الترقي) و (أبي قشّة) و (المرصاد)[3] ، ثم انفرد بإصدار صحيفة (الرقيب) في آخر العهد العثماني .

والشيخ محمود نديم بن موسى شخص دمث الأخلاق طيّب المعشر ، سريع البديهة ، ميّال إلى النكتة ، ولعل هذه المكونات قد انعكست على نهجه في الصحيفة ، فكثر فيها النقد اللاذع ، والسخرية المرّة ، ولم تعبأ في سبيل الفكاهة بأن تنحدر إلى العامية ، وأن تجوز أصول اللياقة أحياناً، وقد اختار الشيخ نديم أن يولي طبقة العامية اهتمامه فهي القاعدة العريضة التي يكتب لها « لأن صحيفته إنما تستمد حياتها من إقبال العامة »[4] ، ولذلك نلاحظ اليسر في مقالاته لتناسب هذه الطبقة ، وإليه يرجع الفضل في تخليص الصحف من

---

(1) انظر : مجلة ليبيا المصورة العدد 9 السنة 2 يونيو 1937 م ص 28 .

(2) انظر : المصراتي صحافة ليبيا ص 177 .

(3) انظر : الترقي العدد 105 «لم تقدموا وتأخرنا» والمرصاد الأعداد 8 و 14 و 16 «فرنسا والإسلام» .

(4) ليبيا المصورة العدد 9 .

سيطرة المقالة الكاملة ، حيث اتسعت رقعة الخبر والتعليق ، والمناقشة ، وإن كان قد أوسع الباب للملاحاة والمهاترة ، ولم يطل صدور الرقيب في الفترة العثمانية ، فقد داهم الغزو الإيطالي الولاية ، ولكن النديم هاجر بها إلى تركيا ، ثم عاد إلى طرابلس وأصدرها مرة ثالثة زمن الاحتلال الإيطالي ، وتوفي رحمه الله في 1937/6/8 م .

(10)

محمد الهاشمي المكي

« أبو قِشّة »

ولد محمد الهاشمي بن عثمان بن أبي القاسم بن مكي الزّبيدي ، بتوزر التونسية سنة 1881 م ، نشأ وترعرع في بيت من بيوتات العلم والمعرفة ، فوالده من علماء جامع الزيتونة ، وفي بيته مكتبة حوت من أمهات الكتب في شتى صنوف المعرفة ما يشبع نهم الصغير الذي تهفو نفسه إلى الاطلاع ومعرفة ما حوت هذه الخبايا ، وفي تونس العاصمة أكمل الصغير حفظ القرآن ، وتلقى دراسة العلوم الحديثة بمعهد ابن خلدون ـ الجمعيّة الخلدونيّة ـ وعرج في سلّم التعليم حتى نال شهادة في الهندسة التطبيقية ، فأصبح عالماً ملماً بأطراف المعرفة النظرية والتطبيقية ، وتعلّم اللغة الفرنسية ليطلّ منها على زاوية الآداب الغربية[1] ، هذه الروافد مجتمعة كونت الأديب الساخر الجاد محمداً الهاشمي الذي كان يتّقد حماساً لصنع شيء لأمته وإسلامه ، فأسّس في تونس مجلة (الإسلام) ، غير أنّ السلطات الفرنسية في تونس أوقفتها بعد العدد الأول ، فأصدر صحيفة ساخرة ، اختار لها اسماً ممعناً في السخرية (أبو قِشّة) ، وقد ذكر علي المصراتي أن أبا قِشّة تعني القرد بلهجة الشمال الأفريقي ، وقد تابعه جميع الباحثين من بعده على هذا ، ولا نعلم أنّ للشمال الأفريقية لهجة واحدة وإلاّ كان معناها في ليبيا هو نفس معناها في تونس أو في الجزائر مثلاً ، بل إنّ الهاشمي قد اختار هذه التسمية من فصيح اللغة ، فقد جاء في اللّسان : « والقِشّة بالكسر : الأنثى من ولد القرود ، وقيل : هي كلّ أنثى منها »[2] ، وفي المثل « أكيس من قشّة »[3] ، فهذه التسمية تدل على مراد صاحبها من حيث السخرية وإفادة الكَيس ، غير أنّ

---

(1) للمزيد من معرفة تفصيلات ترجمته انظر : للمصراتي ، كفاح صحفي .

(2) اللسان جـ 3 مادة (قشش) ص 92 .

(3) انظر : الميداني ، مجمع الأمثال جـ 2 ص 152 ، وكذلك الجاحظ ، الحيوان جـ 4 ص 99 .

السلطات الفرنسية أوقفت الصحيفة ، ففرّ بها الهاشمي إلى طرابلس ، وفيها كانت له صولات وجولات ، وصراع مع نظرائه الصحفيين ، يخفُت فيسلك في بوتقة التنافس ، ويضطرم فيهوى في درك التنابز ، وقد أفاض المصراتي في كتابه عن الهاشمي المكي في وصف هذه الصراعات ، فنستغني بذلك عن إيراد طرف منها[1] .

وقد طوّف الهاشمي في الآفاق بعد الغزو الإيطالي لليبيا سنة 1911 م ، حتّى استقر في جزيرة (جاوة) ، وعمل بالتدريس حيناً ثم أصدر جريدة عربية (بورو بودرو) أشبع بها رغبته الصحفية ، وأدى بها رسالة سامية تجاه قوميته ودينه .

ولمحمد الهاشمي أسلوب رصين إذا كان جاداً ، لكنه كان يطعّم مقالاته بشيء من العاميّة ، وهو يجيد فن الغمز واللمز ، مما ينبىء عن شخصية مستوفزة ، ميالة إلى الجدل والمناقشة والمماحكة ، في أحيان كثيرة ، وقد نجح في بناء قاعدة شعبية تؤيده في معاركه الأدبية وغير الأدبية ، فكان شديد الشبه بزعماء الصعاليك الذين تمتزج تقاليد الفروسية في أنفسهم بجرأة الفتاك وشذّاذ الآفاق ، وإخاله يقدّس صور الهجّائين في ذهنه ، حتى أنه ـ كما يقول المصراتي ـ لقب ابنيه بأبي لهب[2] وأبي جهل[3] وزوجه بحمالة الحطب[4][5] ، بل سخر من نفسه أيضاً فبعث برسالة إلى صديق له في طرابلس من مهجره في (جاوة) يقول له : « لقد وجدت نفسي هنا (فينوس) الجمال وأنا أجمل وجه يعيش في هذه البلاد »[6] ، ومثل هذه السخرية المرة تصدر عن نفس مرهفة الإحساس ، أمضها ما تقاسي من الآلام دون أن تملك من ناصية التغيير شيئاً ، فانعكس هذا الألم عبثاً حيناً ولجاجة في الخصام والملاحاة حيناً آخر ، بيد أنه في لحظات هدوء النفس يسطّر أدباً في غاية الرقة والشفافية[7] .

وهكذا قدر لمحمد الهاشمي المكي أن يقضي حياته بين الأسفار ، وعلى متون الرواحل يحمل قلم الصحفي وروح الأديب ، حتى توفاه الله في مهجره سنة 1942م .

---

(1) انظر : المصراتي ، كفاح صحفي ، «قضية ومحكمة» ص 49 وما بعدها .

(2) عبد العزّي بن عبد المطلب بن هاشم من قريش ، عم رسول الله ﷺ ومن أشدّ الناس عليه ، كني بأبي لهب لحمرة وجهه ، توفي 2 هجرية ، انظر : الأعلام ط ـ 7 جـ 4 ص 12 .

(3) عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي شديد العداوة للإسلام وللمسلمين ، وهو سيد من سادات العرب في الجاهلية ، كنيته في قومه أبو الحكم ، قتل في بدر سنة 2 هـ ، انظر : الأعلام ط ـ 7 جـ 5 ص 87 .

(4) أم جميل بنت حرب زوج أبي لهب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في سورة المسد .

(5) انظر : المصراتي ، صحافة ليبيا ، ص 100 .

(6) انظر : المصراتي ، صحافة ليبيا في نصف قرن ص 100 .

(7) انظر : فصل أنواع المقالة وموضوعاتها ، مبحث المقالة الثقافية .

وبعد فقد عرفت المقالة أعلاماً لهم دور بارز في تطوّر المقالة في ليبيا[1] ، ولكننا اقتصرنا على الترجمة للرواد منهم الذين كانت على أيديهم النشأة الأولى ، وبقي معظمهم إما مجهولاً كليّة ، وإما غامت جوانب كثيرة من حياته الشخصيةّ والفكرية ، فجلونا معالم حياتهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً .

---

(1)من هؤلاء الأعلام : عثمان القيزاني ، وعلي عياد ، وخالد القرقني ، ومحمود تاجي ، ومحمد الأسير الحسيني ، وعبد الله الشريف ، وحسن كامل ، وغيرهم ، ومعظم هؤلاء ترجم لهم الزاوي في كتابه (أعلام ليبيا) .

الفصل الخامس

القيمة الفنية للمقالة

1. هيكل المقالة
2. لغة المقالة
3. أسلوب المقالة

هيكل المقالة

1 ـ الفترة الأولى :

أ ـ البداية العشوائية
ب ـ محاولات أولى للتبويب
جـ ـ ملامح التطوّر الهيكلي

2 ـ الفترة الثانية :

أ ـ بقاء ملامح الفترة الأولى
ب ـ سمات جديدة للهيكل المقالي :
- الطول المفرط
- الاستناد الشعري
- أشكال الختام
- ظاهرة التفسير
- التذييل

3 ـ الفترة الثالثة :

أ ـ اختفاء بعض ملامح الفترة الثانية
ب ـ نزوع المقالة إلى القصر
جـ ـ ظهور المقالة المسلولة
د ـ المقالة المختلطة

القيمة الفنية للمقالة

أولاً : هيكل المقالة

سنعرض في هذا الفصل لمكوّنات ثلاث بنيت عليها المقالة في ليبيا طيلة الفترة العثمانية ، أوّلها الهيكل ، وهو ما يتعلّق بالسمات الخارجية للبناء المقالي ، وثانيها : اللغة وما يعرض لها من عوامل ، وآخرها : الأسلوب وطرائق النسج الفني الذي انتهجه الكتّاب ، ولا ندّعي أنّ بإمكاننا وضع حدود فاصلة بين هذه المكونات الثلاث ، إذ أننا نؤمن بما ترتضيه معظم النظريات الحديثة من رفض لتقسيم العمل الفني إلى شكل ومضمون .

لقد بدأت المقالة في ليبيا أوّل أمرها بداية عشوائية لا ترتكز على أسس فنية معينة ، وبنظرة عابرة إلى بنائها الهيكلي يمكننا أن ندرك العفوية ، بل البدائية في هذا البناء ، فقد بدأت المقالة مجردة من التخطيط الفني حتى أنها لم تعرف العناوين المميزة لكل مقالة في فترتها الأولى ، وإنّما كانت تكتفي بعنوان واحد يكرر عند بداية كلّ مقالة مثل « صورة ورقة وردت إلى مطبعتنا »[1] أو « المواد الخصوصيّة » إذا كان موضوع المقالة يتعلق بالولاية ، يبدأ الكاتب بعمله في السرد المباشر بعيداً عن الأصول الفنية لهيكل المقالة ، فلم يكن هناك تقليد ثابت متعارف عليه في التقديم للمقالة ، ولعلها كانت ملتبسة عند الكتاب بأساليب سوق الأخبار ، وقد خلت تماماً من المقاطع أو الفقرات ومن كل سمة تنظيمية ، وكثيراً ما كان الكاتب يبتر مقالته بتراً يعكس عدم الاكتراث بما يكتب ، ولعلّ ذلك يصور عدم سيطرة الكتّاب على موضوعاتهم لحداثة الأمر عندهم ، ويمكن أن نلحظ محاولات ساذجة للتبويب

---

(1) انظر : طرابلس الغرب العدد 62 و 126 .

عند كتّاب المقالة في فترتها الأولى ، كأن يُفرد عنوان ثابت في وسط نهر المقالة يوضع بين حاصرتين هكذا (مطالعة) ومضمون هذه المطالعة يوحي في الغالب بهدف المقالة وخلاصة رأي الكاتب ، وقد تستبدل كلمة (مطالعة) بكلمة (صحيح) فبدل أن تبدأ بها الجملة المستأنفة من أول السطر توضع في بياض واضح وسط النهر محصورة لإبراز أهمية ما بعدها ، وقد يوضع بين حاصرتين ما يوحي بأنه عنوان مستقل لكنه في واقع الأمر لا يعدو أن يكون استئنافاً لنقطة من نقاط الموضوع نفسه[1] .

ومن النماذج الأولى لهذا النمط في بناء الهيكل مقالة اجتماعية اخترت لها عنوان « مسألة إسقاط الأجنة » نقتبس منها مقاطع ترشد إلى ما أسلفنا القول فيه : « (صورة ورقة وردت لمطبعتنا) إنّ حصول الهمّة والعناية في استكمال أسباب استراحة الجملة ووقايتهم من موارد الخطر والكدر مما هو مشاهد عند الخاص والعام وأنه يزداد يوماً فيوماً في ظل حضرت[2] سلطاننا الأعظم ولي المراحم والنّعم وإنّ المحافظة على صحة العموم أمر لازم والهمم العلية والعنايات السنية واقعة في هذا الباب ومع ذلك إنّ نساء أهالي دار السعادة يرتكبن فعلاً ذمياً لا يجوز شرعاً ولا فرعاً وهو أمر إسقاط الجنين . . . ويمكن بعض الأزواج أن يمنع زوجته من التجاسر بهذا الفعل الشنيع الذميم عند أولي النهي ولكنه يساعدها على ذلك لما تخبره فإنها إنّما قصدها بإسقاط جنينها استجلاب راحتها من تعب تربيته أو من القيام بنفقته وكسوته لعدم اقتدارهما وشدة فقرهما واحتياجهما ، مع أن المتكفّل بذلك هو الله سبحانه (مطالعة) فياليت شعري ماذا يزعم مرتكب هذا الفعل الشنيع أيزعم أنه هو الصانع لذلك الجنين الذي تسبب في إسقاطه وإهلاكه لأجل استراحته أم يزعم لتوغّله في عدم المرحمة والشفقة الإنسانية أنّ ذلك بإرادته ، كلا بل إنّ ذلك بإرادة الله تعالى وقدرته ولو أظهر ذلك المرتكب خلاف هذا. . .»[3] ولا يخفى بعد هذا الاقتباس الطّابع الاسترسالي الذي وُسمت به المقالة في بداية عهدها نتيجة لغياب أبسط قواعد التنظيم الهيكلي وأبرزها علامات الترقيم التي لم تعرف إلاّ في فترة متأخّرة نسبياً ، وباستثناء الحاصرتين فقد ظلّت هذه العلامات مهملة حتى مطلع القرن الحالي حيث استعملت منها علامات قليلة مثل النّقطة وعلامة الاعتراض[4] .

---

(1) انظر : طرابلس الغرب العدد 126 .

(2) كذا ، والصواب : حضرة .

(3) طرابلس الغرب العدد 62 في 2 شعبان 1284 هـ/1867 م «مسألة اسقاط الأجنة» .

(4) أول ما عثرت عليه من هذه العلامات علامة الاعتراض (-.-) بطرابلس الغرب العدد 1100 سنة 1904 م .

ومن أبرز علامات التطور الهيكلي للمقالة في ليبيا اتساع رقعتها ، فقد ابتدأت قصيرة نوعاً ما ، ثم أخذت تطول شيئاً فشيئاً بألفة الكتّاب ومرانهم وانفتاح أفق الموضوعات أمامهم حتى أصبحت تغطّي عدة أعداد متتابعة حيناً ومتقطّعة في أغلب الأحيان ، ويشوبها شيء من التشويش طيلة الفترة الأولى .

ولم يحدث تطوّر يذكر في بناء الهيكل المقالي إلاّ اتخاذ عنوان مستقل لكل مقالة مثل « الأمم المتمدّنة والأقوام البدوية » لمقالة تتحدث عن الحضارة والتطور البشري[1] ، واستحداث نظام المقاطع ، بمعنى أن كل فكرة جزئية في المقالة تكتب في مقطع مستقل يفصله بياض عمّا بعده ، مثال ذلك : « . . . حاصله أنّ كل حيوان يجد ما يأكله ويشربه حاضراً بالمحل الذي يوجد فيه ولا تحصل له ضرورة في شيء من الأشياء التي يحتاج إليها أصلاً ويدافع عن نفسه بقدر ما يمكنه وأما الإنسان فقد أعطته حكمة الخلقة الإدراك والسعي والقابلية بدلاً عن كل شيء »[2] .

ولقد أضاف كتّاب المقالة العلمية بعض النظم التي توشك أن تكون خاصة بهم ، فعلاوة على طول المقالة المفرط الذي يلجئهم إلى تجزأتها في عدّة حلقات تكثر فيها العناوين الجانبية أو الفرعية ، وقد تقسم المقالة إلى فصول وكل فصل به العديد من العناوين الجانبية[3] ، فهي إلى الكتب أقرب منها إلى المقالة .

وعلى الطرف الآخر تقصر المقالة عند كتّاب الموضوعات الإنسانية كالتاريخ والاجتماع ، حتى أن بعضها يوشك أن يقصر عن نهر واحد[4] .

ومع إطلالة الفترة الثانية احتفظت المقالة ببعض السمات الهيكلية السابقة مثل تقسيم المقالة إلى فصول[5] ، تسود كلّ فصل مجموعة من العناوين الفرعية ، ولعل من أبرز الملامح الشكلية لهذه الفترة كثرة التقسيم والتبويب في المقالة الواحدة ، ومردّ ذلك إلى سيادة المقالة العلمية في هذه الفترة ، وهي تعنى كثيراً بتقنين الحياة المادية حتى إنّ كلّ موسم له ما يناسبه من المقالات العلمية ذات العلاقة المباشرة بالحياة اليومية ، فشهر حزيران مثلاً له سلسلة من المقالات التي توجّه الفلاحين إلى ما يجب عمله في هذا الشهر ، وكلّها مبوبة ومقسمة تقسيماً

---

(1) انظر : طرابلس الغرب العددين 257 و 258 .

(2) طرابلس الغرب العدد 257 «المدنية» .

(3) انظر : طرابلس الغرب العدد 701 .

(4) انظر : طرابلس الغرب العدد 692 «مهر النكاح» .

(5) انظر : طرابلس العدد 1107 .

دقيقاً ، بل إن فقراتها مرقمة أرقاماً متسلسلة بمنتهى الدقة[1] .

ومن السمات الشكلية التي لا تخطئها العين تميز هذه الفترة بالمقالة الطويلة طولاً مفرطاً ، حتى إنّ بعضها قد جاوز ثماني حلقات[2] ، وأصبح من المألوف أن تغطّي المقالة صفحة كاملة من الجريدة وقد تزيد عليها ، وتبع ذلك الطول الكلّي طول جزئي فأصبح المقطع الواحد يمتد إلى نهر بكامله[3] وقد يجاوزه ، غير أنّ هذا لم يحجب المقاطع القصيرة بل ظلّ الكتّاب يجاوزون بينها في معظم ما كتب خلال هذه الفترة ، ومن أمثلة ذلك نجتزىء من مقالة عنوانها « الاتحاد والانفراد » ثلاثة مقاطع لنجسد التباين بينها وانصياع البناء الهيكلي لمساحة الأفكار الجزئية ، يقول الكاتب : « ولا يقال إنّ عوامل الرفع والخفض غير محصورة في ذينك الأمرين ـ الاتحاد والانفراد ـ فقط بل لهما عوامل وأسباب أخرى كالمعارف والثروة ، وكثرة العدد والعدد وما أشبه ذلك لأنّا نقول ولا يخالفنا أحد أن هذه الأمور لا تتوافر أبداً من غير الاتحاد لأنّه شرط لوجودها فإذا عدم الشرط عدم المشروط قطعاً [المقطع الأول] وهذا التاريخ أمامك وبين يديك هل ترى سبباً لأمة من الأمم الموجودة أو المنقرضة القوية أو الضعيفة أوصلها إلى ما أوصلها غير الاتحاد والانفراد [المقطع الثاني] ثم إنّ أمتنا الإسلامية من تتبع أدوارها واستقرأ أحوال دولها من عهد الرسالة إلى يومنا هذا وهو ألف وثلاثمائة وخمسة عشر سنة يجدها لم تزل بسبب الاتحاد في الترقي والازدياد الى أن بلغت ممالكُ الإسلام سعة وثروة في زمن قليل إلى درجة ما بلغتها أمة أخرى ولن تبلغها حتى حكم الله عليها بملوك الطوائف وانفصمت عرى الاتحاد فصارت بسبب الانفراد إلى ما حفظه لنا التاريخ إلى أن منّ الله تعالى على الأمة الإسلامية بساكن الجنان أرطغرل جدّ سلالة ملوك آل عثمان الفخام فمن بعده فرفعوا أعلامها وشيّدوا أركانها بلم شعثها وسدّ ما انثلم منها وبتعويضها ما فاتها بامتداد الفتوحات شرقاً وغرباً جنوباً وشمالاً بسبب الاتحاد والارتباط التي صارت به الواسطة العظمى لحل جميع المعضلات بين الأمم والأقوام الأخرى التي كانت مختلّة من داخلها وخارجها ولا يمكن للقلم استقصاء مناقب أقصرهم مدة وأقلهم فعلاً »[4] [المقطع الثالث] .

ومما سبق نرى أنّ المقطع الأول ضعف المقطع الثاني ، وأنّ المقطع الثالث ثلاثة أضعاف المقطع الأول ، والفكرة الجزئية في المقطع الأول تحمل قضية جدلية منطقية يتوقف

(1) انظر : طرابلس الأعداد 1101 و 1110 و 1118 و 1120 .

(2) انظر : الترقي من العدد 16 إلى 38 سلسلة «إجمال تاريخ طرابلس الغرب» ع . البوصيري ، وكذلك: الترقي من 18 إلى 23 سلسلة «الدماغ البشري» سليمان غزالة .

(3) انظر : الترقي العدد 37 «تعطيل حكم السلاح القديم» مصطفى بن زكري .

(4) الترقي العدد 23 في 2 رجب 1315 هـ / 1897 م «الاتحاد والانفراد» .

فيها المشروط على الشرط ليثبت الكاتب أنّ عوامل التقدم مشروطة بالاتحاد شرطاً لازماً ، وهذا الأمر يحتاج إلى دليل، فساق الكاتب المقطع الثاني مشحوناً بالدليل، وبما أنّ الفكرة الجزئية في المقطع الأول هي الأساس والمقطع الثاني يحمل فكرة جزئية داعمة فقط ، فقد جاء هذا المقطع مساوياً لنصف المقطع الأول ، حتى إذا ما وصلنا إلى المقطع الثالث وجدنا به تفصيل الفكرة الكلّية للمقالة وهي بلوغ الدولة الإسلامية أوج عظمتها حينما كانت متحدة ، وسقوطها في الحضيض حينما آل أمرها إلى ملوك الطوائف وعودة عظمتها حينما وحدها العثمانيون من جديد ، فاستغرق هذا من الناحية الشكلية ثلاثة أضعاف الفكرة الجزئية في المقطع الأول ، وهذه المزاوجة بين المقاطع الطويلة والقصيرة تعطينا مؤشراً لتطور الفكر عند كتّاب المقالة ، فبدل أن كانت الفكرة واحدة عند كتّاب الفترة الأولى تلحّ على كاتبها فيفرغها في مقطع طويل يشبه العزف على مقام واحد لا يطرب له السامعون وكثيراً ما يتأذون منه أصبح الكاتب يبني فكرته الكلّية من عدة أفكار جزئية يصل بها إلى مبتغاه دون ملل أو إملال .

ومن سمات البناء الهيكلي للمقالة في الفترة الثانية الاستناد الشعري ولا نعني به الاستشهاد أو التمثّل بقول الشعراء ، بل نعني فزع الكتّاب إلى قرائحهم الشعرية والركون إلى القريض لإعطاء المقالة حرارة لا يسعفهم النثر بها حتى ما كان منه من قبيل النثر الفني ، وهي خاصيّة موقوفة على المقاليين الشعراء مثل مصطفى بن زكرى وإبراهيم باكير[1] ، يقول مصطفى بن زكرى في إحدى مقالاته الدينية : « فالمسلم أخ المسلم وإنما المؤمنون إخوة ولا يسعنا غضّ البصر عن مطامح المطامع التي أصبحت فاغرة فاها فمن غلبته سنة الغفلة أيقظته أسنّة المكائد ومن أقعده الكسل أقامته الشدائد ومن لم يتعظ بصروف الحوادث دهمته على غرة منه فلا يغنيه ابتسام أمانيه إذا عبست الخطوب ولا عاصم له يومئذ من صواعق الكروب :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه	ولم يتدبر في العواقب يندم
ومن لم تحركه النوائب في الورى	يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن لم يصانع في أمور كثيرة	رمته أكف الحادثات بأسهم
ومن خادع الإسلام يوماً بفتنة	وإن خالها تخفى على الناس تعلم»[2]

---

(1) إبراهيم بن مصطفى باكير ولد سنة 1273 هـ /1854 م بطرابلس ، سليل عائلة فقهية ، تعلّم على يد علماء طرابلس أمثال كامل بن مصطفى ومحمد بن موسى ، تقلّب في العديد من المناصب القضائية ، وهاجر إلى الشام ثم عاد إلى طرابلس من آثاره ديوان شعر ، ورسالة في المنطق ورسالة في علم البيان ، توفي 1362 هـ /1943 م ، انظر : دليل المؤلفين العرب الليبيين ص 12 .

(2) الترقي العدد 22 في 25 جمادي الآخرة 1315 هـ /1897 م «كيف نفترق وكلمتنا في الله واحدة» .

فالكاتب مشبوب العاطفة الدينية وقد التمس الملاذ عند فقرات السجع الموقعة فلم تهدأ نفسه فاستند إلى القريض الشعري مستعيناً بالتضمين ليكسب بعداً تاريخياً يشدّ إليه القراء ، وقد احتذى حذو ابن زكرى العديد من كتاب المقالة الشعراء خاصة في المقالات الموظفة لخدمة الدولة أو المنطلقة عن عقيدة دينيـة[1] .

ولم يقتصر أمر الاستناد الشعري على ثنايا المقالة بل إنّ بعضهم جعله مقدمة لها ، ومن هؤلاء عبد الرّحمن البوصيري الذي افتتح إحدى مقالاته بقصيدة كاملة أصبحت المقالة بعدها مجرد تكرار لأفكار القصيدة في قوالب نثرية مسجوجـة[2] .

وبعضهم جعله خاتمة لمقالته لتسهم في بناء الهيكل المقـالي بصيغة غـير مألـوفة في الغالب ، ولعل المراد منها استعراض موهبته الشعرية من ناحية ومقدرته الفنية من ناحية أخرى حيث يؤرخ بحساب الجُمل لإحدى المناسبات السياسية فيقول :

بنـاء جيشـه صـبروا نـادوا[3]	بـأنـا الـرابطون عـلى الفـلاح
وبعـنـا المـال والأرواح جمـعـا	لمـولانـا بـأثـمان ربـاح
وقـلّدنـا الـبـنـادق لـلمـعـالي	وعـانقنا السيـوف مع الـرماح
ففي الـتـوراة والانجيـل وعـد	وفي الفـرقان فـوز بـالنجـاح
وفي أيـلول قـال الـنصر أرخ	صمـير النصر في بيت الـسلاح[4]

وقد اتخذ ختام المقالات في هذه الفترة عدّة أشكال غير الختام الشعري ، من أبرزها الختام الدعائي ، وفيه يعرّج الكاتب على أفضال السلطان أو الـوالي فيما يشبـه اللاّزمـة الموسيقية بحيث يدرك كل قارىء أن لا علاقة لها بالمقالة وإنّما هي تقليد متوارث لا يجدر تجاهله ، وقد تتّسع دائرة الدعاء فيشمل كلّ المسلمين[5] .

ومن الملامح الهيكلية لمقالة الفترة الثانية تفسير بعض الألفاظ التي يبدو أنها كانت غامضة، أو الأسماء المجهولة المعنى بوضع رقم عليها وتفسيرها في هامش الصحيفة، وربما كان هذا من أثر سيادة الأبحاث العلمية في آخر القرن التاسع عشر ، ولا سيما إذا كان المراد

---

(1) انظر : الترقي العددين 9 و 38 .

(2) الترقي العدد 14 في 28 ربيع الآخر 1315 هـ /1897 م «المنشور العالي» البوصيري .

(3) صدر البيت مختل الوزن ، ولعل في الأمر خطأً مطبعياً ، ربما كان الأصل : بناة الجيش قد صبروا ونادوا .

(4) انظر : الترقي العدد 17 في 20 جمادي الأولى 1315 هـ /1897 م «حب الوطن» ع . ن .

(5) انظر : طرابلس العدد 891 و 1148 .

تفسيره من المكتشفات الحديثة كأن يقول أحدهم : « . . . أيليق بالعاقل الحكيم أن يهمل في الوقت اللازم حفظ صحة أسنانه التي هي كالفولاذ وبعبارة أصح كالبلاتين صلابة . . . »[1] ، ليفسر (البلاتين) بأنه « ذهب أبيض اكتشف حديثاً » ، وقد تُختم المقالة بشكل من الأشكال العادية ثم تُلحق بذيل في نفس موضوعها ، وربما حمل مقترحاً أغفله الكاتب ، أو تعليقاً يناقض وجهة نظره[2] .

وقد ظلّ معظم هذه السمات الشكلية من أبرز سمات المقالة حتى في الفترة الثالثة ، ولم يغب منها إلّا تقسيم المقالة إلى فصول وتلاشت الخواتيم الدعائية ، وهوامش الشروح نهائياً .

وازدادت مكنة العناوين الفرعية حتى كادت تمثل حلقات ، كلّ حلقة تحوي فكرة شبه مستقلة ، يربطها خيط دقيق لضمان وحدة الموضوع فقط ، فلن تضار المقالة بشيء لو قدّمت عنواناً على آخر أو حتى استغنيتَ عنه تماماً ، ومن أمثلة ذلك مقالة وصفية يتحدث كاتبها عن (بنغازي) ، فيصف رحلته إليها ، ثم يخصّص عناوين فرعية مثل : تجارتها ، وزراعتها ، وصناعتها ، بلديتها ، وكل عنوان شبه مستقل بوصف الفكرة الجزئية فيه ثم يستأنف الحديث فيما يليه دون وشيجة ظاهرة إلّا السياق العام ، والفكرة الكلية للمقالة[3] .

وهكذا كان الأمر مع الترقيم والتنظيم الشكلي[4] ، والمقالة الطويلة ذات الحلقات[5] ، والاستناد الشعري[6] ، والتعقيب بتذييل مناسب لموضوع المقالة ولا سيّما إذا كانت تمس قضية جوهرية ، ومن ذلك مقالة نشرتها الترقي حول اللغة العربية نجتزىء منها الخاتمة وتعقيب الصحيفة ، يقول الكاتب : « . . . ولنرجع إلى المقصود بالذات وهو طلبي وطلب جميع من نطق بالضاد من مجلسي المبعوثان والأعيان وجميع المجالس العمومية في البلاد العثمانية هو جعل تعليم لغة الدين جبرياً ونشرها وتعميمها في جميع البلاد العثمانية وأخص من بينها بلادنا التي هي أحط بلاد عثمانية في جميع الترقيات المادية والأدبية وأرجو من مجلسنا القومي

---

(1) طرابلس العدد 1104 في 17 محرم 1323 هـ /1905 م «حفظ صحة الأسنان» وانظر طرابلس 1105 و1110.

(2) انظر : الترقي العدد 6 في 2 ربيع الأول 1315 هـ /1897 م «الخيل معقود بنواصيها الخير» و : الترقي العدد 93 «مراسلات» يوسف كامل الأسير .

(3) انظر : العصر الجديد العدد 20 في 12 رجب 1327 هـ /1909 م «رحلتنا للجهة الشرقية» محمد علي البارودي وكذلك : المرصاد العدد 38 .

(4) انظر : الترقي 93 و 97 .

(5) انظر : الترقي الأعداد 188 و 190 ـ 194 .

(6) انظر : الترقي الأعداد 88 و 167 و 178 والمرصاد 13 والكشاف 4 و 11 .

أن يعير نظره إلى هذا الأساس الذي ذكرته وأن لا تكون مقرراته كمقررات السنة الماضية التي بقيت حبراً على ورق بل تكون مقرونة بالعمل هذا ما أمكنني استحضاره الآن إن أريد إلاّ نشر اللغة العربية ما استطعت وما توفيق إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب . م ع م .

ـ الترقي ـ نشكر بكل لسان هذا الشاب الغيور على انتصاره للغته وسعيه في إحيائها وردّ روائها وحسن بهائها ، وحبذا لو يقتدي به غيره من سائر الشبان »[1] .

وقد يطول التعقيب أكثر من هذا دون فاصل يذكر[2] ، وقد يغرب بعضهم في التعقيب على مقالة بمقالة أطول منها[3] في غير باب الرد والمناقشة .

غير أن أهم ما يمكن ملاحظته على تطور الشكل الهيكلي للمقالة في الفترة الثالثة هو نزوع المقالة إلى القصر ، فقد نازعت المقالة القصيرة أختها الطويلة وغطّت مساحة لا يمكن إغفالها من حيّز الصحف ، وإذا سلّمنا بعدم فصل الشكل عن المحتوى فإنّ الدافع لهذا النزوع هو إرادة التغيير التي عمّت الدولة العثمانية بأسرها بعد العودة للعمل بالدستور ، وتطلع هذه الولاية إلى اجتياز مشاكلها المادية والفكرية ، فلم يعد في ذهن الكتّاب متسع للإطالة وتفتيق الموضوعات ، ومن ثم اقتصرت المقالة على فكرة واحدة يباغتك بها الكاتب دون تمهيد كأن يبدأ أحدهم مقالته عن الدستور بقوله : « حلّ العاشر من تموز وأعلن الدستور واحتفل به في جميع الممالك العثمانية وانطلق عنان المطبوعات لله الحمد وانطلقت الألسن التي كانت مغلولة وانتشرت صحائف الأخلاق التي دونت في ظرف إحدى وثلاثين سنة زمن الاستبداد وسحبت مهام الأمور من يد المستبدين وأنيطت بأرباب الحميّة والاستقامة الأحرار . . »[4] ، وتمضي المقالة حتى آخرها عجلى يقفز الكاتب بفكرته قفزاً ليصل إلى خلاصة رأيه في نهر واحد أو يزيد قليلاً .

وركنت المقالة القصيرة إلى العرض العابر فشاكلت الخبر في كثير من وجوهه ، وغلبت المقاطع القصيرة المتابعة الطويلة المتأنّية ، مما يمكن أن نعده تحولاً في بناء هيكل المقالة ومن ثم في جوهرها وأصبحت تحمل خصائص المقالة الصحفية السيارة التي يعوزها كثير من العمق والتركيز والتحليل الفني والموضوعي[5] .

---

(1) الترقي العدد 139 في 5 جمادي الأولى 1328 هـ / 1910 م «فاقد اللغة فاقد للحياة» م ع م .

(2) انظر : الترقي العدد 166 «الشرق والغرب» .

(3) انظر : الترقي العدد 187 «الخمر بحث لغوي أخلاقي أدبي» .

(4) الترقي العدد 98 في 14 صفر 1329 هـ / 1911 م «كيف تصير أمة دستورية» .

(5) انظر أمثلة لمثل هذه المقالات : العصر الجديد العدد 3 «المشاكل» والعدد 18 «مصر» والترقي العدد 196 «قضى الله أمراً كان مفعولاً» .

ومن السمات الشكلية التي لوحظت على هذه الفترة دون غيرها ، قيام الصحيفة بتقديم عهد لبعض المقالات ذات الأهمية الخاصة ، وغالباً ما تكون غريبة في بابها ، ومن ذلك مقالة عن فن الخطابة للكاتب سليمان غزالة سبقت بتقديم فيه ثناء على الكاتب ، وتنويه بأهمية الموضوع بشيء من التوسع من شأنه أن يعدّ ذهن القارىء لتشرب موضوع المقالة[1] .

وثمة نوع من البناء الهيكلي للمقالة في الفترة الثالثة جانب الأشكال المألوفة استجابة لمتطلبات المحتوى ، ويمكن أن نسميها المقالة المعدولة ، وهي التي أصلها محاضرة أو خطبة تعاد صياغتها لتناسب النشر في الصحف ، غير أنها تحتفظ ببعض العلامات الأولى ، مثل تداخل الأفكار الجزئية ، وارتفاع الرنّة الخطابية ، واستعمال العديد من عبارات الربط مثل « ثم قال مخاطباً الحاضرين ناشدتكم الله والوطن والوجدان أن تفيقوا من هذا الجمود وترفعوا عن ولايتكم هذا العار . . . . »[2] ، أو « ولننتقل إلى نظرة عمومية عن تاريخ هذه الولاية القديم فنقول . . . »[3] .

ومما استحدث في الفترة الثالثة اشتمال المقالة الواحدة على عدة مقالات تنشر في حلقات وفي كل حلقة أكثر من مقالة كما في سلسلة عنوانها « الإسلام وفرنسا أو الهلال والصليب » ، وتحت هذا العنوان الفضفاض عدة مقالات يمكن تجزئتها لانفصالها عما قبلها انفصالاً شبه تام ، يبدأ من العنوان مثل أن تعنون إحداها بـ (فرنسا والدار البيضاء) وتليها أخرى عنوانها (المبشرين[4] أعداء الإنسانية) وثالثة عنوانها (عود) وهي تبع للأولى . . . وهكذا تمضي باقي الحلقات على هذا المنوال[5] .

---

(1) انظر : الترقي العدد 88 «فن الخطابة» .
(2) الترقي العدد 86 في 11 ذي القعدة 1326 هـ /1908 «الحرب الاقتصادية» أحمد غلبون .
(3) الترقي العدد 76 في 16 شعبان 1326 هـ /1908 م «نظرة في تاريخ طرابلس» محمد نوري .
(4) الصواب : المبشرون ، لعدم وجود ناصب أو جار .
(5) انظر : المرصاد الأعداد 8 و 14 و 16 .

لغة المقالة

1 ـ الفترة الأولى :

أ ـ أثر اللغة التركية في العربية

ب ـ الدخيل في لغة المقالة

جـ ـ حذر الكتّاب من العامية

د ـ الأخطاء النحوية والصرفية

هـ ـ الرسم الإملائي

و ـ إيجابيات في لغة المقالة

ز ـ القصور في مجال الترجمة والتعريب

2 ـ الفترة الثانية :

أ ـ تغيّر ملامح اللغة في الفترة الأولى

ب ـ تسلل العامية إلى لغة الكتّاب

جـ ـ الترخص في الاستعمال اللغوي

د ـ الاضطراب في رسم الهمزات

هـ ـ عوامل الايجاب في لغة المقالة

و ـ النشاط في مجال الترجمة والتعريب

3 ـ الفترة الثالثة :

أ ـ تقلّص أثر التركية واختفاء الدخيل

ب ـ العامية في لغة المقالة

جـ ـ الأخطاء النحوية والصرفية

د ـ اتساع دائرة الخطأ الإملائي

هـ ـ عناصر الإيجاب في هذه الفترة

و ـ تطوّر أساليب الترجمة والتعريب

ثانياً : لغة المقالة

يقول ابن حزم[1] : «إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ، ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم ، فانما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم ، وأما من تلفت دولتهم وغلب عليهم عدوهم واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم فمضمون منهم موت الخواطر وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم[2]» ، فهل كانت سيطرة الأتراك ومن قبلهم سبباً في ذهاب لغة أهل ليبيا ؟ وللإجابة على هذا السؤال نستقرىء معالم تاريخ الفكر والأدب في هذا الجزء من البلاد العربية الواسعة من خلال شريحة واحدة في فترة زمنية محدودة، كانت خلاصة لجميع المتغيرات منذ الفتح الاسلامي حتى بداية الغزو الأوروبي الحديث للمنطقة .

هذه الشريحة هي لغة المقالة بجميع صنوفها وشتى صورها ، فقد تعرضت اللغة في هذه الفترة إلى عدة مؤثرات تركت ملامحها بحسب قوة مدها سلباً وإيجاباً ، وأوّل هذه المؤثرات مصاحبة اللغة التركية ، وهي لغةُ أهلها حكّام فكان لا بد أن تؤثر في اللغة العربية

---

(1) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، فارسي الأصل ولد بقرطبة سنة 384 هـ فقيه وأديب ، صاحب المذهب الظاهري ، من آثاره : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، والإحكام في أصول الأحكام ، وطوق الحمامة ، وغيرها ، توفي في لبلة بالأندلس سنة 456 هـ ، انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان جـ 3 ص 325 .

(2) ابن حزم الأندلسي ، الإحكام في أصول الأحكام ، مطبعة العاصمة ، القاهرة، 1968 م ، جـ 1 ص 31 .

بعض التأثير، بعد أن تمكّن الأتراك من قمع الشخصية القومية أو ما يعبّر عنه ابن حزم بموت الخواطر ، وما منعهم من طمس العربية إلا أنّها تـأوى إلى ركن مكين فهي لغـة القرآن ، وعماد التشريع عليها ، وثمة سد آخر منع اللغة التركية من إزاحة العربية في هذه الولاية (طرابلس الغرب) ، وهو ما يمكن تفسيره بالرفض السلبي لكيان الأتراك والمحافظة على تقاليد التعليم محافظة تصل إلى درجة الجمود ، ولم ينتبه الأتراك إلى هذه المقاومة إلاّ في فترة متأخرة فجعلوا من لغتهم اللغة الأولى في دواوين الحكومة وعملوا على فرضها بشتى السبل ، الأمر الذي أدى إلى المجاهرة برفضها والتمسك باللغة العربية[1] ، وقد نشطت حركة الاهتمام باللغة بعد ذلك لا على الصعيد الرسمي فقط[2] بل على الصعيد الثقافي والفكري ، فدُبِّجت المقالات التي تبين أصول الكتابة وتدعو إلى التجديد في الأساليب ونبذ أسلوب الصنعة ، والتعريف بفن الخطابة والكتابة المسرحية[3] ، إلى غير ذلك مما يصب في قناة الوعي القومي الموصل إلى لغة عربية متطورة ، وبالرغم من ذلك فقد كان للغة التركية أثر على كتاب المقالة في ليبيا ولا سيما في الفترتين الأولى والثانية ، واختلطت مفردات اللغة بالكثير من الألفاظ التركية وغير التركية، ويطالعنا هذا الأثر من عنوان المطبوعة الوحيدة في الفترة الأولى فهي (طرابلس غرب) على الطريقة التركية في الإضافة بتجريد الغرب من (أل) التي هي للتعريف ، ولنستأنس بمقطع من إحدى المقالات التي نشرت في هذه الصحيفة لنتعرّف على طبيعة مفردات اللغة في تلك الفترة : «إن الغـزتية الصـائر طبعهـا ونشرها المسماة (أتوال دوريان) يعني النجم الشرقي وعلى موجب المسموع أنه صار تحويل اسمها إلى (المسألة الشرقية) على أن يكون طبعها في بروكسلدة ، ومن المعلوم أن هذه الغزتيات إنما وضعت لتكون منها الفوائد إلى العموم بالحوادث الموثقة سواء كانت إلى المحلات الـذي يكون ورودها إليهم أو بنشر الذي يكون رجوع ما لها وتوديعها منهم إلى القرى حتى يكون جميعهم آخذاً بحصته من المعلومات الحسنة والأخبار المقبولـة المستحسنة»[4] . . ، ومنـذ اللحظة الأولى يطالعنا تمكن العجمة فلم يستعمل الكاتب ـ شأن كتّاب الفترة الأولى ـ التسمية العربية للصحف فهي إما غازتيـة (Gazette) وإما جرنال (Journal) ، ومضت هذه التسمية حتى قرابة انتهاء الفترة الأولى لتصبح جريدة فيما بعد[5] ، ولا يحتاج الأمر إلى كبير

---

(1) انظر : الترقي العدد 139 مقالة (فاقد اللغة فاقد للحياة) على سبيل المثال .

(2) انظر : عبد السلام أدهم ، وثائق تاريخ ليبيا ص 228 .

(3) انظر : الترقي الأعداد 87 و 88و 156 ، و : المرصاد 22 والعصر الجديد 17 .

(4) طرابلس الغرب العدد 69 في 21 رمضان 1284 هـ/1868 م .

(5) انظر : طرابلس الغرب العدد 532 ، وقد ورد ذكر الجريدة مبكراً في العدد 62 من طرابلس لكنه يعني صفحة من الجريدة .

عناء لندرك أن الكاتب نحوي يجيد صنعة الإعراب ، لكنّه لا يكترث كثيراً لجودة السبك وجماله ، فقد ضربت اللغة التركية وثقافتها بستار بينه وبين اليسر العربي ولا أدلّ على ذلك من تجشّمه اختيار النعت السببي في (الغزتية الصائر طبعها) فقد راعى السلامة النحوية دون شك لكنه لم يعر معنى (صار) اهتماماً فليس في الأمر ما يقتضي التحويل ومع ذلك اشتق منها اسم الفاعل ليسبك نعتاً لا تقتضيه الجملة ، كذلك فقد أثّرت العجمة على الكاتب فلم يشعر بركاكة عبارات الاعتراض وطولها بين اسم (إنّ) وخبرها ، وجمع بين (صار) و(تحويل) في «إنه صار تحويل اسمها . . .» مع أن دلالتها هنا واحدة ، هذا إلى جانب كثرة الضمائر كثرة مفرطة وغموض مرجعها ، كذلك يشيع استعمال التاء التركية أو التاء المفتوحة ، كما في (المسيات) في النص الآنف ، وهي من الكثرة بمكان حتى لا تكاد تخلو منها مقالة ، ومن هذه المفردات المختومة بالتاء المفتوحة (مجلزات) ، (حضرت) ، (تربيت) (مملكت) ، والأخيرة لا تعني المملكة بمعناها السياسي وإنما تعني البلاد ، واللفظة بهذا المعنى مستعارة من اللغة التركية بالرغم من أصلها العربي ، وكثيراً ما يستعمل كتّاب المقالة أوزاناً تناسب المفردات التركية دونما حاجة ماسة إليها ، ومن هذه الأوزان (التفعّل) و(التفاعل) و (الاستفعال) و (التفعيل) ، وسنجتزىء من مقالات الفترة الأولى جزءاً نقف عنده برهة لإدراك ذلك ، يقول كاتب في معرض حديثه عن ردّ اتهام بعض الصحف الغربية للدولة العثمانية باضطهاد اليهود في ولاية طرابلس الغرب : « . . وعقب ذلك انحرقت الكنيسة المذكورة فصار التشكي من طرف الملة المرقومة والقيام بالدعوى على قبيلة البراهمة وزاوية العيساوية وزاوية البازة من أهالي يزليتن[1] وصار جلب بعض أناس منهم من أجل ما ذكر وصار إجراء الاستنطاقات والتحقيقات اللازمة في هذا الباب . . ومع ذلك إن هذه المادة قد صار فصلها وحسمها على الوجه الذي طلبته الملة المرقومة كما يفهم ذلك من التقرير المتقدم من طرفها الحاوي لتشكرها»[2] فاختار الكاتب وزن التفعل ليفيد الشكوى (التشكي) وإن جاز هذا في العربية المعجمية فإن اللغة السائرة لا تجيز استعمال هذا الوزن في مثل هذه الدلالة[3] وأقرب معاني التفعل هنا هو التكلّف كالتشجيع والتصبر . . وهذا ما لم يقصده الكاتب قطعاً ، فالمراد معنى الفعل المجرد ، واختار الكاتب أيضاً وزن الاستفعال في (الاستنطاقات) وهو وإن أفاد الدلالة الكاملة لمراد الكاتب من حيث إفادة معنى الطلب في المساءلة والتحقيق

---

(1) المقصود مدينة زليتن .

(2) طرابلس الغرب العدد 62 «مادة حريق الكنيسة» .

(3) من معاني التفعل للمطاوعة مثل : علمته فتعلم ، والاتخاذ مثل : توسّد ذراعه ، وتكرار العمل المتمهل مثل : جرّعته الدواء فتجرعه ، والطلب مثل : تكبّر وتعظم ، والتكلّف مثل : تجلد الخائف ، انظر : محمد عبد الخالق عظيمة : اللباب في تصريف الأفعال ، م السعادة بمصر 1971 م ط 5 ص 42 .

فإن جمع المصدر على حد الجمع المؤنث السالم أثر من آثار تغلغل اللغة التركية ، ولا سيما أن العربية ترتضي جمع المصدر جمع مؤنث سالماً إذا جاوز فعله ثلاثة أحرف ، وكذلك الأمر في (تحقيقات) .

وقد يكون شيوع مثل هذه الصيغ أثراً من آثار الأساليب الغربية تسرّب إلى كتّاب المقالة عن طريق ثقافتهم التركية من ناحية ، وإطلاعهم على اللغات الغربية من ناحية أخرى، ويمكن أن نلمح مثل هذه الجموع الشائعة في بعض اللغات الأوروبية مثل (Activities) (Successes) في الانجليزية ، و(Activités) (Succés) في الفرنسية ، جمعاً لنشاط ونجاح[1] .

ويورد الكاتب وزن التفعل مرة أخرى في (الحاوي لتشكّرها) والتشكر شائع في لغة المقالة في هذه الفترة ، ويمكن أن يفهم منه تكرار الشكر غير أنه كثيراً ما يجمع بنفس الطريقة السالفة (تشكرات) ومبلغ العلم أن لفظة تشكّر لم ترد في مصادر اللغة إلا مقرونة بـ : له (تشكر لـه)[2]، أما استعمال الفعل (صار) فيكثر كثرة مفرطة حتى أنه ورد في هذه المقالة ثلاث عشرة مرة ، حُمّل فيها جميعاً الدلالة على معنى حدث دونما ضرورة ملجئة إلى ذلك ، وأغلب الظن أن الباعث على ما أسلفت مردّه إلى مكنة اللغة التركية وسيادة ثقافتها في أذهان الكتّاب وطبقة المثقفين من القراء .

كذلك فقد حفلت لغة الكتابة في الفترة الأولى بالعديد من المفردات الدخيلة عبر قناة اللغة التركية ، منها الفارسية مثل (روزنامة) و(كاغد) و(فرمان) ، ومنها ما نقل عن لغات أوروبية مثل (نومرو) و(الفبريكات) و(الكونترات) و(الكرنتينة) و(جنولوجيا) و(دونم) و(الرابورط) و(الباتيته)[3] . . الخ ، كأن يقول أحد كتّاب المقالة العلمية : «وعندما يستيقظ الدود من النومة الثالثة ويلزم نقله بالكواغد المثقّبة . .»[4] أو يقول آخر: « . .

---

(1) انظر : إبراهيم السامرائي ، اللغة والحضارة ص 113 .

(2) اللسان مادة (شكر) مجلد 2 ص 344 .

(3) روزنامة : تعني في الفارسية العامية ، سجل الدولة أو سجل الأعمال أو الجريدة اليومية أو سجل الوقائع ، واستعملت بهذه المعاني في التركية ، وكاغد : تعني : ورق أو قرطاس ، وفرمان : تعني في العامية الفارسية أمر أو دستور ، ونومرو (Numero) تعني في الإيطالية : رقم ، والفبريكات ويقصد بها : المصانع وهي من الإيطالية(Fabbrica) والكونترات : وتعني : التعاقد وهي من الإيطالية (Contratto) ، والدونم نوع من المساحة ، والكرنتينة : وتعني: الحجر الصحي الأربعينية وهي من الإيطالي (Quarantene) انظر : التونجي : المعجم الذهبي ، والتليسي : قاموس ايطالي عربي .

(4) طرابلس الغرب العدد 689 «معلومات مختصرة في دودة الحرير» .

والسبب في إعطاء بعض السفن الباتيتة غير نظيفة هو عجلة السفر قبل ورود رابورط الطبيب . .»[1] ، ومن المعلوم أن كاغد وصلت إلى أقلام الكتّاب من اللغة الفارسية وحورت تحويراً بسيطاً إذا أزيل إعجام الذال لتناسب اللغة التركية ومن ثم العربية[2] وتُصرّف فيها لتناسب العربية ، وفي الاقتباس الثاني أطلق الكاتب لفظة (الباتيتة) على الشهادة الصحية وهي كلمة إيطالية (Patente) ورابورط ويعني بها التقرير (Report) وهي مفردة مشتركة بين عدة لغات أوروبية .

ولم يكلّف الكتّاب أنفسهم عناء البحث عن نظائر لمثل هذه المفردات الدخيلة على يسرها ووجود نظائرها منسابة على أقلام كتّاب الصحف العربية في البلاد المجاورة ، واكتفوا بشيء من التعديل جعلها مستساغة في الأذن العربية .

ومن الملاحظ على هذه الفترة بعدها عن العامية والتزامها الحذر في إقحام مفردات دارجة في لغة الصحف إلا ما ندر ، كأن يسمي أحدهم السلحفاة بالفكرونة ، فيقول : « . . ذات يوم من الأيام خرجت من البحر فكرونة كبيرة فبادر إليها أولاد الأعراب وشقوا جوفها . .»[3] ، ولعلّ مردّ ذلك إلى انبهار الكتّاب والقراء على حد سواء بالصحف وانتشار سبيل المعرفة فنزّه عن أن تخالطه ألفاظ العوام والدهماء ، ومما يرجّح هذا الظن وجود ظاهرة التفسير حين يظن الكاتب أنه أتى بدعا أو جاء بمفردات صعبة فيعمد إلى تبيانها في ثنايا سياقه ، ومن ذلك ما جاء بإحدى مقالات صدر الفترة الأولى التي يقول كاتبها : « . . وقد شوهدت في عدة من مواضع الجزاير (اللاّوات) وهي جمع لاو (واللاو) هذا يطلق على المواد التي تخرج ذائبة من البراكين أي جبال النار ثم تجمد وتنعرم»[4] ، فهو يجلّ الجمع ليبين المفرد ثم يفسّر سرّ تسميته ، ثم يفسّر التفسير نفسه ، والجدير ملاحظته أن هذه التسمية تدور حول معنى مشتق من مادة ألـوى[5] التي من معانيها : اليبس بعد النضرة ، فكأنّه قصد إلى إفهام أن البركان يزخر بالحياة ثم لا تلبث أن تذوي شعلة الحياة فيه ليصبح جامداً كما يصبح الزرع هشيماً بعد أن كان نضراً رائقاً ، ويظاهره بقوله (ثم تجمد وتنعرم) ، وفي اللغة يقال : عرم الشيء اختلط السواد منه بالبياض ، وهذه من أبرز صفات اللاّو ، والذي أميل إليه أن

---

(1) طرابلس العدد 257 «جزء من مقالة خبرية حول وباء تفشى في لواء بنغازي» .
(2) انظر : التونجي المعجم الذهبي ، دار العلم ط 1 ص 454 .
(3) طرابلس الغرب العدد 62 «القنفذ» .
(4) طرابلس الغرب العدد 257 «تاريخ طرابلس الغرب» .
(5) انظر : اللسان مادة (لوي) جـ 3 ص 417 .

الكاتب ما بذل هذا الجهد إلا ليبعد عن ضفاف العامية ويسلك نفسه في عداد المتأدبين الذين تميّزهم لغة خاصة ويحيطهم المجتمع بهالة أخص .

وبالرغم من هذه العناية اللغوية ، والجهد الحريص فقد تسربت إلى مقالاتهم بعض الأخطاء النحوية والصرفية ، يعود معظمها إلى قلة الدربة والمران على بناء النسيج اللغوي العاجل الذي تقتضيه الكتابة الأسبوعية أو شبهها ، ولذا يكثر وقوع كتّاب هذه الفترة في مزالق الجموع المتشابه مفردها مثل (مهر) فهي بضم الميم ولد الفرس وبفتحها الصداق[1] ، فقد التبس الأمر على أحد كتّاب المقالة الاجتماعية حين قال : « . . كان من مقتضى العادة القديمة الجارية في قضاء غريان التابع لمركز الولاية في أمهار النكاح أن يكون مهر الباكر ستا وخمسين مرطة من الشعير . . »[2] فجمع مهر النكاح على أمهار والصحيح مهور ، وإنما الأمهار الأفلاء ، وقال مهر الباكر وأراد البكر ، وإنما الباكر أول النهار إلى طلوع الشمس ، وما أوقعه في هذا الغلط إلا تشابه في بناء الكلمة[3] لم ينتبه إليه ، ولم تدعه حاجة إلى مراجعة ما يكتب في غياب المنتديات التي تتناول ما يكتب بالنقد والتعليق ، أو حدوث ذلك على صفحات الجريدة ، كذلك فقد ألفوا استعمال بعض التصريفات دون مراعاة القواعد اللغوية الصحيحة لها ومنها النسب إلى أوروبا وأفريقيا وفينيقيا ، بأوروباوي أو أوروباني وأفريقاوي وفينيكاوي[4] مع أن القاعدة المشهورة في النسب إذا كانت الألف خامسة فما فوق تحذف ، فينسب إلى أوروبا بأوروبي ، وكذلك البواقي ، ولعل ما أوقع الكتّاب في مثل هذا الخطأ هو جواز حذف الألف وقلبها واواً إن كانت رابعة والحرف الثاني من الكلمة ساكناً وإضافة ألف قبل الواو إن قلبت واواً في مثل : ملهى وملهي وملهوي وملهاوي[5] فقاسوا عليها دون اعتبار لموقع الألف من الكلمة ، ومن المآخذ النحوية إدخالهم (أل) على بعض الأسماء مثل : الروسيا والأفريقيا والأوروبا[6] ، وهي من قبيل (أل) الزائدة التي «تدخل على المعرفة أو النكرة فلا تغير التعريف أو التنكير»[7] ، وكثيراً ما كانوا يدخلون (أل) على

---

(1) انظر : اللسان جـ3 مادة (صدق) ص 541 .

(2) طرابلس الغرب العدد 692 «مهر النكاح» .

(3) انظر : اللسان جـ1 مادة (مهر) ص 250 .

(4) انظر : طرابلس الغرب العدد 257 و 258 ، «تاريخ طرابلس الغرب» و«الأمم المتمدنة والأقوام البدوية» .

(5) انظر : عباس حسن ، النحو الوافي ، جـ4 ص 712 .

(6) انظر : طرابلس الغرب العدد 258 .

(7) انظر : عباس حسن ، النحو الوافي جـ1 ص 429 «مثل المأمون بن الرشيد أشهر خلفاء بني العباس ، للمعرفة ، وأدخلوا الأول فالأول . . للنكرة ، التي لم تفد من دخول أل عليها شيئاً» .

غير[1] بالرغم من تعرّض مصادر اللغة لها وعدم إباحة ذلك[2] وعلّة من كلام المولدين[3] .

ومن الملاحظ على لغة هذه الفترة سيادة بعض التصريفات رغم خطئها ومن ذلك التزام الكتّاب تعدية الفعل (حافظ) بنفسه تعدية مطّردة حتى نهاية الفترة العثمانية ، وقد استقصيت جميع استعمالات هذا الفعل فما صادفني استعمال لازماً إلا مرة واحدة ، في مقالة إسقاط الأجنة ، حيث جاء فيها : « . . وأن المحافظة على صحة العموم أمر لازم»[4] ، ومن الشائع المألوف أن يقول أحدهم : « . . فيجب محافظة هذه القاعدة إلى أن يعمل الدود بلوطة . .»[5] ، فليس هذا من قبيل الخطأ الشخصي وإنما هو خطأ جيل شاع واستمرأته الأقلام ، فلم يشغل أحد بتصحيحه .

ومن هذا القبيل ما شاع من استعمالهم لكلمة عربان ويقصدون بها الأعراب ، وليس من صحيح اللغة في شيء هذا الاستعمال ، إذ العربان ما يعقد به البيع في الثمن وبعض مصادر اللغة تنفي عربيته أصالة ، فقد جاء في اللسان : «والعربان والعربون والرعبون : كله ما عقد به البيعة من الثمن ، أعجمي أعرب»[6] ، وثمة من علماء العربية من يجيز أن يقال رجل عرباني اللســان[7]، وفي تقديري أنّ مثل هذه المفردات قد تسللت إلى لغة المقالة عبر قناة العامية .

وقد يقع خطأ في الإعراب لكنه نادر ندرة ملحوظة تعكس لنا مدى اهتمام الكتّاب بلغة الكتابة من جوانبها الإعرابية خاصة ، ومن هذه الأخطاء عطف مرفوع على مجرور «صار تضمين تسع مائة وخمسة وعشرون قرشاً»[8] أو نصب خبر المبتدأ المحذوف في قول كاتب آخر : «إذ كل امرىء مجزى بعمله إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً»[9] وما شابهها من

---

(1) انظر : طرابلس الغرب العدد 62 و692 وغيرهما بكثير .

(2) ارتضى مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الخامسة والثلاثين لسنة 1969 م رأياً نحوياً يقضي بجواز دخول أل على غير إذا وقعت بين متضادين معرفتين فتكتسب التعريف من المضاف إليه ، وفي هذه القضية أخذ ورد يرجع إليها في مظانها ، انظر : محمد العدناني ، معجم الأخطاء الشائعة ص 190 .

(3) انظر : المصباح المنير مادة (غير) وكتب النحو في باب الاضافة شبه المحضة كحاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك ، مطبعة دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي مصر ، ص 244 .

(4) طرابلس الغرب العدد 62 .

(5) طرابلس الغرب العدد 689 «معلومات مختصرة في دودة الحرير» .

(6) اللسان جـ 2 مادة (عرب) ص 725 .

(7) السابق جـ 2 ص 723 .

(8) طرابلس الغرب العدد 62 «مادة حريق الكنيسة» .

(9) طرابلس الغرب العدد 62 «مسألة إسقاط الأجنة» والتقدير : إن كان عمله خيراً فجزاؤه خير . .

هفوات لا تعني بالضرورة خطأ الكتّاب أنفسهم ، بل ربما كان خطأ المحرر أو الناسخ ـ لأنها كانت تكتب باليد أحياناً ـ أو حتى مصفف الحروف في المطبعة .

هذا من ناحية اللغة وقواعدها ومفرداتها، أما من ناحية رسمها إملائياً فقد عانت في بداية الفترة تخبطاً واضطراباً له أسباب عدة من بينها عدم رسوخ قواعد للكتابة مطردة ، ومتابعة الرسم العثماني[1] للقرآن ، وتأثير اللغة التركية على الكتابة العربية ، ويمكن حصر هذه الاضطرابات في رسم الهمزات ، والتاء بين مفتوحة ومربوطة ، ورسم الألف المقصورة واستعمال المدة بدل الهمزة والعكس ، وإثبات الألف اللينة حيناً وحذفها حيناً آخر ، وقد اخترت عينة من المقالات اختياراً عشوائياً وأحصيت الهمزات التي وردت بإحدى هذه المقالات فلمست تشويشاً في رسمها يدلّ على اضطراب لا يمكن تجاوزه ، وبالنظر في شرائح من هذه المقالة يمكننا أن ندرك مستوى هذا الاضطراب ، يقول كاتب حول تحريص الزرع : «فإن ساير الألوية الملحقة والقضاآت التابعة إلى نفس ولاية طرابلس غرب . . وحصل العشر من عدة قضاءات على موجب الأصول الجارية في سائر الممالك . . قبل آوان الزرع . . ويتحصل العشر عيناً أو بدلاً على موجب الفيئات التي تقع بمجلس إدارة الولاية . . وعشر عشر تلك المحصولات يعطي للمأمورين المومى إليهم . . وتلك الأصول أوجبت مضرة كبرى لمساكين الأهالي سابقاً ولاحقاً ونشأت عليها أنواع التعدّي . . ويجعلون، ضد ذلك في حق فقرأ الأهالي . . وهو جناب حضرة والي الولاية صاحب الارأ الصائبة . . وكذلك كافة هيئة الولاية . . المقالات الدايرة بهم أفكاركم . . على مقتضا حكم ديننا المبين»[2] .

ومن هذه الشرائح التي اجتزأتها من مقالة واحدة تبيّن لنا كيف رسمت كلمة (سائر) مرة بإثبات الهمزة ومرة بإبقاء الياء الأصلية ، مع أن القاعدة الصرفية توجب إبدال العين في اسم الفاعل همزة إذا كانت معتلة في فعله، ورسمت (قضاءات) مرة بتحويل الهمزة إلى مدّ (قضاآت) ومرة بابقائها (قضاءات) ، ورسمت الهمزة مداً في بداية كلمة (أوان) كما ترسم الهمزة المفتوحة إذا جاء بعدها مدّ من جنسها مثل : آخذ ، ولا مدّ هنا ، ورسمت همزة (فئات) على نبرتين ، ورسمت (المومأ) بالألف المقصورة (المومى) وكثيراً ما ترسم هذه الكلمة بأشكال متباينة أقربها إلى الصحيح (الموما)[3] ، لتطرف الهمزة فاغتفر تخفيفها بما

---

(1) نسبة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه وليس إلى العثمانيين الأتراك .

(2) طرابلس الغرب العدد 126 «المواد الخصوصية» .

(3) انظر : طرابلس الغرب العدد 532 .

يلائم حركة ما قبلها ، كما تراه بعض الدراسات الحديثة[1] ، فالمعوّل عليه في مثل هذه الحالة هو حركة الهمزة لا الهمزة ذاتها أو ما يقوم مقامها من الحروف البديلة ، أما رسمها بالألف المقصورة فمما لا وجه له فيما أعلم ، ورسمت كلمة (نشأت) بدون همزة دون وجه لحذفها ، كذلك رسمت همزة (فقراء) و (الآراء) على ألف المد ، وكلمة (الدائرة) رسمت بدون قلب الياء همزة شأن (سائر) ، وكثيراً ما يلجأ كتّاب هذه الفترة إلى التسهيل دونما نظر إلى القواعد الصرفية في ذلك ، فتصبح كلمة (المروءة) المروة ، وتصبح (الرثوي) الريوي ، اعتماداً على تسهيل الهمزة إلى الياء، وفي مقالة أخرى ترسم الهمزة المتوسطة صحيحة مرّة (قرئت) وخطأ في كلمة أخرى (البراءتان) مما ينبيء أن قضية الرسم الإملائي تخضع في مجملها للاحتذاء دون اتباع القواعد الثابتة[2] ، ويشيع اللبس في رسم التاء المربوطة شيوعاً يغنينا عن تتبع مواقعها إذ لا يكاد يخلو منها عدد من أعداد طرابلس الغرب[3] ، ومن الاضطراب في رسم الألف اللينة أنها تثبت في كلمة وتحذف من نفس الكلمة مثل «ولاكنه يساعده على ذلك . . ولكنك لما تجاسرت . .»[4] والكلمة من مقالة واحدة ، إلى غير هذه الأمثلة من الاضطراب والتخبط الدال على عدم رسوخ القدم وخضوع الرسم الأملائي لعوامل قاهرة لا زال بعضها بالغ الأثر حتى يومنا هذا .

كذلك فقد اضطربت كتابة الأرقام بالحروف عند كتابة المقالة وظلّت متأرجحة بين الرسم المعتاد وهو كتابتها متصلة مثل (ستمائة)[5] وكتابتها مفصولة «ثلاث مائة وخمسين»[6] ، والأخيرة شاهد على النزوع إلى التطوير والتخلص من بعض قواعد الإملاء المتعسفة[7].

ولم تخل لغة المقالة من مؤشرات التطوير وعوامل الإيجاب في فترتها الأولى فقد اهتمت بالاستعمالات الدقيقة لمفردات اللغة ، وتجنّبت ما شاع من تراكيب انحدرت من العصر

---

(1) Mohamed A. Layas, «Al hamz» /The Glottal stop/ (M.A. Thesis, Indiana University, 1982), PP 48- 49 P. 96.

(2) انظر : طرابلس الغرب الأعداد 532 و689 و 701 .

(3) انظر : طرابلس الغرب الأعداد 532 و697 و 62 على سبيل المثال .

(4) طرابلس الغرب العدد 62 «مسألة إسقاط الأجنة» .

(5) طرابلس الغرب العدد 681 .

(6) طرابلس الغرب العدد 62 .

(7) أجاز مجمع اللغة العربية بالقاهرة فصل الأعداد ثلاثة وتسعة وما بينهما ، كما أجاز كتابة مئة بدون الألف التي وضعت لتفرق بينها وبين (منه) قبل إضافة النقط في الإملاء ، انظر : معجم الأخطاء الشائعة ص 232 .

الوسيط أو قبله كاقحام الواو بين (لا بد وأن)[1] ، وهي واو تكثر على أقلام الكتّاب حتى يوم الناس هذا ، بينما المقالة الليبية قد خلت منها في تلك الفترة ومن أمثلتها قول أحد كتّاب المقالة الاجتماعية : «ولكنك لما تجاسرت بهذا الجرم الذي فعلته لا بد أن تجازي عليه»[2] ، وكاستعمالهم لبعض الجموع مع عدم شهرتها وذيوعها كجمع عصر على أعصار[3]، مع أن الشائع : عصور وعصر وأعصر[4] ، وكتوسعهم في دلالة بعض الألفاظ اعتماداً على الأصل ومن ذلك تسمية أحد كتّاب المقالة العلمية لبيض دودة الحرير بالبزر حين يقول: «.. بحيث أن البزر الذي يبيضه فراشه يفرخ بعد خمسة عشر يوماً أو عشرين ويصير دوداً مرة أخرى»[5] ، والبزر في اللغة : الأولاد ، وما يبذر من حب للنبات[6] .

ومن الاستعمال الشائع في لغة الكتابة في الفترة الأولى إطلاق كلمة (نفر) على الفرد من الجند غالباً وقد يكون مطلق فرد[7] مع أن المعروف في اللغة أنها اسم جمع يطلق على القوم إجمالاً أو على ما دون العشرة من الرجال[8] ، مما ينبيء عن تطورها في الدلالة فأصبحت تعني الفرد الواحد من الرجال وقد ارتضاها المعجم الوسيط بعد ذلك وعدها محدثة في اللغة[9] .

ومن الألفاظ التي طُورت دلالتها (الشقي) ويطلقونها على المجرم في حين أن أصل دلالة الكلمة تعني ضد السعيد[10]، كما في القرآن الكريم ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾[11] فقد شحنت الكلمة بمعنى الإجرام الذي يؤدي إلى الشقاء .

وقد تبتدع تسميات اجتهادية يحالف بعضها التّوْفِيقُ ويجانب بعضها الآخر ، مثل

---

(1) تظهر ركاكة هذا التركيب إذا علمنا أن معنى البدّ هو الفراق ، انظر : اللسان جـ1 مادة (بدد) ص 173 ، وقد قال أبو الطيب المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد

(2) طرابلس الغرب العدد 62 «مسألة اسقاط الأجنة» .

(3) انظر : طرابلس الغرب العدد 258 .

(4) اللسان جـ2 ص 793 .

(5) طرابلس الغرب العدد 681 «معلومات مختصرة في دود الحرير» .

(6) اللسان جـ1 مادة (بذر) ص 207 .

(7) انظر : طرابلس الغرب العدد 69 .

(8) انظر : اللسان جـ3 مادة (نفر) ص 286 وما بعدها .

(9) انظر : المعجم الوسيط جـ2 مادة (نفر) ص 940 .

(10) انظر : اللسان جـ2 مادة (شقا) ص 243 .

(11) سورة هود الآية 106 .

تسميتهم ساعي البريد بالرقاص[1]، وكأني بهم نظروا إلى معنى خبب الساعي وإسراعه في إبلاغ ما يحمل مسترشدين بمثل قول الشاعر :

بـزجـاجـة رقصت بمـا في قعـرهـا   رقَصَ القلوص براكب مستعجل[2]

وقد يسمى الحرير حين يلفه الدّود على الأغصان (بلوطاً)[3] وهي تسمية لم أعلم لها وجهاً إلا إذا اعتبرنا علاقة الملابسة بين نوع الشجر (البلوط) وما يلف عليه وأطلق المحل على الحال ، وفي هذا ما فيه من الاعتساف في التفسير والتمحّل في التعليل ، وقد فقدت هذه المسميات دلالتها الآن لكنها كانت محاولات لخلق كلمات دالة على مثل هذه المسميات في حينها ، ومما يذكر للمقالة العلمية ترسيخها لأسماء الآلات خاصة في مجال الزراعة مثل : فأس الأناضول والفأس الإفرنجي والمجرفة والمكسحة[4] . الخ .

ومما تجدر ملاحظته على المقالة في الفترة الأولى قصورها في ميدان الترجمة فلم تضف إلى مفردات اللغة شيئاً يذكر ، إلاّ بعضاً من الكلمات العابرة مثل أن يورد أحدهم كلمة أجنبية ثم يترجمها كأن يقول : « . . فمن تلك الأشياء والأمتعة التي صار تشهيرها في الأكسرزميـون[5] يعني السوق العمومي الذي صـار وضعه وفتحه في باريس . .»[6] ، ويقصد الكاتب بالسوق العمومي المعرض الذي تتنافس فيه الدول بعرض مصنوعاتها ، أو يترجم الفاملية بأنها الأهل والعيال .

وقد شهدت الفترة الأولى نماذج من التراكيب المقولبة (كلاشيه) التي يمكن عدّها من الأدوات التي تحافظ على نسق المقالة دون أن تحمل معنى في ذاتها مثل «والحال أن كذا . .» و «بالجملة» أو «الحاصل أن كذا . .» أو «هذا وإن كذا . .»[7] إلخ مما يستعمل في إنهاء الحديث أو الانتقال من نقطة إلى أخرى .

ومع بداية الفترة الثانية شهدت لغة المقالة بعض التغيرات من أبرزها تراجع الأثر

---

(1) انظر : طرابلس الغرب العدد 715 .

(2) انظر : ديوان حسان بن ثابت ، دار صادر بيروت 1961 م ص 181 ، من قصيدته المشهورة (أسألت رسم الدار) .

(3) انظر : طرابلس الغرب العدد 689 .

(4) انظر : طرابلس الغرب العدد 770 .

(5) (Exposission) .

(6) انظر : طرابلس الغرب العدد 69 «السوق العمومي» .

(7) انظر : طرابلس الغرب العدد 62 و 689 .

التركي وإفساحه المجال للتأثيرات العربية التي وصلت موجات منها عن طريق الشرق حيناً والغرب أحياناً أخرى ، ولم يبق للتركية إلّا مؤثر من الصيغ التقليدية كالأوزان المضعّفة والجموع على حدّ المؤنث السالم ، كذلك فقد قلت المفردات الدخيلة قلة ملحوظة ، وربما اقتصرت على تسميات لم يتنبه الكتّاب إلى أصولها لذيوعها في العربية مثل «شنلة» ذات اوصل الآرامي[1] ، أو «كيني» و «ماندولين» وأحياناً «ماندلينة» أو «كاوش» التي سرت على ألسنة الناس وأقلام الكتاب[2] فلم يجدوا في أنفسهم حاجة من إيرادها دون تفسير أو استبدالها بمفردات من العربية الفصيحة .

ومن التغيرات الملحوظة في لغة المقالة تسلل العامية إلى أقلام الكتّاب ، إما عن طريق المفردات وإما التراكيب السارية في الأوساط الشعبية ، وقد تساهل الكتّاب وخففوا من غلوائهم في التحرز من الكتابة بأساليب تقرّبهم من العامة ، فوصلت إلى المقالة بعض التركيبات العامية بالرغم من مفرداتها العربية الفصيحة مثل: « . . وهاك ما كتبته بعض الجرايد المتمدنة (هي تعرف) نقلاً عن مكاتبها من الأستانة . . »[3] ومثل هذه الجمل تشيع بين الأفراد في مجال التعريض والغمز في قناة من يحاول أن ينفي عن نفسه تهمة ما ، إلى جانب أن اسم فعل الأمر (هاك) مما تستعمله العامة استعمالاً رئيسياً في الحياة اليومية ، مبنياً على السكون ، ومن هذا ما ورد في معرض حديث الكاتب نفسه عن تفنيد مزاعم الصحف التي تهاجم سياسة تدريب الليبيين تدريباً عسكرياً حين قال : « . . ولا يخفى ما في ذلك من الضرر العظيم بأوروبا بل وربما يضر الدولة العلية (فيا لله من هذه الحنانة) . » ، والذي يتبادر إلى الذهن أن هذا من باب الاستغاثة ، غير أنّه من التعابير المألوفة عند العامة إيراد مثل هذه الصيغة في مقام التعجّب ، وهذا ما عناه الكاتب إمعاناً في السخرية ، علاوة على أن المقام لا يسمح بتفسيرها بالاستغاثة ، كما أن استعمال (الحنانة) مصدراً لحنّ من الاستعمال العامي الشائع ، ومبلغ العلم أن (حنّ) بمعنى رقة القلب مصدرها حنة وحناناً[4] ، أما الحنانة فهي من تحريف العامة .

ومن تعبيرات العامة التي تسللت إلى أقلام الكتّاب صياغة بعض الأفعال على أوزان لم تسمع صياغتها ، منها : مثل قول أحد كتّاب المقالة العلمية : « . . ولما تأخذ العروق في

---

(1) لم يذكرها اللسان ولا التاج ولا المحيط ، وقال الوسيط : أنها محدثة ، انظر : المعجم الوسيط جـ1 ص 472 و : معجم الأخطاء الشائعة ص 247 .

(2) انظر : طرابلس 1019 والترقي 17 .

(3) الترقي العدد 5 في 24 صفر 1315 هـ/1897 م «الحقيقة ما هي» .

(4) انظر : اللسان جـ1 مادة (حنن) ص 741 .

الفساد تصفار الأوراق ويأخذ الشكير[1] في اليبس وتعيش هذه الدودة ثلاث سنوات وتمضي هذه المدة دائباً تحت التراب . . وتشرع في بيض بيض مصفر من 20 ــ 40 في جسامة بزر القنب فيتقاب البيض في 4 ــ 6 أسابيع . .»[2]، فوزن (أفعال) مما يستعمل في الألوان والعيوب غالباً ، فصح استعماله في وصف الأوراق بالصفرة (تصفار الأوراق) لكنه لا يصح في (نقب البيض) «يتقاب البيض» لعدم سماعه ، والعامية تتوسع في استعمال هذا الوزن فيقال فيها : أيام الصيف تطوال ، وأيام الشتاء تقصار ، وتسماح وتشيان وتمرار . .إلخ ، مما لا يتسع المجال لذكره .

وثمة شواهد أخرى تدلّ على ارتضاء الكتّاب صيغاً من العامية شاعت في كتاباتهم ، فاستعملت كما يستعملها العوام في أحاديثهم منها لفظة (الكناية) والمقصود بها غير الكناية في علم البيان[3] وإنما يقصدون بها ما تؤديه لفظة (عبارة)، كأن يقول أحدهم: «علم تدبير الزراعة وهو كناية عن الأصول التطبيقية . .»[4] ، ويكثر هذا اللبس في لغة أنصاف المتعلمين من العامة حتى يومنا هذا ، وقد يفصح أحدهم مثلاً شعبياً مثل «يحاول تغطية عين الشمس بالغربال»[5] ، أو أن يجمع بعضهم كلمة (جنان) على أجنة والعامة تسمي البستان جناناً[6]، وربما نُظر إلى أصل التسمية التي هي جمع جنّة ثم جمعت جمعاً آخر على أجنة .

ومع اتساع نطاق الصحف زاد عدد الكتّاب ، وترخص البعض في التمسك بالقواعد النحوية والصرفية للغة ، فإضافة إلى تسهيل الهمزات على غير القياس في الغالب ــ شأن الفترة الأولى ــ كثر وقوع بعض الكتّاب في هفوات من اليسير تجنّبها كاللبس بين مصدري (ألغى ولغى) فيستعملون (لغو) بمعنى إلغاء[7]، أو ينسبون إلى كيمياء بكيمي[8] ، ويكثر استعمال وزن (مفاعلة) فيستعمل أحياناً استعمالاً صحيحاً مثل « . . . وسوقها إلى ميدان المحاربة»[9] وأحياناً أخرى يستعمل مجرداً عن معنى المفاعلة مثل « . . وتركن السلام بين

---

(1) شكير الشجر : الغصن الغض أول ما يبدو .

(2) طرابلس الغرب العدد 1112 في 20 ربيع الأول 1323 هـ / 1905 م «الحشرات المضرة بشكر الورد» .

(3) الكناية في علم البيان هي : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته .

(4) طرابلس الغرب العدد 1112 .

(5) الترقي العدد 23 في 2 رجب 1315 هـ 1897 م «الاتحاد والانفراد» .

(6) انظر : طرابلس الغرب العدد 1130 واللسان جـ 1 مادة (جنن) ص 515 ــ 518 .

(7) انظر : طرابلس الغرب 1089 .

(8) ملف مجلة الفنون ، المحفوظات الوطنية طرابلس .

(9) الترقي العدد 41 في 23 ذي الحجة 1315 هـ / 1897 م «أسبانيا وأمريكا» .

بين مخالب الولايات المتحدة مع علمهن بأن لا حق لها في المداخلة في شؤون أسبانيا وأنها قد داست حقوقها بتلك المداخلة تحت ستار الأخذ بناصر الانسانية»[1] فالكاتب يعني تدخّل أمريكا في شؤون أسبانيا فليس ثمة مفاعلة هنا ، ومن المفردات الغريبة التي شاعت في الفترة الثانية وما بعدها ما ورد في النص الآنف من تركيب غريب (الأخذ بناصر كذا) وليس في اللغة ـ فيما أعلم ـ شيء من هذا، ومن قبل أنكر الشيخ إبراهيم اليازجي هذا التركيب لأنه «غير مسموع عن العرب ولا يظهر له وجه في اللغة»[2] إلا إذا كان تركيباً مضارعاً لأخذ بيده ، ويقصد به أخذ بناصره جمع (بنصر) وأغلب الظن أن مثل هذا التركيب وصل إلى كتّاب المقالة في ولاية طرابلس من المشرق كما وصل إليهم الواو المقحم بين لا بد وأن[3] ، نتيجة للاتصال الثقافي الذي أخفقت الدولة العثمانية في الحد منه بين الولاية ومصر خاصة .

ومن الترخص في الاستعمال اللغوي عدم الدقة في بناء الجمل من ألفاظ محددة الدلالة واضحة فيستعصي فهمها مجرّدة عن القرائن المصاحبة مثل قول أحد الكتّاب : « . . يقدم النفس قبل النفيس تفادياً لشرف وطنه . . »[4] ، يقصد فداء لشرف وطنه ، أو يقول نفس الكاتب : « . . ولا يخفى ما في هذه الجملة من استشاطة أوروبا كلّها على أمريكا والنزوع الجنسي إلى أسبانيا» ويعني بالاستشاطة[5] التحريض ، وقد تبدل بعض أحرف الكلمة دون وجه بيّن ، كإبدال الطاء تاء في «خريتة» بالرغم من أن أصل الكلمة عربي[6] ويحمل شيئاً بيناً من الدلالة الحديثة لمعنى خريطة ، وساد استعمالها في الوطن العربي كله بمعناها الحديث[7] ، ولعل من استعملها هذا الاستعمال قد ظن أنها من معطيات الحضارة الغربية فأبقى على التاء حفاظاً على الأصل .

وصاحب مثل هذا الترخص الكتابة الإملائية في الفترة الثانية في الهمزات خاصة ، فقد لوحظت العناية في ضبط الكتابة إلا في رسم بعض الهمزات التي ظلت مضطربة حتى في أبسط حالتها مثل (جاءت) فقد ترسم مرة صحيحة ــ على السطر ــ وقد ترسم على النبرة

---

(1) المصدر السابق .

(2) إبراهيم اليازجي : لغة الجرائد ، مطبعة التقدم ــ مصر ص 9 .

(3) انظر : الترقي العدد 23 «التربية والتعليم» .

(4) الترقي العدد 41 مصدر سابق .

(5) جاء في اللسان : استشاط الرجل من الأمر إذا خف له ، اللسان جـ 2 مادة (شيط) ص 393 .

(6) جاء في اللسان : جـ 1 ص 815 : الخريطة هنة مثل الكيس تكون من الخرق والأدم تُشرج على ما فيها ، ومنه خرائط كتب السّلطان وعمّاله .

(7) انظر : المعجم الوسيط جـ 1 مادة (خرط) ص 228 .

(جائت) في مقالة واحدة[1] ، مما ينبيء عن عدم الاكتراث بقواعد كتابتها ، ومثلها تكتب (مئات) (مآت) والإيتاء (الآتاء)[2] والشؤون (الشؤن)[3] إلى غيرها من الهمزات المرتبكة ، ومن غريب الأخطاء الإملائية التي صاحبت الصحف الليبية في الفترة العثمانية حتى نهايتها كتابة مجريات بألف لينة بعد الميم (ماجريات)[4] ويقصد بها اسم المفعول من (أجرى) في مثل : مجريات الأمور ، وإثبات ألف (ابن) بالرغم من وقوعها وصفاً بين علمين مثل (محمد ابن عبد اللّه)[5] ، غير أنّ مثل هذه الأخطاء تعدُ طفيفة لدى مقارنتها بما أضفت المقالة من تطوير للغة الكتابة وبعث لمفردات عربية طوى النسيان جلّها فانبعثت جذعة تعيد للكتّاب ما انسلخ من عذب الأساليب وجميل التراكيب ، وقد حملت المقالة العلمية في هذه الفترة راية النهوض باللغة لتزامن موكب الصحوة في الوطن العربي ، وتنال شيئاً من ثمرات النهضة العلمية في أوروبا فامتازت هذه المقالة بنقاء اللغة وسلاستها ، والرجوع إلى الأسماء العربية الصافية ، وتحري الدقة في بناء الجموع متخذة من الموروث الثقافي ظهيراً ، ومن قواعد الإصطلاح رافداً ــ عند غياب النظير في التراث ــ ويمكننا أن نلمس حرص الكتّاب على هذا الاتجاه من خلال إيراد أمثلة من المقالة العلمية ، يقول أحد كتّاب هذه المقالة في معرض حديثه عن العناية بأشجار الزيتون في الولاية : «بل هناك أسباب متعددة أخرى ، وكلها تستدعي أهمية مخصوصة ، فما في الدرجة الثانية منها العجز والتراخي والجهل البيّن في عملية العضد . . .»[6] فاختيار لفظة (العضد) هنا جاءت مطابقة تماماً للمراد منها ، وهي تسمية مستمدة من الموروث الثقافي دون شك ، فقد وردت في الحديث النبوي الشريف «لوددت أني شجرة تعضد»[7] ، والعضد القطع وآلته معْضَد[8] ، وهو في الشجر خاصة ، وكلمة العضد أقوى في الدلالة مما شاع بعد ذلك في لغة المقالة من استعمال القلم في هذا المعنى ، لأن القلْم عام في الشجر وغيره ، قال صاحب اللسان : «وكل ما قطعت منه شيئاً

---

(1) انظر : الترقي العدد 23 «التربية والتعليم» .

(2) انظر : طرابلس الغرب العدد 1106 «الفلاحة» .

(3) انظر : الترقي العدد 5 «هكذا هكذا وإلا فلا لا» .

(4) انظر : الترقي العدد 5 «الحقيقة ما هي» ، ولا تكاد تخلو مقالة منها .

(5) انظر : الترقي العدد 48 «الإسلام في مملكة الصين» .

(6) طرابلس الغرب العدد 1108 في 15 صفر 1323 هـ /1905 م «لماذا لا يثمر شجر زيتوننا بخصب كل سنة» .

(7) وفي البخاري عن حرمة مكة « . . فلا يحل لامرىء يؤمن باللّه واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة . . » البخاري جـ1 ص 31 .

(8) انظر : اللسان جـ2 مادة (عضد) ص 804 .

بعد شيء فقد قلمته ، من ذلك القلم الذي يكتب به ، وإنما سمي قلماً لأنه قلم مرة بعد مرة»[1].

ومن مظاهر حرص الكتّاب على إثراء اللغة استعمال مفردات أغنى بالموسيقية وأقل في الاستعمال مثل (أفنان) بدل أغصان «فحينئذ من أهم المقتضيات وقاية أفنانه التي مرّت عليها سنة من التحطيم . . .»[2] .

ويحرص كتّاب المقالة على استعمال الأسماء العربية للآلات ما وسعتهم إلى ذلك سبيلاً كأن يسمي أحدهم آلة خلع الأسنان (كلبتان)[3] متوسعاً في الاستعمال ، إذ الأصل فيها الأداة التي يأخذ بها الحداد الحديد المحمى[4]، فكأن الكاتب ارتضى النظر إلى معنى الأخذ بكيفية مخصوصة وانطباقه على نزع الأسنان ، فترخص في توحيد اسم الآلة في الحالين ، وقد عدّه المعجم الوسيط من الاستعمالات المولدة التي عرفت بعد عصر الرواية[5].

أو أن يحرص آخر على أن يصور لنا طرابلس الغرب في منتصف القرن التاسع عشر وبالتحديد نمط مبانيها فيقول: «تراها عبارة عن قرية من القرى ذات طاق واحد في بنائها أو طاقين تكاد أن تحتوي على عروشها . . »[6] فاستعمل الطاق لا ليعلمنا بعدد طبقات المباني ، بل ليحدد أي نوع من البناء هو ، معتمداً على دلالة كلمة (طاق) التي تعني في اللغة ما عطف من الأبنية وجعل كالقوس[7] [8] ، ولا يساورني شك في أن استعمال مثل هذه الأسماء هو من قبيل إحياء مفردات بعدت بينهم وبينها الشقة أمداً غير قصير .

ومظاهر حرص كتّاب المقالة على انتقاء لغتهم متعددة ومتباينة ، ومن أجلى هذه المظاهر دورانهم في فلك لغة أشبه بلغة عصر النهضة الإسلامية الأولى ، فكأنهم أضربوا عما تلاها من عصور الركاكة والصنعة المستكرهة وعادوا إلى المعين الثر يتهلون منه فجاءت مفرداتهم دقيقة في التعبير عن دلالاتها متصلة اتصالاً وثيقاً بأصول اللغة ، غير مشوبة

---

(1) اللسان جـ 3 مادة (قلم) ص 156 .

(2) طرابلس الغرب العدد 1108 «لماذا لا يثمر شجر زيتوننا . . .» .

(3) انظر : طرابلس الغرب العدد 1104 .

(4) انظر : اللسان جـ 3 مادة (كلب) ص 284 .

(5) المعجم الوسيط جـ 2 ص 794 .

(6) الترقي العدد 7 في 9 ربيع الأول 1315 هـ /1897 «طرابلس الغرب أمس واليوم وغداً» .

(7) اللسان جـ 2 ص 628 .

(8) من السمات البارزة في شكل طرابلس وغيرها من المدن الليبية انتشار البيوت ذات المدخل المقوس في الفترة العثمانية .

بتأثيرات العجمة قديمها وحديثها ، ومن النماذج الدالة على هذا قول أحد كتّاب المقالة العلمية متحدثاً عن البعوض : «فالبعوض أكثر ما يوجد في المحلات المجاورة للمساكن ولا يبلغ ضرره مسافة أبعد من ستمائة قدم وإناثه تترك بيضها في الماء فينقف بحرارة الصيف بعد يومين أو ثلاثة أيام يستحيل سرفاً ذوات أجنحة»[1] ، فالكاتب اختار (كلمة (ينقف) التي من معانيها : نَقْب الفرخ البيضة والخروج منها ، وقد يطلق على بيض الجراد فيقال : أنقف الجراد[2] ، فلا مانع حينئذ من إطلاقها على بيض البعوض استئناساً بإطلاقها على بيض الجراد وهو من الحشرات والبعوض حشرة ، وما إخاله عدل عن استعمال فقس ــ مثلاً ــ وهي الأكثر شيوعاً إلا لإدراكه أن النقف أدل من الفقس إذ الأول فعل من داخل البيضة أما الثاني ففعل فاعل من خارج البيضة كما يقال : فقس الطائر بيضه[3] فقساً أفسده .

وقد تنبه الكاتب إلى أهمية مراعاة الأداء بالنسبة لحروف المعاني ، فاستعمل الباء السببية في (بحرارة الصيف) لتأدية المعنى بأوجز مبنى .

وما أظنه وقع على لفظة (سرف) بمحض المصادفة ، وإنما نظر فيها إلى ما تثبته معاجم اللغة وكلها تدور حول دويبة غبراء نسّاجة أو دودة[4] القزّ ، أو كما يقول صاحب التاج : «والسرف بضمتين شيء أبيض كأنه نسج دود القز»[5] فراقه أن يطلق ذلك على طور من أطوار نمو البعوض لمحاً للمشابهة بينه وبين ما وصفته هذه المعاجم .

ويطلق نفس الكاتب على مستنقعات الماء اسم (المرادغ) ، والرّدغ الوحل الكثير[6] ، ويحتذي آخر حذو الجاحظ وأضرابه في إطلاق اسم (الحجر) على أنثى الخيل ، وبالرغم من أنّ الشائع إغناء كلمة الفرس عنه لكن الكاتب أراد أن ينبّه إلى أنّ الفرس يطلق على الذّكر والأنثى ، وقال ابن سيده في المخصص : «والذّكر في ذلك والأنثى سواء وأصله التأنيث وتصغيره بهاء وغيرها»[7] فما انتقاء الحجر إلّا من فرط العناية باللغة ومحاولة إحياء ما غار من

---

(1) طرابلس الغرب العدد 1165 في 16 شعبان 1324 هـ / 1906 م «التخلص من الحمى» .

(2) اللسان جـ 3 مادة (نقف) ص 708 .

(3) اللسان جـ 2 مادة (فقس) ص 1118 .

(4) اللسان جـ 2 مادة (سرف) ص 136 .

(5) تاج العروس مجلد 6 باب الفاء فصل السين ص 137 .

(6) اللسان جـ 1 مادة (ردغ) ص 1152 .

(7) ابن سيده ، المخصص ، دار الفكر ــ بيروت ، 1978 م ، المجلد الثاني ، كتاب الخيل ، ص 135 ، وانظر : المجلد الخامس باب ما أنث من الأسماء من غير لحاق علامة من هذه العلامات الثلاث ص 104 ــ 105 .

مفرداتها في تضاعيف عصور الانحطاط وسيادة العجمة[1] .

وكثيراً ما كان الكتّاب يتحرّون الدقة في تصريف المفردات فلا يقعون في أخطاء الفترة الأولى ، ولم تعد تلتبس عليهم جموع المفردات المتشابهة مثل : مهر المرأة ومهر الفرس ، فقد جمع الأخير على مهار في إحدى المقالات العلمية[2] وكان يلتبس عليهم في الفترة الأولى[3] ، وقد يعدلون عن الجموع السائدة المشهورة إلى الأقل استعمالاً كما في جاهل فقد عدل عن جموعها المشهورة جهله ، وجهّال إلى جهلاء الأقل ذيوعاً ، وقد يغربون في الانتقاء كأن يصف أحدهم سير المهار بالهملجة[4] ، وهي حسن السير في سرعة ، أو أن يقول : «فإن الحيوان إذا عدا بعربة مشحونة نوعاً وفي مسافة طريق قصيرة يرفضّ عرقاً . .»[5] ، أو أن يُسمّي بعضهم مخازن الغلال بالأنبار[6] ، وفي اللغة مندوحة عن استعمال الهملجة ذات الأصل الفارسي وعن (يرفض) لقلة استعمالها وعن التوسع في استعمال الانبار[7] ، لو لم يكن نصب أعين الكتّاب إحياء لغة التراث لربط الحاضر بالماضي ، وفيما أسلفت غناء عن إيراد العديد من الأمثلة الأخرى .

ولم يقتصر جهد كتّاب المقالة في الفترة الثانية على إحياء مفردات اللغة فحسب بل تعداه إلى محاولة وضع تسميات جديدة قد يحالف التوفيق بعضها فتكتب له الحياة وقد يخفق في التعبير عن مسماها فتندثر انسجاماً مع قانون البقاء للأصلح ، ومن هذه التسميات (الزراعة الجبرية) ويقصد بها ما يعرف اليوم بالزراعة في البيوت الزجاجية أو الصوبات الزجاجية[8] فيقول أحد كتّاب المقالة العلمية في فقرة عنوانها الزراعة الجبرية : « . . . ويجب دلك البزر وزرعه بعد إزالة وبره ، وبعد عدة أسابيع على زرعه يلزم توسيع الجزر عن بعضه بفاصلة خمسة سانتيمترات ويسقى كل صباح بالرواويق وفي المساء يغطى أعلا[9]

(1) انظر طرابلس الغرب العدد 1139 «معلومات مفيدة مختصرة في حق إصلاح نوع الخيل وتكثيره» .

(2) انظر : طرابلس الغرب العدد 1147 «بحث في القواعد التي يجب مراعاتها في حيوانات الأشغال . .» .

(3) انظر ص 302 فصل لغة المقالة .

(4) من الألفاظ الفارسية المعربة انظر : اللسان جـ 3 ص 831 .

(5) طرابلس الغرب العدد 1147 .

(6) انظر طرابلس الغرب العدد 1118 .

(7) الأنبار في الأصل أهراء الطعام ، وبيت التاجر الذي ينضد فيه متاعه ، فتوسع الكاتب في إطلاقها على مخزن الغلال اعتماداً على العلاقة بين الحال والمحل ، ولعل كلمة (ارفض) وصلت إلى قلم كاتبها من الحديث النبوي كما في حديث البراق أنه استصعب على النبي ﷺ ثم ارفضّ عرقاً وقرّ .

(8) انظر : المعجم الوسيط جـ 1 مادة (صاب) ص 527 .

(9) كذا ، والصواب : أعلى .

المرتفعات والأوعية الترابية الأسفل الزجاجية الأعلى»[1] ، ومنها الزراعة البيتية والزراعة الصناعية[2] وهي تسمية ولدت ميتة ، إذ المتبادر إلى الذهن أن البيتية لها علاقة بالبيت كأن تزرع داخله مثلاً ، في حين أنّ المقصود منها هو إبقاء المحاصيل للاستهلاك المنزلي ، وما يتبادر إلى الذهن عند إطلاق الزراعة الصناعية هو التباس الزراعة بنوع ما من الصناعة كالصناعة الغذائية مثلاً ، لكن المقصود هو الزراعة التي مآل حاصلاتها إلى البيع ومن ثم فلم يكتب لمثل هذه التسميات الإصطلاحية حياة حتى على بساط المقالة نفسها ، ومن التسميات التي أذاعها كتّاب المقالة ـ إن لم يكونوا قد ابتدعوها ـ تسمية الداجن بالقنّ فيقول أحدهم : «ولأن حيوانات القن تشتهي بكثرة الدود الأبيض الذي يخرج للميدان باشتغال المحراث الكبير فيتلفه قطيع الديوك ..»[3] ، ومن المعلوم أن القنّ في اللغة هو العبد الذي مُلك هو وأبواه ، فهو ملازم للقنية بمعنى الملك ، ولعلّهم نظروا إلى هذا المعنى وهو مطابق لمعنى الدّاجن الذي ألف البيوت ولازمها[4] وإلاّ فلا أعلم معنى يدعو لمثل هذه التّسمية .

ومنها تسمية تبدو غريبة المنشأ للوهلة الأولى وهي (عمارة) ويراد بها مجموعة من السفن الحربية عندما يقول أحد الكتّاب السياسيين : « .. وأن الأسطول الأمريكاني سيذهب مع عمارة سريعة السير مؤلفة من خمسة[5] بوارج إلى جزيرة (بورتوريكو) ..»[6] ولم أجد فيما بين يدي من مصادر اللغة ما يؤيد هذا المعنى إلا إذا وضعنا في الحسبان ما درج عليه الكتّاب من توسّع في معنى الدلالة الأولى للكلمة ، فقد جاء في اللسان : «والعمارة والعَمارة : أصغر من القبيلة، وقيل: هي الحي العظيم الذي يقوم بنفسه، يتفرد بظعنها وإقامتها ونجعتها، وهي من الانسان الصدر»[6] فهل نظر الكتّاب إلى معنى الحي الذي هو جزء من القبيلة وإن انفرد عنها ، ثم توسّع في إطلاقه على مجموعة البوارج التي تتقدم الأسطول فهي منه وإن انفصلت عنه ؟ وهل نظر إلى موقع هذه الطليعة الذي يشبه موقع الصدر من الانسان ؟ وأغلب الظن أن هذا هو ما ذهب إليه الكاتب ، وإلاّ فمثل هذا الاستعمال غريب على لغة الصحافة في هذه الفترة من الدراسة .

ومن التسميات التي أرستها المقالة السياسية تسمية حزب المعارضة بالحزب المخالف

(1) طرابلس الغرب العدد 1104 «الفلاحة» .

(2) طرابلس الغرب العدد 1112 «الزراعة» .

(3) طرابلس الغرب العدد 1130 .

(4) انظر : اللسان جـ1 مادة (دجن) ص 948 ، وجـ3 (مادة (قنن) ص 176 . (5) كذا والصّواب خمس .

(6) الترقي العدد 41 في 23 ذي الحجة 1315 هـ /1897 م (أسبانيا وأمريكا) .

(7) اللسان جـ2 مادة عمر ، ص 883 .

ومثل هذه التسميات كثيرٌ اقتصرنا على إيراد أمثلة منه استغناء بما أثبتناه في الملاحق من ألفاظ معجم الصحافة في الفترة العثمانية .

وقد شهدت الفترة الثانية من هذه الدراسة نشاطاً ملحوظاً في ميدان التعريب والترجمة ، لا في الموضوعات فحسب بل في مفردات اللغة ، ويمكن إجمال تطوّر التعريب والترجمة في مراحل ثلاث : الأولى مرحلة التعريب ، وفيها تنقل المفردات من لغة أخرى وتدخل كما هي في اللغة العربية ، وقد اضطلع بهذا العمل كتّاب المقالة العلمية في الأغلب الأعم ، ومن أمثلتها ما قدّم به كاتب لمقالة علمية تتناول أمراض الأشجار في ولاية طرابلس فقال : «هذه تعرفة في تداوي المرض المسمى فوزاريوم سارقوقروم وعلة الاختيار العارضين لأشجار الليمون والبرتقال والكيتي . .»[1] فقد عرّب الكاتب اسم فطر يصيب النبات (Fusarium)[2] دون البحث عن معادل له في العربية القديمة أو المعاصرة، أو أن يتحدّث كاتب آخر عن أنسب الأنواع لصناعة الأحذية الشتوية فيذكر أن أفضلها ما صنع من (الاستيق) ويعني المطّاط فهي تعريب لـ (Elastic)[3] بلفظها ومعناها ، تلتها مرحلة ثانية يورد فيها الكاتب اللفظ الأجنبي مقروناً بنظيره في العربية ، ويوضع في العادة بين حاصرتين كما في إحدى المقالات العلمية عندما تحدّث الكاتب عن ترويض الخيول فقال : «وكثير من الحيوانات لما تكون في دور النمو لا تمكنها مقاومة معاملات التمرين العضوي (جمناستيق) الشديد»[4]، فالكاتب يترجم (Gymnastic Exercises) بالتمرين العضوي ، ويترجم كاتب آخر مقياس الضغط الجوي (Barometer) بأنه ميزان الهواء ويضع المرادف الأجنبي بين حاصرتين «بارومیتر»[5] .

وثمة كاتب يظاهر ترجمته بشيء من الشرح ليثبت في ذهن القارىء ما يهدف إليه من معنى الترجمة ، فيقول متحدثاً عن مستنبت البكتيريا (Pacterialculture) : «ثم زرعت الجراثيم بالأصول المخصوصة على المواد الحائزة لمثل هذه الشروط المناسبة الحياتية وبعد أن تحسنت عبّر عن هذه المحلات بـ كولتور وبتعبير أبسط بـ «وسط» فإن اللحم والبطاطة وماء اللحم كلها كولتورات وبعبارة أوضح أوساط طبيعية . .»[6] فالكاتب ترجم (كالتشر)

---

(1) طرابلس الغرب العدد 1019 «متنوعة» .

(2) انظر : اللسان جـ 4 ، ومعجم المصطلحات العلمية والفنية ، يوسف الخياط ص 516 .

(3) طرابلس الغرب العدد 1146 .

(4) انظر : طرابلس الغرب العدد 1147 «بحث في القواعد التي يجب مراعاتها في حيوانات الأشغال . .» .

(5) طرابلس الغرب العدد 1196 .

(6) طرابلس الغرب العدد 1172 في 5 شوال 1324 هـ /1906 م «الرعام» .

(Culture) بالوسط ، وتصرف في الكلمة تصرّف المعربات فجمعها على حد المؤنث السالم (كولتورات)[1] .

وفي المرحلة الثانية تصدّر قائمة الكتّاب المترجين ، كاتب ينحدر من أصل عراقي فأسبغ على كثير من الألفاظ العلمية مسحة من محاولات الترجمة والتعريب التي ازدهرت في بلاد الشام في القرن الماضي خاصة ما يتعلّق منها بالمعجم الطبي[2] ، وحاول جاهداً أن يبني ــ مع من تابعه ــ أرضية صلبة للغة علمية عصرية قوامها الترجمة ، فإن لم تتيسر فالتعريب ، ونجتزىء جزءاً من مقالة لهذا الكاتب ــ سليمان غزالة ــ نهتدي به إلى منحى الكتّاب في هذا الاتجاه ، حيث يقول : « . . . وناهيك أن دم الانسان مثلاً الذي تخاله سيالاً كالماء كل مليمتر مكعّب منه أعني كل قطيرة كحجم حبة الدخن أو أقل تحتوي على خمسة ملايين من الكريات ، فكيف إذا كان يتيسر تمييز وإحصاء هذه الأجزاء ولا يعدّ ضرباً من المحال قبل اختراع المكروسكوب أعني منظرة الدقائق ، وكل حي مهما كبر أو صغر جسماً من نبات وحيوان لا بد من أن يكون مركباً من كريات وخلايا تجمع بينها مواد مختلفة تتكوّن منها ، بيد أنه في عالم الأحياء أنواع في منتهى البساطة تركيباً تكون أفرادها خلايا قائمة بذاتها تتغذى وتنمو وتتكاثر وذلك كالحويونيات المعروفة بالمكروب»[3] فالكاتب عرّب المكروسكوب (Microscope) ثم أردفها بما ارتضاه من ترجمة لها (منظرة الدقائق) ، وهي ترجمة لم تكتب لها الحياة لسيادة ترجمة أخرى في المشرق العربي مدارها على (جهَرَ) فهو إمّا (مُجْهِر) وإما (مِجْهَر)[4] ، وترجم (Globule) بكرية وجمعت على كريات ، وترجم المكروب (Microbe) بأنه حويوين ، ويجمع على حويوينات ، ومثل هذه الترجمة قد كتب لها البقاء حتى ارتضاها المعجم الطبي الموحّد وإن لم يخل من اضطراب بشأنها حيث أوردها مرة بأنها (حوين وجمعها حوينات) ترجمة لـ(Animalicule) في الانجليزية والفرنسية ، وأورد في موضع آخر بأن (Microbe) يناظرها في العربية حي مجهري[5] ، ولكن مثل هذه الترجمات لم

(1) للمزيد انظر : المقالة العلمية في هذا الكتاب .

(2) انظر : روّاد المقالة من هذا الكتاب . سليمان غزالة .

(3) الترقي العدد 20 في 11 جمادي الآخرة 1315 هـ /1897 م «الدماغ البشري» .

(4) من يرى أنه مجهر يوعزه إلى الاشتقاق من أجهر الرباعي ، فهو لازم ، أجهر الكلام : أعلنه ، واسم الآلة الذي على (مُفعل) لا يشتق منه وإنما يشتق من الثلاثي المتعدى ، وقد أطلق مجمع اللغة العربية في القاهرة على المكروسكوب اسم (مِجهر) وكذلك معجم الخطيب (معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية) والمعجم الوسيط ، انظر : معجم الأخطاء الشائعة ، العدناني ، والمعجم الوسيط جـ 1 ص 143 .

(5) انظر : المعجم الطبي الموّحد ، مجموعة من الأساتذة تحت إشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ميدليفانت ، سويسرا ط 3 ، 1983 م ص 41 ، و 402 .

تؤخذ مسلّمة فيرتضيها جلّ الكتّاب ، فقد ظل بعضهم يترجم المكروسكوب بالمرآة المكبرة بعد هذه المقالة بما لا يقل عن تسع سنوات[1] .

وقد سادت في الفترة الثانية بعض التركيبات والتعابير التي امتدت إلى آخر الفترة العثمانية مثل (الوقوف على قدم واحدة) ويقصد به الوقوف صفاً واحداً ، وهذا من الألفاظ السياسية في تلك الفترة ، ومن هذا القبيل أيضاً (التوسط الحبي) بمعنى بذل المساعي الحميدة في سبيل المصالحة السياسية[2] كما جرى العرف اللغوي على إطلاق لفظة التعليم على التدريب العسكري ، إلى جانب دلالتها الأصلية والمعوّل في التفريق بينهما على السياق والمعنى العام[3] ، كما دأب كتّاب هذه الفترة على إطلاق كلمة (الفن) على العلم مطلقاً ، هذا إلى جانب القوالب الصامتة التي يُتوصّل بها إلى غيرها مثل «حالة كونه كذا . .» ومثل «والحال أن . .» إلخ، مما لا تخلو منه صحيفة طيلة فترة الدراسة .

أما الفترة الثالثة فقد تميّزت لغتها بعدة ميزات ، من أبرزها تقلّص أثر اللغة التركية تحت تأثير قدوم العلماء الدارسين في الأزهر والزيتونة ، والحماس الهادر للغة العربية ، فأصبح الكتّاب يتحرون الصميم من مفردات اللغة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وتوارى إقحام الألفاظ الدخيلة إلا بعضاً منها وجلّها أسماء ، كأن يقول كاتب من كتّاب (المرصاد) : « . . بما يلقونه من الأسئلة على نظارهم في أودة مبعوثانهم[4]» ، أو أن يسمي آخر النادي بـ (كلوب) أو يستعمل لفظة (سويطري) بدل مضحك[5].

وظل هذا الأثر محصوراً في الصحيفة الرسمية الوحيدة (طرابلس الغرب) لكون محرريها من موظفي الدولة فهم يختارون وفق مقاييس لا تكترث كثيراً بمعايير اللغة والأدب ، ويبدو هذا الأثر واضحاً في مثل قول أحدهم : «ويدعي المناسب من رؤساء العشائر إلى مركز الولاية معززين مطيبين ، وتجري لهم بالذات أيضاً التفهيمات والتنبيهات اللازمة ، وتنشر مقالات مناسبة مفيدة في الخصوص في جريدة الولايات ، وليمتن جميع المأمورين والمستخدمين في حسن إيفاء الوظيفة بدائرة الأصول والمشروطية ويجتنبوا سوء المعاملات المخالفة والأفعال المغايرة للعدالة والحقانية»[6] .

---

(1) انظر : طرابلس الغرب العدد 1172 في 5 شوال 1324 هـ /1906 م «الزّعام» .

(2) انظر : الترقي العدد 41 .

(3) انظر : الترقي العدد 23 .

(4) المرصا العدد 23 في 22 ربيع الأول 1329 هـ /1911 م «المسألة الشرقية أو وصية بطرس الأكبر» .

(5) انظر : المرصاد العدد 24 والترقي 89 .

(6) طرابلس الغرب العدد 1257 في 18 شعبان 1326 هـ /1908 م «إلى وكالة ولاية طرابلس الغرب» .

بيد أن بعض كتّاب المقالة في باقي الصحف قد جنحوا إلى التساهل في استعمال العامية ، ويمكن أن نلمح ذلك من خلال استمرار الظواهر الآنف ذكرها كلفظ (الكناية) بمفهومه عند العامة[1] ، أو نعت الصفوة من الناس بأنهم (أرباب الناموس) وهو نعت يدور على ألسنة العامة كثيراً ، ويصعب إيجاد سند قوي له من الفصحى إلا بعد تمحّل واعتساف[2] ، أو استعمال كلمة (نفر) بمفهوم مغاير لما هي عليه في فصيح اللغة[3] ، ويظهر أثر العامية قوياً عندما يستمرىء كاتب كصاحب (الكشّاف) الابتذال في اللغة فينهج نهج العوام في إرجاع الضمائر دون اكتراث لقواعد الفصحى وضرورة مطابقة الضمير لمرجعه من حيث التذكير والتأنيث قائلاً: « . . . تجد الكثير منهم الآن قد جردوا من مزارعهم بطريق بيعهم بالوفاء لمصرف الزراعة في مقابلة أسوام[4] بخسة» ومراده : بيع المزارع بالوفاء للمصرف المذكور فأرجع الضمير كما ترجعه العامة في المناطق الغربيّة عند الحديث عن غير العاقل بإغفال جنس المرجع وتغليب التذكير مطلقاً .

ومن غريب الألفاظ التي درج كتّاب المقالة على استعمالها ولم أر لها وجهاً إلا على سبيل الظن والافتراض كلمة (التورّك) ومنها ما جاء في (الترقي) : «ولقد أكثر بعض تلك الجرائد من التورّك على نظارة المعارف لإدخالها بعض الدروس الدينية في نظام المكاتب الرسمية»[5] والتورك في اللغة يدور حول معان عديدة مدارها على الورك ، ولا وجه لهذه المعاني هنا إلا إذا حمّلنا العبارة معنى الاستهانة بالشيء فهو كالموضوع تحت الورك انتقاصاً واستهتاراً ، لكن السياق العام يشحنها بدلالة اللوم والتبكيت ، فهل كانت من المفردات العامية الدالة على ذلك ثم طواها الزمن لعدم أصالتها ؟!

وقد قوي مدّ العامية شيئاً فشيئاً فأصبح يخالط المقالة الفصيحة بادىء الأمر واتخذ طريقه من خلال الأمثال الشعبية العامية التي تهدف إلى معالجة بعض القضايا الاجتماعية في الأغلب الأعم وتكتب كما ينطقها العامة حرفياً ، ومن أمثلة ذلك مقالة نشرت في (العصر الجديد) تعالج مشكلة إهدار الوقت في شرب الشاي يقول كاتبها: «يا ولاد هاتو

---

(1) انظر ص 309 من هذا المبحث ، وكذلك العصر الجديد العدد 18 والترقي 100 .

(2) انظر : طرابلس الغرب 1257 ، وللناموس معان كثيرة أقربها إلى المراد أنه وعاء العلم والمؤتمن على السر ، انظر : اللسان جـ 3 مادة (نمس) .

(3) انظر : ص 306 من هذا المبحث .

(4) الكشاف العدد 14 في 9 ربيع الأنور 1327 هـ / 1909 م «تحصيل الأعشار» .

(5) الترقي العدد 118 في 28 ذي القعدة 1327 هـ / 1909 م «مستقبل الإسلام» .

البوليت[1] ، عريان . . وفيده خاتم ، رافعها الوادي ، وهي تقول السنة عام (خير)»[2] .

ومنها ما ضمّنه كاتب من كتّاب (الترقي) لمقالة زعم أنها منقولة عن إحدى الصحف يهاجم فيها الصحافة ونظم الدولة وقانون المطبوعات ، غير أنّه يضع المثل الشعبي بين حاصرتين تمييزاً لعاميته عن الفصيح فيقول : « . . إن كان الجزاء النقدي (فالعريان في القافلة مطمان) كما يقال . . »[3] .

ثم لم يلبث الكتّاب أن انصرفوا عن هذا الاتجاه وأولوا الفصحى المكان الأرفع وجاهدوا في سبيل سيادتها كتابة وتحضيضاً .

أما ما يذهب إليه بعض الباحثين في الأدب الليبي من أن هناك دعوة إلى العامية عندما قال : «وفي هذه المقالة تظهر لنا دعوة أثيرت في المشرق العربي ، وخاصة في مصر ، وهي الدعوة إلى «العامية» وها هو صاحب المقالة يدعو إليها»[4] فهو وهم تدحضه حقيقة دامغة ، وهي أن المقالة التي يتحدث عنها الباحث تتعلق بالعلماء ودروسهم الوعظية في المساجد ، وكاتب المقالة يعيب عليهم مخاطبتهم العوام بلغة فصيحة تزخر بالصنعة حين قال : «ويجب على العلماء الواعظين اليوم أن يتركوا تأنيق العبارة وترددادها وتفسيرها بتكرار لفظها وأن يفهموا الحاضرين باللغة الدارجة . . . ويعلموهم ما هم أحوج إليه كالصوم والصلاة فإنا لا نرى معنى لالقاء التفسير والحديث على من لا يعلم كيف يصوم»[5] فهل بعد هذا دعوة إلى العامية ؟[6] .

ولم تشهد الصحف الليبية في عهدها العثماني ــ فيما أعلم ــ إلاّ مقالة واحدة كتبت بالعامية التونسية لعل كاتبها الهاشمي أبو قشة وهي نمط ساخر يصوّر فداحة الضرائب في سنوات المحل في مطلع هذا القرن نجتزىء منها قوله : «وتزورنا هاك الخراصة الناس الطيبين، اللي ياكلو اللحم، ويشربوا الدم ويهشموا العظم . . »[7]، أما ما عداها فقد ظلّت الفصحى هي صاحبة القدح المعلّى حتى نهاية الفترة العثمانية .

---

(1) فسر صاحب المقالة هذه الكلمة في هامش الصحيفة بقوله «عبارة عن دفع الدراهم» .

(2) العصر الجديد العدد 2 في 29 صفر 1327 هـ / 1909 م «الشاهي» .

(3) الترقي العدد 191 في 11 جمادي الآخرة 1329 هـ / 1911 «إذا ضاق المعاش فكن صحافي» .

(4) المرادي : فن المقالة في الصحافة الليبية ، ص 172 .

(5) الترقي العدد 203 في 7 رمضان 1329 هـ / 1911 «رمضان المبارك» .

(6) للمزيد حول الحديث عن العامية في مصر انظر : محمود محمد شاكر : أباطيل وأسمار ، دار العروبة القاهرة 1385 هـ ، جـ1 ، ص 164 .

(7) العصر الجديد العدد 3 في 6 ربيع الأول 1327 هـ / 1909 م «بلاغة العوام وبراعة العوام» .

ولم تخل المقالة في فترتها الثّالثة من وقوع بعض الأخطاء اللّغوية ، من نحويّة وصرفيّة ، بل لا يمكن تجاهل ظاهرة الخطأ وشيوعه في صحيفة الكشّاف بالذّات ، فقد كانت مقالاتها مكبّلة بالأخطاء والسّقطات التي تنمّ عن ضعف في لغة الكتّاب ، ولعلّ مقالات الصّدارة يسطرها صاحب الجريدة محمد النّائب نفسه وقد عرف عنه ضعف في اللّغة وعسر في الأسلوب جعلا مدرسته في المقالة تتسم بهذا الميسم المشين ، ومن النّماذج العابرة لهذه الأخطاء ما ورد في إحدى المقالات السّياسيّة التي منها : «أراك لا تجهل ما تميل إليه الرّوسيا ؟ . . . وما تطلبه الدّولة العثمانية . . . ! وتبغيه إيطاليا . . . . : وترغبه كلّ دولة : أو دويلة أو مملكة . . . ! أو ولاية . . . . : مما يطل الشّرح دون الوصول إليه»[1] ، فلا مبرر لجزم الفعل (يطول) ، هذا إلى جانب جفوة التّركيب ، وجهل دلالات علامات التّرقيم المستعملة في الفقرة المذكورة وفي باقي المقالة ، وربما كان مرجع هذه الأخطاء إلى الهيئة العاملة في الصّحيفة لا إلى الكتّاب حيث تجد مقالة سطرها يراع الشّيخ أحمد الفسّاطوي من القاهرة بها العديد من الأخطاء مما لا يقع فيه مثله ، ومنها « . . . وتمسّك الأمة بما كانوا عليه أبائنا الأقدمين من الغيرة والشّهامة . . .»[2] فقد أسند الفعل إلى الضمير مع وجود الفاعل[3] ورسمت (آباؤنا) رسماً يقربها من رسمها كما لو كانت مجرورة، وكذلك ورود الصّفة مجرورة ، وهذا مما يكثر وجوده في الكشّاف ، ومنه قول أحدهم : «فدع أيها المجلس ما أشارو به عليك هؤلاء الأعضاء الغير المنتخبين . . .»[4] ، هذا إلى جانب إدخال (أل) على (غير) وهي موغلة في الإبهام ، وعلماء اللّغة لا يجيزون ذلك[5] .

ومن أخطاء كتّاب المقالة في الفترة الثّالثة درجهم على استعمال بعض الجموع المخالفة للقاعدة والسّماع كجمعهم لميل على (أميال) ، كما يقول أحد كتّاب التّرقي : «وقد كنّا نودّ أن لا نعود للجدال مع جرائد إيطاليا خصوصاً بعد أن رأينا رجال حكومتها وساستها يتبرّؤون مما تنشره صحف الحزب الاستعماري ويصرّحون رسمياً بأنّ أميالهم نحو الدّولة لا يمكن أن تؤثّر عليها أقوال صحف ديدنها الطّعن على الحكومة الحاضرة . . .»[6] ، وأميال جمع ميل

---

(1) الكشاف العدد 16 في 23 ربيع الأنور 1327 هـ /1909 م «النقطة السوداء في عالم الوجود» .

(2) الكشاف العدد 16 المصدر السابق «أعداء الوطن» .

(3) للنحاة آراء متباينة في هذه القضية يرجع إليها في كتب النحو .

(4) الكشاف العدد 4 في 27 ذي الحجة 1326 هـ /1908 م «العجلة من الشيطان» .

(5) انظر : عباس حسن ، النحو الوافي جـ 3 ص 24 ، وكذلك باب الاضافة شبه المحضة في أمهات كتب النحو .

(6) الترقي العدد 188 في 19 جمادي الأولى 1329 هـ /1911 «نحن وجرائد إيطاليا» .

(بكسر الميم) ، أما الميل المقصود فهو من : مال ميلاً وميلاناً ، بمعنى العدول إلى الأمر[1]، ويشيع هذا الاستعمال في الفترات الثلاث دون استثناء .

ومن هذه الجموع جمع (نيّة) على (مناوى) بدل نيات[2] ، و(قرية) على (قرايا) ، و(رشوة) على (رشا) ، وغير ذلك من الأغلاط التي مَرَدَ عليها كتّابُ تلك الفترة .

ومن الملاحظ عليهم أيضاً التجوّز في إستبدال حروف الجر وإحلال بعضها مكان بعض بضابط أو بدون ضابط ، وكثيراً ما يصادفك قول بعضهم : «هنا أوجه اللّوم على الحكومة» أو «ونددّت تلك الجريدة الإيطاليّة على سلوك الحكومة العثمانيّة . . . .» أو «. . . وأرادت التّغرير على حكومتها»[3] بتحميل (على) معنى (إلى) أو (اللاّم) ، وهذا ما يرفضه جلّ النّحويين[4] ، وإن كان منهم من يرتضيه ، وتعدية الفعل (ندد وغرر) بـ(على) نيابة عن (الباء) دونما نظر إلى قاعدة أو احتذاء ، وقد يضع أحدهم (عن) موضع (على) فيقول : «لا يسوغ لأهل عصرنا هذا الادعاء بأنهم واضعوا علم أو فن الاقتصاد لأن الحث عنه والعمل به لم يفت الأولين»[5] ومعلوم أنّ (عن) من أشهر معانيها المجاوزة ، بل إنّ البصريين لم يثبتوا لها غير هذا المعنى[6] ، ولا مجاوزة هنا ، ولعلّ كتّاب المقالة في ليبيا في الفترة العثمانيّة قد أرتضوا مذهب ابن سيده[7] في تجوّزه ، وتحميل بعض الأفعال دلالة أفعال أخرى ، ومن ثم فالحرف تبع لها في تعدّيها وإسقاطها وسائر دلالاتها الأخرى[8] ، وهذه القضية محل ونظر ولا يتّسع المجال هنا لعرضها ومناقشتها باستفاضة .

وقد دأب كتّاب المقالة في هذه الفترة على تعدية بعض الأفعال اللاّزمة دونما علّة

---

(1) الميل ــ بكسر الميم ــ مما تقاس به المسافة ، والميل البري يقدر بما يساوي 1609 من الأمتار ، والبحري 1852 من الأمتار ، انظر : اللسان جـ3 مادة (ميل) والوسيط جـ2 ص 894 .

(2) الترقي العدد 203 «إيطاليا في طرابلس الغرب» .

(3) السابق «هل الذنب على الحكومة أم على الأهالي» والترقي العدد 170 «مستقبل الولاية» والمرصاد العدد 23 في 22 ربيع الأول 1329 هـ /1911 م «المرصاد وجريدة الأسطامبا الايطالية» .

(4) انظر : الحسن المرادي ، الجنى الداني ، تحقيق : فخر الدين قباوة ومحمد فاضل ، دار الآفاق الجديدة بيروت 1983 م طـ2 ص 470 ، وكذلك : ابن سيده» المخصص ، المجلد 4 ، السفر 14 ، ص 64 .

(5) الترقي العدد 188 «الاقتصاد السياسي أو التدبير الاجتماعي» .

(6) انظر : الحسن المرادي : الجنى الداني ص 245 .

(7) أبو الحسن علي بن اسماعيل ولد سنة 398 هـ بمرسية في الأندلس ، من علماء اللغة والأدب ، من آثاره : المحكم ، والأنيق ، وشرح ما أشكل من شعر المتنبي ، والمخصص ، توفي سنة 458 هـ ، انظر : وفيات الأعيان ، لابن خلكان جـ3 ص 330 ، وكذلك الأعلام للزركلي طـ7 جـ4 ص 263 .

(8) انظر : ابن سيده ، المخصص السفر 14 ص 70 وما بعدها .

ظاهرة ، ومن أشهر هذه الأفعال في استعمالاتهم (حافظ) و(ضحىّ) و(هاجر) ، وهي من الأفعال التي يكثر كتّاب المقالة تداولها على هذه الصّورة ، فيقول أحدهم في صحيفة المرصاد : «. . . وخصّصوا وارداتهم لمن يضحّي شبابه وأوقاته لتلقي تلك العلوم» ويقول آخر في صحيفة الرقيب : «أولئك الذين لا يعرفون لمكارم الأخلاق معنى ولا يرون في غير جمع المال من فخر حتى ليضحي الرجل منهم عرضه وشرفه في سبيل جمعه . . .)»[1] ولا يستقيم المعنى في مثل هذه الاستعمالات إلاّ بعد تضمين الفعل معنى فعل آخر مثل (بذل) أو (وهب) ، أو تقدير إسقاط حرف الجر لوضوح المعنى المراد ، وفيه ما فيه من التّأويل والتعسّف ، يقول كاتب آخر : «وتحرّض الحكومة الإيطالية على اتخاذ الوسائل الفعّالة لمحافظة حقوق الإيطاليين في ولاية طرابلس الغرب»[2] وكأن المراد : حفظ لا حافظ ، ولولا كثرة ذيوعها لعددته من قبيل الخطأ المطبعي .

وبالرّغم من الوعي الشّامل في الفترة الأخيرة واتساع روافد المعرفة فقد بقيت آثارة من الخطأ الإعرابي تصاحب أقلام بعض كتّاب المقالة حتى نهاية الفترة ، ومن أمثلة هذه الأخطاء «كانوا مجتمعون ومتّحدون» و«وانقاد بعض وأبى آخرين» و«تخلّفت غالب أعضاؤه» و«تداركت الرجال السّاهرين على حفظ المشروطية»[3]. . . إلخ، فقد رُفع خبر كان في الأنموذج الأول، وجُر الفاعل في الثّاني ، ورُفع المضاف إليه في الثّالث ، وجُرّت صفة المرفوع في الأخير ، على أنّ مثل هذه الأخطاء لا تحجب خلفها كتابات ناصعة خلت من عيوب الكتابة حتى في طبقتها العليا .

ومن الملاحظ على كتابة المقالة في الفترة الثّالثة أنّ الرّسم الإملائي ظلّ يرسف في قيود من الاضطراب والتّخبط بل تدنّى عنه في الفترة الثّانية تدنّيا ملحوظاً ، ومن أشدّ المعضلات في الرّسم الإملائي الهمزة ، فقد رُسمت بأشكال متباينة دون نظر إلى قاعدة أيّا كانت هذه القاعدة ، فقد ترسم الهمزة في كلمة واحدة عند تكرارها بأشكال متباينة ، ومن أشهر الكلمات المهموزة وروداً وتبايناً كلمة (المومأ إليه) فقد تسهّل الهمزة وترسم ألفاً مقصورة (المومى) وقد تسهّل الهمزة المتطرّفة إلى ألف وترسم همزة أخرى متوسّطة على الواو (المؤما) أو (المؤمى)[4]، ولا أظنّ أحداً من الكتّاب قد دار بخلده شيء من الأنماط النّطقية في بعض

(1) المرصاد العدد 24 في 10 جمادي الآخرة 1329 هـ /1911 م والمعاهد العلمية وإدارة الأوقاف» وكذلك : الرقيب العدد 12 في 10 جمادي الآخرة 1329 هـ /1911 «في كل واد أثر من ثعلبة» .

(2) المرصاد العدد 23 والمرصاد وجريدة الاسطامبا» ، وعن (هاجر) انظر : المرصاد العدد 24 .

(3) طرابلس الغرب العدد 1257 ، والعصر الجديد العدد 8 .

(4) انظر : الترقي العددين 188 و 191 .

اللّهجات العربية القديمة ممن يبدلون حرف العلة همزة[1] ، وإنّما الأمر محض اضطراب في الكتابة ليس غير .

وقد ترسم (طرأ) طرى بألف مقصورة ، وقد يعمد الكتّاب إلى توحيد رسم بعض الهمزات مثل : ذئاب وزؤام ترسمان (ذآب) و(زآم) ، وقد يبلغ الاضطراب مداه فترسم كلمة (نشوة) هكذا (نشأة)[2] .

وكثيراً ما يخطيء كتّاب المقالة في رسم التّاء المربوطة فيرسمونها مفتوحة ، في مثل كلمة (الحياة) ، وقد ترسم هذه الكلمة بالرّسم العثماني القديم (الحيوة)[3] وكذلك كلمة (ولاة) ترسم أحياناً (ولات)[4] ، ومرجع هذا الاضطراب - فيما أرى - إلى الطّفرة التي حدثت بُعيد العودة إلى العمل بالدّستور سنة 1908 م ، حيث تدفّقت الصّحف ، وتلهّف القرّاء لمتابعة المستجدات ، وواكب هذا نقص في المصحّحين وفُتح الباب لكلّ كاتب فاستّزلت الأقلام والتهمت المطبعةُ ما يلقى إليها دون تمحيص .

بل إنّ هناك ملامح تدلّ على وعي وإحساس بالقصور في أداء الرّسم الإملائي لجملة من الأصوات اتخذ لها كتّابها أشكالاً متباينة تتراوح بين الشّذوذ عن المألوف من الرّسم التّقليدي ، كرسم (الرحمن) و(هؤلاء) بإثبات الألف ، والمجاهرة بانتقاد القصور في أداء أحرف الكتابة العربيّة لأصواتها[5] ، فقد كتب أحد كتّاب هذه الفترة مقالة ناقش فيها مشكلة الحروف العربيّة وأخواتها كالفارسيّة ، واقترح مقترحاً لإصلاحها نجتزيء منها ما يلي : «تتوقّف قراءة الخطوط الإسلامية على معرفة ثلاثمائة أشكال مختلفة لأن أشكال الحروف تتنوع باختلاف مواقعها منفردة ومبدوءة ومتوسطة ومتطرّفة . . . وإذا زدنا عليها أشكال الحركات وأنواع الهمزة صور الإشارات الحديثة وأشكال ذو الحرفين وثلاث فلا يعلم حسابها إلاّ المرتبين[6] في المطابع . . . وإني طالما كنت مفتكراً في رفع هذا المحذور المهم بحيث لا تتغيّر الأشكال المأنوسة المتداولة بين المسلمين وأقلل الأشكال إلى ما دون الأربعين

---

(1) انظر : ابن جني ، سر صناعة الإعراب ، شركة المكتبات ومطبعة الحلبي ، مصر 1954 م ص 82 ـ 84 . وكذلك : أحمد الجندي ، اللهجات العربية في التراث ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة 1975 م ص 247 و 250 .

(2) انظر : المرصاد العددين 33 و 34 و الترقي العدد 203 .

(3) أنظر : الترقي العدد 194 والكشاف العدد 14 .

(4) انظر : العصر الجديد العدد 5 .

(5) انظر : العصر الجديد العدد 18 و المرصاد العدد 8 .

(6) كذا . . والصواب المرتبون .

فيتعلمها الطّالب في برهة قليلة»[1] ، وهذا مؤشر إيجابي دون شك ، وإحساس بمعضلة لا زالت تؤرّقنا حتى يومنا هذا .

ومن العناصر الإيجابيّة في لغة كتّاب المقالة في فترتها الثّالثة استعمال بعض المفردات بحسب أصولها الأولى محاولة منهم بعث مفردات ألبست دلالة ليست من أصل وضعها كاستعمال كلمة (شرذمة) في العدد القليل ، دون تحميلها معنى جماعة السّوء كما هي دلالتها اليوم[2] ، وكذلك الأمر مع كلمة (عصابة) فقد درج الكتّاب على إطلاقها على الجماعة مجرّدة من معنى الدّلالة السّائدة حديثاً ، عندما يقال : اعترضته عصابة أو سلبت ماله عصابة الجبل مثلاً . . . فهي تُطلق على جماعة السّوء ، أمّا كتّاب الفترة الثّالثة فيطلقونها على جماعة الإصلاح فيقول قائلهم : « . . . فضلاً عن انتسابها لعقلاء الرّجال الّذين يعرفون ما تستدعيه المشاريع العامّة من اختيار الصّور المنتظمة والجري على السّنن المحكمة ومطارحة كلّ ما فيه استخفاف مثل ما عليه عصابات الأدب والإصلاح في الأمصار الراقية»[3] ، وكثيراً ما كانوا يتحرّون الدّقة في تصحيح بعض الخطأ الشّائع فيستعملونه حسب أصله لا شيوعه ، ومن هذا جمع : شرك عن أشراك ، والسّائد جمعها على شِراك ، وهو مجانب للصّواب فإنّ الشّراك هو شراك النّعل ، والطّريقة من الكلأ تكون منقطعة عن غيرها ، أما الشّرك الذي يجمع على أشراك فهو حبالة الصائد[4] ، يقول أحد كتّاب الكشّاف : «وهذه جارتنا إيطاليا فإنها ناصبة أشراكها لصيد ولو جزء من شمال أفريقيا»[5] ، ولعل من مظاهر حرصهم على انتقاء اللّغة تركهم الأسهل من الألفاظ واستعمال بعض المفردات التي بها شيء من الصّعوبة كالاختزال للدّلالة على القطع أو[6] الإلغاء ، أو يختارون من الألفاظ ما يبعد عن مدلوله إلاّ على سبيل المجاز كإطلاقهم كلمة (جيل)[7] على القرن من الزّمان في حين أن (جيل) تعني جنساً من النّاس[8] ، وقد يبالغ بعض الكتّاب فيستعمل مفردات يُضرب بها المثل في التّعقيد اللّفظي إغراباً في الانتقاء وربّما إظهاراً للمقدرة اللّغوية . كأن يقول أحدهم

---

(1) المرصاد العدد 22 في 14 ربيع الأول 1329 هـ / 1911 م «حروفنا وتسهيل القراءة» .

(2) انظر : الترقي العدد 187 «سحب القرعة» .

(3) العصر الجديد العدد 19 في 28 في جمادي الآخرة 1327 هـ / 1909 م «يا عمد الجامعة العثمانية» .

(4) انظر : الوسيط جـ 1 مادة (شرك) ص 480 .

(5) الكشاف العدد 16 في 23 ربيع الأنور 1327 هـ / 1909 م «النقطة السوداء في عالم الوجود» .

(6) انظر : العصر الجديد العدد 5 «حالة التعليم» .

(7) الترقي العدد 188 .

(8) لم يذكر اللسان أنها تعني قرناً من الزمان ، وذكرها الوسيط ، انظر : اللسان جـ 1 مادة (جيل) ، والوسيط جـ 1 ص 150 .

عن أسباب انتشار مرض الكوليرا : «تجمُّعُ عدة أشخاص في مسكن واحد أو تكأكوء العالم في المعابد والمساجد . . .»[1] ، ولكن مثل هذه النّماذج قليل وتأثيره غير ذي بال .

وقد اكتسبت لغة المقالة بعض التّسميات القادمة من الشّرق فاستعاضت بها عن تسميات قديمة اصطُلح عليها لفترة طويلة ، ومن هذه التّسميات (القطر) فقد قدمت هذه التّسمية من مصر وعلى أقلام كتّاب كانوا يدرسون هناك من أشهرهم أحمد الفسّاطوي فأكثر من استعمال كلمة القطر بدلاً من (مملكة) التي تمُتّ بنسب عريق للّغة التّركية ، بل كانت تستعمل في الفترة الأخيرة بدل كلمة الولاية[2] ، ومنها (المرسح) وقد عرفت هذه الكلمة في الفترة الثّانية لكنها شاعت وكثر استعمالها بُعيد إعادة العمل بالدّستور ، وهي تعني المسرح ، غير أنّها مقلوبة قلباً مكانياً[3] .

كما شهدت لغة المقالة بعض التّعابير ذات الدّلالة الاصطلاحيّة الخاصّة ، (كالأيدي العاملة) ولا تعني ما نفهمه منها اليوم وإنّما يُقصد بها المسؤولون في الدّولة ، وكذلك (حوصلة المحيط) ويقصد بها الإجمال[4] ، إلى غير هذه الأمثلة ممّا يضيق المجال باستقصائه .

ومما يذكر لكتّاب المقالة في الفترة الثّالثة جهدهم في مجال التّرجمة والتّعريب فقد دأبوا على الحرص لتبيان ما اختلط بالعربيّة حتى ليفطن البعض منها وما هو منها ، ولو كلّفهم ذلك شططاً ، ومن الأمثلة الدّالة على ذلك مقالة عنوانها «أوّل حاجاتنا المادية الآبار النّافورية» ويعني بالنّافورية الآبار التي يندفع منها الماء تحت ضغط طبيعي أو صناعي ، وبعد تمهيد حول الماء وأهميته يقول الكاتب : «وجب علينا وجوباً أكيداً إنشاء الآبار النوفورية[5] المعبر عنها اليوم بالآبار الأرتوازية نسبة إلى آرتواز مقاطعة بفرنسا»[6] وهذه تسمية مرضية شقّت طريقها بنجاح وسط لغة الأدباء والكتّاب وارتضتها بعض المعاجم العربيّة الحديثة[7] ، وثمّة مقالة أخرى يعرض كاتبها لبعض الأسماء الشّائعة على ألسنة المثقّفين وأقلام الكتّاب محاولاً تبيان أصولها الأولى ، وعقبت عليه الصّحيفة بتذييل مباشر يبرز أهميّة قضيّة التّعريب ،

---

(1) الترقي 163 في 8 ذي القعدة 1328 هـ 1910 م «الكوليرا والوقاية منها» .

(2) انظر : المرصاد العدد 6 «التذكار لعيد ميلاد أمير المؤمنين» .

(3) انظر : الترقي العدد 103 «طرابلس الغرب مرسحاً للكر والفر» .

(4) انظر : الترقي العدد 203 «هل الذنب على الحكومة أم على الأهالي» .

(5) المعنى : النافورية ، ولعل ثمة خطأ مطبعي ، إذ لا توجد في اللغة (نوفر) .

(6) الترقي العد 85 في 4 ذي القعدة 1326 هـ / 1908 م .

(7) الوسيط جـ2 ص 939 .

وتأصيل اللّغة عندهم ، ومن هذه الأسماء (القالباق) فيترجمه بالقَلَنْسُوة[1] ، وترتضيه الصّحيفة ، ثم يعرض لـلـيُرنُس فينفي كونه عربياً وتعترض الصّحيفة قائلة : «لم تـذكر كتب اللغة أنه غير عربي وقاعدتها عند الإطلاق تنصرف للعربية»[2] ، ويناقش بعد ذلك تسمية (الكحول) و(العربة) قائلاً : «إنّ علماء العرب سمت السبيرتو بالأكول ، ولما صار ترجمة هذه الكلمة إلى الإفرنجية حرفت ونقلت إلى الكئول ثم حرفت أخرى إلى الكحول ، وكذلك قد اختلف الناس في اسم العجلة فقالوا كروسة وعربة وعربية ولم أجد أصلاً لها سوى أن العجلة اخترعت واستعملت في (عرابة) عاصمة فرعون والصّـواب أن يقال (عرابية)»[3] . وقد ردّت عليه الصّحيفة بأنّ الكحول عربيّة صميمة وأنّ الإفرنج هم الذين حرّفوها إلى الكئول[4] ، أمّا عن العربة فقد أرجعتها إلى اللّغة التركية[5] ، وأرتضت تعليله من النّاحية العقلية ، ومن المقالات التي ناقشت التّرجمة والتّعريب بوعي وإدراك مقالة عُني كاتبها بمصطلح الاقتصاد السّياسي ، فناقش الدّلالة اللّغوية للتّركيب مجزءاً ليخْلُص إلى أنّه «لما كان المفهوم لغة من الاقتصاد توفير المال ومن السّياسة إدارة الأمور فمن إضافتهما أعني من قولنا الاقتصاد السّياسي لا يمكن أن يستفاد سوى المعنى اللّغوي مركبّاً وهو الاقتصاد سياسة أو التوفير إدارة وهذا لا يعبّر أصلاً عن موضوع العلم المبحوث عنه ، لأنهم بالاقتصاد السّياسي يريدون العلم الذي يبحث عن مصادر ثروة الهيئة الاجتماعية وعن النّظام الطبيعي الذي يدور عليه ثباتها واستكمالها ، وليس في كلمة الاقتصاد ما يدلّ عليه»[6] ، ويقترح الكاتب إستبدال هذه التّسمية بالتّدبير الاجتماعي مفيضاً في الدّفاع عن مقترحه مبيّناً سبب اقحام هذا المصطلح في العربية فيقول : «أظنه جاء من عدم تعمّق المترجمين واستقصائهم عن أصل التّسمية عند الأفرنج ، فأدخلوا ذلك الاصطلاح إلى اللّغة العربيّة والعثمانيّة آخذينه عن اللغاة[7] الأعجمية فعبروا عن (ايكونومي بوليتك) بالاقتصاد السّياسي وهو خير التّرجمة حرفياً طبقاً للأصل اليوناني أو الفرنساوي ولكن لغة فقط وليس

---

(1) غطاء للرأس مختلف الأنواع والاشكال ، الوسيط جـ2 ص 754 .

(2) الترقي العدد 93 في 8 المحرم 1327 هـ / 1909 م «مراسلات» يوسف كامل الأسير .

(3) المصدر السابق .

(4) لم يذكره اللسان ، وجاء في الوسيط أنه معرب ، انظر الوسيط جـ2 ص 778 .

(5) للتسمية أصل في العربية فقد ذكر اللسان أن العربات سفن رواكد كانت في دجلة ، انظر اللسان جـ2 مادة (عرب) .

(6) الترقي العدد 188 في 19 جمادي الأولى 1329 هـ / 1911 م «الاقتصاد السياسي أو التدبير الاجتماعي» .

(7) كذا ، والصواب : اللغات .

للمعنى المقصود»[1] ولعلّنا ـ من خلال ما أسلفنا ـ ندرك اهتمام كتّاب المقالة بنقاء لغتهم وتخيّر ما يرد عليهم من اللّغات الأخرى ، هذا على صعيد المناقشة والتّنظير ، أما على صعيد التّطبيق العملي فقد انتهج الكتّاب نهجين : أحدهما يورد التّسمية المترجمة ثم يردفها بالاسم الأجنبي محصوراً مثل : «إما بواسطة التلغراف ببعض دراهم معدودة أو بوسيلة الآلة النقالة «التليفون»[2] أو مثل مصرف (بنك)[3] ، والنّهج الثّاني أن يورد التّعريب دون الأصل الأجنبي مما يشعر بأن التّسمية قد اصطُلح عليها وأصبحت مألوفة أو كالمألوفة ، كأن يقول أحد الكتّاب : «وهو في حالته كالببغاء أو الآلة الخازنة للأصوات تتكلّم ولا تدري ما تقول»[4] وهو يعني آلة التّسجيل (المسجل) دون شك ، أو كقول آخر : «. . . فيصادفه برفقة من لا يليق أو يلاحظ في يده ملفة من الدّخان فيقول هذا شأن الكبار . . .»[5] فالكاتب يتحدّث عن التّدخين عند اليافعين فيسمي السيجار ملفّة ليبتعد عن التّسمية الأجنبيّة قدر وسعه[6] .

ويسمّي كتّاب المقالة الرّسوم السّاخرة (بالتّصوير المجوني) ترجمة للكراكاتير مع شيء من الإيضاح يزيل عدم ألفة التّرجمة فيقول أحدهم : «ويوجد غير ما ذكر جرائد اكليريكية تصويرية مجونية ضد الحكومة الإيطالية . . . والجرائد المذكورة ديدنها اختلاق الأخبار وتحريف الأحاديث كل واحدة حسب مشربها ، وتشويه صورة (البابا) وتقبيح رسمه»[7] .

ومن الملاحظ أنّ كتّاب المقالة في ليبيا ظلّوا يبحثون عن تسميات لها نظائر في الشّرق متداولة من المستبعد ألاّ تكون قد بلغت أسماعهم فهم عازفون عنها في أغلب الظن .

ومن هذه المسمّيات الطّيارة فقد عرفت في المشرق العربي بهذه التّسمية[8] ولكن أحد كتّاب التّرقي في الفترة الأخيرة يسمّيها (المحلّقة) عندما يقول : «ولأنّ هذه المحلقات تطير

---

(1) المصدر السابق .

(2) المرصاد العدد 16 في 26 المحرم 1329 هـ /1911 م «فوائد التلغراف» .

(3) انظر : الترقي العدد 117 .

(4) الترقي العدد 186 في 5 جمادي الأولى 1329 هـ /1911 م «الفرق بين الشمين والمشروطيين» .

(5) الترقي العدد 86 في 11 ذي القعدة 1326 هـ /1908 م «الفرق بيننا وبينهم» .

(6) أقرّ مجمع اللغة العربية بدمشق تسمية السيجار باللفافة أو اللفيفة ، انظر : العدناني ، معجم الأخطاء الشائعة ص 116 .

(7) المرصاد العدد 33 في 4 جمادي الثانية 1329 هـ /1911 «إيطاليا وطرابلس الغرب» .

(8) يقول البارودي :

لولا التنفس لاعتلت بي زفرة   فيخالني طيارة من يبصر

بواسطة جناحين مزدوجين أو منفردين»[1] فهو على علم ـ دون شك ـ باسمها في المشرق فهو مرّة يدعوها طيّارة وأخرى طائرة لكنه يعمد إلى تثبيت المحلّقة بتكرارها أكثر من مرّة فهل كان يأمل أن يدجّن الاستعمال مثل هذه التسميات ؟!.

ولم يقتصر دور التّعريب والتّرجمة على التّسميات لمسمّيات مادّية بل تعدّاها إلى ألفاظ المعاني ، إذ بُعيد العودة إلى العمل بالدّستور سنة 1908 م ، سادت بعض التّعابير التي اقتضتها المرحلة ومنها (الارتجاعي)[2] ويقصد به الرجعي بمفهومنا اليوم، ولا أظنّه إلاّ أثراً من آثار النّهضة الأوروبية فهو من توابع ألفاظ الحرّية والإخاء والمساواة المضّادة ومن الباحثين من يراه تعريباً للكلمة الأعجمية (Réaction) والمتّصف بها (Réactionnaire)[3] .

ويُنبز بها أنصار السّلفية ، والذين لم تسكرهم نشوة التّغيير قبل إسفار الطّورانيّة عن وجهها .

وبعد هذا فقد احتفظت المقالة في فترتها الأخيرة بنفس الملامح في الفترة الثّانية من حيث بقاء القوالب الصّامتة ، وحبال الوصل مثل (بما أوجب كذا) و(موفّقيته) و(مجريات الأحوال) . . إلخ ، لتتسم لغة المقالة في الفترتين الأخريين بميسم واحد فإذا ما ابتعد من طرف اقترب من الطّرف الآخر .

---

(1) الترقي العدد 113 في 23 شوال 1327 هـ /1909 م «الطيارات المحلقات» .

(2) انظر : الترقي العدد 186 «الفرق بين الشعبين والمشروطيتين» .

(3) انظر : إبراهيم السامرائي ، اللغة والحضارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1977 م ط ـ 1 ص 62 .

أسلوب المقالة

1 ـ الفترة الأولى :

أ ـ ملامح الأسلوب العام

ب ـ سيادة الأسلوب العلمي

جـ ـ أثر العجمة في الأساليب

2 ـ الفترة الثانية :

أ ـ أنواع الأساليب

ب ـ الأسلوب العلمي الصّارم

جـ ـ الأسلوب العلمي المتأدّب

د ـ الأساليب الأدبية :

ـ أسلوب الترسّل

ـ أسلوب الصّنعة

ـ أسلوب المزاوجة

3 ـ الفترة الثالثة :

أ ـ سيادة الأسلوب الأدبي

ب ـ تقلّص أسلوب الصنعة

جـ ـ نماذج مختلفة للأساليب

ثالثاً : الأسلوب

لقد أشكل تحديد الأسلوب عند كثير من البحّاثة العرب والغربيّين ، فلا زال الاضطراب يعبث بالمفاهيم الفنيّة للكلّي والجزئي والشّكلي والمضموني[1] ، ولا أريد أن أزجّ بنفسي في الصّراع القديم الجديد حول الأسلوب ، وخلاف الشّكل والمضمون ، وإنّما سأتحدّث عن ملامح المقالة في ليبيا فترة العثمانيّين محاولاً معالجة النّسيج الأسلوبي من حيث التّراكيب اللّغوية ، وتناغم البناء الفنيّ وأمشاج السّبك اللّغوي المطبوع بطابع الكاتب الشّخصي الذي يميّزه كما تميز الملامح وجه صاحبها ، بحيث تظهر الفروق حتّى وإن اشتدّ الشّبه[2] ، وما أن ألزمت نفسي بهذا المسار حتى وجدت أنّي أعتمد على رجلين غير متوازيتين ، فحيث أوصلتني الأولى إلى النّظر في طبيعة المقالة من حيث اللّغة ، نحواً ، وصرفاً ، وبلاغة بما تشمل في فضائها الرّحب ، قصرت بي الثّانية من حيث علاقة الكاتب بما يكتب ، لعارضين أثنين : أوّلها أنّ جلّ المقالات قد كتبت بالأسلوب العام الذي يكاد يتساوى فيه الكتّاب ـ كتّاب الوسط ـ وآخرهما أنّ الكتّاب ـ إلاّ أقلّهم ـ يهملون توقيع مقالاتهم ـ فيقف هذا الإهمال حاجزاً بينها وبين الإحساس بعلاقة الكاتب ما كتب ، فأمسي كمن يصف ملامح شخص تحجبه الظّلال .

---

(1) انظر : علي جواد الطاهر ، مقدمة في النقد الأدبي ، المؤسسة العربية للنشر والدراسات ، بيروت 1979 م ط 1 ص 306 ـ 333 .

(2) المصدر السابق .

وباستعراض الفترة الأولى من هذه الدّراسة ، التي انفردت فيها صحيفة (طرابلس الغرب) بالصّدور يمكن أن نلمس اختفاء الملامح الخاصّة لأساليب الكتّاب ، فما قرأت مقالة إلاّ أحسست أن وشيجة مّا تربطها بمثيلاتها ، وهي مقالات في مجملها تخلو من العنصر الشّخصي ، وترتكز جميعها على أساليب محفوظة تسربت إليها من عدّة قنوات مختلفة ، غير أنّ من أبرز الملاحظات على هذه الفترة هي بداية المقالة منسوجة في إهاب من الترسّل مخالفة البدايات التّقليديّة في أقطار مجاورة من الوطن العربي ، كانت البدايات منها مكبّلة بأساليب الصّنعة وصليل البديع ، ولعلّ مردّ ذلك إلى تتلمذ الكتّاب على صحيفة الجوائب ، وصاحبها الشدياق[1] الذي يعد من أوائل من مهد طريق الترسّل ، وغيّر أساليب الكتابة في العصر الحديث[2] ، وما من شكّ في أن كتّاب المقالة في الفترة الأولى كانوا على اتصال وثيق بالجوائب ، ومن ثم فهي نموذج يحتذى مع الفارق في القدرات الذاتية ، والتباين في البناء اللغوي والثقافي .

هذا وقد خلت ساحة المقالة من الأسلوب الأدبي خلّوا شبه تام ، فلا تقرأ إلاّ مقالات أسلوبها علمي صارم يحمل بصمات البيئة بشكل واضح غاية الوضوح ولكي نتبيّن معالم هذا الأسلوب نسوق نصّاً من مقالة نُشرت في بداية هذه الفترة يقول كاتبها : «إنّ حصول الهمّة والعناية في استكمال أسباب استراحة الجملة ووقايتهم من موارد الخطر والكدر ممّا هو مشاهد عند الخاصّ والعامّ وأنّه يزداد يوماً فيوماً في ظلّ حضرت سلطاننا الأعظم ولي المراحم والنّعم وإنّ المحافظة على صحة العموم أمر لازم والهمم العليّة والعنايات السنيّة واقعة في هذا الباب»[3] ، بهذه الفقرة يقدّم الكاتب لمقالة اجتماعية يعالج فيها مشكلة الإجهاض ، ولكنّه يصرّ على الثّناء على الخليفة ـ وهذا شأن كتّاب هذه الفترة ـ بمناسبة أو بدونها ، فهو الفكرة الأولى في المقالة ، وقد ألبسها الكاتب ثوباً من الصّفات أسرف فيها إسرافاً مملاً ، وهذا من الأساليب المحفوظة التي أفقدها التّكرار حتى أبسط معانيها ، ومن نتائجه غياب التّلوين العاطفي للفكرة ، فالكاتب يركن إلى القوالب المحفوظة ومنها أساليب الفقهاء وعباراتهم المقولبة مثل «مع أنّه محض غرر» «ولا شبهة فيها» «وكمشي إلى الحمّام في موكب بدف

---

(1) أحمد فارس بن يوسف الشدياق ، ولد سنة 1804 م ، بقرية عشقوت بلبنان ، أسلم في تونس ، وأصدر جريدته الجوائب في الأستانة ، من علماء اللغة المبرزين ، له كنز الرغائب ، وسر الليال في القلب والإبدال ، والساق على الساق ، وغيره ، توفي بالأستانة سنة 1887 م (انظر : الأعلام طـ 7 جـ 1 ص 193) .

(2) انظر : عمر الدسوقي ، في الأدب الحديث ، دار الفكر ، القاهرة 1964 م طـ 6 جـ 1 ص 98 .

(3) طرابلس الغرب العدد 62 «مسألة إسقاط الأجنة» .

وولولة»[1] ، أو يتسع جملة طويلة من الإضافات تحت التأثير نفسه كأن يقول : «وأيضاً مناط تزايد قوّة مكنة شوكة السلطنة بتكثير وتوفير الأهالي»[2] .

وللقرآن تأثير على أساليب الكتّاب ، فكثيراً ما كانوا يستندون إلى جداره فيستعيرون في تعابيرهم بعض آياته ، كأن يقول كاتب المقالة الآنفة : «. . . مع أنهّن يلقين أنفسهن بأيديهن إلى التّهلكة»[3] .

وبالرّغم من أنّ السّائد في الأساليب هو الترسّل ، إلاّ أنّ الحنين إلى الصّنعة ظلّ يعاود بعض الكتّاب ومن هذا قول أحدهم : «والبعض من نوع البشر متنعّم بأنواع النّعم سالم من كل النّقم وبعضهم أفنى عمره في الأمور الشّاقة الجالبة لكلّ ضير وبقي محروماً لا نصيب له من الخير»[4] .

وقد شابت أساليب بعض كتّاب هذه الفترة لكنة أعجميّة ذهبت بصفاء ما يكتبون ، فجاء بناء الجمل مفكّكاً تعترضه أدوات ثانويّة مقحمة ، ونبوات ينفر منها الذّوق العربيّ ، ويأباها الطّبع سليقة ، وإنّها لتتدقّ حتى يذهب المعنى بجريرة سوء المبنى ، ومن أمثلة هذه الأساليب مقالة كتبت في بداية الفترة دفاعاً عن الخلافة نجتزىء منها ما يلي : «ومن المعلوم أنّ هذه الغزيتات[5] إنّما وضعت لتكون منها الفوائد إلى العموم بالحوادث الموثّقة سواء كانت إلى المحلاّت الذي يكون ورودها إليهم أو بنشر الذي يكون رجوع مالها[6] وتوديعها منهم إلى القرى حتى يكون جميعهم آخذاً بحصّته من المعلومات الحسنة والأخبار المقبولة المستحسنة»[7] ، فالفكرة في النّص غائمة ، برغم بساطتها فهي لا تعدو كونها مقدّمة تمهّد للموضوع الأساسي وهو الردّ على الصّحيفة التي هاجمت السّلطنة ، لكن استعمال الكاتب لأدوات الرّبط في غير مواضعها جعل من النّص شيئاً يشبه الأحجية ، فلو استغنى الكاتب عن فعل الكون ، والجار والمجرور ، واكتفى بالتّعريف عن طريق الإضافة في «إنّما وضعت لتكون منها الفوائد إلى العموم» لتصبح الجملة (إنّما وضعت لفوائد العموم) ، ناهيك عن الغلط في أدوات الوصل كوضع الذي مكان التي . . . وكاستعمال الصّفات دونما داع

---

(1) طرابلس الغرب العدد 62 «مسألة إسقاط الأجنة» مصدر سابق .

(2) السابق .

(3) السابق .

(4) طرابلس الغرب العدد 258 «الأمم المتمدنة والأقوام البدوية» مصدر سابق .

(5) المقصود : الصحف .

(6) كذا ولعل المراد : مآلها .

(7) طرابلس الغرب العدد 69 «النجم الشرقي» . مصدر سابق .

كالمعلومات الحسنة والإسراف فيها كالأخبار المقبولة المستحسنة ، ولعلّ في مثل هذا الشّاهد غناء عن كثرة التّمثيل والتّطويل وقد انقضت الفترة الأولى والأساليب على ما هي عليه تتّسم بالطّابع العلميّ العاري عن الدّيباجة والرّواء الأدبي ، يؤطّرها ما ذكرت آنفاً من ملامح لم تغادرها طيلة الفترة الأولى ، وطرفـاً من الثّانية، بيد أن الأمر اختلف بعد حين واتخذت المقالة وجهة أخرى بصدور (التّرقي) إلى جانب (طرابلس الغرب) وأردفتهما مجلة (الفنون) بطابع مقالاتها المميّز .

ولعلّي لا أجانب الحقيقة إذا قلت إنّ المقالة في فترتها الثّانية قد اتسمت بميسم هو في عمومه ميسم المقالة العالمية عموماً ، فقد اتّسع نطاق العلوم والفنون ، فأدّى هذا إلى إخلاء الطّابع الذّاتي مكانه لمدّ النّزعات العلميّة واكتفى الكتّاب بإلباس موضوعاتهم العلميّة ديباجة أدبيّة ، بأسلوب متقن رصين في معظمه[1] ، فلا غرو إذا رأينا كتّاب المقالة العلميّة في ليبيا يدبّجون مقالاتهم بطلاوة أدبيّة ونسج محكم قصّر عنه كتّاب المقالة في موضوعاتها الأخرى شديدة المساس بالأدب كالدّينية والتّاريخية ، وتشترك المقالة في ليبيا في فترتيها الثّانية والثّالثة مع الاتجاه العام في المشرق العربي ، فهي تدور في فلك مبادىء وأفكار جمال الدّين الأفغاني وتطلّ من كوّة التأثر على الأساليب في مصر ، فتتماثل أنفاس الكتّاب ، ويتّحد القاموس اللّغوي وطرائق النّسج ، شاهداً على وحدة المنهل ، وعميق الصّلة[2] ، ومن الغريب أن يرسل أحد الباحثين حكماً جزافيّاً على المقالة في ليبيا يضلّل به غيره فينساق وراءه المتعجّلون دون رويّة عندما قال : «عنصر المقالة لم ينضج والفنّ الكتابي في تلك الحقبة ـ فترة هذه الدّراسة ـ لا يعدو أن يكون مجرّد ملاحظات أو تعليقات طفيفة أو كلمـة عائمة مرتجلة ينقصها السّبك والأسلوب والطّلاء الفنّي . . . ناهيـك بأسـاليب وعبارات أواخـر القرن الثّامن والتّاسع عشر»[3] ولا أظن هذا يصدق على مقالة عرف كتّابها أسلوب الترسّل قبل أن يعرفه محمد عبده في مصر بما يزيد عن عشر سنوات[4] .

ولقد كُتبت المقالة في الفترة الثّانية بأسلوبين ـ إن صحّ التّقسيم ـ أوّلهما علميّ ، لم

---

(1) انظر : علي جواد الطاهر ، مقدمة في النقد الأدبي ص 287 .

(2) هذا بعد أن تخلص الكتّاب في مصر من أساليب الصنعة ، ومن المقالات شديدة الشبه بما كتب الليبيون مقالة للشيخ محمد عبده عنوانها «كلام في خطأ العقلاء» . انظر : محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، مطبعة المنار ، مصر ، 1344 هـ ، ط 2 ـ جـ 2 ، ص 123 .

(3) علي مصطفى المصراتي : صحافة ليبيا في نصف قرن ، ص 32 .

(4) أول مقالة له نشرت سنة 1876 م ، في صحيفة الأهرام وكانت ترزح تحت قيود الصنعة انظر : عمر الدسوقي ، في الأدب الحديث جـ 1 ص 301 ، وكذلك : بداية هذا للبحث .

يحفل بالرّواء الأدبي إلاّ قليلاً ، وآخرهما أدبيّ ، أولى الصّناعة اللّفظية قدراً من الإهتمام ، وبرزت فيه الدّوافع الذّاتية والنّوازع الأدبيّة بروزاً بيّناً .

وتعني بالأسلوب العلميّ ذلك الذي يصبّ الأفكار في قالب من اللّغة مواز لها دون تحلية أو تخييل ، وقد شهدت المقالة مراوحة بين الأسلوب العلميّ الصّارم والأسلوب العلمي المتأدّب ، ومن النّوع الأول جلّ مقالات مجلّة الفنون ، فقد حرص كتّاب هذه المجلة على انتهاج أسلوب خال من التّوشية سليم اللّغة ، محكم ، جيّد السّبك ، قصير الفقرات ، مرتّب المقاطع ، غير أنّ علامات التّرقيم مختفية أو كالمختفية من هذه المقالات ، ونجتزىء جزءاً من إحدى مقالاتها اجتزاء عشوائياً لتبينّ ذلك ، يقول أحدهم عن عمل العصارة البنكرياسيّة والصّفراوية : «كان يُظنّ قديماً أن هضم المواد الدّهنية إنّما يتم بالصّفراء خاصّة لكنه شوهد من بعد أنه في بعض الأحوال يمكن سدّ مجرى الصّفراء ومنعها من الوصول إلى المعاء وذلك من دون أن يمنع هضم الشّحوم وقد اكتشف أيضاً أنّ العصارة البانكرآسية لها خاصيّة استحلاب المواد الدّهنية أي تقسيمها إلى أجزاء دقيقة للغاية وتفريقها إلى حامض دسم وكليسرين»[1] ، فلا أثر للعناية الزّائدة باللّفظ ، في حين أنّ الحرص على سلامة اللّغة ملموس ، وترتيب الأفكار منطقي ، فابتدأ الكاتب بعرض الظنّ القديم ليرتّب عليه المشاهدات الحديثة ، وعزّزه بعرض خصائص العصارة البنكرياسية ، وهكذا تمضي المقالة حتى آخرها ، وثمّة أنموذج آخر من المقالات التي تعني بالزّراعة يقول كاتبها : «من المعلوم أنّ زمن غرس الأشجار يصادف فصل الرّبيع وبالنّظر لأقليم هذه المملكة يبتدىء في نهاية كانون الثّاني وتكمّم النّباتات وتفرّعها تماماً كالتّوت والعنب اللّذين يبادران في التّفتح يدلّ على حلول هذا الموسم»[2] ، فالكاتب هنا لم يشغله جمال الرّبيع ولم تستهوه ثغور الأكمام ، فكلّ ما يعنيه أنّ هذه الظّواهر الجميلة علامات على دخول فصل الرّبيع الذي يرشد بدوره إلى زمن غرس الأشجار وهو مراد الكاتب ، ولو وجد جُملاً أقصر من هذه لأداء معناه ما تردّد في تحبيرها ، ومن هذا القبيل أنموذج آخر يهدف الكاتب فيه إلى تبصرة النّاس بأخطار البعوض فيتّخذ مقدّمة يبينّ فيها أنّ جميع أنواع الحمّى منشوءه البعوض ، ثم يعرض أطوار حياته ليصل إلى الخاتمة أو النّتيجة وهي القضاء عليه ، ومنها قوله : «فالبعوض أكثر ما يوجد في المحلاّت المجاورة للمساكن ولا يبلغ ضرره مسافة أبعد من ستمائة قدم وإناثه تترك بيضها في الماء فينفقس بحرارة الصّيف وبعد يومين أو ثلاثة أيام يستحيل سرّفاً ذوات أجنحة وفي اليوم السّادس يخرج أحياناً على سطح الماء ويبلغ درجة

---

(1) ملف مجلة الفنون ، دار المحفوظات الوطنية ـ طرابلس ص 23 .

(2) طرابلس الغرب العدد 1088 في 16 رمضان 1322 هـ / 1904 م «الزراعة» .

الإمكان على التنفّس وحينئذ كلّ من يلسعه يتلقّح بالحمى»[1] ، فخطّة المقالة متماسكة تمام التّماسك ، وتسلسل دورة حياة البعوض مكتملة في إطار من اللّغة لا يزيد ولا ينقص عن مدلول الفكرة ، مع توسّع في دلالة بعض الألفاظ ، قد أشرت إليها عند الحديث عن لغة المقالة[2] ، والكاتب قد التزم بمنهج الموضوعيّة التزاماً تامّاً وتوارى خلف هذا السّياج الحديدي فلا أثر يميّزه ، ولا وجود لإحساسه الشّخصي ، بيد أنّ من الكتّاب من أحسّ بحدّة هذه القيود فتململ من صرامة الأسلوب العلميّ فطعّمه ببعض النّفثات الأدبيّة ، وأرخى لخياله العنان عندما أراد الحديث عن استقبال موسم جديد ، وعن الوسائل والسّبل التي على الفلاّحين مراعاتها قائلاً : «ولا يزال الهواء بالغاً الغاية في اللّطف والاعتدال منذ الأسبوع الماضي وتبدلت الأرياح الغربيّة الشّمالية الشّديدة والغربيّة الميلة بشرقيّة وشرقيّة جنوبيّة منعشة للأجسام وأتمّ العملة جميع أشغالهم في هذا الموسم ولم يبق للزرّع سوى الارتفاع عن سطح الأرض بالتدريج ـ تقويةً لأنظار الأمل القارّة حوله ـ وتخلّص الرعاة من جميع المشاقّ وأصبح الرّبيع النّضر زيادة عن الحدّ المطلوب لمعيشة الحيوانات الأرضيّة وطفقت الخرفان ترعى وتمرح بصورة تستجلب أنظار المولعين بتيع حكمه العليّة والخلاصة كاد كلّ أحد يفرغ من الأشغال إلى حلول موسم الحصاد . . .»[3] فهذه الدّيباجة الرّقيقة بما حوت من صور أدبيّة تخفف من صرامة ورتابة ما يليها من إرشادات زراعيّة قُدّت من أسلوب همّة الأوّل الوضوح والدقّة والقصد في تسميات الأشياء ، وكبح شخصيّة الكاتب وعواطفه .

ومن أمثلة هذا الأسلوب المتأدّب سلسلة من المقالات تعنى بتعريف القرّاء ببعض التّكوينات الفسيولوجية للإنسان ، وما يناسب هذا الموضوع هو الأسلوب العلميّ الصرّف ، غير أنّ كاتب هذه السلسلة له باع في الأدب جعله يمزج المادّة العلميّة بالرّواء الأدبي ليجتذب القراء إلى ما يكتب فيبلغ مراده دون أن يُعكّر بجفاء المادة العلمية صفوّ المقالة ، تتحدّث هذه السّلسلة عن الإنسان وتكوينه وإن اتّخذت (الدّماغ البشري) عنواناً لها ، ولمزيد الإثارة فقد أنفق الكاتب الحلقة الأولى في الجدل ومحاورة رأي اتّخذ من الردّ عليه مدخلاً ومقدّمة لما يريد قوله في بقيّة السّلسلة ، فقال : «ومقدمة لما سيأتي نقول إنّ ذلك البرهان حقّه أن يعكس هكذا : إنّ جسد الإنسان لا يتجدد كلّه تجدّداً تامّاً ، وكلّ غير متجدّد يخلق ويفسد فجسد الإنسان يخلّق ويفسد لا محالة ولله درّ القائل[4] :

(1) طرابلس الغرب ، العدد 1165 في 16 شعبان 1324 هـ /1906 م «التخلص من الحمى» .

(2) انظر ص 313 من هذا المبحث .

(3) طرابلس الغرب العدد 1101 في 25 ذي الحجة 1322 هـ /1904 م «نبذة زراعية» .

(4) البيتان للشيخ ناصيف اليازجي ، وقد كتبها على صورته قبيل وفاته ، انظر : أعلام الأدب والفن ، أدهم آل جندي ، جـ 2 ص 279 .

أمــوت فتبقى صـورتي فتعجبـوا | تمضي الحقــائق والـرّسـوم تقيـم
فـالموت تجليـه الحيوة[1] ولـو حوى | روحــاً لمات الهيكـل المـرسـوم

فإنّ هذا التّعبير البليغ بأنّ الموت تجليه الحيوة ليس فقط يقرر حقيقة الواقع المشهود مذ ابتداء العالم ويطابق مبادىء الفلسفة الحقيقية فإنه يعرف تعريفاً تامّاً وصحيحاً النّتيجة التي توصل إليها علماء الطّبيعة أعني أنّ الموت تسبّبه الحيوة»[2] ، وفي رأيي أنّ الكاتب قد وُفّق في هذا المدخل الذي أستأنف الحديث عنه في الحلقة التّالية مباشرة ، فأيّ امرىء لا تشغله الحياة ولا يحيّره لغزُ الموت ؟ ولكي يظلّ الحبل مشدوداً فقد تحدّث الكاتب عن سبب إحجام العلماء الأوائل عن البحث في أسباب الموت من الوجهة العلميّة ليستعرض طرفاً من تاريخ الطبّ الطّبيعي ، ومنه إلى صلب الموضوع ليعرض إلى الخلايا وتركيبها وما يتجدّد منها وما لا يتجدّد ، وتكوينات الدّم والعمليّات الكيميائيّة ، وشروط الحياة . . . إلــخ، كلّ هذا يجلّله جهد غير ميسور لتخفيف صرامة المادة العلميّـة ، كإدخـال شيء من القصص للاستشهاد من ناحية ، وللاستثارة والتّنبيه من ناحية أخرى ومن ذلك قوله : «إنّ حبات القمح التي وجدت في عصرنا هذا سالمة من الفســاد في أهرام المصريّين بقيت قوّتها الحيويّة تامّة فيها أحقاباً حتى بُذرت في الأرض وألقيت بالشّروط المنوّه عنها فانتعشت فيها الحياة السّامية وخلّفت زرعاً كبقية الحبوب الجديدة من جنسهـا»[3]، والكاتب في جميع حلقات سلسلته قد رتّب أفكاره ترتيباً منطقيّاً ، كلّ فكرة تسلم إلى الأخرى في رصف بديع ، لا تثقله الاستشهادات ولا يبطره القصص ، وإنّما تقع منه الاستراحة في طريق المسافر ، ولعلّ فيما اقتبستُ من المقالة ظهيراً يشهد بقصر الجمل ، وتناسق الفقرات ، وسلامة اللّغة ، وجودة السّبك ، وما ذلك إلاّ لأنّ الكاتب إلى جانب كونه طبيباً فهو أديب شاعر متين الاطلاّع على خبايا اللّغة ومواطن الجمال فيها[4] ، فكسا المادّة العلميّة ثوباً مزركشـاً من الأسلوب الأدبي جعل من قراءة المقالة متعة لا تملّ وفائدة لا تنسى .

وعلى الصّعيد الآخر ، يمكن حصر اتجاهات الأساليب الأدبيّة في ثلاثة محاور هي : أسلوب الترسّل ، وأسلوب الصّنعة ، والمزاوجة بين الأسلوبين ، ومن غريب الملاحظات أن تبدأ المقالة في ليبيا بأسلوب مترسل لا يعني الكتاب فيه بمطاردة الأسجاع واقتناص البديع ، وبعد انقضاء الفترة الأولى ، ومع إشراقة الفترة الثّانية يطلّ أسلوب الصّنعة يجرجر أعطافه

---

(1) كثيراً ما كان كتاب الفترة العثمانية يرسمون (الحياة) على طريقة المصحف العثماني .
(2) الترقي العدد 18 في 27 جمادي الأولى 1315 هـ /1897 م «الدماغ البشري» بقلم سليمان غزالة .
(3) الترقي العدد 22 في 25 جمادي الآخرة 1315 هـ /1897 م «الدماغ البشري» بقلم سليمان غزالة .
(4) انظر : ترجمة الكاتب في مبحث روّاد المقالة من هذا الكتاب .

في ساحة المقالة على يد عدد من أدباء وكتّاب صحيفة التّرقي التي تعتبر مدرسة من مدارس الكتابة في الولاية ، وبين الأسلوبين أسلوب جمع بين الصّنعة والترسّل حتى أنّ من الكتّاب من يبدأ مقالته بأسلوب الصّنعة فيعلو صليل السّجعة تلو السّجعة ويكثر الاستطراد في سبيل اقتناص جناس أو مطابقة أو أي نوع من أنواع المحسّنات ثم لا يلبث أن يتحلّل من هذه الأغلال فيمضي مترسّلاً تتدافع جمله في هون ويسر غير آبه بما كان قد بدأ به ، وصدور التّرقي قد شكّل دون شكّ طفرة غيّرت كثيراً من المفاهيم لا في الأفكار فحسب بل في الأساليب أيضاً ، وسنستعرض جملة من الفقرات نستهدي بها إلى سمات هذه الأساليب ، يقول عبد الرحمن البوصيري في إحدى مقالاته عن مدينة طرابلس : «ونحن لا يسعنا الاستمساك والتّقليد لما عليه الآباء ونعضّ عليه بالنّواجذ ولو أدّى إلى الخراب ، وتنبذ غيره ظهريّاً ولو كان هو عين الفلاح أفنرجّح الغشّ والتّدليس ولم يكن في آذاننا وقر ولا في بصيرتنا خلل فإنْ عذرنا الآباء اليوم عن حرمانهم من مبادىء المعارف لإهمال آبائهم إيّاهم أمس ، فلا نعذرهم اليوم في أبنائهم الصّغار الذين سيكونون كبار قوم آخرين ، فعلى ما يتربّون اليوم يُربّون الغير في غد وبما يكتالون يكيلون ومن العار أن يعيش الولد سدى مهملاً كلّاً ثقيلاً على الغير جاهلاً عتلاً لا يُفرّق بينه وبين الحيوانات (الفقم)[1] إلّا بالحقيقة فتربيته بلبان المعالي ، وتهذيبه بصفات الكمال ضريبة لازمة على كل أب محب لولده ووطنه على قدر الاستطاعة فإن لم يكن خمر فخل أو وابل فطل . . .»[2] ومن خلال هذا النصّ يمكن أن نلاحظ أنّ الكاتب قد بذل جهداً في اختيار المفردات السّهلة ، مبتعداً عن المعاضلة والاشتراك اللّفظي ، حتى يضمن وصول الفكرة صافية إلى قارئيه ، ولا يألو جهداً في ترسيخ فكرته ، فيرسل سيلاً من النّعوت المتلاحقة (سدى ، مهملاً ، كلّاً ، ثقيلاً) لتخدم بؤرة الفكرة الجزئيّة في المقطع كله ، ويستعين أيضاً بالتّقابل بين الألفاظ ، والفقرات معتمداً على مبدأ الضّدّية في بيان الأشياء ، فهو يقابل بين (الاستمساك) و(النّبذ ظهريّاً) وبين (الخراب) و (الفلاح)، وبين (الآباء) و (الأبناء)، وبين (الأمس) و (اليوم). وكاد الكاتب ينجح في بناء سلسلة أسلوبيّة متماسكة بما عقد من نظام الفكرة المعنويّة ، لولا ثلمة في السّلسلة اللّفظية حين أقحم جملة (ولم يكن في آذاننا وقر ، ولا في بصيرتنا خلل) فهي نبرة أفسدت سيل العبارة ، ومن الملاحظ على النّص أيضاً قلة الاستعانة بالمجاز ، وجفاف التّخييل ، فلم يورد الكاتب إلّا صورة مقتضبة من المجاز حين قال : (فتربيته بلبان المعالي)

---

(1) كلمة غير واضحة المعنى ، وربما كان المراد (العجم) .

(2) الترقي العدد 7 في 9 ربيع الأول 1315 هـ /1897 م «طرابلس الغرب أمس واليوم وغداً أو المعارف والثروة» بقلم عبد الرحمن البوصيري .

أو (فإن لم يكن خمر فخل أو وابل فطل) ، ولو أوسع في الصّور البلاغيّة لكان النّص أبعد أثراً في النّفس ، وأبلغ موقعاً ، ويمكننا أن نقول أن الكاتب اختار الأسلوب المموّج ذا الجمل الطّويلة ، فالكمّ بين الجمل متوازن بصفة عامة ، والوقت الذي تستغرقه جملة (ونحن لا يسعنا الاستمساك والتّقليد لما عليه الآباء) يوازي الوقت الذي تستغرقه جملة (ونعضّ عليه بالنّواجذ ولو أدّى إلى الخراب) وتوازي كذلك جملة (ونبذ غيره ظهريّاً ولو كان هو عين الفلاح) . وتتفاوت درجة علو الإيقاع فهو خافت في مجمله ، ولا يعلو إلاّ في مثل (سدى ، مهملاً ، كلاّ ، ثقيلاً) و(فإنّ لم يكن خمر فخل أو وابل فطل) ، وفي ظنّي أنّ الكاتب واقع تحت تأثير سيطرة الشّعر على نفسه ، فهو شاعر وكاتب ولا بدّ أن يعلو نغم الموسيقيّة في نفسه عندما يطرب لأداة الفكرة ، وإذا ما أمعنّا النّظر في اختيار الكاتب لجملة (فتربيته بلبان المعالي وتهذيبه بصفات الكمال) نجده قد اختار نسجها من مقاطع قصيرة ومقاطع طويلة ، وقد جاءت شبه متوازية فالقصيرة ثلاثة عشر مقطعاً والطويلة اثنا عشر مقطعاً ، وهذا التّوازي ينشأ عنه خفوت الإيقاع نتيجة لتوالي المقاطع القصيرة والطّويلة وتبادل مواقعها ، أما النّغم فيبدو عالياً إلى درجة مّا ، لإكثار الكاتب من أصوات الصّفير ، والأصوات المجهورة[1] .

وثمّة أنموذج آخر نورده استئناساً للتّدليل على أشكال الأسلوب الأدبيّ في الفترة الثّانية يتحدّث كاتبه عن حرب تركيا واليونان فيقول : «أبى اللّه لهذا الجنس النّحس إلاّ أن يكون في هذا الزّمان المشئوم عليهم نكتة سوداء في جبين الدّهر لا يغسلها نهر ولا بحر ولا يكشطها ويسلخها إلاّ باتر أدهم أو سيف اللّه الأعظم على أنّه لا يكاد يعرف لهم في التّاريخ أصل أصيل ينتمون إليه ويجمعهم كغيرهم من الأمم القديمة فكل مؤرّخ ينسبهم بالتّخمين إلى جدّ غير الذي ينسبهم إليه بحدسه الآخر»[2] ، وتبرز في هذا النّص لأوّل وهلة اهتمام الكاتب بالمحسّنات اللّفظية كالجناس النّاقص بين (الجنس والنّحس) ، والتّعويل على النّغم في مثل (جبين الدّهر لا يغسلها نهر ولا بحر) ، وتزيين الفقر بالسّجع العارض مثل (إلاّ باتر أدهم أو سيف اللّه الأعظم) ، وإيراد بعض النّعوت الدّالة على قوّة المعنى مثل (أصل أصيل) . . . ولا يتّسع المجال لإيراد أمثلة أخرى ، فأسلوب الترسّل قد رسخت قدمه عند كتّاب المقالة منذ الفترة الأولى ، غير أنّ منهم من فتن بأساليب الصّنعة ، واستهواه البديع فطفق يدبج مقالات يُظهر بها براعته في اقتناص السّجع ، وحبك عقد الجناس والطّباق والتّضمين وغيره من ضروب الصّنعة ، ومن النّماذج الفجّة مقالة نشرت في (طرابلس

---

(1) من أحرف الصّفير : السّين والصّاد والزّين ، ومن المجهورة : الجيم والدّال والعين . . .

(2) التّرقي العدد 3 في 10 صفر1315 هـ ـ 1897 م «هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان أو ما هي نتيجة بغي اليونان» .

الغرب) تمتدح الخليفة نجتزىء منها ما يلي : «وحيث كان من دأب جلالة الخليفة الأعظم أن ينير حتى أظلم زوايا ممالكه المحروسة السّلطانيّة بكهرباء العمران . . .»[1] ناهيك عن مثل قوله (لاستراحة أهاليها وأعاليها) و(ذلك الوجه الوجيه) مما لا يخفى ما فيه من فجاجة مملولة ، وقد ابتدأت (الترّقي) عهدها بمدرسة للصّنعة تغالب اتجاه صاحب الصّحيفة ومدرسته المترسّلة بأقلامها الفنيّة ، تصدّرها الشّيخان عبد الرّحمن البوصيري ومصطفى بن زكري ، وهما شاعران فعزّ عليهما أن لا يكون النّثر متميزاً ميزة الشّعر ، فأرسلا قلميهما لإحياء ما اندثر من مدرسة الصّناعة وزخرفة الأساليب برهة من الزّمن ثم عدلاً عن ذلك إمّا اقتناعاً بعدم جدوى مذهبيهما وإمّا لأنّ عوامل التّغيير لم تعد تنتظرهما حتى ينظرا في توشية مقالاتهما ، ومن النّماذج المبكّرة لهذا الأسلوب مقالة عنوانها (هكذا هكذا وإلاّ فلا لا) يقول كاتبها[2] : «بينما أروّض نفسي عشيّة على شاطىء بحر الأزرار ، وأقلّب حدقتي من الأمام لليمين واليسار والهواء يساورني بلطافته والبحر[3] بكثبانه فتعجّبت من هيجانه ، وانزعجت من خلجانه ، وليس في الجوّ غيوم ولا ريح ، فطفقت في طلب سببه وبرهانه لأستريح ، فبينما أرتّب المقدّمات ببصيرتي ، إذ بداع دعاني من سريرتي ، دع عنك سفسطة البراهين والأسباب ، وهلمّ إلى «برهان الدّين»[4] من الأبواب ، فلبّيته بالقبول ، وتشرّفت بالدّخول ، فإذا هي فسيحة الأرجاء ، وهيولي الهيجاء ، بعيدة الأطراف ، ومنازل الأشراف ، والنّاس فيها صفوف بل عشرات ومئات وألوف ، فأذهلني ما شاهدته من الأنام ، حتى خيّل لي أنّي في منى أو في المشعر الحرام»[5] ، ولعلّي قد أطلت في هذا الاقتباس ، وما ذلك إلاّ ليمكن تصوّر التكلّف والعناء الذي بذله الكاتب في تدبيج هذه المقالة ، إذا علمنا أنّها طويلة جدّاً استغرقت نصف ورقات الصّحيفة وكلّها على هذا المنوال من السّجع قصير الفقرات ، تجنح إلى بناء المقامة في عصر بديع الزمان يتّخذ الكاتب من نفسه بطلاً لقصّتها فيجسّد شعوره عند مشهد المتدرّبين على السّلاح قائلاً : «فتنبّهت لحرماني ، فوبّخت جثماني ، وكدّرني ضميري فهل من عذيري ، لأنّ من لم يتاجر في أسواق هذه السّعادة ، فلا الجنّة له ولا الزّيادة ، ولو رأيتني في وسط الجموع . وأنا مستعد للخشوع . . .» ومثل هذا التكلّف يجرّ دون شكّ إلى سفاسف في التّعبير لم تخل منها هذه

---

(1) طرابلس الغرب العدد 1188 في 7 صفر 1325 هـ ـ 1907 م «النّور الجميل لحامي الخلافة الجليل» .
(2) أظنّه مصطفى بن زكري ، فقاموسه اللّغوي يوحي بذلك .
(3) كلمة غير واضحة بالأصل .
(4) معسكر للتّدريب في طرابلس .
(5) التّرقي العدد 5 في 24 صفر 1315 هـ ـ 1897 م «هكذا هكذا وإلا فلا لا» .

المقالة كقوله : «ولولا الدّموع التي خفقت خفقان قلبي لسقطتُ إلى الأرض على جنبي . . . . .» فهل منعه سقوط الدّموع من السّقوط على جنبه ؟ ولست بقادر على تصوّر خفقان الدّموع ، فلا مشاحّة في أنّ هذه المثالب مما تجره الصّنعة المتكلّفة المرذولة ، وفي نفس الموضوع يكتب عبد الرحمن البوصيري مقالة يستعرض فيها قدرته على الصنعة البديعة فيشبع الموضوع جناساً وتورية وتضميناً وطباقاً إلى آخر فنون الصّناعة التي يتبارى فيها كتّاب عصور الإنحطاط ، ومن نهج نهجهم ، ولست أدري كم أنفق من وقت وجهد ليقول : «من يلومني إن طرت في الهوا طربا ، فاتّخذت بين السّماء والأرض سربا ، أو من يلومني إذا استفزني الفرح وامتطيت متن الجوّ على أقواس قزح ، هؤلاء سراة أهل بلادي ، قد أمنوا مستقبلي وطمّنوا فؤادي ، ومن لا يعذرني إذا أفرغت في مدحهم جعبة مدادي وأكملت في الثّناء بياضي وسوادي قد كانوا للدّهر من جملة الخدم فإذا الدّهر لهم أسير تحت القدم ناداهم من قبل اللّه منادي الفلاح هلمّوا إلى نجاح الاستقبال ومستقبل النّجاح . . .»[1] ، ولكّن الكاتب نفسه ـ فيما خيّل إليّ ـ قد شعر بغثاثة هذا الأسلوب فتحلّل منه تحلّلاً جزئياً بادىء الأمر ثم هجره جملة ، ويمثّل هذا التطوّر سلسلةٌ من المقالات التّاريخية تحدث فيها عن طرابلس الغرب وافتتحها بمقدّمة مسجوعة سرعان ما تخلّص منها إلى أسلوب مرسل خال من التكلّف والعنت[2] وقد أوردنا منها فقرات في مبحث المقالة التّاريخية .

ويتحلّل بن زكري أيضاً من بعض أساليب الصّنعة ولكنّه يؤثر تطعيم مقالاته بشيء من الأسجاع ويقتنص بعض التّضمينات التي لا تبدو نابية في معظم الأحيان بيد أنّه يبقى أسير مدرسة تتلاعب بالألفاظ يحنّ إليها بين الفينة والأخرى ، كأن يقول : «وقد يؤمر الجند بالخفض ولباس الأرض ، دفعاً لبأس العارض الذي تنقض صواعقه لمرصد المنام على بعد المرام ، وقد ينادي بالرفع فينتصب في الحال للهجوم تحت قتام الأقدام . . .»[3] ، وهذا ـ في رأيي ـ احتذاء لأساليب العصور الوسيطة كقول أحدهم : «بلغنا أنّ فلاناً أضمر سيّدنا له فعلاً غدا به منتصباً للمكايد ومعتلاً وليس موصولاً كالذي بصلة وعائد . . .   إلى آخر ما درج عليه هؤلاء من توظيف للمصطلحات النّحوية والصّرفية بل والعروضيّة ، وما أن يشبع بن زكري رغبته في التّفنن اللّفظي حتى يسترسل أسلوبه في معالجة موضوع المقالة بروّية فتأتي جمله متجانسة وألفاظه سهلة وربّما زاوج بين الأسلوبين في مقالة واحدة ، وما أوردناه في النّص الآنف هو مقدمة لمقالة نورد خاتمتها لتبيان هذه المجاوزة بين الأسلوبين ،

---

(1) الترقي العدد 38 في 26 ذي القعدة 1315 هـ ـ 1897 م «ختام التّعليم» بقلم ع . ن .

(2) انظر : الترقي العددين 16 و 17 «إجمال تاريخ مدينة طرابلس الغرب» للبوصيري .

(3) الترقي العدد 37 في 18 ذي القعدة 1315 هـ ـ 1897 م «تعطيل حكم السّلاح القديم» .

(4) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، جـ 1 ص 177 .

يقول بن زكري : «ولا يخفى على مسلم أن الله أنجزنا وعده واستخلفنا في الأرض بفضله فكيف لا تستعدّ للدّفاع عن تلك الأرض المخضبة بدماء آبائنا الكرام السّعداء وسادة الإسلام الشّهداء وتجرّد صارم الحزم والعزم ونقوم بما تسعه القدرة وتسمح به الضّرورة لإعلاء كلمة الله والذّب عن حوزة الدّين وعزّة الوطن الذي جعل الله حبّه من الإيمان»[1] ، وهذه الخاتمة وإن خلت من السّجع في عمومها فلا زالت نفس الكاتب تهفو إليه مثل اعتسافه لبعض الصّفات ليولد بها إيقاعاً يزين به النّص كقوله : «بدماء آبائنا الكرام السّعداء وسادة الإسلام الشّهداء» ، ومثل اقتناص الجناس بين (الحزم والعزم) ومع ذلك فقد خطا الأسلوب التّقليدي خطوات سريعة سرعان ما وصل بها إلى الأساليب الطليّة المترسّلة ، وإن بقيت أثارة منه حتى نهاية الفترة العثمانيّة .

ومن أبرز ملامح هذه الأساليب اعتمادها على التّراث الأدبي والدّيني ، حيث تكثر فيها الاستشهادات بالمأثور من الشّعر والحكم ، وتضمين الآيات القرآنيّة والإشارة إلى الأحاديث النّبوية وقد تسهل بعض الأساليب فيضمنها الكاتب مثلاً شعبيّاً مفصّحاً كأن يقول أحدهم : «هل ينكر البون العظيم الذي بينهما إلاّ مكابر يحاول تغطية الشّمس بالغربال»[2] فهو تفصيح للمثل الشّعبي «فلان يريد يغطي عين الشّمس بالغربال» .

ومن الأساليب من ينزع إلى الخطابة ، فيعلو وتر الأنفعال ، وترنّ المفردات المتلاحقة في الأسماع ، وتكثر أدوات التأكيد ، ويهيمن القسم بدل الاقناع الهادىء فهي خطبة أو كالخطبة ، ومن أبرز نماذجها الدّالة عليها بوضوح مقالة يقول كاتبها : «أيها الطّرابلسيون البسلاء العثمانيون أصحاب الغيرة والحمية والصّداقة الدّينية المخلصون في العبودية نحو عرش الخلافة المقدّسة ، إنّكم والله قد سعدتم وأفلحتم وجزتم أسمى شرف وارتقيتم إلى ذروة العز وسنام المجد حيث إنّكم أيها النجباء الكرام والشّجعان العظام قد انتبهتم من سنة الغفلة وتجافيتم عن مضاجع الكسل وأقبلتم بصميم القلب على تعليم السّلاح ومعرفة الفنون الحربيّة . . .»[3] .

وما أن أعيد العمل بالدّستور سنة 1908 م ، حتى خطت المقالة خطوات واثقة واكتسبت ملامح جديدة ، وتراجعت بعض محاور الإهتمام في الفترة الثّانية لتفسح المجال أمام محاور جديدة ، فقد علا صوت الحريّة والإخاء والمساواة وأخذ الكتّاب بوميض الحرّية

---

(1) الترقي العدد 37 ، مصدر سابق .

(2) الترقي العدد 23 في 2 رجب 1315 هـ ـ 1897 م «الاتحاد والانفراد» .

(3) الترقي العدد 38 في 26 ذي القعدة 1315 هـ ـ 1897 م «التّحدث بنعمة تعليم السّلاح» بقلم إبراهيم باكير .

والتطلّع إلى النظّام الدّيموقراطي ، فاستدعى هذا الانصراف عن الاهتمام بالموضوعات العلميّة ، ومن ثمّ فقد تراجع الأسلوب العلمي في الكتابة وبسط الأسلوب الأدبي جناحيه على أجواء المقالة ، وقد تشكّل هذا الأسلوب وتنوع أنواعاً عديدة، بقي فيها سؤر من أساليب الصّناعة بالرّغم من الدّعوة إلى نبذ هذه الأساليب وانتقادها حتى (الفرمانات) السّلطانية لم تسلم من نقد أسلوبها القديم الميّال للزخرف وكثرة الأوصاف المملة[1] .

ومن المقالات التي تنتقد أسلوب الصّناعة اللّفظية مقالة خاطب بها كاتبها الكتّاب والمنشئين قائلاً : «من الكتّاب من تأخذهم نشوة الظّهور وحبّ الشّهرة بالتعمّق في اللّغة العربيّة وحفظ مفرداتها فيطوح بهم ذلك عما هو مطلوب منهم من الجري على الأساليب التي تكفل إيصال المقصود واستيفاء المرغوب من العموم كأنهم سامحهم اللّه نسوا (خير الكلام ما دخل الأذن من غير إذن) وأنّ سلوك المسالك الوعرة في التّعبير واستعمال وحشي اللّفظ وغريبه لم يعدّوه من عيوب البلاغة على أن أبناء الفصاحة الحقّة والعربية الصّميمة قديماً وحديثاً أجمعوا على وجوب مجانبة كلّ ما من شأنه إيلاء التّراكيب غموضاً عن سرعة فهم المعنى . . . » إلى أن يقول : «فيجدر بأرباب الجرائد أن يبذلوا كل ما في وسعهم في سبيل إصدار آرائهم وأنبائهم في حلّة من نسيج الحديث المحّبب المعنى الواضح المبنى»[2] .

ومثل هذا النّص يدلّ على وعي كامل بتباين الأساليب وأفضليّة الأسلوب السّهل الميسور الخالي من التّقعر وركوب الغريب من الألفاظ ، ومع ذلك فقد ظلّت هناك نماذج لم يتسنّ لها الانفصال عن ماضيها العتيق فطفقت ترفل في ثياب الأسجاع غير آبهة بما وصلت إليه أساليب الكتابة في ثوبها الجديد القديم ، والذي أظنّه أنّ هذه الفئة لا بد أنّ لها قرّاء يروقهم ما يكتبون ، وتلذّ أسماعهم عبارات البديع ورنين الأسجاع ، وتطرب أفئدتهم للحلل القديمة حنيناً للماضي وتمسّكاً بالمألوف ، غير أنّه لم يحدث أي صراع بين أنصار هذه الأساليب ، ولعلّه إن حدث فهو صراع صامت لم يصل إلينا منه شيء إلاّ صداه[3] .

وتقلص أسلوب الصّنعة شيئاً فشيئاً في نهاية الفترة الثّالثة ، وسنعرض منه أنموذجين يمثّلان الفترة الأخيرة في عمر الصّناعة اللّفظية ، يقول أحد كتّاب هذا النّمط في مقالة وصفية بمناسبة قرار الحكومة بتجنيد أهل ولاية طرابلس الغرب : «لقد أنطقنا ألسنة الأقلام

---

(1) انظر : الترقي العدد 98 في 14صفر 1327 هـ ـ 1909 م «تعريب الخط السّلطاني» .

(2) العصر الجديد العدد 17 في 14 جمادي الآخرة 1327 هـ ـ 1909 «الكتّاب والمنشئون» .

(3) من هذه الأصداء ، أن القساطوي بعث بمقالات إلى التّرقي فأبى صاحب الترقي نشرها ، فبعث بها إلى الكشّاف الذي نشرها مقدمة بما يشعر بأنّ هناك صراعاً ، لاختلاف مشرب الكاتب وصاحب التّرقي ، انظر : الكشاف العدد 9 «رسالة لمكاتبنا الفاضل الشيخ أحمد أفندي القساطوي» .

بعد أن أخرسناها ، وأبكينا عيون المحابر غبّ أن أسكتناها ، وأسفرنا عن وجوه الطّروس عقب أن حجبناها ، وأكرمنا البنان باليراع بعيد أن عاهدناه أن لا تبريه ، وسقيناه من رضاب الداد[1] لنباريه حرصاً منا على إظهار شكر الكرامة الوطنية ومحافظة على الحميّة إذ الإنسان مجبول طبعاً على التّحرك بالانفعالات النّفسية ، ومفصول أدباً للمواد الإنسانية ، وكان من أعظم البواعث لنا على العود والعود أحمد خصوصاً إلى ما يستملح ويحمد ، أنه ما كادت تبزغ غزالة صباح يوم الخميس ثالث شباط الجاري الموعود فيه بقراءة الفرمان السّلطاني العالي ، القاضي بلزوم التّجنيد من أهالي ولايتنا طرابلس الغرب الجليلة . . .»[2] ، وهذا النّص يزخر بالصّور المجازيّة التي لا تخلو من الحسن في بابها ، كاستعارة الألسنة للأقلام وكبكاء عيون المحابر ، والكاتب يعتني بالمحسّنات المعنوية كالطّباق في (أنطقنا ألسنة الأقلام) و(أخرسناها) و(أبكيناها وأسكتناها) ، علاوة عن المحسنات اللّفظية ، ومن أبرزها في النص السّجع حيث يخفّف الكاتب من رتابة الإيقاع بتلوين السّجعات في الفواصل ، فالجمل الأولى فواصلها هاء قبلها فتحة طويلة ، والجمل التّالية لها هاء قبلها كسرة طويلة ، ثم يلوّن مرة ثالثة بهاء قبلها ياء مضعّفة ثم دال ساكنة وهكذا تمضي باقي المقالة زاخرة بالصّناعة غير المستكرهة ، أمّا النّموذج الثّاني فهو أدخل في باب الهجاء ، حيث يشنّ كاتب المقالة حملة عنيفة على من زعم أنه استدعي من قبل الوالي ، وهذا في عرف الدّولة العثمانيّة عزل مع الإهانة ، فيقول منافحاً عن نفسه : «زعم بعض من لا خلاق لهم وكلّ ميسر لما خلق له أننا خرجنا من العجيلات مجلوبين بأمر الوالي ، أو مكرهين من طرف الأهالي ، وكلاهما زعم باطل ، وتخمين من الحق عاطل ، والذي حملهم على ذلك هو تشبّثنا بوظيفة بالولاية ، وزهدنا في الأخرى ، وما درى وكيف يدري من أعمى الله بصيرته ، ورمى بالضّلال سيرته أنّنا خرجنا مأذونين مختارين بين توديع وتشييع من أعيان الأهالي والمأمورين»[3] ولولا ضيق المقام لأكثرت من الاستشهاد بمثل هذه النّصوص ، لإبراز عناية كتّاب الصّنعة بأساليبهم وتنميقها وتحسينها ، غير أنّ السّيادة كانت لأساليب التّرسل ، فقد أرسى محمد البوصيري قواعد الكتابة المرسلة ، ودأب على نسج مقالاته بلغة سهلة تنساب انسياباً يبلغ شغاف القلوب ، فلم يعنّ نفسه في البحث عن معتاص الكلام ، ولا شارد الاستشهاد ، وإنّما يحدّثك حديث العابر فلا عناء ولا تعنيه ، ومن مقالاته التي برزت فيها هذه الخصائص مقالة عنوانها (الفرق بيننا وبينهم) يقارن فيها بين الرّجل الشّرقي والغربي ، وأوّل ما يطالعك من خصائص أسلوبه

---

(1) لم أعرف لها معنى ، ولعلها من قبيل الخطأ المطبعي .

(2) التّرقي العدد 178 في 1 ربيع الأول 1329 هـ ـ 1911 م .

(3) الترقي العدد 201 في 22 شعبان 1329 هـ ـ 1911 م «لا سلامة من الخلق» بقلم الفضيل .

الوضوح ، فالفكرة واضحة غاية الوضوح ، اتخذ لها عدة دوائر ، في الدّائرة الأولى يرسم صـورة ساخرة لأخلاق الرّجل الشّرقي فيقول : «قد اعتاد الشّرقي أن يظهر بمظاهر الغنى والكبرياء والفخفخة الكاذبة فيجدها دائماً بتحسين ملبسه ليجلس في الصّدر وعياله عراة ويتكرّم بما يستدينه ليعتبر من الطّبقة العليا ويكثر من الولائم والضّيافات وأولاده يتضوّرون جوعاً . . .»[1] ، وفي الدائرة الثّانية يصوّره يسعى جاهداً للحصول على وظيفة يشقّ الطّرق ولكي يسدّ الطّرق ولكي يسدّ ديونه ومصاريفه يختلس أموال الدّولة ويفتضح أمره فيصبح في «زوايا الإهمال ومرور اسمه على الأذن أشد من دبيب العقرب» ويفيض في تحليل عقدة حبّ الوظيفة فيسلّط عليها الضّوء منذ طفولة الشّرقي وتربيته الأولى في صور غاية في السّخرية اللاّذعة والنّقد الاجتماعي الهادف ، ويقابلهما بدائرة ثالثة يبينّ فيها أخلاق الغـربي وحبّه للعمل وكره الوظائف الحكوميّة ، وفي الدّائرة الرّابعة وهي الخاتمة التي يريد إبلاغها للقراء فيحكم بأنّ مرض الشّرق مستحكم أيضاً في ولاية طرابلس الغرب فيقول : «أما نحن فقد ابتلينا بما ابتلي به سائر الشّرقيين فلا يوجد فينا من يدرب ولده على التّجارة ولا الصّناعة والزّراعة التي هي الضّامن الوحيـد لسعادة البـلاد ورقيّها وفيهـا الغنى التّام عن الهوس بالمأموريات ذلك الهوس المؤدّي دائماً إلى الشّحناء والبغضاء حتى بين الأقارب بسبب قلة الوظائف وتحديدها وكثرة الرغبة فيها وتجديدها كل سنة» .

وإلى جانب وضوح الفكرة ، انتهج الكاتب اليسر في اللّغة فاختار مفردات مقالته من اللّغة التي توشك أن تخالط لغة العامّة ، بل منها ما يدرج على لسان رجل الشّارع ، انظر إلى كلمة (الفخفخة) فبالرّغم من صحتها اللّغوية إلاّ أنّها مما يجول على الألسنة كلّ حين ، وينسج الكاتب أسلوبه في شيء من العناية الخفية فيجمله ببعض المحسّنات المعنوية كالمقابلة في قوله : «بتحسين ملبسه . . . وعياله عراة» ، «ويكثر من الولائم . . . وأولاده يتضوّرون جوعاً» . إلخ ، ولكنّها صنعة تجري مجرى الطّبع فلا تستنكرها الأذن ولا يرفضها الذوق[2] .

ومن الأساليب التي شغلت حيزاً كبيراً من مساحة المقالة أسلوب يعتمد على رسم الصّور السّاخرة تفنن فيه الكتّاب بأشكال مختلفة تبدأ من المقالة المسجوعة هزءاً وسخرية وتنتهي برسم صور أخلاقيّة نمطيّة على مذهب الجاحظ ومن نماذج هذا الأسلوب مقالة قصيرة يسخر فيها الكاتب من بعض الأعيان لسلوكهم الأخلاقي المشين ، فيتخذ من السّجع مركباً

---

(1) التّرقي العدد 86 في 11 ذي القعدة 1326 هـ ـ 1908 م «الفرق بيننا بينهم» .

(2) من المقالات الدّالة على سيادة هذا النّمط مقالة «كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» التّرقي العدد 167 ، و«فوضى أم حرية» التّرقي 89 و«تسيطر العادات» التّرقي 89 .

إزدراء وسخريّة وإمعاناً في التّهكم فيقول : «فالتفتُّ ذات الشّمال ، فسمعت جماعة من الرّجال ، ساعة يضحكون ، وساعة يعربدون ، فطلبت من الخمّار أن يعيرني بالونّ الجار ، فأجاب طلبي على الفور ، وصعدت إلى الدّور ، فرأيت صالة مفروشة بالزّرابي المبثوثة ، وبوسطها خوان ، دائرة عليه الأفندية والنّسوان ، يعاقرون بنت الحان ويترنّمون بالألحان ، وغانية تارة ترقص رقص الجهال ، وآونة تصفع الأنذال ، وهم مسرورون ومن أفعالها متشكّرون . . »[1] ..

ويمضي الكاتب في سخريّته واصفاً كل أحوال المجلس حتى ينفض ، متّخذاً من فقرات السّجع وسيلة للسّخرية والإزدراء .

ومن أنصع المقالات في هذا الباب مقالة جادّة في موضوعها ، ساخرة في أسلوبها تعكس النّقد المر الموجه للدّولة في اختيارها لموظفيها من الشّيوخ وإهمال الشّباب ، ولا يمهد الكاتب لموضوعه بأيّ تمهيد بل يبغت القارىء بنقد الحكومة ومناصرة الشّباب المحرومين من تقلد المسؤولية لأسباب يرسلها متتالية كالسّيل الهادر فيقول : «لا يكاد الشّاب النّجيب المقتدر يجد مدخلاً أو يتبوّأ مقعداً من مقاعد الحكومة ما دام حيّاً يرزق فلانٌ باشا وابنه وابن ابنه وكباره وصغاره وجاره وحماره وعشيرته الأقربون والأبعدون وجدّه وإن علا وعمّه وإن سفل إلى أن تنقطع سلسلة النّسب وليست بمنقطعة ما بقي العالم وعلى فرض انقطاعها يليه ذو المال وعياله وآله وإن عدم يخلفه ذو الجاه ومن التفّ حوله إلى أن يقطع اللّه دابرهم فيرثه ذو النّسب إلى من والاه أو والى من والاه ويتولاّه ذو الحسب عمّن ذكر ومن لم يذكر إلى أن يعقبه ابن البيت أي الأصيل في قومه وأقاربه وأحبابه ومن يلوذ به وإن عُدموا يخلفهم لابس البرنس وإحرام الحرير والجيب وقابض قضيب الخيزران ومنتظم الهندام وجميل الشّكل وحسن الوجه ومستكمل الجسم (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . .) وذو اللّحية ويقدّم شائبها لكثرة تجاربه وقدمه وأليقيّته بشرف الحكومة وحيثيتها «لانكسار قلال كثيرة على رأسه» كما يعبّرون ، هؤلاء ومن ماثلهم لا زالوا معتمد الحكومة وقادتها والقائمين بأعمالها ومحطّ رحالها»[2] ، وفي هذا النّص يمكن أن نلحظ التدفّق الأسلوبي ، بالرّغم من قصر الجمل التي يولّد توازنها نغماً قصير النّفس ، إلاّ أنّ ربطها بأحرف العطف يجعل منها سلسلة موسيقيّة ذات إيقاع متساوق في معظمه ، ومن جميل السّبك تتالي الصّفات المضافة التي يأخذ بعضها برقاب بعض لتنتهي عند صورة مشحونة بقوّة الدّلالة القرآنية (يخلفهم لابس البرنس . . . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . . .) ، ويسلّط هذا الكاتب قلمه اللاّذع على أصحاب

(1) المرصاد العدد 16 في 26 المحرم 1329 هـ ـ 1911 م «ليلة أنس» .

(2) الترقي العدد 171 في 12 المحرم 1329 هـ ـ 1911 م «إنّما المرء بأصغريه لا ببرنسه وجبّته» .

اللّحى فتبرز في هذه اللّوحة (الكراكاتيرية) فنتخيّل لونها الأبيض الموحي بالوقار ثم يحطّم الكاتب ما تصوّرنا بانعطافه إلى المثل الشّعبي الذي فصّحه ليناسب المقام وهو مثل يصوّر لنا الحصان الحرون في ميدان السّباق ، ومن العادة أن تكسر فوق رأسه قلّة فخّار ليفزع ويجري في الحلبة (لانكسار قلال كثيرة على رأسه) ، والمقالة تزخر بالعديد من الصّور السّاخرة ، لا يتسع المجال لاستعراضها .

ومن أساليب المقالة في فترتها الأخيرة الأسلوب القصصي ، حيث أفرغ الكتّاب مقالاتهم في قالب قصصي يتوسّلون به إلى التّأثير في عاطفة القرّاء عن طريق إمتاعهم أدبياً ثم عرض صميم المقالة بعد ذلك[1] .

ولم تخل المقالة في فترتها الأخيرة من الإستناد إلى جذر الموروث الثّقافي من القرآن والحديث والحكم والأمثال المأثورة والشّواهد الشّعريّة ، ولعلّ فيما عرضته من نماذج ما يغني عن المزيد ، ويكفي لتصوّر ما مرّت به المقالة من تطوّر فنّي خلال الفترة العثمانيّة في ليبيا .

---

(1) انظر : المرصاد العدد 26 «لو كان الفقر رجلاً لقتلته» ، والعصر الجديد العدد 21 «أحلام العصر الجديد» وأبو قشة «رحلتنا» .

الخاتمة

حفل هذا البحث العديد من القضايا التي لم تمسسها يد البحث، وبغيرها مما مُسّ مسّاً خفيفاً ، وقد حاولت جهدي أن أبسط رأيي في كل قضيّة بحيث لم أتجاوز في النّتائج ما يعطيه تحليل النّصوص المقاليّة بتجرّد كامل .

وفي هذه الخاتمة سأسلط الضّوء على بعض النّتائج تاركاً البقيّة لتضاعيف البحث وتفصيلاته ، ومنها : أن فنّ المقالة فن عرفه العرب منذ عصورهم الأدبيّة الأولى ، وقبل أن يولد من تُنسب إليه المقالة بعدّة قرون ، ومنها : أنّ المقالة في ليبيا قد قامت بدور ثقافي وفكري بارز خلال العهد العثماني الثّاني ، وكانت نواة لنهضة أدبية واجتماعية شاملة كان من الممكن أن تغيّر وجه الحياة في ليبيا لولا الغزو الإيطالي وما جرّ من ويلات ودمار .

ومن النّتائج التي لا تمارى وقوف الصّحافة في ليبيا بعد طور النّشأة على قدم المساواة مع الصّحف العالميّة ، فكانت تتلقّى الأخبار عبر مراسلين لها في العواصم الأوروبيّة والبلاد العربيّة ودار الخلافة ، وقد شارك في كتابة المقالة كُتّاب من الأقطار العربيّة والإسلاميّة كالدكتور سليمان غزالة من العراق ، ومحمد الهاشمي المكّي من تونس ، ومصطفى الغلاييني من لبنان ، ومحمد بن عمران من تونس ، وعبد المجيد كامل من مصر ، ومراد ديار بكرلي من تركيا ، وداود أسعد من تركيا أيضاً ، وغيرهم ، فهي صحافة ذات بعد عالمي تهتم بالقضايا العربيّة والإسلاميّة ، وتفرد جانباً غير يسير للقضايا العالميّة الأخرى ، ممّا جعلها تتّسم بميسم تنوّع الموضوعات وشموليّتها ، ولا غرو فإنّ معظم كتّاب المقالة في ليبيا يتقنون اللّغة الفرنسيّة ، ويلمّون بغيرها كالإنجليزيّة والإيطاليّة ، ومن هؤلاء خالد القرقني ، وأبو قشّة ، ومحمد النّائب ، وسليمان غزالة ، وغيرهم .

ولم تخل هذه الصّحافة من السّلبيّات ، فقد أهدرت الصّحافة الرّسميّة الكثير من طاقات الكتّاب نتيجة للقيود السّياسيّة ، كالالتزام بالدّعاء للسّلطان دعاء تلقيديّاً يكررُ في كل مناسبة ، والاهتمام بقضايا من تحصيل الحاصل إرضاء للسُّلطة وولاة الأمور .

ومن النّتائج التي توصّلت إليها في هذا الكتاب التّرتيب الكمّي الذي يعطي الصّدارة للمقالة العلميّة ، ثم الاجتماعية ، فبقيّة ألوان المقالة الأخرى ، مما يعني أنّ المقالة في ليبيا واكبت التّيار العالمي للمقالة الذي أولى الاتجاه العلمي مكان الصّدارة في أواخر القرن الماضي وأوّل هذا القرن .

كما أنّ البداية كانت مخالفة للبدايات في أماكن كثيرة من البلاد العربية، حيث الشأن أن يكتُب الكتّاب مقالاتهم بأساليب الصّنعة ثم يتحوّلون شيئاً فشيئاً إلى أسلوب الترسّل . أما في ليبيا فقد ابتدأ الكتّاب يكتبون مقالاتهم مترسّلة ، ولم يُكتب بأسلوب الصّنعة إلاّ في الفترة الثّانية بعد صدور التّرقي .

وقد شاركت المقالة السّياسيّة بدور فاعل في إذاعة الوعي السّياسي ، ومناقشة الكثير من قضايا السّياسة الدّاخليّة والخارجيّة ، وكان من أبرزها تنبّه الكتّاب إلى نوايا إيطاليا الاستعماريّة ، والوقوف في وجه مطامعها .

ولم تخل جوانب المقالة الأخرى من المشاركات الإيجابيّة كما في المقالة الاقتصاديّة والنّقدية والتّاريخيّة ، على تفاوت بينها ، في حين قصّرت بعض ألوان المقالة الأخرى ، كالدّينيّة والثّقافيّة في أداء دورها المنوط بها .

وقد قامت المقالة في ليبيا خلال العهد العثماني بدور رائد في ترسيخ اللّغة العربيّة والوقوف في وجه التّيارات الهدّامة التي تتداعى عليها من كل جانب ، وخطت خطوات واثقة في ميدان التّرجمة والتّعريب حافظت بها على أصالة اللّغة العربيّة ، وأثرتها بروافد من لغات أخرى عبر قناة الاستعمال اليومي ، وتذويب الدّخيل في بوتقة التّعريب حتى يصبح جزءاً من العربيّة لا ينبو عنها .

وقد توصّلت إلى تحليل بعض الرّموز التي كان الكتّاب يوقعون بها مقالاتهم ، منها : (س . غ) توقيع الكاتب سليمان غزالة ، و(ع . ن) عبد الرّحمن البوصيري ، و(م . ق) محمد قدري ، و(الصّحفي المتقاعد) أبو قشة ، و(النّاصح الأمين) محمد البارودي .

هذا وقد اقتضت ضرورة البحث تصحيح بعض الأخطاء السّائدة في كتب وأبحاث الأدب في ليبيا ، وبعض المصادر العلميّة والأدبيّة ، مثل : المعجم الطبيّ الموحد الذي تشرف عليه منظمة الصّحة العالميّة والمنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم ، ومثل : دليل

المؤلّفين اللّيبيين ، وأعلام ليبيا للزّاوي ، وصحافة ليبيا في نصف قرن للمصراتي ، ومصطفى بن زكري لجبران ، وبعض رسائل الماجستير ، وبالطّبع فإنّ هذا في غير باب الطّعن والتّخطئة ، ولكنّ حقيقة البحث العلمي تستدعي مثل هذا التصويب إكمالاً لصرح الثّقافة والأدب في وطننا العربي الكبير .

الملاحق

الملحق رقم (1)

– (أ) –

جدول بياني للمقالة السياسيّة

	الدّستور وأثره			التّثقيف السياسي			السّياسة الدّاخليّة		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى									
الفترة الثانية							ط	1188	1325
							ت	20	1315
								37	1315
								46	1316
	ط	1257	1326						
	ت	74	1326	ت	74		ت	88	1326
		75	1326		93			91	1326
		79	1326		94			93	1327
		80	1326		95	1327		94	1327
		83	1326		96	1327		95	1327
		91	1326		97	1327		102	1327
		94	1327		105	1327		103	1327
		98	1327		107	1327		105	1327
		106	1327		121	1327		150	1328
		118	1327		150	1328		198	1329
		186	1329		153	1328	ع	9	1327
		188	1329		201	1329		13	1327
				ع	8	1327		14	1327

	الدّستور وأثره			التّثقيف السّياسي			السّياسة الدّاخليّة		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السّنة
					11	1327	ك	13	1327
				ك	2	1326		4	1328
				ر	15	1329	م	30	1329

ط = طرابلس ت = التّرقي ع = العصر الجديد م = المرصاد
ك = الكشّاف ر = الرّقيب

الملحق رقم (1)

- (ب) -

جدول بياني للمقالة السياسيّة

	القوميّـــــات			السيّاســة الخارجيّــة		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى				ط	69	1284
الفترة الثانية				ت	3	1315
					5	1315
					13	1315
					14	1315
					18	1315
					19	1315
					26	1315
					41	1315
الفترة الثالثة	ت	84	1326	ت	81	1326
		89	1326		83	1326
		92	1326		97	1327
		105	1327		98	1327
		110	1327		105	1327
		167	1328		169	1328
		173	1329		172	1329
		198	1329		175	1329

	القوميّات			السّياسة الخارجيّة		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السّنة
	ع	5	1327	ع	2	1327
	م	27	1329		3	1327
					19	1327
					20	1327
					22	1327

ط = طرابلس ت = الترقّي ع = العصر الجديد

م = المرصاد

الملحق رقم (1)

- (جـ) -

جدول بياني للمقالـة السياسيّـة

	الاستعمار ووسائله			إيطاليا ومطامعها		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى						
الفترة الثانية	ت	13	1315			
		26	1315			
الفترة الثالثة	ت	102	1327	ت	170	1329
		120	1327		173	1329
		164	1328		178	1329
		173	1329		188	1329
		187	1329		190	1329
		196	1329		191	1329
	ع	14	1327		203	1329
		15	1327	م	8	1328
	م	18	1327		20	1329
		8	1328		23/22	1329
		14	1329		26	1329
		15	1329		28	1329
		16	1329		31/30	1329

	الاستعمار ووسائله			إيطاليا ومطامعها		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السّنة
		30	1329		34/33	1329
	ك	16	1327		38	1329
					42	1329
				ر	12	1329
				أ. ق	59	1329

ت = الترقّي ع = العصر الجديد م = المرصاد

ك = الكشّاف ر = الرّقيب أ. ق = أبو قشّة

الملحق رقم (2)

ـ (أ) ـ

جدول بياني للمقالـــة الدّينيّـــة

	الجامعة الإسلاميّـة			قواعـد التشريـع			الإصـلاح الدّينـي		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى									
الفترة الثانية	ت	22	1315	ت	21	1315	ت	21	1315
		23	1315						
		64	1316	طـ	891	1317	طـ	891	1317
					1148	1324		1148	1324
الفترة الثالثة									

طـ = طرابلس　　　　ت = الترقّي

الملحق رقم (2)

ـ (ب) ـ

جدول بياني للمقالة الدّينيّة

	الدفاع عن الإسلام			الدّين والسّياسة		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى						
الفترة الثانية						
الفترة الثالثة	ت	118	1327	ت	85	1326
		139	1328		111	1327
					120	1327
					164	1328
					166	1328
					171	1329
	ع	16	1327	ع	16	1327
		9	1327		9	1327
	ك	8	1327	ك	15	1327

ت = الترقّي ع = العصر الجديد ك = الكشّاف

الملحق رقم (2)

- (جـ) -

جدول بياني للمقالـــة الدّينيّـــة

	المناسبات الدينية			التأمل الفلسفي		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى						
الفترة الثانية						
الفترة الثالثة	ت ك	203 15	1329 1327	ع	7	1327

ت = الترقّي ع = العصر الجديد ك = الكشّاف

الملحق رقم (3)

جدول بياني للمقالة التاريخيّــــة

	بدايات المقالــة			تاريخ طرابلس			التّاريخ والتّعبئــة		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى	ط	257	1391						
		258	1391						
الفترة الثّانية				ت	16	1315			
					17	1315			
					18	1315			
					19	1315			
					20	1315			
					22	1315			
					26	1315			
					37	1315			
					38	1315			
					76	1326			
					77	1326			
الفترة الثالثة				ت	76	1326	ت	176	1329
					77	1326			
					107	1327	ر	16	1329
					103	1327			

ط = طرابلس   ر = الرّقيب   ت = التّرقي

الملحق رقم (4)

- (أ) -

جدول بياني للمقالة الإجتماعيّـة

	التّعليـــم			نقد السّلوك العــام			العادات السّيئـة		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى	طـ	463	1299				طـ	62	1284
							طـ	692	1309
الفترة الثّانية	ت	23	1315						
الفترة الثالثة	ت	77	1324	ت	86	1326	ت	84	1326
		89	1326		167	1328		85	1326
		97	1327		197	1329		89	1326
		175	1329					90	1326
	م	6	1328					121	1327
		13	1329					187	1329
		14	1329	ع	7	1327	ع	2	1327
		15	1329		12	1327		14	1327
		24	1329	ك	1	1326			
	ع	2	1327		9	1327			
		5	1327		91	1327			
		15	1327	م	22	1329			
		17	1327		24	1329			
		19	1327						
	ر	12	1329						

طـ = طرابلس ت = الترقي م = المرصاد

ع = العصر الجديد ك = الكشّاف ر = الرّقيب

الملحق رقم (4)

ـ (ب) ـ

جدول بيانـــي للمقالة الإجتماعيّـــة

	الجدل والتّجريـــح			التعبئة الوطنيّـــة			الاجتماع السّياســـي		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى									
الفترة الثّانية				ت	16	1315	ت	7	1315
					17	1315			
الفترة الثالثة	ت	83	1326				ت	100	1327
		84	1326					106	1327
		102	1327					116	1327
		180	1329					120	1327
		201	1329					171	1329
								173	1329
	م	13	1329					200	1329
		14	1329					201	1329
								203	1329
							ع	20	1327
								21	1327
	ر	12	1329				ك	11	1327

ط = طرابلس   ت = الترّقي   م = المرصاد

ع = العصر الجديد   ك = الكشّاف   ر = الرّقيب

الملحق رقم (4)

- (جـ) -

جدول بياني للمقالة الاجتماعيّـــة

	نقـــد المأموريـــن			الضّرائـــب			المجاعـــة		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى				طـ	126	1285			
الفترة الثّانية									
الفترة الثالثة	ت	109	1327	ت	113	1327	ت	138	1328
		115	1327		115	1327		200	1329
		116	1327		166	1328			
		116	1327						
		117	1327						
		120	1327						
		121	1327						
	م	7	1328				م	26	1329
		16	1329						
				ع	3	1327	ع	11	1327
	ك	3	1326	ك	14	1327	ك	4	1326
		4	1326		15	1327			
		5	1327						

طـ = طرابلس   ع = العصر الجديد   ت = التّرقي

ك = الكشّاف   م = المرصاد   ر = الرّقيب

الملحق رقم (5)

- (أ) -

جدول بياني للمقالـة الاقتصاديّـة

	الاقتصاد والصّناعـة			المبادىء النّظرية للاقتصـاد		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى						
الفترة الثانية	طـ	1063 1146	1322 1324	ف	ص 8	1317
الفترة الثالثة						

طـ = طرابلس ف = الفنون

الملحق رقم (5)

- (ب) -

جدول بياني للمقالة الإقتصاديّـــة

	الاقتصاد السياسي			الاقتصاد الاجتماعي			الاقتصاد التّطبيقي		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى									
الفترة الثّانية									
الفترة الثالثة	ت	77	1326	ت	77	1326	ت	29	1315
		84	1326		193	1329		79	1326
		157	1328		199	1329		85	1326
	ع	13	1327	ع	13	1327	ت	89	1326
								99	1327
	م	26	1329					115	1327
				أ. ق		1329		188	1329
								194	1329
								196	1329

ت = التّرقي ع = العصر الجديد م = المرصاد

أ. ق = أبو قشّة

الملحق رقم (6)
- (أ) -

جدول بياني للمقالــة الثّقافيّــة

	النهج التّعليمـي			المدنيّــة		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى	ط	257	1291	ط	258	1291
		258	1291			
الفترة الثانية						
الفترة الثالثة				ت	91	1326
					92	1326
					93	1327
					105	1327
					106	1327
				ع	18	1327

ط = طرابلس ت = الترقّي ع = العصر الجديد

الملحق رقم (6)
ـ (ب) ـ

جدول بياني للمقالــة الثّقافيّــة

	الحضـارة والتّاريـخ			أدب الرّحلــة		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى						
الفترة الثانية						
الفترة الثالثة	ت	105	1327	ع	20	1327
		108	1327		21	1327
		109	1327			
				أ. ق	22	1328
	ك	11	1327			
		12	1327			

ت = الترقّي　　ك = الكشّاف　　ع = العصر الجديد

أ. ق = أبو قشّة

الملحق رقم (7)

- (أ) -

جدول بياني للمقالـة النّقديّـة

	عرض الكتب			اللّغة العربيّـة		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى						
الفترة الثانية	ط	1205	1325			
الفترة الثالثة	ت	108 109 199	1327 1327 1329	ت م	129 22	1328 1329

ط = طرابلس ت = الترقّي م = المرصاد

ع = العصر الجديد

الملحق رقم (7)

- (ب) -

جدول بياني للمقالة النّقدية

	النّقد التّقييمي			النّقد والصحافة		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى						
الفترة الثانية						
الفترة الثالثة	ت	87	1326	ت	167	1328
		88	1326		190	1329
		89	1326		191	1329
		90	1326		204	1329
		156	1328			
	ع	17	1327	ع	3	1327
					15	1327

ط = طرابلس ت = الترقّي م = المرصاد

ع = العصر الجديد

الملحق رقم (8)

ـ(أ)ـ

جدول بياني للمقالة العلميّة

	الزّراعة والإرشاد الزّراعي			الصحّة والإنسان		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى	ط	770	1313	ط	701	1309
الفترة الثانية	ط	1019	1319	ط	1095	1322
		1101	1322		1104	1323
		1104	1323		1105	1323
		1106	1323		1113	1323
		1107	1323		1157	1324
		1108	1323		1165	1324
		1109	1323		1171	1324
		1110	1323		1177	1324
		1112	1323		1179	1324
		1118	1323			
		1119	1323	ت	18	1315
		1120	1323		19	1315
		1131	1323		20	1315
		1133	1323		21	1315
		1187	1325		22	1315
		1188	1325	ت	23	1315

	الزّراعة والإرشاد الزّراعي			الصحّة والإنسان		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السّنة
		1189	1325		26	1315
		1190	1325		29	1315
		1195	1325		37	1315
		1196	1325		42	1316
		1200	1325			
		1218	1325			
		1234	1326			
	ف	ص 25	1316		ص 10	1316
		ص 5	1316	ف	ص 23	1316
الفترة الثّالثة	ت	110	1327	ع	3	1327
				م	8	1328

ط = طرابلس   ت = الترقّي   ف = الفنون

ع = العصر الجديد   م = المرصـــاد

الملحق رقم (8)

– (ب) –

جدول بياني للمقالة العلميّة

	الحيوان			مقالات قليلة في بابها		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى	ط	62	1284			
		681	1309			
		689	1309			
الفترة الثانية	ط	1112	1323	ط	1174	1324
		1119	1323			الكهرباء في
		1130	1323			الكائنات
		1139	1323			الحيّة
		1140	1323	ت	15	1315
		1147	1324			أضرار
		1171	1324			المخترعات
		1222	1325			العلميّة
الفترة الثالثة				م	16	1329
						فوائد
						التلغراف
				ف	ص 10	1316
						الكون والبحار
						والمحيطات

ط = طرابلس   ت = الترقّي   ف = الفنون

م = المرصاد

الملحق رقم (9)

- (أ) -

جدول بياني لمقالة المناسبة

	الامتحانات			النياشين			أعياد السّلطان		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى	ط	112	1285	ط	532	1301	ط	640	1307
الفترة الثّانية	ط	1075	1322	ط	1131	1323	ط	931	1318
		1122	1323		1150	1324		1030	1321
		1167	1324					1127	1323
								1132	1323
								1157	1324
								1161	1324
								1162	1324
				ت	14	1315			1324
					48	1316	ت	29	1315
الفترة الثّالثة							ط	1257	1326
								1340	1328
								1363	1329
							ت	75	1326
							م	6	1328

ط = طرابلس ت = الترقي م = المرصاد

الملحق رقم (9)

- (ب) -

جدول بيانـــي لمقالة المناسبـــة

	الأعيـــاد الدينيّـة			الدّستـــور			التّدريب العسكـــري		
	الجريدة	العدد	السّنة	الجريدة	العدد	السنة	الجريدة	العدد	السّنة
الفترة الأولى									
الفترة الثّانية	طـ	1043	1321				ت	5	1315
		1091	1322					6	1315
		1100	1322					9	1315
		1111	1323					10	1315
		1152	1324					38	1315
		1161	1324						
الفترة الثالثة	ك	15	1327	طـ	1372	1329	ت	175	1329
				ت	88	1326		178	1329
				ع	20	1327	ع	18	1327
								22	1327
							م	20	1329

طـ = طرابلس ت = الترقّي ك = الكشّاف

ع = العصر الجديد م = المرصاد

الملحق رقم (10)

المعجم اللّغوي لألفاظ الصّحافة
في الفترة العثمانيّة ، مرتب ترتيباً هجائياً

- (أ) -	
1 ـ الارتجاعيّة	الرّجعيّة
2 ـ الأرزاق	السّلع التّموينيّة
3 ـ الأستانة	استامبول
4 ـ استعفى	استقال
5 ـ استنطاق	تحقيق
6 ـ الأشقياء	المجرمون
7 ـ اعتصب	اعتصم
8 ـ آغا	لفظة من ألفاظ التّكريم

ويتحدد معناها باضافتها إلى غيرها ، ويغلب استعمالها مع رتب الجيش الرّفيعة .

9 ـ آفاقي	أجنبي
10 ـ أفندي	من ألفاظ التّوقير ويطلق على المثقّفين عادة .
11 ـ أفوكاتو	محام
12 ـ انتصب	انتخب
13 ـ الأهالي	الشعب
14 ـ أوستريا	النّمسا
15 ـ الأوقيانوس	المحيط
16 ـ إيالة	قطر

– (ب) –

1 ـ باشا	لقب رسمي يمنح لكبار رجال الدّولة من المدنيّين والعسكريّين
2 ـ البجايش	تبادل الأماكن والوظائف الحكوميّة والعسكريّة
3 ـ بسطة	محاضرة قصيرة
4 ـ بك (بي)	من ألقاب الوجاهة ، وفي آخر العهد العثماني أصبح يدلّ على أهل المناصب المتوسّطة .
5 ـ بنكنوط	أوراق العملة
6 ـ بوستة	البريد
7 ـ بيرولدي	(قرار) مرسوم ولائي

– (ت) –

1 ـ تزكاح ، تزكاحات	اللّوح في مطبعة الحجر
2 ـ التشبّثات	التّمسك
3 ـ التّشخيص	التّمثيل المسرحي
4 ـ التّشكّر	الشّكر
5 ـ تصاوير	صور
6 ـ توجيهات	تكليف الموظفين بوظائفهم

– (ج) –

1 ـ جبّخانة	مخزون الذّخيرة
2 ـ جندرمة (زاندرمة)	رجال الأمن (ضابطيّة)

– (ح) –

1 ـ الحاضرة	العاصمة

2 ـ الجَبّـــى	الـــودّي
3 ـ الحرفاء	المشتّركون
4 ـ حصل الائتلاف على كذا	تمّ الاتفاق على كذا

ـ (خ) ـ

1 ـ خرابة	آثـــار
2 ـ خريتـــة	خريطـــة

ـ (د) ـ

1 ـ دار السّعادة	استامبول
2 ـ دور	طور أو مرحلة
3 ـ دور التّعرض	فترة الهجوم

ـ (ذ) ـ

1 ـ الذّخيرة	الحـبـــوب (من الذخر)
2 ـ الذّوات	الشّخصيّات المرموقة

ـ (ر) ـ

1 ـ رابـــورط	تقرير طبّي (عادة)
2 ـ الراجعيّون	الرجعيّــون
3 ـ الرّديـــف	الاحتياطي (من العسكر مثلاً)
4 ـ الرّشديّـــة	مدرسة تقبل الطلاّب من سن 8 إلى 12 سنة ، نسبة إلى الرّشد
5 ـ الرّصيـــف	الصّحفي ، كما يقال اليوم : الزّميل
6 ـ الرّصيفة	الصّحيفة الصّادرة في نفس الزّمن
7 ـ الرقّاص	ساعي البريد أو الرّسول
8 ـ الرّيجـــي	إدارة التّبغ

- (ز) -

1 ـ الزّاندرمة (جندرمة)	رجال الأمن (الضّابطيّة)
2 ـ زيارة ارتباطيّة	زيارة ودّيــة

- (س) -

1 ـ السّرسري	المتشــرّد
2 ـ السّعـــاة	مربّو الأغنام
3 ـ السّيـــاح	السّائـــح

- (ش) -

1 ـ شخص إلى المكان	ذهب إليه

- (ص) -

1 ـ صبرة ، الصّابرية	مدينة صبراتة
2 ـ الصّداقـــة	الـــولاء
3 ـ الصدّر الأعظم	رئيس الوزراء

- (ط) -

1 ـ الطّـــاق	الطّابق من البناء ذي الأبواب المقوسة
2 ـ الطّوبجيّـــة	المدفعيّـــة

- (ع) -

1 ـ العدليّـــة	القضاء والمحكمة
2 ـ العربـــان	البّاديـــة
3 ـ عـــرض حال	الطّلـــب
4 ـ العصـــر	القرن من الزّمان

5 ـ العَمَلَــة	العمّــال
6 ـ العمــوم	الشّعــب

ـ (غ) ـ

1 ـ الغازيتّــة	الجريدة
2 ـ الغطّاســة	الغوّاصــة

ـ (ف) ـ

1 ـ الفــارط	الماضي (مثل : الأحد الفارط)
2 ـ الفخيمــة	العظيمة (وصف يتبع اسم الدّول الأجنبيّة عادة) .
3 ـ الفــراري	الشّخص الفارّ من العدالة
4 ـ فــرد	مســدّس
5 ـ فرمان	مرسوم سلطاني
6 ـ الفوسفاط	الأطرون
7 ـ فوشيــك	رصــاص

ـ (ق) ـ

1 ـ قاهيــة	نائب أو وكيل
2 ـ القصبــة	القرية أو المدينة الصّغيرة
3 ـ قضــاء	ناحية (تنظيم إداري)
4 ـ القطعــة	القــارّة
5 ـ القطعات الخمس	القارّات الخمس
6 ـ القنباتيات	الشّركــات
7 ـ القواص	العامل المخصّص لخدمة المكتب
8 ـ قومسيــون	لجنــة
9 ـ قومنــدان	قائــد
10 ـ قومودور	آمــر سلاح

ـ (ك) ـ

1 ـ الكـاوش	العبـر
2 ـ الكتـول	الكحـول
3 ـ كـردون	السّور المحيط بالمدينة
4 ـ كميّـة	خنجـر

ـ (م) ـ

1 ـ المابيـن	إدارة الخاصّة السّلطانية
2 ـ مـادة	حادثـة
3 ـ مـأذون	فـي إجـازة
4 ـ مأمورون	موظّفـون
5 ـ متشبّثـون	مقاولون
6 ـ المتقهقرون	الرّجعيّـون
7 ـ المجبورية القانونيّـة	المسؤولية القانونيّـة
8 ـ مجلس الملّة	المجلس التّشريعي
9 ـ مجلس المبعوثان	مجلس النّوّاب
10 ـ المحروسـة	استانبول
11 ـ مذاكـرة	مفاوضـات
12 ـ مرخّـص	مفـوض
13 ـ المرسـح	المسرح
14 ـ مسامـرة	محاضـرة
15 ـ المستنطـق	المحقّـق
16 ـ المسطـرة	العيّنـة
17 ـ المسكـوف	الـرّوس
18 ـ مشاور	مستشار
19 ـ المشروطيّـة	الدّستـور
20 ـ المضبطـة	المحضـر
21 ـ المظنـون بكذا	المتّهـم

22 ـ المعافيـات	الاعفاءات
23 ـ معروضـــات	طلبـات
24 ـ مملولـوا الغزاة	مشوهو الحرب
25 ـ مُكاتِــب	مراسل الصّحيفة
26 ـ مكتـب	مدرســة
27 ـ الملحقات	باقي فروع الولاية من غير المركز
28 ـ مملكت	بــلاد
29 ـ ممنونيّــة	رغبــة
30 ـ مواجهة	مقابلة صحفيّــة
31 ـ الموســوي	اليهـودي
32 ـ الميري	الضّرائب

ـ (ن) ـ

1 ـ النّافعة	الأشغال العامّـة
2 ـ نوتجـي	متــاوب

ـ (هـ) ـ

1 ـ الهتتيّــات	المزلّيــات
2 ـ الهـواء الأصفر	الكوليــرا
3 ـ الهيئــة الاجتماعيّــة	المجتمـع

ـ (و) ـ

1 ـ ورولور	مــدّس
2 ـ وسائــط	معدّات عسكرية
3 ـ وفــد ملّــي	وفد الأمّــة
4 ـ ويـانة	فيّنـا (عاصمة النّمسا)
5 ـ ويركــو	ضريبــة

-(ي)-

1 ـ يكــون	المجموع (ناتج الجمع)
2 ـ اليكون السّابق	المجموع السّابــق

فهرس الأعـــلام

ثبت بالمصادر والمراجع

1 ـ اتحاد الأطباء العرب : جماعة
المعجم الطبّي الموحد ، ميدلفانت ، سويسرا 1983 م ، ط 3 .

2 ـ أدهــم : عبد السّلام
وثائق تاريخ ليبيا ، دار صادر ، بيروت 1974 م .

3 ـ أرسطو : أرسطوطاليس
فن الشّعر ، ترجمة وتحقيق وشرح : عبد الرّحمن بدوي ، دار الثقافة ، بيروت 1973 م ، ط 2 .

4 ـ الأسد : ناصر الدّين
الاتجاهات الأدبيّة الحديثة في فلسطين والأردن ، مطبعة البيان العربي ، القاهرة 1957 م .

5 ـ إسماعيل : عزّ الدين
الأدب وفنونه ، دار الفكر العربي ، بيروت 1965 م ط 2 .

6 ـ الأشهب : محمد الطّيب
برقة العربيّة أمس واليوم ، مطبعة الهوّاري ، مصر 1947 م .

7 ـ الأصبهاني : أبو الفرج علي بن الحسن
الأغاني ، مطابع كوستاتسوماس وشركاه ، القاهرة مصوّرة عن طبعة دار الكتب .

8 ـ انطونيوس : جورج
يقظة العرب ، ترجمة : ناصر الدّين الأسد وإحسان عبّاس ، دار العلم للملايين ، بيروت 1969 ، ط 3 .

9 ـ إمـــام : إبراهيم
دراسـات في الفنّ الصّحفي ، مكتبـة الأنجلو المصـريّـة ، القاهرة 1972 م .

10 ـ أميـــن : أحمد ، وزكي نجيب محمود (مشارك)
قصّـة الأدب في العالم ، مـطبعة لجنة التّأليف والـتّرجمـة ، القاهرة 1954 م .

11 ـ الأنبـــاري : كمال الدّين عبد الرحمن بن محمد
نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر ، القاهرة 1967 م .

12 ـ الباروني : زعيمة
صفحات خالدة من الجهاد ، مطابع الاستقلال الكبرى القاهرة 1966 م .

13 ـ بازامـــة : محمد مصطفى
ليبيا هذا الاسم في جذوره التّاريخيّة ، منشورات قـورينا ، بنغازي 1975 م ط 2 .

14 ـ البخـــاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل
متن البخاري ، مطبعة دار إحياء الكتب العربيّة ، القاهرة ، بدون تاريخ .

15 ـ بروكلمـــان : كـــارل
تاريخ الأدب العـربي ، ترجمـة : عبد الحليم النّجـار ، دار المعارف ، القاهرة 1977 م ط 4 .

16 ـ بريتشرد : إ. إ. إيفانز
السّنوسيون في برقة ، تـرجمة عمـر الدّيـراوي أبو حجلة ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، بدون تاريخ .

17 ـ البستاني : بطرس
دائرة المعارف ، مطبعة المعارف ، بيروت 1876 م .

18 ـ بميو : مصطفى عبد الله
المشروع الصّهيوني لتوطين اليهود في ليبيا ، الدّار العربيّة للكتاب ، ليبيا ـ تونس ، 1975 م ط ـ 1 .

19 ـ بوكاي : موريس
دراسة الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة ، دار المعارف ، لبنان ، 1977 م ط ـ 4 .

20 ـ التلّيسي : خليفة محمد
قاموس إيطالي عربي ، الدّار العربية للكتاب ، ليبيا ـ تونس ، 1984 م .

21 ـ التّونجي : محمّد
المعجم الذّهبي ، فارسي عربي ، دار العلم للملايين ، بيروت 1969 ط ـ 1 .

22 ـ تويتبي : آرنولد
تاريخ البشريّة ، ترجمة نقولا زيادة ، الأهليّة للنّشر والتّوزيع ، بيروت 1981 م .

23 ـ ابن ثابت : حسّان
ديوان حسّان بن ثابت ، دار صادر ، بيروت 1961 م .

24 ـ الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني
الحيوان ، تحقيق : عبد السّلام هارون ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1969 م ط ـ 3 .

25 ـ جبران : محمد مسعود
مصطفى بن زكري في أطوار حياته وملامح أدبه ، المنشأة العامة للنّشر والتّوزيع ، طرابلس 1984 م ط ـ 1 .

26 ـ جحا : شفيق ، وآخران
المصوّر في تاريخ لبنان ، دار العلم للملايين ، بيروت 1960 م ط ـ 5 .

27 ـ ابن جـزي : عبد الله بن جُزّي الغرناطي
كتاب الخيل ، تحقيق : محمّد العربي الخطّابي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1986 م .

28 ـ الجنـدي : أحمـد
اللّهجات العربيّة في التّراث ، الهيئة المصريّة للكتاب القاهرة 1975 م .

29 ـ آل جنـدي : أدهـم
أعلام الأدب والفن ، مطبعة مجلّة صوت سوريّة دمشق 1954 م .

30 ـ ابن جنّـي : سرّ صناعة الإعراب ، شركة المكتبات ومطبعة الحلبي ، مصر 1954 م .

31 ـ جيوليتّـي : جيوفـاني
مـذكّرات جيوفاني جيوليتّي ، ترجمة : خليفة التلّيسي ، الشّركة العامّة للنّشر والتّوزيع ، طرابلس 1976 م .

32 ـ الحاجـري : محمّـد طـه
دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبيّة في المغرب العربي ، دار النّهضة العربيّة ، بيروت 1983 م ط 1 .

33 ـ ابن حـزم : أبو محمّد علي بن أحمد بن سعيد
الإحكام في أصول الأحكام ، مطبعة العاصمة ، القاهرة 1968 م .

34 ـ حسـن : عبّـاس
النّحو الوافي ، دار المعارف ، مصر 1975 م ، ط 5 .

35 ـ حسين : طـه
ـ ألوان ، دار الكتاب اللّبناني ، بيروت 1973 م .
ـ حافظ وشوقي ، دار الكتاب اللّبناني ، بيروت 1974 ط 1 .
ـ من حديث الشّعر والنّثر ، دار الكتاب اللّبناني ، بيروت 1973 ط 1 .

36 ـ الحشائشي : محمد بن عثمان
رحلة الحشائشي إلى ليبيا ، تحقق : علي مصطفى المصراتي ، دار لبنان للطّباعة ، بيروت ، 1965 م طـ 1 .

37 ـ حمزة : عبد اللّطيف
مستقبل الصّحافة ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1961 م طـ 1 .

38 ـ خضر : سعاد محمد خضر
الأدب الجزائري المعاصر ، منشورات المكتبة العصريّة ، بيروت 1967 م .

39 ـ ابن خلدون : ولي الدّين أبو زيد عبد الرّحمن بن محمد
ـ كتاب العبر ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللّبناني ، بيروت 1961 م ، طـ 2 .
ـ المقدّمة ، تقديم علي عبد الواحد وافي ، لجنة البيان العربي ، القاهرة 1965 م ، طـ 2 .

40 ـ ابن خلّكان : أبو العبّاس شمس الدّين أحمد بن محمد
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان ، تحقيق إحسان عبّاس ، دار الثقافة ، بيروت 1971 م .

41 ـ الخيّاط : يوسف
معجم المصطلحات العلميّة والفنيّة ، دار لسان العرب ، بيروت ، بدون تاريخ .

42 ـ دار الكتب : جماعة
دليل المؤلّفين العرب اللّيبيين ، مطابع الثّورة ، بنغازي 1977 م .

43 ـ داغر : يوسف
مصادر الدّراسة الأدبيّة ، مطبعة الجامعة اللّبنانية ، بيروت 1972 م .

44 ـ التّجاني : أحمد صدقي
ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي ، المطبعة الفنّية الحديثة القاهرة ، 1971 م ، طـ 1 .

45 ـ الدّسوقي : عمـر
في الأدب الحديث ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1964 م ط 6 .

46 ـ الذّبياني : النّابغـة
ديوان النّابغة الذّبياني ، تحقيق : كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت 1960 م .

47 ـ اللّوّادي : رشيد
روّاد الإصلاح ، مؤسسات عبد الكريم بن عبد اللّه ، تونس ، 1983 م ، ط 2 .

48 ـ رضـا : محمد رشيد
تاريخ الأستاذ الإمام ، مطبعة المنار ، مصر 1344 هـ ، ط 2 .

49 ـ الرّفاعي : شمس الدّين
تاريخ الصّحافة السّورية ، دار المعارف ، مصر 1969 م .

50 ـ الرّكابي : جـودت
الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ، دار الفكر دمشق 1974 م ، ط 1 .

51 ـ ركيبي : عبد اللّه
تطوّر النّثر الجزائري الحديث ، الدّار العربيّة للكتاب ليبيا ـ تونس ، 1978 م ، ط 2 .

52 ـ الـزّاوي : الطّاهر أحمد
ـ ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التّركي ، دار الفتح للطّباعة والنّشر ، بيروت 1970 م ط 1 .
ـ أعلام ليبيا ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس 1971 م ط 2 .
ـ جهاد الأبطال ، دار الفتح للطّباعة والنّشر ، بيروت 1973 م ط 3 .
ـ معجم البلدان اللّيبية ، مكتبة النّور ، طرابلس 1968 م ط 1 .

53 ـ الزّبيـدي : محمّـد مرتضـى
تاج العروس ، دار صادر ، بيروت ، 1966 م .

54 ـ الزّركلـي : خير الدّين
الأعلام ، مطبعة كوستاتسوماس ، القاهـرة 1957 م طـ 2 .
ومـطبعة دار العلم للمـلايـين ، بـيروت 1980 م ، طـ 5 ،
1986 م ، طـ 7 .

55 ـ ابن زكـري : مصطفى
ديوان مصطفى بن زكري ، تحقيق : علي مصطفى المصراتي
دار لبنان ، بيروت 1972 م .

56 ـ الزّمخشـري : محمود بن عمر
أساس البلاغة ، تحقيق : عبد الرّحيم محمود ، مطبعة أولاد
أورفاند ، القاهرة 1953 م ، طـ 1 .

57 ـ زيـاد : أحمـد
لمحات من تاريخ الحركة الفكريّة بالمغرب ، دار الكتاب الدّار
البيضاء ، 1973 م .

58 ـ السّامرائـي : إبراهيـم
اللّغـة والحضارة ، المؤسّسـة العربيّـة للدّراسـات والنّشر ،
بيروت ، 1977 م ، طـ 1 .

59 ـ سـلاّم : عبد المحسن عاطف
حيـوات العـرب ، دار الكتـاب العـربي ، الإسكنـدريـة
1968 م ، طـ 1 .

60 ـ ابن سيـده : أبو الحسن علي بن إسماعيل
المخصّص ، دار الفكر ، بيروت ، 1978 م .

61 ـ شاكـر : محمـود محمّـد
أباطيل وأسمار ، دار العروبة ، القاهرة ، 1385 هـ .

62 ـ الشّرقـاوي : عفّت محمّـد
أدب التّاريخ عند العرب ، دار العـودة ، بيروت ، بـدون
تاريخ .

63 ـ الشّـريف : البشير بن الحاج عثمان
أضواء على تاريخ تونس الحديث ، دار بوسلامة للطّباعة ، تونس ، 1981 ، طـ 1 .

64 ـ شـريف : محمد بديع (وآخران)
دراسات تاريخيّة في النّهضة العربيّة ، دار اقرأ ، بيروت 1984 م ، طـ 2 .

65 ـ شلـق : علـي
النّثر العربي ، دار القلم ، بيروت ، 1974 م ، طـ 2 .

66 ـ الشّنتريني : أبو الحسن علي بن بسّام
الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عبّاس ، الدّار العربيّة للكتاب ، ليبيا ـ تونس 1975 م .

67 ـ الشّيطي : محمود
قضيّة ليبيا ، مكتبة النّهضة المصريّة ، القاهرة 1951 م .

68 ـ الشّهرستاني : أبو الفتح محمد بن أبي القاسم
الملل والنّحل ، تحقيق : محمد سعيد كيلاني ، مطبعة الحلبي بمصر 1961 م .

69 ـ الشّيخ : رأفت غنيمي
تطوّر التّعليم في ليبيا في العصور الحديثة ، مطابع الحقيقة ، بنغازي 1972 م ، طـ 1 .

70 ـ الصّاوي : أحمد بن محمد الصّاوي المالكي
بلغة السّالك لأقرب المسالك على الشّرح الصّغير للدّرديري مطبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة 1952 م .

71 ـ الصّبان : محمد بن علي
حاشية الصبّان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك ، مطبعة دار إحياء الكتب العربيّة ، مصر ، بدون تاريخ .

72 ـ الصّويعي : عبد العزيز
المطابع والمطبوعات اللّيبية قبل الاحتلال الإيطالي ، المنشأة العامّة للنّشر ، طرابلس 1985 م ، طـ 1 .

73 ـ ضيف : شوقي
ـ الأدب العربيّ المعاصر في مصر ، دار المعارف ، مصر 1974 م ، ط ـ 1 .
ـ في النّقد الأدبي ، دار المعارف بمصر ، 1962 م .

74 ـ الطّاهر : علي جواد
مقدمة في النّقد الأدبي ، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر ، بيروت 1979 م ، ط ـ 1 .

75 ـ الطرّازي : فيليب
تاريخ الصّحافة العربيّة ، بيروت ، المطبعة الأدبيّة ، 1914 م .

76 ـ طيفور : أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر
بلاغات النّساء ، دار النّهضة الحديثة ، بيروت 1972 م .

77 ـ ابن عاشور : محمّد الفاضل
الحركة الأدبيّة والفكريّة في تونس ، الدّار التّونسيّة للنّشر ، تونس 1972 م .

78 ـ عانوتي : أسامة
الحركة الأدبيّة في بلاد الشّام ، مطبعة الجامعة ، بيروت ، 1971 م .

79 ـ ابن عبد البر :
الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، نهضة مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ .

80 ـ عبد الحميد : السّلطان عبد الحميد الثّاني
مذكّرات السّلطان عبد الحميد الثّاني ، ترجمة : محمد حرب عبد الحميد ، دار الأنصار ، القاهرة 1978 م .

81 ـ ابن عبد ربّه : أبو عمر أحمد بن محمد
العقد الفريد ، تحقيق : أحمد أمين وآخرين ، مطبعة القاهرة ، لجنة التّأليف والنّشر ، القاهرة 1956 م ، ط ـ 2 .

82 ـ عبد الرّحمن : عبد اللّه (مترجم)

الرّجل الصّنم ، (مجهول المؤلف) ، ترجمة : عبد اللّه عبد الرّحمن ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت 1978 م ، ط 2 .

83 ـ عبد اللّه : طاهر عمران

النّزعة القوميّة في الشّعر اللّيبي ، رسالة ماجستير 1974 م .

84 ـ عبد اللّه : محمد حسن

الحركة الأدبيّة والفكريّة في الكويت ، مطبعة رابطة الأدباء ، الكويت 1973 م .

85 ـ العدناني : محمّد

معجم الأخطاء الشّائعة ، مكتبة لبنان ، بيروت 1980 م ، ط 2 .

86 ـ عزّالدّين : يوسف

ـ تطوّر الفكر الحديث في العراق ، مطبعة أسعد ، بغداد 1976 .

ـ داود باشا ونهاية المماليك في العراق ، دار البصري بغداد 1967 م .

ـ القصّة في العراق ، مطبعة القاهرة ، القاهرة 1974 م .

87 ـ العسقلاني : ابن حجر أحمد بن علي

الإصابة في تمييز الصّحابة ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، نهضة مصر ، القاهرة 1971 م .

88 ـ عظيمة : محمد عبد الخالق

ـ اللباب في تصريف الأفعال ، مطبعة السعادة بمصر 1971 م ، ط 5 .

89 ـ عفيفي : محمد الصّادق

ـ الاتجاهات الوطنيّة في الشّعر اللّيبي الحديث ، دار الكشّاف ، بيروت ومكتبة الفرجاني طرابلس ، ط 1 .

ـ الشّعر والشّعراء في ليبيا ، مكتبة الأنجلو المصريّة ، القاهرة 1957 م .

90 ـ العقّاد : عبّاس محمود

ـ أنا ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1969 م ، ط 1 .

ـ يسألونك ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1968 م .

91 ـ عـوّاد : كوركيس
معجم المؤلّفين العراقيّين ، مطبعة الإرشاد ، بغداد 1969 م .

92 ـ عيـد : كمــال
فلسفة الأدب والفن ، الدّار العربيّة للكتاب ، ليبيا ـ تونس ، 1978 م .

93 ـ غربـال : محمد شفيق (مشرف)
الموسوعة العربيّة الميسّرة ، دار الشّعب ومؤسّسة فرانكلين للطّباعة ، القاهرة 1972 م ، مصوّرة عن طبعة 1965 ، ط 2 .

94 ـ فريــد : محمّـد
تاريخ الدولة العثمانيّة ، دار الجيل ، بيروت 1977 م .

95 ـ الفوزان : إبراهيم فوزان
ـ الأدب الحجازي الحديث بين التّقليد والتّجديد ، مكتبة الخانجي ، القاهرة 1981 م ، ط 1 .
ـ إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة ، مطابع الفرزدق التجارية ، الملز 1981 م .

96 ـ فوق العادة : سموحـي
معجم الدّبلوماسيّة والشّؤون الدّولية ، مكتبة لبنان ، بيروت 1974 .

97 ـ فيـرو : شـارل
الحوليّات اللّيبية ، ترجمة : محمد عبد الكريم الوافي ، المنشأة العامّة للنّشر ، طرابلس 1983 م ، ط 2 .

98 ـ فينسنت : م . لابيسي
نظريّة الأنواع الأدبيّة ، ترجمة : حسن عون ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1978 م ، ط 3 .

99 ـ القـروي : إسماعيل
الغزو الثّقافي الإيطالي لليبيا ، رسالة ماجستير 1984 م .

100 ـ القلقشندي : أبو العبّاس أحمد بن علي
صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، المؤسّسة المصريّة العامّة للتّأليف والتّرجمة ، نسخة مصوّرة عن الطّبعة الأميريّة ، القاهرة 1920 م .

101 ـ كاياناس : جان لوي
النّقد الأدبي والعلوم الإنسانيّة ، ترجمة : فهد عكّام ، دار الفكر ، دمشق 1982م ، طـ1 .

102 ـ الكتبي : محمد بن شاكر
فوات الوفيات ، تحقيق : إحسان عبّاس ، دار الثّقافة ، بيروت 1974 م .

103 ـ كريسون : أندريــه
مونتاني ، حياته ، فلسفته ، منتخبات ، ترجمة : نبيه صقر ، منشورات عويدات ، بيروت وباريس ، 1977 م ، طـ2 .

104 ـ كنّـون : عبد اللّـه
أحاديث عن الأدب المغربي الحديث ، دار الرّائد للطّباعة ، القاهرة 1964 م .

105 ـ الكواكبـي : عبد الرّحمن
الأعمال الكاملة للكواكبي ، تحقيق : محمد عمارة ، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر ، بيروت ، 1975 م ، طـ1 .

106 ـ كـورو : فرانشيسكو
ليبيا في العهد العثماني الثّاني ، ترجمة : خليفة التّليسي ، دار الفرجاني ، طرابلس 1971 م .

107 ـ لانـدو : روم
تاريخ المغرب في القرن العشرين ، ترجمة : نقولا زيادة ، دار الثّقافة ، بيروت ، 1963 م .

108 ـ لـوبـون : جوستـاف
حضـارة العرب ، تـرجمة : عـادل زعيتر ، مـطبعة عيسى الحلبي ، القاهرة 1969 م .

109 ـ لوقـا : إسكندر
الحركة الأدبيّة في دمشق ، مطابع ألف باء الأديب ، دمشق 1976 م .

110 ـ ليفيـن : ز. ل
الفكـر الاجتماعي والسّياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر ، ترجمة : بشير السّباعي ، دار ابن خلدون ، بيروت 1978 م ، طـ 1 .

111 ـ ماجيـري : فرانشيسكو
الحـرب اللّيبية ، تـرجمة : وهبي البـوري ، الدّار العـربيّة للكتاب ، ليبيا ـ تونس ، 1978 م .

112 ـ مبارك : زكـي
النّثر الفنّي في القرن الرّابع ، دار الجيل ، بيروت 1975 م .

113 ـ آل مبـارك : عبد اللّـه
أدب النّثر المعاصر في شرقي الجزيرة العربيّة ، مطبعة القاهرة ، القاهرة 1970 م .

114 ـ مجمع اللّغة العربيّة القاهرة : جماعة
: المعجم الوسيط ، دار المعارف ، مصر 1972 م ، طـ 2 .

115 ـ محمّـد : محمّد عوض
محاضرات عن فنّ المقالة الأدبيّة ، مطبعة لجنة التأليف والتّرجمة ، القاهرة 1959 م .

116 ـ محمـود : زكي نجيب
ـ جنّة العبيط ، دار الشّروق ، القاهرة وبيروت 1982 م ، طـ 2 .
ـ زكي نجيب ، وأحمد أمين (مشـارك) قصّة الأدب في العالم ، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة القاهرة 1954 م .

117 ـ المـرادي : الحسن بن قاسم
الجنى الدّاني في حروف المعاني ، تحقيق : فخر الدّين قباوة

ومحمد نديم فاضل ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت 1983 م ، ط 2 .

118 ـ المرادي : سالم بشير
فن المقالة في الصّحافة اللّيبية ، رسالة ماجستير 1983 م .

115 ـ المرّاكشي : ابن عذارى
البيان المغرب في أخبار المغرب ، مكتبة صادر بيروت ، 1950 .

120 ـ مروّة : أديب
الصّحافة العربيّة ، دار مكتبة الحياة ، بيروت 1961 م ، ط 1 .

121 ـ المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسن بن علي
مروج الذّهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس ، بيروت 1981 م ، ط 4 .

122 ـ المصراتي : علي مصطفى
ـ أعلام من طرابلس ، دار مكتبة الفكر ، طرابلس ، 1972 م ط 2 .
ـ صحافة ليبية في نصف قرن ، مطابع دار الكشاف ، بيروت 1960 م ط 1 .
ـ غومة فارس الصّحراء ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس 1960 م ط 1 .
ـ كفاح صحفي ، مطابع دار الغندور ، بيروت ، بدون تاريخ .
ـ مؤرخون من ليبيا ، المطبعة السّريعة ، طرابلس 1977 م .

123 ـ مصطفى : أحمد عبد الرّحيم
في أصول التّاريخ العثماني ، دار الشّروق ، بيروت القاهرة ، 1982 م ، ط 1 .

124 ـ المعلوف : لويس
المنجد في اللّغة والأعلام ، دار المشرق ، بيروت 1969 م ، ط 20 .

125 ـ المقالـح : عبد العزيز
الأبعاد الموضوعيّة والفنّية لحركة الشّعر المعاصر في اليمن ، دار العودة ، بيروت 1964 م .

126 ـ منـدور : محمّد
الأدب وفنونه ، دار النّهضة ، القاهرة ، بدون تاريخ ط 2 .

127 ـ ابن منظور : محمد بن مكرم الأنصاري
لسان العرب ، الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة ، طبعة مصوّرة عن طبعة بولاق ، القاهرة ، بدون تاريخ .

128 ـ مـوري : ايتليو
الرّحالة والكشف الجغرافي في ليبيا ، ترجمة : خليفة التلّيسي ، المنشأة العامّة للنّشر والتّوزيع ، طرابلس 1984 م ، ط 2 .

129 ـ الميداني : أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري
مجمع الأمثال ، دار مكتبة الحياة ، بيرت 1961 م .

130 ـ النّائب : أحمد
المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة 1961 م ، ط 1 .

131 ـ ناجـي : محمد ، ومحمد نوري (مشارك)
طرابلس الغرب ، ترجمة : أكمل الدّين محمد إحسان ، دار مكتبة الفكر ، طرابلس 1973 م .

132 ـ نجـم : محمد يوسف
فنّ المقالة ، دار الثّقافة ، بيروت ، بدون تاريخ ، ط 4 .

133 ـ النّديم :
الفهرست، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، بدون تاريخ .

134 ـ نـوّار : عبد العزيز سليمان
تاريخ العراق الحديث ، دار الكتاب العربي للطّباعة والنّشر ، القاهرة 1968 م .

135 ـ هـــلال : محمد غنيمي
في النّقد التّطبيقي والمقارن ، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر ، القاهرة ، بدون تاريخ .

136 ـ الهمذاني : بديع الزّمان
رسائل بديع الزّمان الهمذاني ، مطبعة أمين هندية مصر 1928 م .

137 ـ الوافـــي : محمّد عبد الكريم
الطّريق إلى لوزان ، دار الفرجاني ، طرابلس 1977 م ط ـ 1 .

138 ـ وهبة : مجـــدي
معجم مصطلحات الأدب ، مكتبة لبنان ، بيروت 1974 م .

139 ـ اليازجـــي : إبراهيم
لغة الجرائد ، مطبعة التّقدم ، مصر ، بدون تاريخ .

140 ـ ياغـــي : عبد الرّحمن
حياة الأدب الفلسطيني الحديث ، المكتب التّجاري للطّباعة والنّشر ، بيروت 1968 م .

الدّوريّـات

1 ـ طرابلس الغرب — جميع الأعداد

2 ـ الترقّي — جميع الأعداد

3 ـ الفنون — جميع الأعداد

4 ـ الكشّاف — جميع الأعداد

5 ـ العصر الجديد — جميع الأعداد

6 ـ أبو قشّة — جميع الأعداد

7 ـ المرصاد — جميع الأعداد

8 ـ الرّقيب — جميع الأعداد

9 ـ بريد برقة ، العدد 87 في 1926/3/27 م .

10 ـ الرّقيب العتيد ، العدد 797 في 2 صفر 1355 هـ / 1936 م .

11 ـ الرّقيب العتيد ، العدد 800 في 16 صفر 1355 هـ / 1936 م .

12 ـ ليبيا المصوّرة ، السّنة الأولى ، العدد 5 ، 1936 م .

13 ـ ليبيا المصوّرة ، السّنة الأولى ، العدد 6 ، 1936 م .

14 ـ ليبيا المصوّرة ، السّنة الثّانية ، العدد 9 ، 1937 م .

15 ـ ليبيا المصوّرة ، السّنة الثّالثة ، العدد 3 ، 1937 م .

16 ـ الأديب ، عدد مايو ، 1945 م .

17 ـ العربي ، العدد 282 ، مايو 1982 م .

18 ـ العربي ، العدد 316 ، مارس 1985 م .

19 ـ العربي ، العدد 329 ، ابريل 1986 م .

20 ـ WORLD HEALTH (MAGAZIN) AUGUST – SEPTEMBER 1987 .

BIBLIOGRAPHY

1 . BATESON , F.W. ed CAMBRIDGE BIBLIOGRAPHY OF ENGLISH LITERATURE . VOL . 11 . CAMBRIDGE : CAMBRIDGE UNIVERSITY : PRESS 1940 .

2 . DAICHES , DAVID , ed. THE PENGUIN COMPANION TO ENGLISH LITERATURE . LONDON : PENGUIN BOOKS LTD . , 1971 .

3 . ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA , 1960 ed . S.V. «ESSAY ESSAYIST» .

4 . LONGMAN'S ENGLISH LAROUSSE , 1968 ed . , S.V. «ESSAY» .

5 . LAYAS , MOHAMMED M . «AL HAMZ» . /THE GLOTTAL STOP/ . M.A. THESIS , INDIANA UNIVERSITY , 1982 .

6 . MAKDISI , GEORGE . ed , ARABIC AND ISLAMIC STUDIES IN HONOR OF HAMILTON A.R. GIBB . LEIDEN : E.J. BRILL , 1965 .

7 . THE NEW COLUMBIA ENCYCLOPEDIA , 1975 ed . S.V. «ESSAY» .

المقالة في ليبيا ـ نشأتها وتطورها
خلال العهد العثماني الثاني
من 1866 إلى 1911 م
«دراسة فنية ، تحليلية ، نقدية»

الفصل الأول

فن المقالة

الفصل الثاني

ظروف نشأة المقالة في ليبيا

الفصل الثّالث

ألوان المقالة في ليبيا وموضوعاتها

الفصل الرّابع

روّاد المقالة في ليبيا

الفصل الخامس

القيمة الفنيّة للمقالة

الملاحق